

المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الرابع عشر

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الرابع عشر

١٩٨٠

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

محتويات العدد الرابع عشر المجلة

اللجنة الاستشارية

مقـــدّمة

بكل فخر واعتزاز يسعدنا ان نقدم للقارىء الكريم العـدد الرابـع عشر من مجلته العلمية ـ المؤرخ العربي ـ وهي صورة حيـة للفكر التاريخي العربي ورمزا لوحدة المؤرخين العرب والتي أصبحت محط عناية الاوساط الثقافية في الوطن العربي والعالم أجمع ومنتدى علميـا نشيطا لكافة المثقفين العرب •

ان هذه المجلة والتي يسهم في اعدادها وتحريرها نخبة من المؤرخين والباحثين العرب ذوي سمعة علمية في ميادين تخصصهم تعطي الدليل على التزام اتحاد المؤرخين العرب بخطه الواضح الهادف وتفاعله مـع المؤرخين تفاعلا ثقافيا لتحقيق أهدافهم العلمية النبيلة •

تحية وفـاء وتقدير الى الجهود المخلصة التـي يبذلها المؤرخون والباحثون العرب في اخراج مجلتهم في اطارها الفكري السامي وتضافر اقلامهم المبدعة لابرازها في سمتها الاكاديمية العالية لتحقيق كامل اهدافنا من اجل الحفاظ على تراثنا وكتابة تاريخ امتنا بالقلم النزيه وبالـروح الصادقة وبالصفة العلمية •

والله ولي التوفيق

الدكتور حسين امين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



تبادل التأثيرات الحضارية بين مصر والعراق في العصور الإسلامية

الدكتور حسين أمين
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

شهدت الانسانية بزوغ شمس الحضارة العربية في العصور الاسلامية عامة وفي العصر العباسي بخاصة ، تلك الحضارة التي شملت مجالات واسعة في ميادين الثقافة والعلوم والفنون والاجتماع وحيث سادت بين الحواضر العربية علاقات نابعة من الروابط الاصيلة الاجتماعية والدينية والسياسية ، تزيد في تلك العلاقات القوة والضعف عوامل وظروف تاريخية مختلفة ، وكانت لتلك العلاقات نتائج ذات اثر واضح في تطور مختلف مظاهر الحياة العربية الاسلامية بوجه خاص والتقدم الانساني بوجه عام ولعل من ابرز واوضح تلك الصلات والعلاقات الثقافية التي قامت وبرزت بين القطرين العربيين الاسلاميين الخالدين العراق ومصر •

من المعروف تاريخيا ان العراق ومصر فتحا زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ص) وحيث شيدت البصرة والكوفة والفسطاط تلك الامصار العربية الاسلامية الخالدةوالتي لعبت دورا مهمافيتاريخ الثقافة والسياسة

والاجتماع في العصور الاسلامية وكان لها دورها البارز في أبرز العلاقات وتبادل التأثيرات التاريخية بين القطرين الاسلاميين، وكـان ما يطرأ من وضع سياسي في الكوفة كانت اصداؤه المؤثرات واضحة في الفسطاط وما تبرز من فكرة علمية في مسجد البصرة كانت اجـراء مناقشاتها ومناظراتها قائمة في مسجد الفسطاط •

في السنوات الاولى من قيام الدولة العباسية بدأ بانشـاء بغداد سنة ١٤٥ هـ ٧٦٣ م وكمل بناؤها سنة ١٤٩ هـ واصبحت من اشهر عواصم الدنيا وابهاها في القرون الوسطى وانتشرت في ارجائها المساجد العامرة والمدارس الكبيرة والقصور المنيفة والحدائق الغناء وصارت كعبة القصاد من رواد العلم والادب والفن ، وظلت كذلك حاملة مشعل حضارة العرب والمسلمين ما يزيد على القرنين من الزمان ، الى ان شيد القائد المظفر جوهر الصقلي المدينة المعزية ـ عاصمة الفاطميين والتي سميت فيما بعد بالقاهرة واخذت في النمو مبلغا كبيرا وفي الاتساع حدا شاسعا وتسامت فيها المباني وانتشرت في ارجائهـا المساجد المباركـة ودور العلم المشهـورة والرياض ـ والبساتين والدور والقصور ، كما اصبحت مطمع انظـار الادباء والعلماء وحملت هي الاخرى مشعلا للعلم ظل منيرا يهتدي اليه كل طالب للعلم والادب •

وشهدت القرون الوسطى علاقات وثيقة بين بغداد عاصمة العباسيين والقاهرة المعزية عاصمة الفاطميين ، وكان من ابرز مظاهر تلك العلاقات ما ساد من روابط ثقافية بين هاتين المدينتين الخالدتين المجيدتين ، وهنـا في بحثي هذا ارجو ان اوفق الى تحقيق ما يجيش في صدري فأصـل الى الحقائق التاريخية التي تساعدني على ابراز عوامل تلك العـلاقات الثقافية واهم نتائجها التاريخية ان المتتبع لتاريخ المركزيـن الحضاريين

الاصيلين ، وادي النيل ووادي الرافدين يجد هنالك في قديم الزمان علاقات سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية سحيقة في القدم ، وقد تبادل هذان المركزان عوامل الحضارة اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ، واستمرت تلك العلاقات في مسيرة هذين القطرين التاريخية تؤثر فيها العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فتزويدهما جذبا وطردا من حيث شدة فعل تلك العوامل وضعفها ، وبذلك خضعت تلك الصلات بمجموعها الى الظروف ودرجة فعالياتها ، ومن الجدير بالقول هنا ان التأثيرات الحضارية عموما والثقافية بشكل خاص كانت على قوتها وشدتها في طوارىء الوركاء وجهدة نصر ، حيث برزت التأثيرات الحضارية العراقية في العمارة المصرية القديمة كما انتشرت الاختام الاسطوانية التي استعملها القدامى وارجع ان تلك التأثيرات انتقلت بواسطة التجارة. وبالطبع فان الشعبين العريقين تبادلا التأثيرات الحضارية في العصور القديمه وكانا من اكبر العوامل في نشر مظاهر الحضارة الانسانية في تلك العهود .

الا ان اوضح ماتم من العلاقات بين الشعبين العراقي والمصري هي تلك التي قامت في العصور الاسلامية ، والتي تميزت بالفتوح العربية الاسلامية وبوحدة العقيدة والفكر ولا غرور فان العقيدة والفكر ، من اسس التكوين الثقافي لاي امة من الامم وركيزة التربية القومية لاي شعب من الشعوب ، والنهضة العربية الاسلامية التي انبثقت من جزيرة العرب بزعامة سيدنا محمد (ص) والتي بشرت بتحرير الانسان العربي من براثن الذل والعبودية اعتمدت قاعدة لتوحيد التفكير الانساني على اساس وحدة الدين والعدالة الاجتماعية ، وبفتح العراق ومصر واضواء كل منهما تحت راية الاسلام ومعنى ذلك وحدة الفكر الانساني المنبعثة

من روح الدعوة السامية وقد سادت هاتين المنطقتين العربيتين وانتشرت فيهما مظاهر الاسلام ، ففي العراق شيد المسلمون مسجد الكوفة الخالد وفي مصر مسجد ــ الفسطاط المجيد ، وقد تنقل الصحابة والتابعون الكرام بين الكوفة والفسطاط وهم في تلك التنقلات يحملون معهم أفكار مصر الاسلامية الى العراق العربي الاسلامي فانتقل الولاة والقضاة والقادة والتجاربين هذين القطرين العربيين ومعهم عوامل الثقافة العربية الاسلامية .

ولعل ابرز مثل لهذه الرحلات الثقافية رحلة الامام الشافعي الى المدينة الخالدة بغداد سنة ١٩٥ حيث اقام بها سنتين وخرج الى مكة ثم عاد الى بغداد سنة ١٩٨ حيث اقام بها شهرا ، ثم خرج الى مصر حيث توفي سنة ٢٠٤ هـ . وفي هذه الفترة التي تعتبر من اروع فترات الحضارة الاسلامية حيث اتسعت ميادينها وازدهرت فروعها ونضجت الفنون والاداب والعلوم ، وتحققت للثقافة الانسانية أسمى ما تصبو اليه النفوس ، فقامت بين المدينتين الخالدتين القاهرة وبغداد علاقات ثقافية رائعة .

ولعل من ابرز العلاقات الثقافية التي سادت بين بغداد ومصر انتقال التأثير الجامع العراقي الى مصر ، واوضح الشواهد لذلك التاثير الجامع الطولوني ، والذي شيده احمد بن طولون المولود ببغداد سنة ٢٢٠ هـ . وترعرع في سامراء وكان والده من المقربين الى الخليفة العباسي المتوكل المقتول سنة ٣٤٧ هـ . وفي سنة ٢٥٢ تولى ابن طولون امر مصر ، ولما كان ابن طولون قد نشأ في سامراء وعاصر جامعها الكبير ذا المأذنة الملوية « الحلزونية » فنقل هذا الطراز من البناء الى مصر وقد لعب هذا المسجد دوره العظيم في بعث وتطوير الثقافة الاسلامية ولم يقتصر هذا

الجامع على تدريس العلوم الدينية واللغوية « بل ان القراءات والطب والميقات قد ورست فيه [١] .

وانتقل الى مصر من بغداد في هذه الفترة عدد كبير من العلماء ومن اشهرهم العالم المفسر والمؤرخ والفقيه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري والفقيه الشافعي الكبير وامام عصره في الفتوى والتدريس ، ابو اسحق ابراهيم المروزي وقد صنف كتبا عديدة وبقي في بغداد مدة يدرس ويفتي ، ثم ارتحل الى مصر فأدركه آجله بها فتوفي سنة اربعين وثلثمائة [٢] ، وكذلك رحل الى مصر من بغداد ابو الحسن محمد بن علي الماسرجسي الشافعي ، وكان من اعرف علماء الشافعية في اصول المذهب في خراسان وسمع بمصر من اصحاب المزني ويونس بن عبد الاعلى ثم عاد بعد مدة الى بغداد وتوفي سنة ٣٨٤ هـ [٣] .

وفي سنة ٣٥٨ هـ شيدت مدينة القاهرة الخالدة فجاءت غاية في الحسن وهي اعظم من ان توصف وشهرتها تغني عن وصفها ، واسمها الخالد جدير حقا بما اقترن بها من عزة وقوة ومنعة ، وانتشرت في هذه المدينة المساجد العامرة ودور العلم الكبيرة والمدارس الكثيرة ، واصبحت كعبة القصاد ومحط انظار العلماء وطلاب العلم ومهبط التجار واصحاب الحرف والفنون . ومع التطور العظيم الذي أصابته مدينة بغداد والازدهار الكبير الذي بلغته مدينة القاهرة المعزية نمت وازدهرت علاقات وثيقة بين هاتين الحاضرتين الاسلاميتين ، كانت سداها الثقافة العربية الاسلامية

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٨ .
(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ٤ .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٤٠ .

ولحمتها الاداب والعلوم والفنون الانسانية الخلاقة المبدعة .

وكانت بغداد والقاهرة في القرون الوسطى مركزين عظيمين للاداب والعلوم والفنون وموئل العلماء والادباء والافذاذ ، فقد تجمعت في بغداد ثقافه الشرق بأصالتها وعمقها وتنوع موضوعاتها واحتضنت القاهرة ثقافة الأسلام مع مزاج من الثقافة العربية من التراث اليوناني والروماني، المعروف بسعه ميادينه في صنوف العلم والمعرفة ، فسار طلبة العلم مشرقين ومغربين بين القاهرة وبغداد وانتقلت كتب ورسائل علماء كل من المدينتين الى الاخرى وذاع صيت مشاهير اولئك ، فرحل اليهم من اراد الأستزادة في العلم والاحاطة باداب وعلوم وفنون جديدة ، ويجدر بنا ان نورد هنا بعض الشواهد على تنقل علماء المسلمين بين هاتين المدينتين لنتعرف على مدى اهتمام اولئك الافذاذ بزيارتهما والارتشاف من مناهل علومهما وآدابهما . فعالم محمد بن الحسن المعروف بابن الهيثم من اهل البصرة ومن المشهورين بعلم الهندسة قد زار مصر ايام الخليفة الفاطمي الحاكم وكانت تجول في ذهنة فكرة اقامة سد على النيل يعمل على السيطرة في ايام فيضانة والافادة من الارواء والسفن . والعالم ابو عبد الله محمد بن ابي نصر الازدي الحميدي الاندلسي ، واصله من ريض الرصافة ، رحل الى المشرق سنة ثمان واربعين واربعمائة ، وسمع بمصر والشام والعراق واستوطن بغداد وقد الف كتابه المشهور (جذوة المقتبس) في تاريخ علماء الاندلس ومات في بغداد سنة ٤٨٨ هـ [1] .

وظهر في الاندلس عالم كبير هو ابو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي الاشبيلي مر بالقاهرة ولقي جماعة من المحدثين ، ودخل

---

(١) ابن خلكان : جـ ٣ ص ٤١٠ .

بغداد وسمع بها من جماعة ولقي ابا بكر الشاشي وابا حامد الغزالـي وغيرهما من العلماء ثم عاد الى مصر ومن هناك انتقل الى اشبيلية وتوفي سنة ٥٤٣ هـ .[١]

وقدم من واران وهي من قرى تبريز ابو الخير مظفر بن ابي الخير اسماعيل بن علي الملقب بالامير [٢] ، الى بغداد وتفقه بها على الامـام ابي القاسم بن فضلان وغيره من العلماء حتى حصل طرفا من المذهب والخلاف والاصول وتكلم في المسائل وتولى الاعادة بالمدرسة النظامية مدة ، ثم خرج من بغداد مسافرا الى الديار المصرية فاقام بها مدة وتولى التدريس بها بالمدرسة الناصرية والمعروفة ايضا مدرسة ابن زين التجار ، ويضيف ابن الصابوني في كتابه تكملة اكمال الاكمال ان اهلها اي مصر استفادوا منه واخذوا عنه ، وتوفي بشيراز سنة ٦٢١ هـ .

وانتقل الشيخ ابو عبد الله محمد بن محمد بن علي النوقاني ، من مدينة طوس الى تبريز وسمع بها من ابي منصور محمد بن اسعد حفدة العطاري الطوسي ، ورحل الى بغداد وسمع بها من فخر النساء شهـدة بنت ابي نصر الابري وابي المعالي عبد المنعم بن عبد الله الغراوي وابـي القاسم عبد الرحيم بن اسماعيل النيسابوري الصوفي [٣] وغيرهم مـن علماء بغداد وقدم مصر وسكن بالقرافة بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ وحدث بها وتوفي سنة سبع وثلاثين وستمائة بمنزله بالمدرسة المذكورة ، ودفن بالقرافة .

---

(١) ابن خلكان : جـ ٣ ص ٤٢٣ .

(٢) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص ٥٣ .

(٣) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص ٣٥٣ .

وكان ابو الحسن علي بن ابي الحسين ، المعروف بابن القصار اللغوي من الادباء المشاهير قرأ الادب على الشريف ابي السعادات ابن الشجري وابو منصور بن الجواليقي وقد برع فنه واقرأ الناس زمانا ، ورحل الى مصر واجتمع بابي محمد بن برى والموفق بن الحلال كاتب الانشاء ، ويذكر ابن خلكان : انه كان عارفا بديوان ابي الطيب المتنبي علما ورواية وقراءة عليه جمع كثير في العراق والشام ومصر وكتب بخطه الكثير من كتب الادب وشعر العرب ، وتوفي ببغداد سنة ست وسبعين وخمسمائة ودفن بمقابر الشونيزي [1] .

والتبريزي ، ابو زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب ، كان من كبار علماء الادب ، قرأ على ابي العلاء المعري وابي القاسم عبد الله بن علي الرقي ، وابي محمد الدهان اللغوي وغيرهم من أهل الادب ، وروي عنه الخطيب البغدادي وابو منصور بن الجواليقي وغيرهما من العلماء ، وقد شغل هذا العالم الاديب كرسي موضوع الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد ، وكان التبريزي الخطيب قد زار مصر في عنفوان شبابه فقرأ عليه بها الشيخ ابوالحسن طاهر بن بابشاذ النحوي وغيره من علماء النحو. وتوفي التبريزي سنة اثنين وخمسمائة ببغداد [2] .

ويمثل ابو اسحق ابراهيم بن منصور ، الفقيه الشافعي المصري المعروف بالعراقي ، وضوح العلاقات الثقافية بين القاهرة وبغداد بشكل بين وجلي ، فقد ولد هذا العالم في مصر وتفقه على القاضي ابن المعالي

---

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ٢٥ .

(٢) ابـن خلكان ج ٢ ص ٣٣٣ ، ياقوت : ارشاد الاديب ج ٧ ص ٢٨٦ .

مجلي بن جميع الارسوقي المصري الشافعي وكان هذا من اعيان الفقهاء وصنف في الفقه كتاب « الذخائر » ، وانتقل ابو اسحق الى بغـداد واشتغل بها مدة فنسب اليها وقرأ بها الفقه علي ابي بكر محمد بن الحسين الاموي وكان من اصحاب الشيخ ابي اسحق الشيرازي ، وعلي ابـي الحسن محمد بن المبارك بن الخل البغدادي وكان يعرف ببغداد بالمصري فلما رجع الى مصر قيل له العراقي . وتوفي سنة ست وتسعون وخمسمائة ودفن بسفح المقطم [1] .

وفي سنة ٦٣٠ هـ شيد الخليفة العباسي المستنصر بالله المدرسة التي عرفت بالمدرسة المستنصرية والتي كانت من اوسع المدارس الاسلاميـة في القرون الوسطى وابهاها وانظمها [2] ، وجعلها للمذاهب الاربعة ، وروعي في اختيار المدرسين ان يكونوا من المشايخ الفضلاء والمتبحرين في اصول الدين والمذهب وتعذر على المسؤولين وقتذاك العثور عـلى مدرس يشغل كرسي المذهب المالكي فوقع الاختيار على الشيخ سراج الدين عبد الله بن الشرمساحي المالكي ، وكان هذا العالم قد نشأ فـي الاسكندرية وكان من ائمة المالكية وله تصانيف في الفقه والنظر والخلاف ووصل بغداد فاكرمه الخليفة المستنصرية وولاه تدريس المستنصرية [3].

ونشأت علاقات ثقافية بين القاهرة وبغداد ، وكانت المستنصريـة والنظامية اللتان انشئتا في بغداد سنة ٤٥٩ تشغلان معظم تلك الروابط العلمية والادبية ، فقد رحل من مصر الى بغداد عدد كبير من طلبة العلم

---

(١) ابن خلكان : جـ ١ ص ٥ ، شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٣ .
(٢) راجع كتاب المستنصرية : الدكتور حسين امين .
(٣) حسن المحاضرة : جـ ١ ص ١٩٤ .

وشيوخه للحصول على ثقافات جديدة او للاشتغال في مدارس بغداد الشهيرة فالفقيه عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ، الذي تفقه في بلده دمياط وانتقل الى القاهرة واجتمع بالحافظ ابي محمد عبد العظيم المنذري وجالسه سنين طويلة واخذ عنه علم الحديث وكتب عنه جماعة كثيرة واقبل على هذه الصناعة وارتحل الى بغداد [1] وقد سمع الحديث من ابي الهدينة [2] .

وممن تفقه في مدارس بغداد صقة بن ابي الكرم اليعقوبي وقدم الى مصر وولى القضاء باعمال الاشعونين ثم رجع الى بغداد واعاد بالنظامية وولى قضاء يعقوبا .

واشهر من تفقه في مدارس بغداد ، بن شداد ابو المحاسن يوسف ابن رافع ، والذي اقام معيداً بالمدرسة النظامية ببغداد اربع سنين ، ومن اشهر كتبه « ملجأ الحكام عند التباس الاحكام » واتصل بن شداد بالسلطان صلاح الدين الايوبي وصار من معتمديه ورجال دولته الاكفاء. كذلك العالم ابو عبد الله محمد بن صفي الدين ابو الفرج المعروف بالعماد الاصفهاني ، وتفقه ببغداد بالمدرسة النظامية وهو الاخر من الذين وثق بهم السلطان صلاح الدين الايوبي ، واعتمد عليهم واصبح من جملة الصدور المعدودين يضاهي الوزراء [1] ومن اشهر تصانيفه كتاب فريدة القصر وكتاب البرق الشامي وكتاب الفيح القسي في الفتح

---

(١) السلامي / بغداد ص ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن خلكان : ج ٦ ص ٨٤ .

القدسي وتوفي العماد الاصفهاني في رمضان سنة ٥٩٧ هـ [١] . وتفقه بنظامية بغداد ، عبد السلام بن علي بن منصور الدمياطي المعروف بابن الخراط ولد بدمياط وتوجه الى بغداد ، فتفقه على الربيع الواسطي مدرس النظامية وتميز في الفقه والخلاف وسمع الحديث ثم رجع بلده واقام بها قاضيا ومدرسا مدة ، ثم ولي قضاء مصر والوجه القبلي وسار فيه سيرا حسنا ، ثم عزل واعيد الى دمياط ومات سنة ٦١٩ هـ [٢] .

ومن المشاهير الذين كان لهم الفضل في حمل التاثيرات الحضارية بين مصر والعراق العالم عبداللطيف البغدادي والمعروف بابن اللباد وبابن نقطة من فلاسفة الاسلام واحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والادب ، مولده ووفاته ببغداد واقام مدة في حلب وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم وفلسطين والحجاز وغيرها من البلدان الاسلامية ومن اشهر كتبه « الافادة والاعتبار بما في مصر من اثار » وتوفي سنة ٦٢٩ هـ . ١٢٣١ م .

وممن تفقه بالمدرسة المستنصرية في بغداد احمد بن عبد الرحمن ابن محمد بن عسكر المالكي القاضي شرف الدين البغدادي الاصل ، وولى القضاء بمدينة دمياط ثم دمشق وولي بالقاهرة ونظر الخزانة [٣] .

ومن الذين تنقلوا بين بغداد والقاهرة عالم جليل ومحقق كبير ، الحافظ المدقق محمد بن محمد محمود الدين البابرتي ، وكان بارعا في

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٦٨ .
(٢) السيوطي / حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩١ .
(٣) السلامي /علماء بغداد ص ٨٩ .

الحديث وعلومه ذا عناية باللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان ، اخذ الفقه عن قوام الدين المالكي عن حسام الدين حسن السغناقي عن حافظ الدين الكبير محمد البخاري ، وله تصانيف عديدة ، منها شرح الهداية وشرح تجديد الطوسي وغيرها من المؤلفات المهمة ، رحل الى حلب وأخذ من علمائها ثم رحل الى القاهرة وأخذ من شمس الدين الاصفهاني وابن حسيان (محمد بن يوسف بن علي بن حيان الاندلسي) ، وعرض عليه القضاء مرارا [1] وقال عنه السيوطي انه علامة المتاخرين وخاتمة المحققين برع وساد ودرس وافاد •

ومن العلماء الذين درسوا في بغداد العالم أمير كاتب العميد ابن امير غازي قوام الدين الاتقاني الفارابي ، وكان مدرسا في مدرسة مشهد ابي حنيفة وقدم مصر فاكرمه الامير صرغتش وبنى له المدرسة الصرغتمشية [2] ودرس فيها اول ما فتحت وكان راسا في مذهب الحنيفة بارعا في الفقه واللغة العربية [3] • وآخر من وصلت لنا أخباره من مدرسي المستنصرية ببغداد ، محب الدين احمد بن نصر الله بن احمد بن محمد بن عمر البغدادي الحنلي ، المعروف بالمحب ، ولد ببغداد سنة ٧٦٥ ودرس على والده جلال الدين ، الفقه والاصول سنة ٧٨٦ وزار بيت المقدس وتوجه الى القاهرة وقطن فيها واخذ عن المشايخ الكبار فيها ، ومنهم زين الدين العراقي وابن الملقن وسراج الدين البلقيني ، وصار فقيه الحنابلة وعالمهم • ثم تولى أبوه تدريس الحديث بمدرسة الملك الظاهر برقوق واخذ يتناوب مع والده في التدريس ثم استقل بذلك

---

(١) طبقات الحنفية : ص ١٩٥ .

(٢) طبقات الحنفية : ص ٥٠ .

(٣) حسن المحاضرة : ج ١ ص ٢٠٠ .

بعد موت والده سنة ٨١٢ ايضا تدريس الحنابلة بالمؤيدية وبالمنصورية ٠

هذه بعض النماذج من صور العلاقات الثقافية بين المدينتين الخالدتين بغداد ومصر على الصعيدين الشعبي والرسمي ، وهناك عدد كبير متوفر في كتب التراجم والتاريخ العام من الشخصيات العربية الاسلامية التي لعبت دورا كبيرا في توطيد العلاقات الحضارية وكانت عاملا مهما في نقل الافكار التعليمية بين بغداد والقاهرة وعملت على ازدهار الثقافة العربية الاسلامية ٠

وتتيجة لتلك العلاقات انتشرت في بغداد والقاهرة اسماء مشاهير العلماء من مصر والعراق كما انتشرت مصنفاتهم وتآليفهم وتبادل اولئك العلماء المجهودات الادبية والعلمية ومنح بعضهم البعض الاجازات العلمية، اعترافا منهم بالجهود العلمية ودليلا ناصعا على دافع العلاقات الثقافية الاصلية ٠

فقد اجيز عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي من العالم الفقيه عبد المؤمن بن خلف الديمياطي [١] وذكر المنذري في ترجمة الصالح بن محمد عبد العزيز بن دلف البغدادي بانه قد حصل منه على اجازة[٢]

وكتب التراجم كذلك متوفر فيها اسماء الكثيرين من العلماء الذين اجيزوا في القاهرة من علماء بغداد وبالعكس ٠ ولعل من ابرز النتائج انتقال المدرسين العراقيين الى القاهرة ورحلة المدرسين المصريين الى بغداد للعمل في مدارسها كمدرسين اوزائرين، وكان لهذا اثر كبير في توحيد

---

(١) تاريخ علماء بغداد ص ١٢٢ ٠
(٢) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ج ٥٥ ص ٢٤٩ ٠

البرامج الثقافية وتعميق الدراسات الادبية والدينية ٠

ان ظهور الحركة المدرسية في المشرق الاسلامي على عهد الوزير نظام الملك السلجوقي عامة وفي العراق خاصة وما تبعها من تطور لتلك الحركة وتوسيع وتنظيم ، كان له الاثر الكبير في انتقال تلك الفكرة الى الاقطار الاسلامية ولاسيما مصر والشام ، ويجد الباحث المدقق ان هناك الكثير من المدارس التي بنيت في القاهرة زمن السلطان صلاح الدين الايوبي، الذي سار على غرار سياسة نظام الملك السلجوقي في نشر المدارس الاسلامية والعمل على تشجيع تشييدها ، وان تلك المدارس التي شيدت في القاهرة كانت هي الاخرى اتجهت وجهة الفكرة العراقية ، فصارت المدارس تشيد لتدريس فقه مذهب من المذاهب ، فالمدرسة الناصرية التي اقيمت بجوار الجامع العتيق بمصر ويذكر المقريزي ، انها عرفت اولا بالمدرسة الناصرية ثم عرفت بابن زين النجار احد اعيان الشافعية درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات في ذي القعدة سنة اخرى وتسعين وخمسمائة للهجرة ثم عرفت بالمدرسة الشريفة وكانت هذه المدرسة برسم الفقهاء الشافعية ، كما شيدت المدرسة القمحية سنة ٥٦٦ هـ وكانت خاصة بالفقهاء المالكية ، كما اوقف السلطان صلاح الدين الايوبي المدرسة السيوفية على الحنفية ٠ وهذا كما نلاحظ تماما كما كان سائدا في بغداد ، فالنظامية في بغداد كانت برسم الفقهاء الشافعية ، ومدرسة ابي حنيفة كان قد اوقفها مؤسسة على الفقهاء الحنفية ومدرسة عبد القادر الجيلي بباب الأزج كانت خاصة لفقهاء الحنابلة ، فلا غرو اذن ان الاتصال السياسي والاقتصادي والثقافي الذي كان يسود المنطقة الاسلامية وعلى الاخص العراق ومصر ، وكان عاملا مهما في نقل الفكرة المدرسية الى القاهرة ٠

وفي سنة ٦٣١ افتتحت المدرسة المستنصرية ببغداد تلك التي شيدها الخليفة بالله العباسي ، وجعلها موقوفة على المذاهب الاربعة ، وصار لكل مذهب من المذاهب السنية ركن خاص وله مدرسوه ومعيدوه وطلبته ، كما درست علوم الطب والادوية في هذه المدرسة العظيمة [١] وفي سنة ٦٤١ هـ شيد الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك الكامل ، مدرسة عرفت بالمدرسة الصالحية ، وكان بها قاعات لكل مذهب من المذاهب السنية ، ويبدو انها انشئت على غرار المستنصرية ببغداد ، والصالحية هي اول مدرسة اقيمت لتدريس المذاهب السنية الاربعة ، يؤيد قولنا هذا ما ذكره المقريزي عن هذا العمل اذ قال : وهو اول من عمل بديار مصر دروسا اربعة في كل مكان [٢] .

ومما لا شك فيه ان المدارس التي نهضت في بغداد وانتشرت انتشارا واسعا كانت تخدم فكرة نشر المذهب السني والعمل على تقويته والدفاع عن اصحابه ، وان انتقال الفكرة المدرسية الى مصر ايام الحكم الفاطمي معناه ، العمل في مصر على اضعاف الدولة الفاطمية الشيعية واسناد المذهب السني،وفعلا عملت المدارس السنية خاصة تلك التي انشأها السلطان صلاح الدين الايوبي ، عملها المؤثر البالغ في اظهار المذاهب السنية وضعف وانزواء المذهب الشيعي الذي كان المتنفذ والسيطر على مصر باسرها ، ولعل هذه من النتائج الكبيرة للعلاقات الثقافية التي كانت سائدة بين القاهرة وبغداد والتي كانت حصيلة نشر المدارس في أرض الكنانة .

---

(١) المستنصرية : للدكتور حسين امين ص ٥٦ .
(٢) المقريزي / الخطط جـ ٤ ص ٢٠٩ .

ان بغداد والقاهرة لعبتا دورا مهما في تاريخ العرب الحضاري في ميادينه الواسعة ولكننا نجد العلاقات الثقافية تبرز بوضوح بين المدينتين العربيتين الخالدتين فاصالة الحضارتين بين الشعبين العراقـي والمصري وارومة العروبة الرابطة بينهما ووحدة الدين الحنيف والمصالح التاريخية المشتركة ، روابط اساسية لقيام تلك العلاقات الحضارية التي برزت بشكل بين العصور الاسلامية ، وكان لها الاثار البعيدة في نشر الاداب والعلوم والفنون ، وتطور الحضارة الانسانية وازدهارها •



دراسة لرحلة برتراندون دي لا بروكيير إلى فلسطين ولبنان وسورية "١٤٣٢م"

الدكتور محمود زايد
أستاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة
الاميركية ببيروت

١ ـ آخر محاولة برغندية للقيام بحرب صليبية ورحلة بروكيير

كان سقوط عكا في أيدي المماليك (١٢٩١) نقطة فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، اذ لم تلبث المراكز الباقية للصليبيين أن تساقطت كاوراق الخريف تحت وطأة الضربات التي وجهها اليها المماليك ، ولاذ من كتبت لهم النجاة بالفرار الى قبرص. وشهد القرن الرابع عشر تطورات في اوربا وفي الشرق الادنى جعلت من قضية استرجاع الاراضي المقدسة حلما باهظ التكاليف عسير التحقيق (١) .

فالروح القومية التي كانت آخذة في النمو في اوروبا خلال ذلك القرن ، وتنافس الدول القومية ، وحروب السنين المئة بين فرنسا وانجلترا،

والموت الاسود ، وانصراف الجمهوريات الايطالية الى تنمية علاقاتها التجارية مع المماليك وما طرأ على تفكير الكتاب من تحول تجاه موقف الغرب النصراني من الشرق الاسلامي مؤداه ان الغرب يجب ان يعمل على تنصير المسلمين بدلا من قتلهم ـ كل هذه التطورات لم تكن تساعد على الحرب في سبيل استعادة الاراضي المقدسة •

وكذلك شهد الشرق الادنى الاسلامي تطورات جعلت من تجدد تلك الحروب في الديار المقدسة والبلدان المجاورة امرا غير عملي ومصيره الفشل في الاغلب • فالسلطنة المملوكة كانت قوية وآخذة في التوسع، وتتمتع بازدهار عظيم • واستطاعت بتوسعها ان تتجاوز ضم سوريا الى الاستيلاء على ارمينيا الصغرى التي كانت تمثل كاخر نصر للكاثوليكية في الشرق • ثم كان هناك الزحف التركي الذي أثار موجة قوية من الخوف والذعر في اوروبا • ويذهب الاستاذ عطية الى أن توسع الاتراك أدى الى تغيير مفهوم الحرب الصليبية • ويجد مبررا لاعتبار معركة نيقوبوليس نهاية فصل وبداية آخر في تاريخ تلك الحروب والدعوة لها اذا أدى زحفهم الى نقل ميدان المعركة بين الشرق والغرب الى اوروبا ذاتها والى تحول الاوروبيين من الهجوم الى الدفاع •

لكن بالرغم من هذا كله فان فكرة القيام بحملات صليبية اخرى ظلت تراود اذهان عدد من ملوك اوروبا وقادتها • فقد كان وقوع عكا قد اثار الكثير من الخوف والغضب في اوروبا • وكانت قبرص قد اعلنت الحداد وحتى بعد سقوط تلك المدينة بقرن لاحظ الرحالة مرتوني (١٣٩٤) ان نساء قبرص يلبسن عباءات لاتكشف شيئا سوى عيونهم «بسبب الأسى والحزن العميق اللذين ولدهما ضياع عكا وغيرها من المدن السورية » [٢] • وتلا سقوط عكا تدفق أدب الدعوة الى حروب أخرى

من اقلام الحجاج والادباء الذين انبروا يحرضون الامراء والبابوات على استرجاع تراث المسيح والقضاء على سلطان المماليك ، ووقف زحف الاتراك . ومن اقدم ماوصلنا من كتب الدعوة هذه بعد سقوط عكا ما كتبه ثاديو النابولي الذي وصف سقوط المدينة ووجه رسالة الى الامم النصرانية لاثارة حماستها ودفعها الى استئناف الحرب الصليبية . وكان بين المحرضين على الحرب ليو السادس الذي فقد مملكته في ارمينية الصغرى (١٣٧٥) وبيير الاول لوزنيان الذي فقد قبرص .

وكان من اشد المتحمسين للحرب الصليبية دوقات برغندية الذين كانوا يحكمون اغنى مقاطعات اوروبا ويتخذون بلاطا اسبغوا عليه من الفخامة والابهة ما اثار دهشة أهل غرب اوروبا وجعلهم يرون فيه نهضة مزدهرة تضاهي النهضة الايطالية [٣] .

وشهد بلاط فيليب الطيب (١٤١٩ ــ ١٤٦٧) آخر محاولة قام بها دوقات برغندية لتجريد حملة صليبية . ففي مستهل القرن الخامس عشر لفتت الهزائم التي الحقها المغول بقيادة تيمورلنك بالاتراك العثمانيين انظار الاوروبيين . اذ اجتاح تيمورلنك آسيا الصغرى وسوريا كالاعصار ناشرا الخراب والدمار اينما حل . وبالرغم من أن هذه الموجة المغولية الطاغية لم تلبث ان انحسرت بسرعة ، فقد بعثت في صدور الاوروبيين الامل في صد الخطر التركي ، وحفزت بعض قادتهم على التفكير بتجريد حملة صليبية .

وكان من اعظم المتحمسين لهذا المشروع هنري الخامس ملك انجلترا ، وفليب الطيب دوق برغندية . وكانت لديهما حوافز متشابهة . كان كلاهما طموحا يسعى الى تحقيق ما يعجز غيرهما عن تحقيقة . وكان والد هنري

الخامس قد سقط في الميدان وهو يحارب من اجل الصليب ووقع والد فليب اسيرا في يد الاتراك خلال معركة نيقو بوليس ، فصار فليب ينظر الى تلك المعركة لا على انها اذلال لسيجسمند صاحب المجر فحسب ، بل لبرغندية ايضا ٠

ومن اجل التمهيد للقيام بحرب صليبية ، أوفد هنري الخامس وفليب الطيب جلبرت دى لانوي الى الشرق الادنى لزيارة مصر وسوريا، وذلك في عام ١٤٢١ ٠ وكان جلبرت حاجبا عند الدوق فليب ٠ وحالف التوفيق هنري وفليب في اختياره ٠ اذ كان قد قام بالحج الى القدس وسيناء ٠ اما في هذه المرة فقد سافر بوصفه سفيرا ٠ وعرج على بروسيا وبولندا وروسيا ووزع عددا من الهدايا الثمينة التي ارسلها هنري الخامس معه ٠

واشتمل تقرير لانوي على معلومات ذات اهمية عسكرية كبيرة، ضمنها وصفا للموانيء تطرق فيه الى صلاحيتها لاستقبال السفن ووصف الاسوار والقلاع وقوة المماليك ٠ على ان هنري الخامس توفي قبل عودة لانوي ٠ ولم يعكر صفو ساعاته الاخيرة سوى فشله في تحرير الاراضي المقدسة٠ فحمل عبء التفكير في الحرب المقدسة فليب الطيب الذي كان يطمح الى النجاح في ميدان فشل فيه غيره ٠

ووقع اختيار فليب على فارس من دوقية جيين اسمه برتراندون دي لا بروكيية للقيام بهذه المهمة (٤) ٠ ويظهر اسم هذا الفارس لاول مرة في سجلات الدوقات البرغنديين عام ١٤٢١ ، وهو يحمل لقب المشرف على السماط السلطاني الذي يقابل لقب « خوان سلار » عند المماليك ٠ وفي السنوات التالية كلفه فليب الطيب بالقيام بمهمات سرية في بلاطات

الامراء والملوك الاوربيين كافأه الدوق عليها بمنحه قصر فيوـــشاتو .

اوضح برتراندون الغرض من رحلته في مستهل ما دونه عن رحلته التي بداها عام ١٤٣٢ م بقوله (٥) :

«حفزا لهم النبلاء الدين يرغبون في الاسفار ، واجابه لأمر سيدي المعظم القدير المرهوب الجانب فليب الذي هو ، بنعمة الله ، دوق برغندية وبزابانت ولمبور ولوتييه ، وكونت الفلاندرز وأرتوا وبرغندية ، وسيـــد هينو وهولندا وزيلند ونامور ، ومركيز الامبراطورية المقدسة ، وصاحب سالين ومالين ،

« أنا برتراندون دي لابروكييه ، المولود في دوقية جيين ، وسيـــد فيوشاتو ، ومستشار دوق برغندية المعظم ، والمشرف على سماطه (خوان سلار)، قد دونت تلك الرحلة المتواضعة التي قمت بها ، طبقا لما اسعفتني به الداكرة ، وما كنت قد سجلته بسرعة على شكل مذكرات ، حتى اذا رغب ملك او امير مسيحي في ان يفتح القدس ، وان يزحف عليها بـــرا بجيش ضخم ، او حدث بأحد النبلاء الرغبة في الذهاب اليها والعـــودة منها ، كان على معرفة بالبلدان والمدن والاقاليم والمناطق والانهار والجبال والممرات في مختلف الاقطار ، وبأصحاب الامر فيها ، وذلك ابتداء مـــن القدس حتى الوصول الى برغندية » (٦) .

وقام بروكييه بمهمته خير قيام ، وتغلب الجانب العسكري في رحلته على الجانب الديني،وجاءت دراسته للاتراك على جانب كبيرمن الاهمية، فقد عرض لاسرار قوتهم ، وهي طاعتهم التامة للسلطان ، وحسن دربة افراد الجيش واسلحتهم الخفيفة . ويورد بروكييه الشروط التي لا بـــد من توفرها اذا ما اريد توجيه حملة عسكرية الى بلاد الاتراك . فيرى ان الملك الذي يقوم بحملة صليبية يجب الا يهدف الى الكسب الشخصي،

وان يؤمن وجود المال اللازم لهذه الحملة ، وان يتألف جيشه من فرنسيين وانجليز ، وأن يطيع افراد الجيش قائدهم اطاعة تامة •

وفد لقيت رحلة بروكيبه اهتماما كبيرا لدى الدوق فيليب • وحدث في تلك الأثناء ان استغاث الامبراطور البيزنطي به ، وطلب منه المساعدة بواسطة جان تورزلو • فقدم الدوق طلب الامبراطور لبروكيبه لدراسته وتقديم التوصيات اللازمة بشأنه واستجاب بروكيبه لطلب الدوق ، وقدم تقريرا موجزا ضمنه رأيه بشأن مشروع ارسال حملة ضد الاتراك • ولكن آراء بروكيبه في هذا الموضوع جاءت مخيبة لامال الدوق • اذ يظهر ان بروكيبه قد اكد ان غزو تركيا ليس بالامر الهين ، وان استعادة البلاد المقدسة بطريق البر امر غير عملي •

لكن الدوق فيليب لم يرجع عن عزمه • فاوفد الاسقف جان جرمين الى بلاط شارل السابع ملك فرنسا يدعوه للاشتراك في رد خطر الاتراك « فالمنتصر عليهم ياتي في الدرجة الثانية بعد داود وقسطنطين وشارلمان» • الا ان نفوذ الدوق وبلاغة الاسقف لم تستطيعا التأثير على الملك الذي كان أمر تنظيم مملكته يستحوذ عليه ويصرفه عن توجيه اي قسط من نشاطه لغزو الاتراك •

وجاءت اخيرا الضربة التي قضت على تنفيذ القيام باي حرب صليبية جديدة وهي سقوط القسطنطينية في يد الاتراك في ٢٩ ايار ١٤٥٣ • وكانت الصدمة قوية لفيليب الذي اعتبر الحادثة اهانة شخصية له • ولكنه مع هذا لم يفقد الامل مطلقا في القيام بالحرب الصليبية فقام بدعوة فرسان اوروبا الى احتفال اظهر فيليب خلاله استعداده لغزو الاتراك بل وحتى « لمبارزة السلطان اذا رغب في ذلك » ولكن دعوته لم تجد اذنا صاغية • وهكذا انتهت اخر محاولة دوقات برغندية بالفشل •

٢ ـ سير الرحلة

غادر بوكييه بلاط سيده ، الدوق فيليب الطيب دوق برغندية ، في غنت في فبراير (شباط) من سنة ١٤٣٢م وسافر الى روما برا ومن ثم الى البندقية • وفي الثامن من مايو (ايار) ركب السفينة مع عدد من الحجاج الى يافا مارا ببولا وزارا وكورفو ومودون ورودس وقبرص •

ووجد بروكييه يافا خربة ، وسار الى الرملة وكانت غير مسورة • وعرج في طريقه على اللد ثم واصل سيرة الى القدس فوصلها بعد يومين • وبعد ان قام بالزيارات المعتادة ذهب الى الاردن حيث عمد المسيح ، كما زار بيت لحم •

وفي القدس اتصل بروكييه بكبير التراجمة ، ويدعوه نانخاردين (وقد يكون اسمه نصير الدين) ليرتب له زيارة الى دير القديسة كاترينة في سيناء • ولكنه لم يواصل سفره الى مصر • اذ يظهر ان رحلته كانت ستقتصر على البلاد الاسلامية في الشرق الادنى باستثناء مصر • وعليه فان تقرير لانوي جاء أفضل من تقريره وأوسع منه • ويشير بروكييه الى القسوة التي كان يعامل بها الحجاج في غزة • ومر خلال عودته الى القدس بعسقلان • ولم يتمكن من مغادرة القدس قبل التاسع عشر من اغسطس •

وكان في هذه الاثناء ، قد فكر في العودة الى فرنسا بطريق البر على الرغم مما كان سيتعرض له من خطر • ولكنه قام ببعض الزيارات قبل عودته • فغادر القدس الى يافا ثم الى عكا التي لم يكن فيها عندئذ اكثر من ثلاثمئة بيت • وواصل سفره الى بيروت مارا بصور وصيدا • ووجد

ميناء بيروت في حالة حسنة • ثم توجه الى دمشق اهم مدينة في السلطنة بعد القاهرة من حيث اهميتها وغناها فوصلها بعد يومين • ولاحظ في دمشق وجود العديد من التجار النصارى الذين كانوا يلجأون الى خاناتهم عند غروب الشمس ، ولا يعودون الى فتحها الا في اليوم التالي عند شروقها • وغادرها بروكييه الى بيروت وقام بزيارة الناصرة وجبل طابور، ثم عاد الى دمشق حيث التقى بعربي اسود كان قد وصل من القاهرة على جمل في مدة ثمانية ايام فقط •

ولما كان بروكييه قد اعتزم العودة الى اوروبا برا فقد قدم نفسه لرئيس قافلة الحج العائدة من مكة واسمه هويارباراخ (خوجابرق؟) وادعى انه يود زيارة اخ في بروسه • فقبل رئيس القافلة ان يضمه الى مماليكه على ان يلبس مثلهم •

وقبل ان تغادر القافلة دمشق ، قام بروكييه بزيارة دير السيدة صيدنايا حيث شاهد الصورة التي يقطر منها زيت • وتحركت القافلة في ٦ اكتوبر من سنة ١٤٣٢ ، ومرت بحمص • فوجد بروكييه المدينة جميلة محاطة باسوار وخنادق • وفي حماه تعرف بروكييه على تاجر بندقي يدعى لورانت سوارنز • فاحسن هذا وفادته وتجول معه في انحاء المدينة •

ويدخل بروكييه بعد ذلك ارمينية ، وكانت عاصمتها انطاكيا • فوجد اسوارها في حالة جيدة اما بيوتها فلم تكن تزيد عن ثلاثمئة بيت • ويضيف ان صناعة اهلها الرئيسية هي تربية الماشية •

ثم يقطع بروكييه اسيا الصغرى ويصف حياة الاتراك ويعدد صفاتهم• ويقول بانهم قوم مرحون ، ولهذا ينبغي على من يريد ان يعيش بينهم

الا يكون عبوسا ، ثم يشيد بروكييه بكرمهم •

ويواصل بروكييه سفره الى بروسة التي هرع اهلها لاستقبال القافلة • وهناك قام بعض المستقبلين بتقبيل يد بروكييه ظنا منهم بانه احد الحجاج • ويصف بروكييه اهمية بروسة فيقول انها كانت مركزا تجاريا وان فيها مقبرة السلاطين وسوقين كبيرتين •

ويتابع بروكييه رحلته الى القسطنطينية ، ملتقى التجار من امم عديدة اهمها البنادقة ، الذين كان يتولى تنظيم امورهم هناك مشرف خاص وهو امتياز كانوا قد حصلوا عليه منذ زمن طويل • ويحزفي نفس بروكييه انه لم يبق للامبراطور البيزنطي الا ظل من مجده السابق ، وانه يدفع للاتراك جزية تبلغ عشرة آلاف دوكة •

وغادر بروكييه القسطنطينية في ٢٣ يناير (كانون الثاني) من عام ١٤٣٣ الى ادرنة ، فيذكر انها مدينة تجارية مأهولة بالسكان قائمة على نهر ماريزا وتبعد مسيرة ستة ايام من القسطنطينية •

وقد تجول بروكييه في القسم الاوروبي الخاضع للاتراك • وامدنا بمعلومات قيمة عن الجيش التركي • ويغادر بروكييه ادرنة في الثالث عشر من مارس (اذار) من سنة ١٤٣٣ الى مقدونيا ثم الى صوفيا التي رآها احسن مدن بلغاريا عندئذ •

ويعود بروكييه الى بلاط سيده دوق برغندية ويقدم له حصانه ولباسه العربي والقرآن وحياة النبي باللغة اللاتينية •

٣ ـ دراسة للرحلة

أ ـ الرحلة وأدب الرحلات :

يمكن القول ان بروكييه استهل برحلته عام ١٤٣٢ فترة جديدة في أدب الرحلة الى الاماكن المقدسة ، وهي فترة الانتقال من الرحلات الوصفية السائدة في العصور الوسطى الى الرحلات الحديثة • وقد بلغت فترة الانتقال هذه ذروتها برحلتي فيلكس فابري الذي زار الشرق مرتين بين سنتين ١٤٨٠ و ١٤٨٣ (٧) •

كان الحافز الاكبر لزوار الديار المقدسة من الاوروبيين منذ اوائل العصور الوسيطة الىأوائل القرنالرابععشر هو الحافزالدينيلا حافز حب الاستطلاع وزيادة المعرفة بدراسة البلاد دراسة متعددة الجوانب ودراسة عاداتاهلها وحياتهم السياسية والاجتماعية • وعليه فان اهتمامهم كـان يتركز في زيارة الاماكن المقدسة ووصفها ومحاولة تعيين الاماكن ومسارح الاحداث الواردة في التوراة • ولم تكن النظرة النقدية بعد قد تطورت عند الرحالة واستخدمت فيمحاكمة كثير من المفهومات والمعلومات الشائعة•

ومنذ اوائل القرن الرابع عشر نجد عند الرحالة حوافز اخرى للرحلة الى جانب الحافز الديني مثل حب الرحلة ، والمجازفة ، والسعي في سبيل تشجيع التجارة ، والكسب المادي والتبشير • الا ان مدوناتهم لم تخرج من حيث جوهرها عن مدونات من سبقهم •

وجاءت رحلة بروكييه في اوائل القرن الخامس عشر تحمل عـددا

من سمات الرحلات الوصفية الحديثة • اذ يكاد قارىء رحلته ان لا يعرف ان القائم بها هو احد حجاج العصور الوسطى • فهو لا يعير الاماكــن المقدسة ووصفها من الالتفات بقدر ما يعير قافلة الحجاج العائــدة من مكة • وعلى الرغم مما كان يسيطر عليه من تحامل على اهل البلاد فلم يمنعه هذا من تعدي حدود المعرفة السطحية مع من تعرف اليهم ، وعقد صداقة متينة مع مسلمين • ولعل بروكييه اول مسيحي انضم الى قافلة الحجاج ليتمكن من العودة الى اوروبا برا بالرغم من تحذير من استشارهم في الامر من الاقدام على تلك المغامرة •

ومما يستلفت نظر القارىء الرحلة هو دقة ملاحظة بروكييه واهتمامه بامور كثيرة لم تكن لتستلفتأنظار كثيرين ممنسبقوهمن الرحالة•ولهذا جاءت رحلته غنية بوصف عدة جوانب من الحياة الاجتماعية في الشرق الادنى في القرن الخامسعشر • فلم يفت بروكييه ان يسجل وصف الخيمة وطريقة نصبها • ويصف طريقه نعل الحصان ، واحتفال اهل بيــروت بالعيد ، وحفلة لشرب النبيذ •

ونجح بروكييهفي اجتذاب القارىء واثارةاهتمامه بتسجيله للمصاعب والمخاطرات الشخصية التي تخللت رحلته • فتراه يطيل في وصف الحيوان الذي لقيه في الصحراء يقول :

« ولم نــر ونحــن نجتاز الصحراء مما يستحق الذكــر غير حيوان كنت اول مرة من شاهده صبيحة احد الايام ، كان يعدو على اربع ، ولا يتجاوز ارتفاعه طول الكف ، ويبلغ طوله ثلاث اقدام • فهرب ادلاؤنا العرب لدى رؤيته ، وعدا هــو ايضا هاربا • فنزل السيدان اندريو وفولدري وقد استــلا

سيفيهما • فلما اقتربا منه اخذ يصرخ كالقطة عندما يلحق بها الكلب • فضربه فولدري برأس سيفه على ظهره، ولكنه لم يصبه بأذى بسبب ما يكسوه من زوائد كثة تشبه زوائد السمك البحري، فوثب الحيوان عليه، فعالجه بضربة من سيفه اصابت عنقه، فقطع مقدار ربعها او ثلثها ، فانقلب على ظهره ومات • وكان له ذنب طويل يشبه ذنب السحلية الخضراء الكبيرة ، واقدام كيدي الطفل ، ورأس ارنب بري كبير • وكان ترجماننا ومن معنا من العرب يقولون انه حيوان شديد الخطر » [٨] •

ولا يظهر بروكييه اهتماما بتقصي ما يسمعه من اخبار فيما عدا ما يختص بالهدف الاساسي من رحلته وهو الناحية العسكرية • فهو يخلط بين نهري الفرات وجيحون ، وبين طبرية والسامرة ، وبين مكة والمدينة • ويقبل ما يسمعه من اخبار غير صحيحة عن الديانة الاسلامية مثل خبره عن الحجاج الذين يفقأون عيونهم بعد زيارة قبر الرسول صلوات الله عليه ، ولكنه في الوقت ذاته يتقصى اخبار قلعة دمشق ويبحث في اسرار ما يحرزه الاتراك من انتصارات في حروبهم • ومعلوماته في هذا الصدد صحيحة •

على ان السجل الذي خلفه فيلكس فابرى لرحلته بقصد الحج الى الاراضي المقدسة اقرب الى الرحلات الحديثة من الاثر الذي خلفه لنا بروكييه • فقد اسهب فابري في وصف المشاهد التي زارها الى حد انه ترك لنا صورة اقرب ما تكون الى الكمال للاماكن المقدسة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، هذا فضلا عن استخدامه للنقد في وصف ما شاهده • وربما كانت محاولته لاستخدام النقد التاريخي الاصيل في بحث موقع القبر المقدس اول محاولة من نوعها في العصور

الوسيطة • وبفابري بلغت فترة الانتقال من رحلات العصور الوسيطة الى الحديثة ذروتها •

ب – بروكييه وحياة السكان الاجتماعية :

وصل بروكييه الىالشرق الادنى الاسلامي وهو متحامل على سكانه شأن أكثر الحجاج المسيحيين الأوروبيين خلال العصور الوسيطة • ويتجاوز بروكييه التلميح الى التصريح عن هذا التحامل ، فتراه في اكثر من مناسبة يسجل ما يسمعه مثل قوله : « ولما اوصيت بان لا اثق في العرب من هذه الملة الضالة » ويقول في مكان آخر « واورد هذه الحادثة لا بين أن سكان دمشق قوم اشرار على الانسان ان يتجنب المشاجرة معهم » ويقول في مكان ثالث : « لكن البعض حذروني من خداع العرب وعدم وفائهم بعهودهم • واذكر هذا لفائدة من يتعاملون مع العرب لأنهؤلاء هم بالفعل كما وصفوا لي » •

ويعود هذا التحامل في الاكثر الى ما كان يرد في تقارير الرحالة السابقين عن الصعوبات التي كان الحجاج يلقونها خلال زياراتهم للاماكن المقدسة ، والى وصية الرئيس الفرنسيسكان باللاتينية والايطالية للحجاج قبيل مغادرتهم الرملة الى القدس • وكانت هذه الوصية تتضمن قواعد وارشادات للحجاج عليهم اتباعها خلال اقامتهم في البلاد المقدسة •كان يوصيهم بان لايثقوا بالعرب حتى بمن تودد منهم الى الحجاج •

لكن لا يلبث بروكييه ان يمتدح العرب وحسن استضافهم للغريب بعد ان جرب ذلك بنفسه • ففي طريقه الى غزة استضافه بعض العرب • ويذكر ان العرب الذين كلفوا بالعناية به بالغوا في السهر على راحته • ويضيف الى ذلك انهم لم يسلبوه ماله وامتعته • وفي موضع آخر ينوه

باستضافة عربي له وهو في طريقه الى طبرية ، ولكنه لم يدرك ان العربي فعل ذلك بدافع الكرم لا طمعا في النبيذ الذي كان يحمله • وحماه احد افراد القافلة التي انضم اليها للعودة برا من تركمانيين • يقول :

« ولما رأى التركمانيان جودة ملابسي وحصاني الفاخر وسيفي الجميل وجعبتي الكاملة اقترحا على (صاحبي) المملوك ، كما اخبرني فيما بعد عندما افترقنا ، ان يجهزوا علي نظرا لانني نصراني غير جدير برفقتهم • فأجابهما المملوك بان مثل ذلك العمل يعتبر جرما كبيرا طالما أنني بحسب العرف قد شاركته خبزه وملحه ، وأن الله خالق العرب والنصارى على السواء • أما انا فلم اشعر بشيء من ذلك •

ويسهب بروكييه في وصف قافلة الحج العائدة من مكة الى دمشق ، ويذكر انها كانت تتألف من ثلاثة الاف جمل • ويظهر ان بروكييه استقى معلوماته عن الحج من المملوك عبدالله الذي تعرف اليه في دمشق • فقد ذكر له هذا المملوك ان عدد افراد قافلة الحج يبلغ سبعمائة الف • وفي هذا الرقم مبالغة كبيرة • فمحمل الحج الذى كان يخرج من دمشق لم يكن يمثل العالم الاسلامي كله ، فقد كانت تخرج من العالم الاسلامي اربع محامل سلطانية من القاهرة ودمشق وبغداد وتعز كل على انفراد • وتنقص معلومات بروكييه عن شعائر الحج وامكنتها الدقة • اما وصفه لاستقبال المحمل فدقيق، فقد لاحظ الفرق بين الجمل الذي يحمل الكسوة وبين المحفة التي كانت تحمل في العادة على جملين او بغلين •

ويظهر بروكييه اهتماما كبيرا بالخيل • ومعلوماته عنها دقيقة • فهو يؤكد اهتمام العربي بها ، ويذكر ان الاغنياء من العرب يتحدثون مع

ضيوفهم في الاسطبل، الامر الذي يحرصون من أجله على نظافته ورطوبته وكان هذا امرا طبيعيا في عصر المماليك اعتمد فيه على الخيل في الحرب • ونجد ان الاسطبلات السلطانية كانت تحت ادارة خاصة عرفت باسم « الركاب خاناه » وكان « نظر الاسطبلات » من الوظائف العامة في الدولة • ويقول المقريزي في هذا الصدد بان هذه الوظيفة « جليلة القدر » (٩) ويذكر بروكييه ان ثمن الحصان كان يبلغ مئة وخمسين دوكة • ولكن اثمان الخيول الكريمة كانت تبلغ اضعاف هذا المبلغ، ويذكر المقريزي ان ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا بلغ الستين الف درهم والسبعين الف درهم • وكان السلطان يخلع الخيول على الامراء والمقربين اليه مرتين في السنة : الاولى عند خروجه الى مرابط خيوله ، والثانية عند لعبه الكرة في الميدان (١٠) •

ويبدي بروكييه اهتماما خاصا بالنسبة أهل البلاد من عامة وجند • ويصف بدقة لباس عربيين لقيهما في طريقه الى طبرية • ويذكر ان كلا منهما كان يلبس على راسه كلوته بدون عمامه ، وللكلوتة قرنان منعطفان الى أسفل يمنة ويسرة • وهي مصنوعة من الصوف الاحمر • ويقول المقريزي بان تلك الكلوتات بالجركسية • ويظهر ان هذين العربيين كانا من عامة الجند لان أكمام قباءيهما ، كما لاحظ بروكييه ، كانت عريضة • وكانت العادة عندئذ ان يتميز الامراء والمقدمون واعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الاكمام •

وفي اكثر من مكان يعلق بروكييه على احوال النصارى من اهل البلاد فيشير الى انهم كانوا يخضعون لحكامهم المسلمين خضوعا تاما وانهم يعاملون بذات القسوة التي كان الحجاج يلقونها • ولهذا فانه رأى « ان خضوع القدس لحكم العرب القاسي يلحق العار بالعالم المسيحي

ويحزنه » . ويجدر بنا ان نذكر هنا كلام بروكييه هذا يناقض تجاربه مع أصحاب السلطة في البلاد . « فحاكم » غزة أنصفه ثلاث مرات ، وكذلك فعل « حاكم » دمشق الذي اطلق سراحه بعد ان تبين انه كان قد سجن بطريق الخطأ . وشمله رئيس القافلة المتجهة الى تركيا بعطفه . واستطاع ان يتزيا بزي المسلمين « لان السلطان كان قد سمح للافرنج بالتزيي بازياء المسلمين اثناء تجوالهم وذلك حرصا على سلامتهم » .

ولو اقتصر بروكييه على اسناد القسوة الى التراجمة والمكارة والادلاء الذي كان بعضهم يحاول انتزاع اكبر قدر من المال من الحجاج والزائرين ، والى افراد من اهل البلاد ، لجأ كلامه اقرب الى حقيقة الامر . فهو نفسه يعترف بانه سجن في دمشق بسبب وشاية ترجمان اراد ابتزاز المال . ونشأت المشاكل في غزة بينه وبين افراد من الشعب وبخاصة المكارة الذين ارادوا اجباره على استئجار حميرهم لنقله الى دير القديسة كاترينة . وكان الذي اعتدى عليه عند مدخل دمشق سوري من العامة اطار بعصاه قبعته ذات الاطار العريض .

وعند فيلكس فابري وغيره من الرحالة مثل كاسولا تفصيلات اكثر عن مصدر هذه القسوة التي كان يلقاها الحجاج . كان اول ما يجري عند نزولهم البر هو تسجيلهم لدى السلطات . فاذا تم ذلك سيقوا الى احد المباني ذات الاقبية والى احد الكهوف . ويبدو ان تلك المباني والكهوف لم تكن في مستوى يليق بالحجاج . وكان لا يكاد الحجاج يستقرون في المكان حتى يفد عليهم جيش من الباعة واكثرهم من الفقراء ويحملون سلعا ومواد غذائية متعددة لبيعها . وكان هؤلاء بالطبع يستخدمون كل وسيلة لبيع ما يحملون ، مما كان يضطر الحجاج احيانا الى استخدام حارس يحول بين الباعة وبين الوصول اليهم [١١] .

على ان اشد المضايقة كانت تتأتى من المارة الذين كانوا يهرعون الى المكان بدوابهم رجاء ان يظفر الواحد منهم بحاج ينقله الى الرملة في طريقه الى القدس. فحرصا من هؤلاء المكارة على الظفر بهؤلاء الحجاج، كانوا يهجمون عليهم ويحاول كل منهم ان يمسك بحاج يجره عنوة الى دوابه ، دون مراعاة لتقدمه في السن . وكان يحدث ان يتوقف المكارى عن السير ويطلب اجرا اكبر من الاجر المعين . ويصف فيلكس فابرى هذه التجربة فيقول بان رجلا متهجم الوجه عليه علائم القسوة البالغة .

« قبض على يدى اليمنى بيمناه ، وأخذ يجرى لان الجميع كانوا قد ركبوا دوابهم . وكنت وهو يجري اميل بيمنة ويسرة متخبطا لانه كما ذكرت كان يشد يدي اليمنى بيمناه ، وهكذا أخذ يعدو راكضا وهو ممسك بي فوق حجارة اصطدمت بها عدة مرات وانا اميل ذات اليمين وذات الشمال حتى سقطت » .

ج ـ الجانب العسكري للرحلة :

كان الغرض الاساسي من رحلة بروكييه هي جمع المعلومات اللازمة لاعداد حملة لغزو البلاد والاستيلاء على الاراضي المقدسة ومن اجل هذا الغرض نراه يركز اهتمامه على الموانىء والمدن التي يمر بها وتحصيناتها ودرجة مناعتها في وجه أي هجوم خارجي . ثم في وصف الاسلحة التي يراها .

وقد جاءت معلوماته عن الموانىء والمدن ذات عون كبير لدراسة المنطقة في القرن الخامس عشر من النواحي السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية.وجد يافا ــ وهي الميناء الذي كان يستقبل الحجاج الوافدين بطريق البحر ــ خربة لا مساكن فيها غير الكهوف التي يلجأ

اليها الحجاج هربا من الحر • ولاحظ ان مدينة الرملة ومدينة غزة بــلا اسوار • ولم يجد في عكا سوى حوالى ثلاثمئة بيت منتشرة على احد أطراف البلدة ولكن ميناءها كان مسورا • وموانىءعكا وصور وصيدا كانت صالحة لرسو السفن • ورأى في بيروت قلعة يقوم جزء منها على مينائها وهو جيد وعميق وملجأ أمين للسفن •

ويتوسع بروكييه اكثر عندما يصل الى وصف قلعة دمشق فيقول :

« وفي دمشق قلعة جميلة حصينة تقوم في السهل وتحيط بها الخنادق الواسعة العميقة ، وتظفر بعناية تامة • ويشرف على القلعة نائب يعينة السلطان مباشرة ولا يسمح بدخولها لنائب دمشق نفسه بالرغم من ان هذا هو رئيسه الاداري • وسبب هذا الاحتياط هو ان نائب دمشق اقوى حاكم في سورية ومصر بعد السلطان ، وقد يخرج عليه كما حدث سابقا • ولهذا تحرس القلعة المذكورة ، وتبقى مستقلة عنه (نائب دمشق) للحيلولة دون تكرر ذلك » •

وسمع بروكييه بان سكان دمشــق يبلغون حوالى مئة الــف نسمة • ووجد بروكييه مدينة حمص مسورة ومحاطة بخنادق عميقة وعلى طرفها قلعة تقوم على تل مرتفع ينحدر الى طرف سور لا يعلو كثيرا عن الارض • ويلاحظ بروكييه ان يد التخريب امتدت الى قرى حماه والى احدى قلاعها • ثم يصف قلعتين احداهما داخل المدينة والاخرى على طرف المدينة من الجهة الشرقية •

اما اهتمام بروكييه بالاسلحة فظاهر من وصفه لصنع السيوف في دمشق ، وللدبابيس التي كان يتسلح بهــا بعض الجند ، وتروسهــم

وبالمرايا التي تعكس الاشعة وتشعل النار ، وبالقذائف النارية التـي كانت تطلق في بيروت بمناسبة الاحتفال باحد الاعياد . وتحرى عـن صانع هذه القذائف وعن طريقة صنعها . وقدم رشوة في سبيل الوصول الى سر صنعها ، فوقف على السر وحمل معه احد المقذوفات.واسترعى القوس اهتمامه فتحرى عن طريقة استعماله ، واشترى ختيعة للف الاصبع عند الرمي ، وجعبة للسهام .



حاول كاتب هذه السطور ان يبرز بعض النواحي الهامة التي يشتمل عليها ذلك القسم من رحلة بروكييه الذي يتناول البلاد المقدسة . عـلى ان الرحلة غنية بما فيها من اشارات اخرى لاحوال البلاد في القـرن الخامس عشر .



الهوامش

(١) تجد بحثنا مفصلا لهذه العوامل في الفصل الأول من
Atiya , Aziz Surial : *The Crusades in the Later Middle Ages* (London , 1938) pp. 3 - 29 .

(٢) Ferber, Elizabeth : «The Kingdom of Cyprus, 1191-1291,» in Seeton , K.M. (ed.) *A History of the Crusades* (U.S.A. , 1962) Vol. II , P. 618 .

(٣) راجع عن دوقات برغندية وموقفهم من الحروب الصليبية :
Cartellieri , Otto : *The Court of Burgundy - Studies in the History of Civilization* (London , 1929)

(٤) توجد دراسة مفصلة لحياة برتراندون دي لا بروكييه في مقدمة
Schefer, Ch., (ed.) : *Le Voyage d'outremer de Bertrandon de la Broquiere,* in Recueil de voyages et de documents pour servir a l'histoire de la géographie depuis le XIIIe jusqu'a la fin du XVIe siecle , XII (Paris , 1892) .

(٥) قام كاتب هذا المقال بترجمة قسم من رحلة بروكييه الى العربية وهو القسم الذي يصف فيه رحلته في سورية ولبنان وفلسطين ونشره في « مجلة الابحاث » التي تصدرها الجامعة الاميركية ببيروت في الجزء الثالث السنة ١٥ ، سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ ، ص ٢٩٩ — ٣٣٥ . ولا بد للكاتب من أن ينوه بالمساعدة القيمة التي تفضل الأب فريد جبر

بتقديمها له وبخاصة في مراجعة الترجمة العربية على النص الفرنسي .

(٦) **المصدر ذاته** : ص ٣٠١ .

(٧) Prescott, H.F.M. : *Once to Sinea-The Further Pilgrimage of Friar Felix Fabri* (London, 1957) pp. 17 -22 .

(٨) «رحلة برتراندون دي لا بروكييه» **مجلة الأبحاث** ، ص ٣٠٩ .

(٩) المقريزي : **المواعظ والاعتبار في ذكـر الخطط والآثار** ، ج ٢ (مصر ١٣٢٥ هـ .) ص ٣٦٥ .

(١٠) **المصدر ذاته** .

(١١) Prescott, H.F.M. : *Jerusalem Journey - Pilgrimage to the Holy Land in the Fifteen The century* (London , 1954) pp. 108 - 109 .

الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية
قبل القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد
مصر

رغم أن الجزيرة العربية تقع في قلب العالم القديم ، وبجانب الطريق الاساسي لتجارته ، فقد ظلت شبه مجهوله للرحالة الاجانب حتى القرن التاسع عشر ، وكان السبب في ذلك أنها ظلت حتى ذلك التاريخ قليلة العطاء الاقتصادي مما جعل التجارة العالمية تكاد لا تأبه بها ، وهي في الوقت نفسه وعرة المسالك مما جعل الطواف حولها بحرا أكثر يسرا من سلوك طرقها ودروبها • ومع ذلك فقليلة هي المناطق التي لعبت في تاريخ البشرية دورا يشبه دورها أو يدانيه •

والجزيرة العربية كتلة مترامية الاطراف تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة، تمتد بين البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، ويحددها في كل الجهات عدد من الصدوع واضحة المعالم الا في الشمال حيث تتدرج الهضبة الى ارض الحماد السورية ، ثم في بعض اجزاء من الشمال الشرقي حيث تنتهي الى سهول الخليج العربي •

ويقع معظم وسط الجزيرة العربية وغربها على ارتفاع يتراوح بين ٦٠٠ متر و ٩٠٠ متر فوق سطح البحر ، وان تكن هناك جروف تزيد عن ذلك كثيرا • وقد مالت الهضبة حتى أصبحت حافات الجانب الغربي أكثر ارتفاعا من حافات الجانب الشرقي ، وتسود الصخور النارية على طول الجانب الغربي من جنوب غرب سورية حتى عدن • وادى تدفق الطفوح على طول خطوط الانكسارات الى رفع مستوى السطح في بعض الجهات وتكوين هضاب بازلتية واسعة تعلوها أحيانا مخروطات بركانية قد يتجاوز ارتفاعها ١٥٠٠ متر ولكن هذه الآثار البركانية تقل كلما اوغلنا في اليابس حتى تكاد تختفي في القسم الشرقي من شبه الجزيرة •

وتتغطى الهضبة بصفة عامة بتكوينات رملية ، وهي أرض صحراوية جافة تخلو من الانهار ولكن يقطعها عدد من الاودية العميقة الجافة ، أكثرها نضجا هي تلك التي تتبع ميل الهضبة في الشرق وفي الشمال الشرقي ، ومن ثم تنفتح على الخليج العربي وحوض الفرات •

وليس من هدف هذا البحث ان يفصل الحديث عن جغرافية الجزيرة العربية ، وحسبنا ان نشير الى ان التضاريس الوعرة التي عليها الجزيرة والمساحة الشاسعة التي تشغلها ، وقلة موارد الماء التي تتميز بها ، كل اولئك جعلها مجهولة من العالم الخارجي بل والعالم القريب منها •

وفي القرنين الآخرين فقط نشطت الدول الاستعمارية على اطرافها وتوافد عليها في القرن التاسع عشر الرواد من جميع الجهات لاختراق داخلها وجمع المعلومات عن هذا الداخل الغامض لا حبا في العلم أو بحثا عن المعرفة ولكن لاغراض استعمارية ، حتى خلصت السيطرة على معظم سواحلها لدولة بحرية استعمارية هي بريطانيا •

وهكذا وفد الى الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر كثير من الرحالة من امثال دكتور سيتزن (١٨١٠) Steezen الذي زار الجهات الجنوبية من بلاد العرب ، والرحالة السويسري يوهان لود فيج بوركهارت (١٨١٤) الذي زار الحجاز في زي حاج منتحلا اسم ابراهيم بن عبد الله . والضابطان ولسيتد J. R. Welseeted وكروثندن C. Cruthender (١٨٣٥) اللذان قاما بأول محاولة لاجتياز حضرموت، وأدولف فون فردي « ١٨٤٣) Adolf Von Werde الذي استطاع الوصول الى وادي دوغان وتوغل حتى بلغ اطراف الربع الخالي.وجورج أوغسطس والين George Augustus Wallin (١٨٤٥)الذي زار نجد وكتب عنها والصيدلي الفرنسي توماس يوسف أرنو (١٨٤٥) Thomas Joseph Arnoud الذي قام برحلة الى اليمن (١٨٥٤) والسير ريتشارد بيرتون Sir Richard Burton وقد زار الحج متنكرا مع الحجاج كما فعل بوركهارت من قبل . وبالجريف W. G. Balgrave (١٨٦٢ — ١٨٦٣) الذي زعم انه زار بريدة والرياض والخرج والأفلاج وكانت رحلته محل شك . ويوسف هاليفي Joseph Halevey (١٨٦٩) اليهودي الفرنسي الذي دخل اليمن في هيئة يهودي متسول من اهل القدس. وتشارلس دونتي (١٨٧٧) Charles M. Dougnty الذي وضع كتابا عن اسفاره في الجزيرة وكان متعصبا ضد الاسلام ولكنه لم يستطع ان ينكر الفضائل التي يتحلى بها البدو . والسيدة آن بلنت (١٨٧٩) Anne Blunt التي تجولت في شمال بلاد العرب وبلغت أرض نجد ، وغير هؤلاء كثيرون مما لا يتسع المجال لذكرهم .

ورغم الكثرة لرحالة القرن التاسع عشر وما تلاه ، فان الامر

لم يكن كذلك في القرن الثامن عشر وما سبقه من قرون • ولعل اول من تعرف من الرحالة القدماء الذين زاروا جزيرة العرب هو الجغرافي المؤرخ استرابون Strabon فقد رافق الحملة التي قام بها صديقه القائد الروماني أوليوس جالاس Aelius Gallus لغزو الجزيرة لاول مرة في التاريخ سنة ٢٥ قبل الميلاد ووصل الى نجران ولكنه هزم عند نسكة Nesca التي يظن انها خربة البيضا الخالية • وقد خصص استرابون فصلا خاصا في الجزء السادس عشر من كتابه لوصف الاحوال الاجتماعية والاقتصادية لجزيرة العرب كما شاهدها •

ثم يصادفنا من بعد استرابون رحالة يوناني لا نعرف اسمه وضع في نهاية القرن الاول للميلاد كتابا بعنوان « الطواف حول ارتريا »وهو البحر الاحمر Periplus or de Nari Erythraes ويبدو انه كان تاجرا يطوف بالسواحل فلم يهتم بشيء سواها • أما الأقسام الداخلية من بلاد العرب فلم يكن يعرف عنها شيئا فيما يبدو •

وتصمت المصادر بعد ذلك ، فلم نعد نسمع عن رحالة وفدوا على الجزيرة العربية وكانها قد انعزلت عن العالم فلم يعد لها به صلة • وهو أمر نشك فيه ، فالقرآن الكريم يقص ان كانت قريش تقوم بنقل متاجر اليمن والبلاد الحارة الى الشام والمناطق الخاضعة للروم • « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » • وهو يبين في موضع آخر ان العرب كانوا على علم بانقسام العالم على ذلك العهد الى قوتين عظيمتين هما الفرس والروم : « الم ، غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » فاذا كان هذا هو شأن العرب كما جاء في كتاب الله وهو اصدق القائلين فهل نستبعد أن يكون بعض المغامرين

من رحالة الروم قد زاروا جزيرة العرب وتوغلوا فيها ؟ انه افتراض ليس لدينا عليه دليل مكتوب ، ولكنه أمر غير مستبعد على اي حال .

وتشيخ الحضارة الرومانية وتتقوض اركانها امام غزاة البرابرة من وسط اوروبا في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، فيبربرون روما بدلا من ان تصقلهم هي بحضارتها ، وتسقط روما ولكن تبقى القسطنطينية عاصمة للامبراطورية في الشرق حتى عام ١٤٥٣ . أما في الغرب فقد لفظت نفسها الأخير وران على اوربا ظلام العصور الوسطى التي امتدت نحو تسعة قرون انبعث خلالها نور الاسلام، ولم يمض قرنان على ظهوره حتى كان قد شرق حتى بلغ حدود الصين ، وغرب حتى انتهى الى سواحل بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وعبر مضيق الزقاق (جبل طارق) واوغل في اوربا حتى نهر اللوار ثم توقف في بواتييه .

وعادت اوربا تتعرف الى العرب الذين جاءوا بذلك الدين السمح وتلك الحضارة الزاهرة ، ولكنها لم تحفل بالبلاد التي جاءوا منها بعد ان اصبحت مراكز الحضارة العالمية في بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة وليس في مكة والمدينة ، بل ونما نوع من الحقد في نفوس الاوربيين على البلاد التي ولد فيها المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلى الدين الذي جاء به . وتجلى هذا الحقد في الحروب الصليبية ، وحاول احد امرائهم وهو رينولد دي شاتيون صاحب الكرك غزو الاجزاء الشمالية من جزيرة العرب ولكنه باء بالفشل سنة ١١٨٢ حيث هزمته جيوش صلاح الدين على بعد مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة .

وجاء عصر النهضة الاوربية ونشطت حركة الكشوف الجغرافية وكان البرتغاليون اسبق شعوب اوربا الى الاسهام في هذه الكشوف ،

وكانت جزيرة العرب من البلاد التي سمعوا بها دون أن يروهــا • ومن ثم فقد وفد اليها سنة ١٤٨٧ على عهد ملكهم جون رجل منهم يحسن الكـــلام بالعربيـــة يدعـى بيتــر دى كويــلان Peter de Couillan (Pero de Couilha) روى عنه انه زار مكة والمدينة وهي رواية تحوم من حولها الشكوك وسواء صحت او لم تصح فنحن لا نعرف عن رحلتــه سوى ما روي عنه وعنها فهو لم يكتب عن الرحلة أي شيء •

بعد ستة عشر عاما من هذه الرحلة قام لود فيكودي فارتيمــا Ludvico de Varthima برحلته وكان مغامرا بولنديا فيما يقال وان انكر عليه بعض الكتاب هذا الأصل وزعموا انه كان نبيلا رومانيا ادعى البولندية ، ولا تهمنا جنسيته بقدر ما تهمنا مذكراتــه التي كتبها عــن رحلته الى جزيرة العرب ، تلك المذكرات التي صادفت من الرواج عند صدورها أكثر مما صادفت كتب رحلات أخرى حتى لقد ترجمت الــى كثير من اللغات • وكان الدافع لفارتيما الى رحلته حب المغامرة والرغبة في كشف المجهول كما يروي هو في صدر مذكراته حيث يقول انــه قد عقد العزم على زيارة البلاد التي لم يقم اسلافه بزيارتها من قبل • وقد ابحر فارتيما من البندقية في سنة ١٥٠٣ فزار القاهرة وبيروت وطرابلس وحلب ثم استقر في دمشق قرابة عام يتعلم فيها اللغة العربية ، وتعرف فيها على ضباط من المماليك عهد اليه والى كتيبته بحراسة الحج الشامي، وبطريقة ما استطاع ان يلتحي بالكتيبة وتزيى بزي المماليك وتحدث العربية بعجمتهم •

وسارت القافلة فمرت بأرض حوران حيث أقامت ثلاثة أيــام في بلدة المزيريب وسجل فارتيما في مذكراته انطباعاته عن بــدو حوران

وشجاعتهم وركوبهم الخيل بلا سروج • ثم واصلت القافلة رحلتها ، ولم يذكر الرحالة اسماء المواقع التي نزلت بها واكتفى بذكر المزيريب ومكة والمدينة • ولكن يبدو من كتاباته أن القافلة قد اجتازت صحـراء النفود فهو يذكر أنها اخترقت منطقة قاحلة هلك فيها من العطش ثلاثون شخصا بالاضافـة الى عدد من المحتضرين تركوا على جوانب الطريق •

وبعد مسيرة اثنين وعشرين يوما تمر القافلـة بما يسميـه مدينتي « سدوم وغموره » ويروي ما قرأه في التوراة عن هاتين المدينتين التـي حاقت بهما اللعنة التي أصابت قوم لوط ، ولا شك أن صاحبنا كان مخطئا فيما ذهب اليه فالمدينتان تقعان في نواحي البحر الميت وليس في جنوب صحراء النفود • وأغلب الظن أنه شاهد خرائب مدائن صالح والعلا فاختلط عليه الأمر وروى ما رواه •

ثم تتحدث مذكرات الرحالة عن منطقة يسكنها قوم من اليهود يبلغ عددهم قرابة الخمسة آلاف ، يجاهرون بيهوديتهم ويكرهون المسلمـين كرها شديدا ويعيشون شبه عراة واصواتهم شبيهة باصوات النساء ولاشك ان هـؤلاء هم بقايا يهود خيبر الذين كـانوا ينزلون غير بعيـد مـن المدينة •

وتبلغ القافلة المدينة المنورة ويدهش فارتيما دهشة بالغة عندما يرى قبر الرسول فقد كان اعتقاده أن جثمانه الطاهر معلق في الهواء فهكـذا كانت الخرافات التي تروى في اوربا عن الاسلام والمسلمين، ويصحح فارتيما لاوربا خطأها • ويكتب في وصف مسجد المدينة وكيف يضم بجانب قبر الرسول قبري أبي بكر وعمر ولكنه يخطيء عندما يذكر ان المسجد يضم كذلك قبور عثمان وعلي وفاطمة الزهراء والتاريخ الثابت يروي ان عثمان

دفن بالبقيع وان عليا كان النجف مثواه الأخير ، ويسهب فارتيما في وصف المسجد النبوي وشكله المربع واعمدته الاربعمائة ومصابيحه التي تربو على ثلاثة آلاف وتظل مضاءة بالليل والنهار .

ويصل فارتيما الى مكة المكرمة ويعجب بالمدينة المقدسة ويصف ما يحيط بها من جبال وكيف انها تقع في واد غير ذي زرع تهوي اليه افئدة الناس مما جعلها مركزا للتجارة تتجمع فيها تجارة الهند والبنغال وفارس ومصر وسورية وبلاد الحبشة ، وتمتلىء اسواقها بالجواهر والعطور والمنسوجات القطنية والحريرية وتحيط المتاجر بأبواب المسجد ، وتزدحم المدينة بالناس بشكل لم ير له فارتيما مثيلا من قبل .

ويصف الرجل الحرم المكي وصفا دقيقا ويعجبه مظهره فيقارن بينه وبين مدرج الكوليزيوم في روما ، ثم يعرج على وصف الكعبة واستارها الحريرية السوداء وبابها المصنوع من الفضة الخالصة والذي وضع على جانبيه اناء مملوء بالعطر ، ثم يتكلم عن مناسك الحج من طواف القدوم والصعود الى عرفات والنزول الى منى ، والاضحية وكيف توزع لحومها، ورمي الجمرات وطواف الافاضة ، وهكذا لا يترك منسكا الا وصفه وكانما هو يضع دليلا للحجاج . ولا يفوته ان يتحدث عن حمام الحرم وكيف يحرم ذبحه ويعلل ذلك بان هذا الحمام هو من نسل الحمامة التي عششت على النبي في الغار . ومما يدعو الى الدهشة ما يذكره من أنه رأى في جانب من جوانب الحرم اثنين من حيوان وحيد القرن لا يؤذيان احدا . ولا نستطيع ان نفسر مثل هذا القول من رحالة اتسمت كتابته بالموضوعية وكان صادق الرواية الى حد كبير .

وتنتهي مناسك الحج ويتأهب الحجاج للعودة الى دمشق ، ولكن

فارتيما لا يريد ان يعود فهو لا يزال متلهفا الى ان يرى عن بلاد العــرب أكثر مما رأى ، وان يصل الى ذلك الجزء الذي عرف باسم العربية السعيدة Arabia Felix وكان هو كل بلاد العرب في نظر الاوربيين • ولكن انى له هذا والأبواق تتعالى بدعوة المماليك للالتحاق بكتيبتهم وصوت المنادي ينذر المتخلفين بالاعدام شنقا ؟ ! ولكن الحظ يواتيه عندما يرسله سيده الضابط الى السوق لشراء بعض لوازمه ، ففي السوق احتك به احــد الاشخاص واتهمه في اسلامه اذ سبق له ان رآه في روما • ومع انه حلف بأغلظ الايمان انه على دين الاسلام فلم يصدقه متهمه ، ولم يجد مفــرا من ان يصحب الرجل الى منزله عساه يتمكن من اقناعه بعيدا عن اعــين الناس ، وفعلا اقتنع الرجل بعد أن شرح له فارتيما انه اسلم في القاهــرة وانخرط في سلك المماليك • ونشأت بين الرجلين صداقة استغلها فارتيما في أن يختبىء بمنزله حتى رحلت قافلة الحج الشامي فودع صديقه العربي ورحل الى جدة فقضى فيها اسبوعين ملازما لمسجدها لا يبرحه الا ليــلا لشراء الطعام •

ومن جدة اقلع فارتيما في سفينة متجهة الى بلاد فارس ويصف رحالتنا في مذكراته رحلة البحرية هذه فيتحدث عن شعاب المرجان القريبة مــن سطح الماء والتي تمثل خطرا على الملاحة فيما بين جدة وجزر قمران• وترسو السفينة في ميناء جيزان الذي يعد فيه نحو خمسين سفينة ويدهش لجمال الميناء ومن البلدة التي لم يكن يتصور ان يجد فيها كل انواع الفاكهة التي رآها • وتقلع سفينتة من جيزان فتصل الى عدن التي يصفها بانها مــن أقوى المدن تحصينا ولم ير في حياته ما يدانيها في حصونهــا اذ تحيط بها الجبال والاسوار العالية وتقوم على حمايتها خمس قلاع • وهي شديدة الحر حتى أن الأسواق تقام فيها بعد منتصف الليل • وترسو في مينائها

كثير من السفن وماان ترسو سفينة حتى يهرع اليها رجال السلطان لتحصيل المكوس ، وينزعون اشرعتها وسكانها ليحولوا دون هربها قبل دفع المكوس المتوجبة عليها •

وكانت عدن في مطلع القرن السادس عشر قد بدأ يهددها البرتغاليون الذين اصبحت لهم السيادة على سواحل شبه الجزيرة العربية قبل ان تظهر شركة الهند الشرقية الهولندية ونظيرتها البريطانية في القرن التالي • وكان طبيعيا ان يتشكك اهل عدن والحالة هذه في ركاب السفن التي ترد الى فرضتها • وقد احاطت الشكوك بفارتيما فاتهم بالنصرانية والجاسوسية معا والقي القبض عليه ثم افرج عنه بعد شهور في قصة يرويها ولا نشك في انها من نسج خياله • واستطاع بعد اطلاق سراحه ان يزور الحج وتعز وصنعاء وزبيد ، وتحدث عن الخصومة بين الشوافع والزيود ولكنه لم يفهم طبيعة هذه الخصومة وما كان له ان يفهمها وهو يجهل تاريخ الاسلام • ويبدي الرحالة اعجابه بصنعاء واسوارها وينابيعها وبساتينها ، ثم ينتهي به المطاف الى عدن مرة اخرى ومنها يركب البحر فيزور اثيوبيا وبلاد فارس والهند وفيها ينضم الى جيش البرتغال ويحارب معه بعض المعارك ومن ثم ينعم عليه ملك البرتغال بلقب فارس عندما يعود الى لشبونة في سنة ١٥٠٨ ومن لشبونة يرحل الى روما ويعيش في كنف اسرة سفورزا التي ساعدته على نشر مذكراته • وكما نجهل بداية حياته نجهل خاتمة هذه الحياة • ولكن الذي نعرفه ان الرجل كان دقيق الملاحظة الى حد كبير في كل ما سجله من وقائع رحلته • ولم يكن لود فيكودي فارتيما جغرافيا بطبيعة تكوينه فكان اكثر اهتماما بمغامراته الشخصية منه بالمسرح الذي مثلت عليه ولكن كانت له هنا وهناك ملاحظات بارعة •

ويأتي من بعد فارتيما روادزاروا بعض اجزاء الجزيرة العربية وبخاصة

المناطق الساحلية منها ولم يكن غرضهم الرحلة لذات الرحلة والسعي وراء المعرفة ، وانما لأغراض اخرى فقد تميز القرن السابع عشر بالصراع بين البرتغاليين الذين سبقوا غيرهم في الوصول الى الشرق وبين شركتي الهند الهولندية والبريطانية ، وأخذت كل من الشركتين تسعى لاقامة علاقات تجارية مع حكام اليمن والجنوب العربي كتلك التي انشاها البرتغاليون، خاصة وان البن قد عرف ، وبدأت القهوة تنتشر كمشروب في اوربا، واصبحت جزيرة العرب في نظر الاوربيين بلاد البن قبل أي شيء آخر ، وارسلت الشركة الهولندية فان دي بروكه ثلاث مرات الى سلاطين الجنوب العربي واستطاع بمعاونة هؤلاء السلاطين التجول في بلاد اليمن وارسلت الشركة البريطانية الكابتن الكسندر شاربي (١٦٠٩) Alexander Sharpey الى عدن والبحر الاحمر ثم ارسلت من بعده هنري ميدلتون Henry Middleton فزار عدن والمخا حيث أسر وارسل به الى صنعاء التي يسميها Zenan ويصفها بأنها اكبر من برستول ومبانيها من الحجر وفي الجانب الشرقي منها القلعة وفي الغرب تنتشر البساتين . ويفك أسره فيعود الى المخا مارا بذمار التي يصفها بأنها حسنة البناء وتتكون كغيرها من القرى من خمسة احياء منفصلة .

ولم تقف فرنسا بمعزل عن تجارة البن بعد ان شاع استعمال القهوة فيها حتى تغنى شعراؤها بذلك المشروب الأسود الوافد من الشرق فأسس تجار سان مالو St.Malo شركة لاستيراد البن من مصدره الأصلي في اليمن فأرسلوا لهذا الغرض بعثتين في مطلع القرن الثامن عشر كانت اهمها الرحلة الثانية التي كان على رأسها الجراح باربييه Barbier والضابط دي لا جريلوديير Major de la Grelaudière ولم يصلنا التقرير الذي قدماه عن الرحلة الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ولكن قصة الرحلتين

قد سجلها لاروك La Roque ونشرها في كتاب بعد عودة الرحلة الاخيرة ببضع سنوات .

وفي القرن الثامن عشر زاد رخاء اوربا لما تدفق عليها من خيرات المناطق التي استعمرها ، ومع الرخاء تتسع آفاق العلم وتزداد الرغبة في المعرفة . وتنشط حركة الاستشراق في كثير من البلاد الاوربية وتوجه العناية الى دراسة التراث العربي والوقوف على احوال العرب وبلادهم وتاريخهم وآدابهم . وفي سنة ١٧٥٩ تظهر في اوربا لأول مرة فكرة ارسال بعثة علمية لدراسة الجزيرة العربية .

كان صاحب الاقتراح هويوهان ديفيد ميخائيلس استاذ الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن Gottingen وقد استطاع ان يقنع الكونت برنشتروف J. H. E. Bernstroff وزير خارجية فريدريك الخامس ملك الدنمرك بضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق بعض المسائل الجغرافية التي وردت في الكتاب المقدس (التوراة) خاصة بجزيرة العرب ، وكانت الدنمرك في ذلك الوقت من الدول ذات المركز المرموق في اوربا . وصادف الاقتراح قبولا لدى الملك وكان من مظاهر اهتمامه به ان شارك في رسم خطة العمل للبعثة المقترحة وفي وضع قائمة بالمشكلات المطلوب الوصول الى حلها .

وفي صباح اليوم الرابع من يناير سنة ١٧٦١ أبحرت الباخرة الحربية « جرينلند » من ميناء كوبنهاجن في طريقها الى الشرق وعلى متنها خمسة من العلماء لكل منهم تخصصه ومعهم خادمهم الدنمركي الذي كان من جنود سلاح الفرسان السويدي المسرحين .

كان هؤلاء العلماء الخمسة الذين تكونت منهم البعثة هم :

١) الاستاذ بيتر فورسكال Prof . Peter Forskall وهو سويدي مولدا ومن تلاميذ العالم الكبير ليناوس Linnaeus ومع أن مهنته الطب فقد كانت له دراية واسعة بعلم النبات •

٢) الدكتور كريستيان كارل كرامر Dr. Christian Carl Cramer وهو دينمركي متخصص في الجراحة وعلم الحيوان •

٣) الاستاذ فريدريك كريستيان فون هافن Pref . Friedrich Christian Ven Haven وهو دينمركي كذلك متخصص في فقه اللغة والدراسات الشرقية •

٤) الهرجورج ولهلم بورنفيند Herr . George Welheim Baurenfeind وهو رسام أنيطت به مهمة الرسوم الفنية وحفرها على النحاس •

٥) المهندس كارستن نيبور Carsten Nieouhr الألماني الذي بدأ حياته فلاحا يساعد والده في الحقل ثم هوى المساحة العلمية والتحق بجامعة جوتنجن يدرس الفلك والرياضيات •

لم يكن لأحد من هؤلاء الرئاسة على الآخرين ، فكلهم لـه مؤهلاته ومكانته ، وبهذا قضت تعليمات الملك ، واذا كان لأحـد منهم أفضلية فهو لفورسكال وفون هافن لاجادتهما اللغة العربية • وطلب الى كل منـهم أن يعاون زملاءه ولكن على أن يظل له ميدان عمله الخاص الذي سيقدم عنه تقريرا عند عودته • ولكن مع الأسف لم يعد سوى واحد منهم هو كارستن نيبور الذي قدر له أن يبقى على قيـد الحياة فيعود الى الدنمرك ويقـدم تقريرا عن رحلته ويضمنه الملاحظات غير الكاملة التي سجلها رفاقه •

ولسنا هنا في حاجة الى تتبع البعثة الدنمركية في رحلتها من مرسليا الى استنابول والاسكندرية والقاهرة • كل ما يعنينا هو أن البعثة وصلت جدة في التاسع والعشرين من اكتوبر سنة ١٧٦٢ ودهش اعضاؤها للمعاملة الكريمة التي لقوها من الأهالي• ومن جدة ساروا الى القنفدة فاللحية وهم يرتدون الملابس الوطنية ، ويقولون عن أنفسهم أنهم في طريقهم الى الهند• ولكنهم آخذوا يتجولون بين المدن اليمنية فذهبوا اولا الى بيت الفقيه وكانت انذاك أكبر مراكز تجارة البن ، ومنها تفرقوا فقرر نيبور أن يرتاد اقليم تهامة ، وصعد فورسكال في الهضبة يجمع نماذج من النباتات ، وأوغل الآخرون في الداخل فبلغوا تعز وزبيد ، ثم عاد الجميع فاجتمعوا وبداية الصيف في بيت الفقيه ، ومنها هبطوا الى المخا وكان كرامر المتخصص في علم الحيوان قد جمع بعض الثعابين واحتفظ بها في أواني مملوءة بالكحول مما أدى الى ان يرتاب فيه رجال الجمارك وأن يتلفوا مقتنياته• وفي المخا توفي فون هافن فحرمت البعثة من أكثر أعضائها علما باللغة العربية وقررت ان تترك المخا وتنتقل الى تعز حيث المناخ اكثر ملاءمة للصحة • وفيها تلقوا دعوة من امام اليمن لزيارة صنعاء • وفي الطريق اليها هلك فورسال • ولم يقضوا في صنعاء سوى عشرة أيام عادوا بعدها الى المخا حيث استقلوا مركبا متجهة الى الهند وعلى ظهرها توفي الرسام بورنفيند ثم لم يلبث أن تبعه الخادم السويدي• ثم لحق بهؤلاء كارل كرامر بعد أن بلغت البعثة بومباي بأيام قلائل •

بقي كارستن نيبور وحيدا بعد وفاة رفاقه• ولكن هذا الموقف الأليم لم يفت من عضده ، فقرر العودة الى الجزيرة العربية ليتم مهمته ، وقفل عائدا الى عمان فوصل مسقط في يناير سنة ١٧٦٥ ، ولم يمكث طويلا بعمان ليجوب جهاتها المختلفة اذا كانت المدة التي حددها الملك الدنمركي للبعثة قد انتهت • ومن ثم سافر نيبور وفقا لخطة السير التي وضعها الملك

من قبل فزار بلاد فارس والعراق والشام وتركيا ودول اوربا الوسطى حتى انتهى الى كوبنهاجن فوصلها في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧ بعد أن غاب عنها ما يقرب من سبع سنين • وكان الملك فردريك الخامس قد مات ، فلم يحفل أحد بعودة نيبور من رحلته ولكن الكونت برنشتروف يقدمه للملك الجديد فيجد من الرعاية لديه ما يشجعه على كتابة قصة الرحلة •

عكف نيبور على كتابةمذكراته باللغة الألمانية ونشر الجزء الأول منها في سنة ١٧٧٢ وفيه يروى قصة الرحلة من كوبنهاجن حتى بومباي • ثم عمد الى نشر مذكرات فورسكال في السنة التالية • وأتبعها بنشر ما أعده بورنفيند من رسوم للنباتات والطيور والاحياء المائية وفاء منه لذكرى رفيقيه • ثم نشر الجزء الثاني من مذكراته • واستنفدت هذه الاعمال كل ما بقى لديه من مال فبقى الجزء الباقي من المذكرات مخطوطا حتى نشر في سنة ١٨٠٨ • وترجمت مذكرات نيبور فيما بعد الى اللغتين الفرنسية والانجليزية •

ويهمنا في هذا البحث الجزء الأول الذي نشر في كوبنهاجن بالألمانية بعنوان وصف بلاد العرب « Beschreibung Von Arabien, » Copenhagen ,1772 . والذي ترجمه الى الانكليزية سيلي ونشرت الترجمة في سنة ١٧٨٩ C. W. H. seely , « Discription of Arabia » Bombay , 1789 . ولما كانت هذه الطبعة ناقصة فقد اعيد نشرها في عام ١٧٧٤ في مجلدين بعنوان رحلات الى الجزيرة العربية « Reisebeschreibung nach Arabian » Copenhagen , 1774 - 8

وقد ترجمها ملخصة الى الانجليزية هيرون ونشرها في ادنبره سنة ١٧٩٢•
« R. Heron : Travels in Arabia » 2 Vols . Edinburgh , 1792 .

لم يمكث نيبور كما تروى مذكراته أكثر من اثني عشر شهرا في الجزيرة

العربية، ولم يزر سوى جزء محدود منها كان معظمه مما سبق للاوربيين معرفته ونعني به اليمن وما جاورها • فما الذي جعل لهذه المذكرات ما بلغته من الأهمية ؟ ! ان السر في هذا يرجع الى عقلية الرجل نفسه وطريقته في جمع المعلومات • فقد كان يسأل كل من يصادفه وكان قد تعلم من العربية ما يكفي للسؤال والفهم • وكان لديه من الأسئلة ما يدور حول كل شيء • وكان يغربل المعلومات التي يحصل عليها بقصد تنقيتها ، ويمحص كل ما يثبت من حقائق • وكان يلقي نفس السؤال على عدة أشخاص من مختلف المستويات ليتأكد من صحة الجواب • ولهذا جاءت كتابته ممتازة في نوعيتها دقيقة في أخبارها • ومنها نعرف الشيء الكثير عن أحوال الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر عن السكان وتقاليدهم وطبقاتهم الاجتماعية وعاداتهم في المأكل والملبس والمسكن وأسلوبهم في الاستقبال والتحية ، وعن الحياة الاقتصادية وما تنتجه البلاد من غلات •

ولا شك أن نيبور قد عرف اليمن أكثر مما عرف غيرها من جهات الجزيرة العربية ، فوصفها وصفا دقيقا جغرافيا وتاريخيا وصور تجزئتها السياسية وكيف انقسمت الى عدد من الامارات المستقلة منها صنعاء وعدن وأبو عريش والجوف ونجران وبلاد حاشد وبكيل ، ونهم ، وخولان ، وكوكبان • وكيف ان تاريخ الحضارة اليمنية كله تصوره أربعة مدن هي صنعاء التي تعرف بالمدينة لعظم نفوذها،وتعز ذات الرياض الزاهرة والزروع اليانعة حتى لقبت بالروضة ، وزبيد ذات الثقافة المزدهرة والدراسات الاسلامية الواسعة ،ثم زمار التي اشتهرت بخيولها العربية الاصيلة • وقد رسم نيبور خريطة لليمن صححت كثيرا من الاخطاء • ولو أنه تمكن من زيارة سائر انحاء الجزيرة العربية لجاءنا بخارطة تفوق كل ما سبقها من خارطات فقد كان الرجل مساحا بارعا يجيد استخدام ما لديه من ادوات الرسم والقياس •

وتحدث نيبور عن المشيخات العديدة التي وجدها على ساحل الخليج العربي وعن الخصومات القائمة بين حكامها ، وعن النزاع الدائر بين امير الكويت المتمسك باستقلاله وامير الحسا الطامع في ضم هذه الامارة الى املاكه ، وعن خراب قرى البحرين بسبب الحروب المتتالية حتى لم يبق بها سوى خمسين قرن وكان بها من قبل ٣٥٠ مدينة وقرية يعمل معظم سكانها في استخراج اللؤلؤ •

ويشير الى ان الحسا يحكمها شيخ عشيرة بني خالد ، وهي من اقوى العشائر العربية ويدين لها بالولاء عدد من العشائر الصغيرة وسكان الحساسنة وشيعة ، فالسنة هم اهل القرى والبادية اما الشيعة فهم سكان المدن ، ويخطىء الرجل حينما يذكر ان من بين السكان عدد من الصابئة واليهود •

ومع ان نيبور لم يزر جدة فان حديثه عنها يدل على فطنته ودقة معلوماته • فهو عندما كان في الجزيرة العربية كانت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية قد اخذت تنتشر ، فيدرك أهمية هذه الدعوة ، ويصور الحالة المؤسفة التي كانت الجزيرة قد وصلت اليها فأثارت سخط الامام المصلح • ويتنبأ بنجاح الدعوة ويرى ان معظم ما يقال عنها هي مزاعم باطلة يروجها اعداء الاصلاح ، وينسبون اليها بالباطل أمورا هي ابعد ما تكون عنها •

لقد كان نيبور مثال الرحالة الفطن والكاتب المنصف • كان يتنقل في الجزيرة العربية ممتطيا حمارا ، ومرتديا زيا عربيا ، ومنتحلا اسم عبد الله لشيوعه بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ومحاولا ان يكون كاحد ابناء البلاد في سيرته وتصرفاته ، ونجده يحذر من يريد التجول في الجزيرة العربية الا يظنها رحلة نزهة • وعلى الشبان الذين يحبون الرفاهية

والاكل الجيد ومعاشرة النساء الا يفكرون في الرحلة الى هذه البلاد ، فالرحلة اليها تحتاج الى جاد وصبر .

وكان نيبور منصفا للعرب على عكس كثير من الكتاب الأوروبيين، فهو يرى ان لكل شعب فضائله ونقائصه ، وان ما ينسب الى عرب من نقائص لا يختصون بها وحدهم ولكنها شائعة في اوربا ذاتها ، وان لهم من الفضائل الشيء الكثير ، فهم قوم ودودون يستطيع المرء ان يتجول بينهم في حرية كاملة شريطة الا يمس احساساتهم ، وهم يحبون الصدق ويكرهون الخداع ، وهم يعرفون انهم لم يخلو من نقائص وعيوب ولكنهم لا يغفرون لاحد ان يسخر من هذه النقائص . وهم يختلفون عن شعوب اوربا جميعا في انهم يساعدون الاجنبي على تعلم لغتهم ، ولا يسمحون لانفسهم بالسخرية منه اذا هو اخطأ التعبير بل يجدون في هذا شيئا من الفكاهة ، ويحاولون ان يردوه الى الصواب .

هكذا كان كارستن نيبور الرحالة المثالي المنصف والكلف بالمعرفة الصحيحة ، فلا عجب ان كان اشهر من كتب عن الجزيرة العربيه في القرن الثامن عشر ، وفتح باب الرحلة العلمية الاصلية لمن جاء من بعده من الرحالة والجوابين .

الحقوق الإجتماعيّة والسياسيّة والإقتصادية للمرأة في المجتمع اليمني

الدكتور سلطان ناجي
اليمن

سيحاول هذا البحث مناقشة ثلاث قضايا أساسية هي : ـ

أولا : وضع المرأة في اليمن الطبيعية منذ القديم وحتى قيام ثورتي ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م في صنعاء و ١٤ أكتوبر ١٩٦٣ م في عدن وذلك من خلال النصوص والاشارات التي استطعت التقاطها من مصادر يمنية مختلفة وسيتبين لنا بأن أوضاع المرأة اليمنية في كثير من الاحيان تختلف باختلاف الاوضاع الجغرافية للمنطقة • فأوضاعها في تهامة تختلف عن اوضاع أختها في الهضاب والمرتفعات ، كما أن أوضاعها في المدن تختلف عن اوضاعها في البوادي والاودية وقس على ذلك الاختلافات الناتجة عن المحيطات الطبقية أو المذهبية والطائفية والسياسية التي كانت سائدة في المجتمع اليمني الى وقت قريب •

وثانيا : وضع المرأة في اليمن بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ م في شمال اليمن وتأسيس « الجمهورية العربية اليمنية » وكذلك بعد قيام ثورة اكتوبر في جنوب اليمن ١٩٦٣ واستقلال هذا الجزء عن الاستعمار البريطاني

ثم تأسيس « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية » وبالذات بعد صدور الدستور عام ١٩٧٠ م الذي ضمنت بالذات مادته رقم « ٣٦ » الحقوق المتساوية للرجال والنساء في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتوفير بشكل تقدمي الشروط اللازمة لتحقيق تلك المساواة ، ثم اعقب ذلك من صدور القانون رقم « ١ » لعام ١٩٧٤ م بشأن الأسرة والذي يكاد يكون فريدا في نوعه في بعض مواده •

وثالثا : النتائج العملية المترتبة عن هذه التشريعات والتجربة الجديدة في هذا الجزء من جنوب الجزيرة العربية بهدف ان يأتي هذا البحث مكملا أو موضوعا للمقارنة مع الابحاث الاخرى التي تبحث في وضعيةأخت المرأة اليمنية ، شقيقتها في المجتمع العربي •

١

على العموم لعبت المرأة اليمنية دورا بارزا في التاريخ اليمني ، فقد برز الكثير منهن على المسرح السياسي قبل الاسلام وبعده ، كما ظهرت أخريات في عالم الفكر والثقافة وكان لهن الاسهامات المبدعة في هذا المجال • ويكفي القول بأن منهن من كانت أعظم ملكة عربية قبل الاسلام وبعده كبلقيس وأروى • فملكة سبأ مذكورة في القرآن الكريم وكذلك في العهد القديم من الكتاب المقدس ، ورغم أن القصة في كلا الكتابين مختصرة الا أنها تشير الى مكانة تلك الملكة الرفيعة والى عظمة ملكها وبسط سلطانها وممارستها الشورى مع قومها • ومعظم الملكات المسلمات اللوائي جئن بالذات بعد القرن الرابع الهجري عند بداية نشوء الدويلات اليمنية المستقلة عن دار الخلافة قد اصبح يطلق عليهن « حفيدات بلقيس » •

وهذه هي أسماء بعض مشاهير النساء اليمنيات خلال الفترة ما بين القرنين الرابع والثالث عشر الهجريين • فمثلا عند بداية تدهور سلطة الدولة الزيادية في أواخر القرن الرابع نجد ان هند بنت أبي الحجش ابن زياد تصبح هي الكافلة لابن اخيها الامير القاصر وصاحبة الكلمة الاولى والسلطة الحقيقية للدولة خلال أربعين سنة كاملة وبدفنها حية من قبل أحد عبيدها الاحباش انتهت الدولة الزيادية في اليمن وقامت على انقاضها الدولة الحبشية النجاحية • وحتى الدولة الحبشية هذه عرفت ايضا بعض النساء الشهيرات (كالحرة أم فاتك) التي كانت في زمانها الملكة الفعلية وكان وزرائها اذا حضروا بين يديها يصغرون خدودهم بالأرض اكراما لها •

أما الدولة الصليحية (٤٣٩ ــ ٥٣٣ هـ) وكانت اشهر الدول الفاطمية في اليمن فالحقيقة ان تاريخها هو تاريخ المرأتين العظيمتين فيها وهما (أسماء بنت شهاب ، زوجة مؤسس تلك الدولة الداعي علي الصليحي والمشاركة له في الحكم و (أروى بنت احمد) زوجة ابنهما المكرم والتي حكمت اليمن أكثر من خمسين عاما • وقد بلغ من علو شأن السيدة (أسماء)ومكانتها في دولة زوجها أنه كان يخطب لها على المنابر ، فيخطب أولا للمستنصر الخليفة الفاطمي في مصر ، ثم لعلي الصليحي ثم لزوجته أسماء فيقال : اللهم وادم أيام الحرة الكاملة السديدة كافلة المؤمنين •

وكانت اذا حضرت مجلسا لا تستر وجهها عن الحاضرين ، وفيها قال أحد شعراء زمانها •

رسمت في السماح سنة جود | لم تدع من معالم البخل رسما
قلت اذ عظموا لبلقيس عرشا | دست أسماء من ذرى النجم أسمى

وأما أروى بنت أحمد (٤٤٠ ــ ٥٣٢ هـ) فقد وصفها المؤرخون

بأنها « أعظم ملكات العرب في الاسلام » وقال آخرون بأنه كان يقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها . ومن أوصاف المؤرخ اليمني عمارة لها بأنها كانت«قارئة ، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ» وقد شاركت الملكة الحرة أروى زوجها في أمور الدولة ولما استروح الى السماع والشراب فوض الأمر لها . ويقول عمارة بأنها « استعفته في نفسها وقالت له أن امرأة تراد للفراش لا تصلح لتدبير فدعني وما أنا بصدده فلم يفعل » . وبعد موت زوجها وصراعها مع الأمراء الصليحيين المنافسين ، عينها الخليفة المستنصر ملكة بدون منازع على اليمن ومارست السلطة الكاملة على كل من شؤون الدولة والدعوة الفاطمية حوالى خمسين عاما . وقد رفعها الخليفة المستنصر الى مقام الحجج في سلسلة الدعوة الفاطمية وهي مرتبة فوق الدعاة ، فقام من يعترض على رفع أنثى الى مرتبة الحجة ، وناهض هؤلاء أنصار لها قاموا يدافعون عن كرامة الاناث ، وان لهن فضلا لا ينكر اذا تميزن بالصفات الحميدة المرغوبة . ومن أعمال هذه الملكة العظيمة بناء الطرقات، واهتمامها بالزراعة،وتحصين نسل الأبقار ، ونقل العاصمة من صنعاء الى ذي جبلة ، حيث كان هناك الاهتمام بالعمل والانتاج والزراعة ، بدلا من الحرب ولمع السيوف. كما أن أوقافها الزراعية على العلم والمدارس لا تزال تعرف الى الآن .

وكما أفرز المناخ السياسي والاجتماعي في العهد الصليحي الفرصة لظهور النساء البارزات في الحياة العامة فقد أوجد المناخ السياسي أيضا في عهد الدولة الرسولية (٦٢٧ ــ ٨٥٨ ه) والتي تعتبر أشهر الدول اليمنية في العصور الوسطى الفرصة لقيام امرأتين شهيرتين في حياة تلك الدولة . فبعد قتل مؤسس تلك الدولة من قبل مماليكه وادخال المملكة في صراع مرير من أجل السلطة تصدت للموقف ابنة السلطان المقتول المعروفة بكنيتها (دار الشمس) وقامت تجمع الرجال وتحصن

العاصمة حتى تم الانتصار لها ونصبت أخاها الصغير سلطانا • وقد قدر لهذا السلطان وهو الملك المظفر أن يكون منأعظم ملوك بني رسول وملك ٤٧ سنة ، وكان لأخته مقام كبير في دولته ، كما كان لها مشاركة في الحكم والتدبير ولما ماتت في نهاية القرن السابع الهجري قال امام الزيدية في اليمن وقتذاك « ماتت بلقيس الصغرى » •

والمرأة الرسولية الأخرى هي ام الملك المجاهد الذي تولى الحكم وعمره اربع عشر سنة ، وكان التدبير في ملكه لأمه المعروفة كناية (بجهة صلاح) • وعندما قبض أمير الركب المصري على المجاهد أثناء حجة عام ٧٥١ هـ وأخذه أسيرا الى مصر ، وسارت هذه الأميرة مع رجالها وجنودها الى مكة واسترجعت كثيرا من أموال ابنها المنهوبة ، ثم عادت الى اليمن وألقت القبض على ابني ابنها خشية أن يخطر لأحدهما القيام على أبيه الغائب والاستيلاء على الملك • وبقيت تسوس البلاد وتسير الجند لتقاتل الخارجين وتنشر الأمن في البلاد حتى عاد السلطان المجاهد الى اليمن • ويقول الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية بأن حكمها كان فترة عدل واحسان وخصب وأمان وان لها آثارا حسنة في الدين ، وكانت تحب العلماء والصلحاء وتكرمهم وتجلهم وتعظمهم • وكانت تدور بيوت الناس تتفقدهم بالعطايا الوافرة •

واذا استعرضنا بعض أسماء النساء اليمنيات الشهيرات في مجال العلم والثقافة فسنجد أيضا أسماء لامعة تنافس الرجال في هذا المضمار • فهذه صفية بنت المرتضي (ت ٧٧١ هـ) تصدرت للتدريس والفتوى في الأمور العلمية ولها كتابات جيدة منها رسالة (الوجيز على صاحب التجويز) ودهما بنت يحي (ت ٧٣٧ هـ) لها مؤلفات كثيرة منها كتاب (الانوار في شرح كتاب الازهار) و (شرح منطوقة الكوفي في المواريث)

و (كتاب شرح ابن الحاجب في الاصول) و (كتاب الجواهري في علم الكلام) أما فاطمة بنت أحمد بن يحي (ت ٨٤٠ هـ) فقد شهدوا لها بأنها كانت ترجع الى نفسها فـي استنباط الأحكام الفقهية • وقـد أشار لها والدها بقوله

نساؤنا فاقت أئمتنا　　　في الفضل والتدريس والأخلاق [٢]

وكما اشتهرت هؤلاء النسوة في شمال اليمن فقد اشتهرت مثيلات لهن في شرق اليمن أو حضرموت في القرن التاسع الهجري أيضا • فممن اشتهرن بالصلاح والتقوى والمعرفة أمثال العارفة بالله (سلطانة بنت علي الزبيدي)و(السيدة وزيرة بنت الشيخ عبد الرحيم بن سعيد باوزير)[٣]• أما في مجال الحكم والسياسة فكانت هناك (بنت معاشر) والدة السلطان المهري (أبو دجانة) الذي قام في أواخر القرن التاسع الهجري بغزو عدن في حملة بحرية • الا أن حملته باءت بالفشل ووقع أسيرا بيد الطاهريين • وقد بقي ابو دجانة مقيدا بمدينة عـدن الى أن وصلت والدتـه (بنت معاشر) وكانت « امرأة كاملة ذات حزم وعزم» وهي التي ضبطت الشحر في غيبته • وقد سعت عند السلطان الطاهري فـي فكاكه على أن تسلم للطاهرين الشحر مقابل ذلك • وبعـد تسليم الشحر انتقلت الى مينائها الآخر (حيريج) • كما أن جزيرة سقطرى كانت تحكمها امرأة في بداية القرن السادس عشر عندما زارها فاسكودي جاما •

ويمكننا ان ننهي هذه العجالة المستقراة من التاريخ اليمني حـول الوضع العـام للمرأة اليمنية بنموذجين متأخرين مـن النساء الشاعرات احداهن في الشعر الفصيح والأخرى فـي الشعر الشعبي وبالذات شعر

الأحكام منه • فمن شعر زينب بنت محمد الشهاري (ت ١١١٤ هـ) هذه الأبيات عن مدينتها شهارة :

يا مـــن يفضل صنعا غـــير محتشم   على شهارة ذاك الفضل عن كمل
شهـــارة الرأس لا شيء يماثـــلها   في الارتفاع وصنعا الرجل في السفل
اليس صنعاء تحت الظهر مع ضلع   اما شهارة فـــوق النحر والمقـــل

ومن شعرها التي تستعطف به زوجها قولها :

ان الكرام اذا ما استعطفوا عطفوا   والحر يفضي ويهفو وهـــو معترف
والصفح خير وفي الأغضاء مكرمة   وفي الوفاء لا خـــلاق الفتى شرف
والعفو بعـــد اقـــتدار فعـــله كرم   والهجر بعد اعتراف فعـــله سرف
عاقب بما شئت غير الهجر أرضى به   فالهجر منك لا خوان الهوى تلف(٤)

أما الشاعرة الأخرى فهي غزالة المقدشية من شعراء الاحكام ويرجح أنها من مواليد النصف الأول من القرن التاسع عشر في المنطقة الوسطى من اليمن« وكانت شاعرة تنتمي الى أسرة ريفية متوسطة الحال ويبدو أن أمها كانت تنحدر مـــن فئة متواضعة اجتماعيا تدعى في عـــرف التقاليد اليمنية بأهل الخمس وتقع نهايـــة التركيب الطبقي أو الفئوي لليمنيين • وتضم هذه الطبقة أو الفئة بالأصح الحلاقين والجزارين والدواشين » • وقد شنت غزالة المقدشية حربا شعواء ضد الوان التفرقة عندما قالت :

قالوا غزال وامها سرعة بنات الخمس   ما به خمس يا عباد الله ما به سدس
من قد ترفع لوا رأسه وعـــد اليقش   وقال لا بأس كم يحبس؟ وما يحتبس
سواء سواء يـــا عبد الله متساوية   ما حد ولد حر والثاني ولد جارية
عيال تسعة وقالـــوا بعضنا بيت ناس   وبعضنا بيت ثاني عينه ثانية (*)

٢

هناك من الدلائل بأن المــرأة في بعض المناطق اليمنية كانت تتمتع بحريات خاصة عبر تاريخها الطويل ففي مؤتمر الاستشراق الذي عقد في باريس في أواخر أغسطس ١٩٧٣ م ظهرت بعض الآراء الجديدة حــول العلاقات الاجتماعية في اليمن قبل الاسلام • ومــن ضمن الذين حضروا هذا المــؤتمر ــ كما يقول ذلــك مكسيم رودنسون لرئيس تحرير مجلة الحكمة اليمنية ــ المؤرخ الألماني الغربي أوستن • فقد جــاء بوجهة نظر جديدة تقول أن تعــدد الأزواج في اليمن ظل قائما في ظــل الحضارات اليمنية • وقــد سأل رئيس تحرير الحكمة المستشرق مكسيم رودنسون هل يقصد تعدد الزوجات ؟ فأجاب رودنسون لا ، يقصد أن من حق المرأة أن تتزوج في وقت واحد أكثر من رجل [٥] •

كما وأن الكاتبة البريطانية نوكس ماور تخبرنا بأن سلطــان لحج السابق علي عبد الكريم كان قــد أخبرها في أواخــر الخمسينات وهما يسيران معا خارج العاصمة اللحجية عندما قابلا بعض النساء الراعيات في طريقهما وهن يحملن العصى،لقد أخبرها السلطان بأن تلك النسوة يضربن أزواجهن أيضا بنفس تلك العصى [٦] •

وبين قبائل القرا وبعض قبائل ظفار فان المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية فالرجل « يستطيع أن يطلق امــرأته بعد أن يعطيها هــدية مغادرة كذلك فيمكن للمرأة أن تطلق زوجها على أن تعيد له هــدية الزواج •• وفي حالة الزواج بثانية على الزوج أن يهدىء من خاطــر زوجته الأولى باعطائها هدية موازية لهدية الزوجة الجديدة •• وتنيجة لمثل هذه الحرية التي تتمتع بها المرأة فان العلاقات غير الشرعية تكاد تكون مجهولة • وفي

حالة حدوث مثل ذلك فأن البنت تطرد فقط من قبيلتها ولكنها لا تقتل من قبل أقاربها كما هي العادة في داخلية عمان »[7] .

ومثل هذه العادة في اعطاء المرأة حرية الطلاق موجـودة أيضا في بادية المهرة ، أما في الساحل فـان الحرية أو تكريم المرأة تأخـذ شكل تدليعها الى حد كبير بحيث أن الزوج هو نفسه الذي يقوم بخدمتها . ولذا فهناك مثل يقول بأن اسعد اثنين هما زوجة المهرى وبقرة البانيان .

وبالنسبة لجزيرة سقطري فيقول مساعد المستشار البريطاني المستر براون في تقرير رسمي له حول الجزيرة بأن « كثيرا مـن نساء الباديـة ينزلن الى السهل ويصبحن محضيات للرجـال هناك بمهر يتراوح بـين ٥ ــ ١٥ ريالا . ثم يوفر لهن الحد الادنى من الملابس والأكل لتقديم مثل هذه الخدمات . ولا تعتبر هذه الاتصالات كنوع من الزواج ، فالمـرأة تستطيع ان تترك الرجل متى أرادت ، كما أنه لا يلجأ الى أي نوع مـن الطلاق عندما يقرر الزوج انهاء الارتباط . ويعتبر هذا النظام عادة متبعة ولا توصم المـرأة المعنية بأي عار من جرائـه . ان التزاوج الفعلي يكاد يكون معدوما وهكذا هي طريقة حياتهم . أما ما سيكون مصير الاولاد، ان وجدوا ، نتيجة هذه العملية فلم أستطع أن اكتشف ذلك »[8] .

وقد يبدو غريبا أن يوجد الأبناء غير الشرعيين في المجتمع القبلي في الجنوب اليمني . ففي بعض اجزاء المجتمعات القبلية ، كان التوريد ، أو مسألة تزويد الضيف بامرأة معمولا به . ولا شك أن السلوك الجنسي كان هناك جاهليا أكثر منـه اسلاميا . فمثلا كانت الاجـراءات المتبعة وسط القبائل الواقعة شرق شقرة بالنسبة للفتاة المتزوجة التي تصبح حاملة مثيرة للغاية . فـأولا تسأل عن من هو الرجـل الذي ذهب معها وعندما يعرف

اسمه يطلب منه أن يتزوج بها فاذا « يعجز بالحرمة » على الرغم من أنه حبلها فما عليه اذن الا ان « يكسرها » بمعنى أن يعطيها « كسيرة » وهي عبارة عن عدد معلوم من « الجلبة » أو الأغنام معمولا الى الولد بأمه وانما يعرف مثلا « بصالح الزنو » ويوصف بأنه « حلال بين صفوفهم » ولا يفقد الطفل اعتباره ولربما يكون الولد « المدلل » عند جده أكثر من افادة الشرعيين • وينتسب الطفل الى قبيلة أمه ، وفي حالة الحرب مع قبيلة أبيه وحارب ضده حتى لو أدى ذلك الى قتل أبيه • وهناك فرع من قبيلة « الجعبري » معروفين بـ « أهل الزنو » وفي حالة زواج العشيق بالفتاة يبقى الطفل أولا مع أمه ، الا أنه في فترة لاحقة تأخذه عائلة الفتاة فاذا تزوجت الفتاة يبقى « الزنو » مع جده لأمه • ويسمى الطفل « ابن السلقة » أي « الفراش » أو « ابن الحرمة » •

وفي الحالة العادية عندما يأتي الطفل خارج نطاق الزوجية ، ويتوفى أبوه فيما بعد ، ينشأ الطفل من قبل أمه ويسمى باسمها كما حدث مثلا لأسلاف « أهل مريم » من قبيلة النخعي في منطقة الفضلي « المحافظة الثالثة » حاليا ، وهذا يمكن أن يفسر وجود أسماء النساء في الانساب العربية قبل الاسلام • الا أن النظريات التي تقول بأن وجود أسماء النساء في سلسلة الانساب مما يدل على بقايا نظام المرحلة الامومية السابقة ، ان مثل هذه النظريات ، اذا ما أخذت في اطارها العربي ، دائما ماتتراءى لي مستبعدة للغاية (٩) •

ومن العادات الهامة المتبعة هو أنه من أجل المحافظة على « شرف » العائلتين المرتبطين بالزواج فان الرجل اذا ما تزوج بفتاة حاملة من غير علمه فيبقيها معه لمدة عام ثم يطلقها وذلك حتى لا يجلب العار لأبيها • أما اذا أعجبته الفتاة فلربما يبقيها هي وطفلها •

أما اولئك الناس الذين يعيشون في بيوت في أبين فهـم لا يتبعون عادة القبائل الموجودة في شرق شقرة ، ولكنهم يعطون الفتاة الحاملة دواء مجهضا ويبقون الموضوع مكتوما • ثم يحاولون تزويجها بالشخص المعني أو شخص آخر قبل أن يتكشف أمر حملها • ويظهر ان الناس الموجودين في غرب شقرة ، وكذلك العواذل ، يتبعون نفس هذه الاجراءات • أمـا قبائل ربيز الكازمي فيعملون مثل ما تعمل قبائل الفضلي • ان وجود مثل هذه الاعراف وسط هذه القبائل ، التي هي بعيدة عن التأثيرات الخارجية ان وجود هذه الاعراف التي تعتبر الطفل يتبع فراش أبيه تجعل الانسان يفترض بنوع من الثقة بأنها عادة جاهلية (١٠) •

وعلى اية حال فان التسامح في قضية الأولاد غير الشرعيين في هذه المناطق وعدم تعريض الفتاة الى العقاب الصارم ، يعكس نفسه من خلال الزيارة السنوية التي كانت تقام في « الكثيب الابيض » في منطقة أبين حيث كان يوجـد الى عهد قريب ما يسمى « بحجر الزنـوان » أو حجر البراءة•فكل من كان يستطيع أن يحبو تحت ذلك الحجر الذي كان موضوعا فوق أحجار أخرى ــ ويخرج من الجانب الآخر ، كان يعتبر ولدا شرعيا أما من لم يستطع ذلك فيعتبر أنه قد جاء من خارج نطاق الزوجية • الا أن الموضوع برمته كان في الأساس يؤخذ من باب الممازحة • فاذا حدث أن توقف الشخص عن الحبو تحت الحجرة ــ مما يدل على انه ولد غير شرعي ــ يطلق شخص آخـر بندقيته لكي يمكنه الخروج مـن الجانب الآخر من الحجرة ولا شك أن صوت البندقية المفاجيء يساعد الجسم على التحرك والخروج من ورطته (١١) •

ومن ظواهر حرية المرأة في بعض المناطق اليمنية هو قبول المجتمع في أن تشارك الرجل في الرقص والاختلاط • فيوشك السفور أن يكون

عاما في القرى وفي البادية • ففي عسير مثلا يقول أحد الرحـالة الذين زاروا المنطقة بأن من « الأمور الجديرة بانعام النظر في أهل هذه البـلاد سفور نسائها واختلاطهن بالرجال ، ولا فرق بين أن يكون الرجال مـن الأقارب أبناء البلاد أو الغرباء والأجـانب • وتشترك النساء في أحاديث الرجال في مجالسهم ، مهما كان نوعها سواء كن ابكارا أم ثيبات » (١٢) ثم يضيف هذا الرحالة قائلا : «عجبت باديء الأمر من هذا الاختلاط من رفع الكلفة بين الجنسين ، ولكني أدركت أن نساء هذه البلاد قد اعتدن عدم الاحتراز مـن مخالطة الغرباء بفضل الزمـن والعادات المتوارثة ولا يرين في ذلك بأسا (١٣) •

وقد لاحظت أيضا طبيبة نساء ألمـانية زارت كلا مـن شمال اليمن وجنوبه في أواخر الاربعينات وبداية الخمسينـات بأن المرأة مثـلا في حضرموت «تتمتع باحترام يفوق ما تتمتع به شقيقتها في اليمن المتوكلية• وقد تبينت هذه الحقيقة فور وصولي ، اذ عرفت أن النساء لايعشن في طبقات تقع دون الطبقات من المنزل التي يعيش فيها الرجـال ، بل في طبقات أعلى منها ، وكان في وسعي أن أتحدث الى الرجل عن زوجته أو بناته ، وأن أذكر حتى أسماءهن ، ولم يكن هنا مجهولات كل الجهل في الحياة العامة ، وكان الرجال يسمحون لنسائهم بأن يلعبن دورا أكثر في حياتهم مما أدى الى أن افكار المرأة هنا كانت أكثر اتساعا وأن آفاقهن أوسع شمولا • (١٤)

كما لاحظ نزيه العظم في الثلاثينات أن النساء في تهامة كن يتمتعن بحرية شبيهة بحرية الرجل في الملبس « فبعض الرجال كانوا عارين مـن الثياب خلا مئزر في وسطهم •• وبعضهن كن كالرجال عاريات الا مـن مئزر بسيط ، وبعضهن لابسات أكمامـا قصيرة •• وبعضهن وضعن على رؤوسهن قبعة مصنوعة من قش القمح والشعير لترد شمس تهامة المحرقة،

وهي من صنعهن . وقد علمتهن الحاجة التي هي ام الاختراع أن لا يتقيدن بعادة أو قانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن . ثم يضيف العظم قائلا « ومن الطف ما سمعت عن نساء اليمن في جهة نجران أنهن يرقصن مع الرجال أزواجا على نغمات الرباب وضرب الدفوف.وقد الفن هده العادة من أجيال عديدة وتشارك بعض نساء اليمن رجالهن في شرب القشر وتخزين القات » (١٥) .

وتمارس حرية الرقص سوية أيضا في مناطق أخرى من اليمن .. ففي يافع ، خاصة أثناء مواسم الأعياد والزواج والزيارات العامة،يرقص الرجال والنساء معا . ويتبارى الشعراء بأشعارهم المرتجلة لترددها النساء داخل الحلبة بأصواتهن المنغمة الجماعية . وكذلك في جزيرة سقطري فان كثيرا من الليالي تصرف في الرقص بين الرجال والنساء . وقد شاهدت بنفسها ذلك احدى زوجات القضاة الانجليز في مستعمرة عدن التي زارت منطقة لحج في أواخر الخمسينات . وكانت تلك الرقصات المختلطة أثناء الاحتفال السنوي لعمال محلج القطن هناك . « عندما وصلنا الى المحلج وجدنا أن المحتشدين قد قسموا أنفسهم الى حوالى ست مجموعات ، وكل مجموعة كانت تحيط برقصة مختلفة . وفي وسط مجموعة من الناس قريبة منا كان رجل وامرأة يرقصان سوية . وهذا شيء لا يمكن رؤيته في المستعمرة حيث نظام الحجاب يطبق بصرامة . ان النساء والرجال هنا يعملون جنبا الى جنب في المزارع ولا تحتجب الا نساء الطبقات العليا . وكان الرجل والمرأة يرقصان بمنتهى الأناقة وذراعه اليمنى ملتفةحولخصرها بينما استرخى رأسها فوق كتفه وهما يدوران سوية » (١٦) .

٣

الا أنه يجب ألا يغرب عن البال بأن هذه الحريات التي قد تسمح بها بعض المناطق للمرأة فان عوائـق كثيرة أخرى بالمقابل ، قـد قيدت حريات المرأة نتيجة لأسباب كثيرة منها المغالاة في الحجاب خاصة في المدن وبين نساء المجتمعات الطبقية الحادة كالعلويين فـي حضرموت والسادة عموما في اليمن • وهناك الكثير من الأشعار والأمثال التي كانت تعبر عن النظرة الفوقية للمجتمع تجاه المرأة • وهـذه هي بعض أبيات أحـد شعراء الاحكام في حضرموت :

يقول أبو عامر / ولا تأمن من النسوان راس
لا تأمن العذراء ولا الفـارق ولا حتى النفاس
يقول أبو عامر / ومرثاتي لمـن نسله بنـات
يدعي لهن بالموت لو حتى عرائس مسندات• (١٧)

فظاهرة الحجاب ما زالت تنتشر في اليمن وخاصة في المدن • والى عهد قريب مثلا في المدن الشمالية كان لا يسمح أن تخرج من البيت الا في صحبة أمها وذلك لزيارة الأقارب فقط أو شراء بعض الحاجيات(١٨)•

وكثير من النساء يشبن داخل الجدران ويحجبن ليس عن أزواجهن فقط وانما ايضا في بعض الحالات عن غيرهن من البنات • وبالطبع فان درجة الحجاب تختلف كثيرا باختلاف المناطق والتركيبات الاجتماعية • ففي كثير من القبائل فان المرأة تتحرك بحرية تامـة وتمشي وهي سافرة وتتكلم مع الرجل • وهذا لا ينطبق على نساء البـدو فقط وانما أيضا على نساء الطبقات الفقيرة في المجتمعات الزراعية • أما الحجاب الصارم فيطبق بوجه خاص وسط العائلات الموسرة • وفي بعض الحالات قد لا

يسمح للرجل أن يظهر على زوجة أخيه على الرغم من أنهما يكونان تربا معا كأطفال • فحالما تحجب الفتاة فلا يظهر عليها الا أقرب أقربائها من النساء والبنات ، كما لا يسمح لها بمخالطة قريناتها من البنات غير المتزوجات وذلك خوفا من أن يكشفن عن عيوبها وبذلك يعرضن فرص زواجها للخطر • وفي محمية عدن الغربية قد يزوجون الفتاة وعمرها لايزال بين ٩/١٠ سنوات وذلك درءا لأن تتعرض فرصة زواجها للتقلبات » (١٩) •

« وفي أوساط الطبقات العليا المرفهة في تريم في حضرموت ، عندما « تدخل العذراء في السن » حسب تعبيرهم ، تصبح محجوبة »• ولا يسمح لها لعدة سنوات أن تخرج من المنزل ، وتبقى في الطابق العلوي منه معظم وقتها متجنبة معاشرة النساء المتزوجات • وهذه العادات تنطبق أيضا على الساحل • ومن ناحية أخرى فان نساء الطبقات الدنيا في تريم يمشين سافرات ، ولكن لا أستطيع أن أقول أين يكمن الخط الفاصل ، الا أنه يجب أن تتذكر بأن الحجاب هو علامة مرتبة اجتماعية ولا يكون مضايقا للكثير من النساء العربيات كما قد تتخيل ذلك النساء الغربيات » (٢٠) •

ونتيجة لحياة النساء بين الجدران وحجبهن عن الأنظار ، فان الكثير من الرجال كانوا يتحرجون عن نطق أسماء زوجاتهم أمام الآخرين• وهذه دكتورة نساء أجنبية تصف تجاربها في هذا المجال فتقول : « من النادر أن بعث لي أحدهم بخادمة لاستدعائي ، اذ كان يجيئني دائما الزوج نفسه الى رؤية « بيته » أو يوفد الي أحد خدمه من الرجال • ولو كنت قد تحدثت اليه عن « زوجته » بدلا عن « بيته » لكان هذا الحديث خطيئة اجتماعية كبرى •• وفي حالة وجود أكثر من زوجتين له

يرد علي قائلا : « بيتي القديم » أو « بيتي البدين » أو « بيتي الصغير» واذا كان لا بد من اعطاء اسم معين فان الاسم الأول لقريب المرأة الذكر هو الذي يعطى دائما . وحتى النساء أنفسهن ولا سيما في عائلات السادة ، يلقبن بعضهن بعضا باسم الرجال كقولهن « السيد أحمد » و « السيد محمد » (٢١) .

وعندما ترسل الأمهات في القرى الرسائل الى أبنائهن المهاجرين في المدن اليمنية أو في الخارج فانهن يتحرجن عن ذكر أسمائهن وانما عادة تمهر الأم باسم والدها قائلة المخلص / أبوك فلان بن فلان .

كما فرض الحجاب والحياة المنعزلة على النساء قبول الطاعة العمياء من أزواجهن أو أقاربهن وقد نقلت الينا زوجة المستشار البريطاني تساؤل احدى نساء حضرموت حول طاعة الأوربيات لأزواجهن « هل تطيعين زوجك أو هو الذي يطيعك ؟ » وقبل أن أتمكن من الاجابة عليها ذهبت تحدثني عن الطاعة . فكأرملة تستطيع أن تعمل ما تشاء، ولكن كل هؤلاء النسوة لا بد أن يستأذن من أزواجهن اذا ما أردن الخروج من المنزل فان قال الزوج لا وجب عليهن البقاء في البيت (٢٢) .

الا أن بعض الأوربيات اللواتي اختلطن كثيرا بالنساء اليمنيات يعتقدن بأن العزلة المفروضة عليهن قد تؤدي الى اهتمامهن ببنات جنسهن بدلا من أزواجهن وفي بعض الأحيان الى العلاقات العاطفية والجنسية خاصة في الأماكن التي تكثر منها هجرة الأزواج الى الخارج.

فعن تجاربها في صنعاء تقول الدكتورة الفرنسية كلودي فايان :

«وهكذا تقضي النساء اوقات فراغهن بعيداعن الرجال في الصباح

واثناء الغذاء وبعد الظهر . والمدهش المحير ان هؤلاء النسوة لسن في الدير . انهن أنيقات مخضبات يرقصن ويعرضن مجوهراتهن ولكن لا لاسعاد الرجال .. فالرجال لا يشاهدون أبدا هذا البهاء .. وكثيرا ما سألت احداهن «ولكن هل سيراك زوجك بهذا الجمال وهذه الزينة هذا المساء هل رآك ترقصين ؟ فترد دهشة مستغربة كلا » (٢٣) .

أما السيدة انجرامز ـ وكانت ساحة تجربتها حضرموت فتقول: « ان هذا التسلط من قبل الرجال قد جعل النساء خاليات البال وليس لهن مشاكل كبيرة تذكر فالأزواج قد اوجدوا لهن ولم يكن ملزمات بالخروج والعمل او منافسة الرجل بطريق أو بآخر . وعلى الرغم من أن حياتهن محصورة فهي على نمط واحد وهن يعرفن تماما ماذا يستطعن أو لايستطعن عمله دون موافقة الرجل . ولم يكن يبدو على وجوههن مثل ذلك القلق الذي دائما ما يظهر على وجوه النساء في البلدان الاكثر تطورا . وعلى العكس فقد كن أشبه بالراهبات ويبدو عليهن هدوء البال والسكينة والصفاء كما هو الحال بالنسبة لحياة الدير . ولكن بسبب عزلتهن عن مجتمع الرجال فان ذلك يعود في بعض الأحيان الى علاقة ـ بل الى علاقة عاطفية ـ مع النساء الأخريات » (٢٤) .

ويرتبط بقضية عزل المرأة عن المجتمع الرجالي استماتة الرجال في عدم تمكن المرأة من التعليم وذلك خوفا من أن تستغل معرفتها بالقراءة والكتابة في الاتصال بالرجل من وراء الحجاب . ومن الطريف أن نجد نظرة الرجل في اليمن لا تختلف عن نظرة شقيقه في العراق تجاه هذه المسألة . فقد كتب الأستاذ عبد الرزاق الهلالي ما يلي :

« ان مشكلة تعليم البنات (في العراق) كان أشق وأصعب لأن

نظرة المجتمع آنذاك لم تمكن تقبل للبنات أن يتعلمن القراءة والكتابة. ومن طريف الآراء في هذا الخصوص الرأي الذي أبداه المرحوم خير الدين الألوسي في كتابه الموسم ؛ (الاصابة في منع البنات عن الكتابة) الذي كتبه سنة ١٨٩٧ قال : « فاما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله ، اذ لا أرى شيئا أضربهن ، لأنهن لما كن مجبولات على الغدر،كان حصولهن على هذه الملكةمن أعظم وسائل الشر والفساد وأما الكتابة فأول ما تقدر المرأة على كلام بها ، فانه يكون رسالة الى زيد ، ورقعة الى عمرو ، وبيتا من الشعر الى عزب ، وشيئا آخر الى رجل آخر .

فمثل النساء والكتب والكتابة، كمثل شرير سفيه، تهدي اليه سيفا، أو سكير تعطي له زجاجة خمر . فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى ، فهذا هو أصلح لهن وانفع [٢٥] .

وعلى نفس المنوال أعلاه تقريبا سجلت لنا السيدة انجرامز هذا الحوار مع أحد أصدقائها بشأن قضية تعليم المرأة القراءة والكتابة . كان حواره هذا بعد زيارتها الى مقصورة نساء بيته . « قال لي أن النسا العربيات ليست لديهن أخلاق ، عليك أن تخبريهن كيف يجب أن يسلكن انهن يحتجن الى تعليم » فأجبت : من المؤسف بأنهن لايستطعن القراءة والكتابة . فقال أنا لا أقصد ذلك . انهن في حاجة لتعليم الأخلاق . فاذا تعلمن القراءة والكتابة فسيبدأن في الحال بمراسلة الرجال [٣٦] .

الا أن الأسباب الحقيقية لعدم تعليم المرأة أعمق وأشمل « لقد سمعت الرجال مرارا يرددون قائلين انهن لسن أفضل من الاغنام .

ولكن ذنب من ذلك ؟ ان الرجال يخافون في أنه اذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة فستطالب بحرية أكثر وبمزيد من الحرية ستنتهي الأخـلاق • ان أفكارهم عن الفساد الاخلاقي هي دائما انعكاس لما يعتقدونه عـن سلوك المرأةالغربية التي تقبل أمام الأنظار وتلبسالملابس غير المحتشمة، وعموما تسلك بطريقة لا يريد الرجل المسلم أن تقلدها ابنته » (٢٧) •

٤

وقد عرف المجتمع اليمني كغيره من المجتمعات الأخرى وجـود الجواري فـي العصور الوسيطة والحديثة ولكن ليس بالشكل الحاد كبقية مناطق الجزيـرة والخليج العربي • وتصف لنا كلودي فايـان تجربتها في هذا المضمار في صنعاء في أوائل الخمسينات فتقول :

« نزل سفير للمملكة العربية السعودية في دار الضيافة في صنعاء وأراد أن يشتري جارية بيضاء من أحد أمراء صنعاء ليقدمها هدية الى سيده ابن سعود وجاءني واحد من خدم دار الضيافة ونقـل الي الخبر في تكتم شديد ، بل وأحضر معه العقد الذي وقعـوه ، والثمن الذي اتفقوا عليه وهو ألف وثمانمائة ريـال (٧٠٠ د) ولكن الصفقـة كانت متوقفة على الفحص الطبي الذي سأقوم به •

واذا كانت الفتـاة تكلف هـذا المبلغ الكبير فلانها من الجنس الأبيض ، أما الجواري الأخريات اللائي أعرفهن فانهن من أصل أفريقي •• وطلبوا مني أن أفحصها فحصا باطنيا دقيقا (وكان عمرها ١٥ سنة) حتى يتأكدوا من أنها خالية من كل الأمراض التناسلية •• وفي ذعـر واحساس بالعار هاجت وحـاولت التخلص ولكن الأمير كان يخضعها

بالقوة . لقد كان مشهدا جارحا مؤلما .. واذا تحدثت عنه اليوم خارقة بذلك قسم هيبوقراط فما ذلك الا بفعل نظرتها في تلك اللحظات الرهيبة. وقد تعمدت أن أذكر لهم تفاصيل شنيعة عن أعـراض المرض الجلدي المعدي المستعصي .. وغـادر الأمير السعودي المطار ولم يأخـذ معه جسما محجبا صغيرا بعيدا عن وطنه .

ان على أصدقائي اليمنيين أن يدركـوا أن الانسان ليس حيوانا يباع . [٢٨] وفي كتاب ابن المجاور الدمشقي (ت ١٢٩٠ م) الذي كان رحالة طوافـا زار الهند وبلاد فـارس والحجاز واليمن ، وصف فريد لعادات الناس في المساكن والزواج والأخلاق العامة ، ولو كانت قبيحة قد يتحرج غيره من ذكرها ولكنها على أية حال مـن جوانب الحضارة الانسانية تستحق أن تعرف . ويظهر من وصفه لأخلاق بعض نساء ميناء عدن ــ ومعظمهن أجنبيات ــ أو لبيع الجواري فيه ، ان وضع المـرأة آنذاك قد بلغ دركه الأسفل .

والحقيقة أن الأمر لم يقتصر على ميناء عدن وحده وانما على بقية الموانىء اليمنية فمثلا هناك اشارة الى أنه عند غزو البرتغاليين لميـناء الشحر في مطلع القرن السادس عشر كان في الميناء عـدد من حـانات الشراب الذي يعصر محليا . وفي المدينة ماخور ومرقص يديرهما أحد الهنود بالاشتراك مع بعض أهالي الشحر والراقصات يجلبن من الهند ومن لامو ثم يعدن الى موطنهن الأصلي ، والبعض منهن يوالـين السفر الى عدن والحجاز . والربان بأسباع يطلق على الماخور والمرقص اسم « محلات الغرام والهيام والمدام » [٢٩] .

أما وصف ابن المجاور لعملية بيع الجواري في عدن فكان كالتالي:

« تبخر الجارية وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويأخذ المنادي بيدها ويدور بها في السوق وينادي عليها ، ويحضر التجار الفجار يقلبون يدها ورجلها وساقها وأفخاذها وسرتها وصدرها ونهدها . ويقلب ظهرها ويشبر عجزها ويقلب لسانها وأسنانها وشعرها ويبذل المجهود وان كان عليها ثياب خلعها وقلب وأبصر (ثم يذكر أشياء فاحشة لا نريد ذكرها) فاذا قلب ورضي واشترى الجارية تبقى عنده مدة عشرة أيام زائد وناقص . فاذا رعي وشبع ومل وتعب وقضى وطره قال زيد المشتري لعمرو البائع : بسم الله يا خواجا بيني وبينك شرع محمد بن عبد الله فيحضر عند الحاكم ، فيدعي عليه العيب [٣٠] .

وفي حالة أخرى يقول ابن المجاور : « حدثني قال اني بعت جارية هندية بعدن على رجل اسكندراني بقيت عنده سبعة أيام . فلما شبع استعيب فيها وأحضرني الى الحاكم وادعى عليها بالعيب . فقال الحاكم. وما عيبها ؟ (ثم يذكر عيبا فاحشا [٣١] . لا نود أن نذكره هنا) .

أما وصف ابن المجاور لوقاحة بعض النساء الأجنبيات في شوارع ميناء عدن آنذاك فهو يقول . « اذا تخاصم بعض النساء البرابر مع أخرى تخلع ما عليها من الثياب وتلطم صدرها ، وتصفق وتقفز وتسلق عيناها في وجه صاحبتها ، وتغدو كل واحدة منهما تارة تنام وتارة تنحني وتارة تضحك وتبكي وتارة تعبس وتارة تلطم (ثم يذكر تصرفات مشينة لا نريد ذكرها) ثم ينهي ابن المجاور كلامه : وايش ما عملت احداهن عملت الأخرى مثل الأولى . فما رأيت أوقح ولا أوسخ ولا أقل حياء من البرابر لا جزاهم الله عن الاسلام خيرا » [٣٢] .

وفي كثير من الأحيان كانت المرأة تعامل وكأنها سلعة لا غير . فها

هو أحد سيوف الاسلام في اليمن المتوكلية يعامل زوجـاته الشرعيات وكأنهن سلعة جنسية قابلة للتبادل • وهذا وصف لما لمسته كلودي فايان في صنعاء تقول الدكتورة فايان : « ودعنا الأمير (ع) بعد الغذاء للانتقال الى المفرج ولكنه قبل هذا تركني وحدي مـع الأمير (ب) وأخـذ معه المهندس (صديق فايان) الى مقر الحريم ، أجل الى الحريم • مسكين المهندس •• انه شارد الفكر ، تائه بوضوح وصف لي ما رأى فيما بعد فقال : ساقني الأمير الى الحجرة المجاورة وفيها ثلاثة سرر كبيرة • وكنا أمام الزوجات الشرعيات وهن في أجمل ثيابهن وكامل زينتهن ، وقـد زاغت عيونهن • كن مستعدات لكل شيء •• عدا أصغرهن •• فقـد خانتها شجاعتها أمام هذا الرجل الغريب ففرت واختفت تحت السرير •

ثم شرح لي صديقي ما حدث • قال له الأمير • دبر لنا (الحكيمة) ـ يعني فايان ـ وتستطيع أن تختار من تشاء من حريمنا [٣٣] •

كذلك تعطينا الطبيبة الفرنسية لقطة أخرى فتقول : « وهـا نحن للمرة الثانية في الطابق العلوي ، في البيت الكبير • كانت نساء الأمير في غليان وفوران وقد رقدت سيدة عارية فوق احدى السرر الثلاثة ، والقت أخـرى بنفسها في أحضاني وتعلقت برقبتي وهمست في أذني « كونياك » •• طبعا كونياك •• هكذا دائما • وطلب الأمير أن أفحص المريضة ودعا المهندس للدخول الى الغرفة بـل وطلب من المهندس أن يفحص المريضة بعدي : ولم تكن مصابة بشيء على الاطلاق » [٣٤] •

ويشير فؤاد حمزة الى ظاهرةمعاملة المرأة كسلعة في عسير فيقول• «وقد لاحظت أنواعا من الزواج كانت المساومة فيه أساسا له وكان المال سببا لاتمامه • ولم يستنكف أهل هذه البلاد عن تزويج بناتهم من الجنود برغم علمهم بقصر مدة اقامتهم بين ظهرانيهم • وهذا التساهل في اختيار

الأزواج أو بالأحرى في بيع النساء للرجال بثمن بخس وبدراهم معدودة قد لفت نظري الى هذه الظاهرة الاجتماعية الخطرة » (٣٥) .

وبالطبع فان معاملة المرأة بهذا الشكل قد جعل النساء وليس لهن الا مشاغل تافهة صغيرة«عواطف سفلية وضيعة . فالرجال يستخدمونهن هنا كسلعة ، سلعة للذة والتسلية أو آلات لانتاج الأطفال ، والشيء الذي يعامل كسلعة يصبح شيئا وضيعا » (٣٦) .

كذلك بسبب تلك الأوضاع التي كانت تعيشها المرأة ، تجد زوجة أحد قضاة المحكمة العليا في عدن ابان الحكم البريطاني ، والذي كان مسؤولا عن البت في قضايا الزواج والطلاق . بموجب (المنهاج) بأن الحقيقة التي لا تصدق تبقى بأن في كل (١٠) حالات زواج في المستعمرة كانت (٧ ــ ٨) حالات طلاق يتم تسجيلها في سجل الطلاق في المحكمة. وأن هذه النسبة العالية تجعل حالات الزواج والطلاق في هوليود لا شيء يذكر أمامها . ثم تمضي الكاتبة قائلة بأن نسبة الطلاق قد بلغت ذروتها في منتصف الخمسينات عند مجيء فريد الاطرش لاحياء الحفلات الغنائية في عدن . فقد استطاع ذلك الحدث أن يجمع النساء كما لم يستطع أي شعار آخر ، في طريق تحرير المرأة فقد تدافعن بالمئات لحضور حفلات الأطرش دون رضا أزواجهن أو أقاربهن . وكانت النتيجة ارتفاع نسبة الطلاق آنذاك في المستعمرة (٣٧) .

٥

بالنسبة لاجراء الخطبة واختيار الزوجة فتختلف العادة من مكان لآخر ففي البعض تتم الخطبة بموافقة الفتاة ، وفي البعض الآخر يتم

اختيار العروس بواسطة الأهل . الا أنه في الكثير من المناطق اليمنية هناك حق الأفضلية لأبن العم في الزواج من ابنة عمه . « ان حقوق بني العم شيء ثابت بموجب الأعراف . فالفتاة يجب أن تتزوج بأقرب أبناء عمومتها كابن عمها . واذا لم يكن لعمها ولد أو لجدها أخوة ينتقل الحق الى أقرب ذرية جدها الأكبر . وحتى اذا لم يطلب ابن عمها الزواج بها، فان موافقته على زواجها بآخر لا بد من الحصول عليه . ولا يسقط حقه الا في حالة تزويج أبيها لها مقابل زوجة جديدة له . واذا ما توفي أبوها وطالب بها ابن عمها فيمكن للفتاة أن تستعطفه لكي يتركها حرة لتختار الزوج الذي تريده الا أنه لا يمكن أن يفرض عليه اعطاؤها حريتها في الاختيار . فاذا رفض فما عليهما والرجل التي اختارته الا أن يهربا ويطلبا حماية رئيس قبيلةقوية أخرى ، ولكنهما سيعيشان في خوف مستمر من أن يثأر بهما. فاذا قتلها ابن عمها فلن يكن ملزما بدفع ديتها، أما اذا قتل الرجل نفسه فعليه أن يدفع نصف الدية فقط » (٣٨) .

وفي عسير السراة أيضا فابناء عم العروس « أولى بها من الغرباء، ولهم عليها حق الأفضلية ، ولذا يجب التثبت من عدم معارضتهم في الزواج أو ارضاؤهم للتخلص عنه قبل اتمامه » (٣٩) .

وعلى أية حال فان الخطبة ــ كأي ظاهرة اجتماعية أخرى ــ ترتبط بظروف المجتمع والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة فيه ونجد ذلك واضحا في ظاهرة الخطبة في المجتمع اليمني ، فهي ترتبط بالعلاقات الدينية ممثلة في ظاهرة الحجاب وعدم السماح باختلاط الجنسين وخاصة في المدن الرئيسية وترتبط بالترتب الاجتماعي والعلاقات الطبقية ، وكذلك ترتبط بالعلاقات الاقتصادية والحاجة الى أيد عاملة (٤٠) .

فالأب في الظاهر هو الذي يقرر في شئون الزواج ولكن الحقيقة أن النساء هن اللائي يقمن بعقد الزواج ، فالشاب يعلق أهمية كبرى على رأي أمه وأخوته لأنهن يعرفن الزوجة المقترحة .. وهكذا يتوقف الزواج على مدى حكمة نساء الأسرة (٤١) .

وهذا وصف أحد الشباب العدنيين المتعلمين لكاتبة أجنبية ، عن كيفية اختيار عروسه بواسطة قريباته من النساء .

« وفي الأخير تجمعت لدي قائمة بتسع مرشحات مع كل تفاصيل وجوهن وهيئاتهن وأصواتهن وشخصياتهن الخ الخ . وبدأت في عملية الاختيار ولك أن تتصوري صعوبة الاختيار طالما أن عيني لم تقع مطلقا على أحد منهن . وعلى كل حال فبغياب الصور ، لأن ذلك كان ممنوعا تماما ، كان علي أن أمتد على فراشي في الظلام وابدأ اتخيل هيئة كل واحدة منهن حسب الأوصاف التي أعطيت لي اني أعرف أن هذا قد يبدو غير معقول . الا أن كلواحدة منهن مع الوقت قد صارت في ذهني شخصا حقيقيا وواضحا » وفي الأخير ينهي هذا الشاب حديثه حول الزواج فيقول « أنه أشبه بالقمار . وما على الانسان الا أن يتقبل مصيره » (٤٢) .

الا أنه في أماكن أخرى من اليمن فان حرية اختيار الزوجة تتم بموافقة الجانبين . فاختيار العروس في عسير السراة ، لا سيما القرويات والبدويات ، يقع كما يقول أحد الرحالة ، في « أحد مكائن السوق أو البئر . وعلى الراغب في الزواج الا أن يرتدي أحسن ثيابه يوم السوق ويشرع في ذرعه ذهابا وجيئة الى أن يقع نظره على فتاة تعجبه ، فيتقدم اليها خاطبا باللغة المعلومة «أنا ميدك» و «أنا ميد» و «أنا ليس ميد »

ويستدل على ولي الفتاة ، وتتم الخطبة في نهار واحد . وهـاك المهر ، وهاك الضيفة ، وهاك الشرهة ، وهاك الأستاذ مـأذون الزواج ، بسم الله من حلل النكاح وحرم السفاح مبارك يا عريس » (٤٣) .

وفي بعض الأحيان وعوضا عن استعراض الفتيات في السوق فان الراغبين يتصيدون الفتيات من بعيد في طريقهن الى السوق قبل وصولهن اليه حتى لا يزاحمهم مزاحم أو ينافسهم منافس . أو أنهم يذهبون الى البئر الذي يجمع فتـيات الحي والقرية حيث هنـاك الفرصة الحسنة للحديث معهن فيحصل التعارف والاتفاق الضمني على البئر ، ثم يعقب ذلك اجراءات الخطبة الرسمية في البيت (٤٤) .

ويشير ابن المجاور الى وجود عادة شبيهة لذلك في منطقة ذمار ، في أواسط اليمن ، في القرن السابع الهجـري . ففي الفصل الموسوم (صفة نكاح أهل هذه الأعمال) يقول ابن المجاور :

« اذا خطب زيد بنت عمرو وأنعم له بذلك يقول زيـد لعمرو . أريد أشاهد جمال كريمتك . فيقول عمرو : أقدم الى السوق الفلاني فانها تتوعد به . شاهدها في بيعها وجمالها . فيقدم زيـد الى السوق الذي دله عمرو فيقعد على قارعة الطريق فتقبل خطيبته وعلى ظهـرها كارة قدر شيلها تحط في السوق فتبيع ما معـها وتشتري حوائجها ، وترفع كارتها على ظهرها . ويرجع خطيبها ورآها تقطع الجبال والأودية والشعاب والسهل والجبل واللين والوعر . وهذا كله ولم تحط الكارة من ظهرها ولم تسترح . فاذا أعجب الرجل حالها وجمالها وشيلها وبيعها وشراها وقوة صبرها على شيل الثقيل فعند ذلك يملك بها ويدخل عليها وتبقى على شغلها ذلك الى الممات » (٤٥) . وكما هو واضح من هـذا

النص فان الاعتبارين الأساسيين هما جمال الفتاة وقدرتها على العمل ، بمعنى قيمتها الاقتصادية .

وفي وسط قبائل القرا في الجنوب فان أبا الفتى الذي ينوي الزواج لأول مرة « لا يتكلم فقط مع أبي الفتاة وانما عادة مع الفتاة ذاتها وأمها مطريا صفات ابنه في نفس الوقتوفي بعض أقسام قبائل المهرة والمناهيل فان الرجل يسمى باسم أمه كأن نقول محمد بن مريم . وفي قبائل المناهيل والحموم وبعض القبائل الجنوبية الأخرى فان الرجل لا يتزوج الا بزوجة واحدة ويقوم الرجل بخطبة الفتاة مباشرة » (٤٦) . ومن الجدير بالذكر أن الأعراف في قبائل الحموم كانت تسمح بما يسمى « التفريخ » وهو أن تحمل الفتاة من غير زوجها . ولا ترى القبيلة في ذلك ضيرا خاصة اذا كان ذاك الرجل معروفا بالشجاعة ، لأن القبائل دائما تريد الفتيان الشجعان .

٦

وكما أن هناك قيود الخطبة التي تحد من عملية اختيار الزوجة ، فان قيود الكفاءة في الزواج لهي أشد وأقسى في بعض المناطق اليمنية كحضرموت التي كان يمارس فيها الى وقت قريب نظام الطبقات . فعموما بينما يمكن للرجل أن يتزوج من أيةطبقة اجتماعية الا أنه لا يمكن للمرأة أن تتزوج من طبقة أدنى من طبقتها (٤٧) .

وكل العلويين في حضرموت متفقون على موضوع الكفاءة في الزواج ، بمعنى أنهم لن يسمعوا بتزويج بناتهم الا لسيد أو شريف. وهم في هذه القضية أكثر صرامة من أبناء عمومتهم زيود شأن اليمن . وقد

نتج عن قضية الكفاءة هذه أن انقسم المجتمع الحضرمي الى فريقين في بداية هذا القرن ، أو بما عرف فيما بعد بالصراع العلوي/الارشادي. وتعود جذور الصراع حول هذه المسألة الى ١٩٠٥ عندما وقف السادة العلويون باصرار في وجه زواج هندي مسلم في سنغفورة بسيدة علوية . وقد أصر العلويون بعدم الكفاءة في الزواج على الرغم من أن رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة أفتى بوجوبه لسبب بسيط وهو أن الاسلام يؤمن بالمساواة . وقد نتجت عن هذه القضية المظاهرات في جاوة وهاجم الارشاديون دور السادة في نظام الطبقات وأنهم يستخدمون الدين ليحافظوا على مكانتهم العالية في المجتمع ليبرزوا عدم المساواة المناقضة لروح الاسلام . ثم أضاف الارشاديون بأن «السادة ليس لديهم الحق في أن يمارسوا سياسة الزواج التميزية لأن جميع المسلمين متساوون ويستطيعون الزواج بحرية »(٤٨) .

ويعتقد البروفيسور سارجنت أن الكفاءة في الزواج ، كما تطبق في حضرموت مبنية على المبادىء الجاهلية لطبقة الاشراف قبل الاسلام، كما أنها ـ أي قضية الكفاءة ـ في الاسلام تطبق تطبيقات مختلفة . ثم يضيف سارجنت قائلا : « وفيما بينهم أخبرت بأن السادة يعتبرون عارا اذا ما تزوج أحدهم بفتاة من طبقة أدنى من طبقتهم على الرغم من أن ذلك مسموح به من ناحية الشرع .. وقد عرفت حالة في تريم حيث كانت الأم المسكينة تتكلم عن ابنتها الشريفة » (٤٩) . أما الأم المسكينة المتزوجة فلن يرتفع مركزها الاجتماعي كبقية النساء من السادة وانما أطفالها فقط هم الذين ينتقل اليهم دم السادة العلويين (٥٠) .

ان اطار النسب في حضرموت يقسم الناس الى ثلاث طبقات . فكل شخص يرث نسبه من أبيه ولا يمكن المحافظة على مثل هذا النظام

الا عن طريق نمط من الزواج معروف • وقضية الزواج في حضرموت تعتمد على الكفاءة،بمعنى أن الرجل لا يجوز له أن يتزوج الا من تساويه في النسب ، فان لم يتمكن من ذلك يجوز له عندئذ أن يتزوج من هي أقل منه نسبا • وتبقى الأفضلية دائما للزواج الأفقي من نفس الطبقة (٥١) •

والحقيقة أن تفسير الكفاءة في الزواج في حضرموت بالمفهوم العلوي « أصبح أمرا واقعا وذلك بسبب قوة السادة وثرائهم • فهم لم يرضوا أن يزوجوا بناتهم الى المساكين » كما أن نظام الكفاءة في الزواج «لا يعني أن العرائس داخل الطبقة الواحدة متساويات•فهناك تقسيمات داخلية بحيث تكون الأفضلية للاهل قبل الطبقة لأنهم يفضلون الزواج من العائلات صاحبة الثروة المماثلة ، وهدفهم من هذا هو من أجل ابقاء الثروة داخل العائلة ومن أجل تدعيم وحدة العائلة » (٥٢) •

وتتكون الطبقة الدنيا في حضرموت من الحرثان والأخدام والصبيان • فمن ناحية نظرية ، كل طبقة المساكين لهم مركز واحد ، الا انماط زواجهم تعارض هذا النظام المثالي القاضي بأن جميع الأشخاص ذوي النسب الواحد يمكنهم أن يتزوجوا فيما بينهم • فالواقع يدحض ذلك ، فمثلا زواج الحرثان بامرأة خادمة عمليا يعتبر زواجا رأسيا بين مسكين أدنى (المرأة الخادمة) وبين مسكين أعلى (الزوج المسكين) والسبب في ذلك هو أن كل جماعة من المساكين تحاول أن تدعم مركزها الوظيفي بالمقارنة مع جماعة مساكين أخرى • وتعبر عن هذا « النسب » الجديد بواسطة الزواج •

وبما أن الحرثان كانوا هم الوحيدين من المساكين الذين كان

باستطاعتهم امتلاك الأرض في الماضي فقد كانوا لا يزوجــون نساءهم الى بقية طبقة المساكين خوفا من تحويل الوريثة فيما لو تــم الزواج • وقد توصل الدكتور البجرة من دراسته الميدانية هذه الى « أن أنماط الزواج تبين أن كلا من مركز النسب والعوامــل الأخرى تؤخــذ بعين الاعتبار عند اختيار الزوجة ، وما هو الا اعادة بيان للهيكل الاجتماعي ودعما للفروق في الثروة وذلك خوفا من أن تنتقل نتيجة الزواج • كما أن الزواج الأفقي قد حافظ على مر الأجيال في أن تنفرد كل جماعــة وتحافظ على كيانها داخل الهيكل الاجتماعي • وفي الحالات التي تــم فيها الزواج من أدنى الى أعلى فقد أبقى على التأكيد الرمزي للمركز • فأولاد الزواج في مثل تلك الحالات يأخذون نسب أبيهم • وأما الزوجة فتستمر تعتبر في مركزها الواطيء ؛ وكيفما كان الأمر فان الزواج الرأسي غير المتساوي لا يساعد بأي حال على الحراك الاجتماعي » (٥٣) •

كذلك في شمال اليمن فان طبقة السادة لم تكن تسمح بأن تزوج بناتها من أبناء الطبقات الأخرى ، وكذلك لم تكن تسمح بزواج ابنائها من هذه الطبقات وان كانت تتساهل فيما تتعلق ببنات المشائخ والعقال ورجال القبائل • ويزداد التمسك بهذه التقاليد في شمال اليمن ويقــل في وسطه •

وبالنسبة للقبائل فان « هذه الطبقة لا تسمح لفتياتها بالزواج من غير قبيلي ، وقد تزوج فتياتها من هاشميين ، انما دون ذلك فلا يمكن أن تتزوج الفتاة القبلية من أبناء الأسر التي يمارس أفرادها بعض الأعمال الصناعية كأن يكون الفرد حلاقا أو مغنيا أو صاحب مقهى أو صانــع أحذية أو دباغ جلود ــ بنو الخمس الذين سبق أن ذكرناهم ــ أمــا الأخدام فهم طائفــة منبوذة لا يمكن أن يتزوج أي فرد مــن الطبقات

الأخرى مـن بناتها أو أن يتـزوج أي فـرد مـن فتيات الطبـقات الأخرى » (٥٤) •

أما في عسير فلا يهتم أهلها بالكفاءة في النسب فيما عدا عائلات الأفراد والأعيان التي لا تتزوج بناتها لغير الكفء ويقول فؤاد حمزه بأنه قد شاهد حوادث كثيرة قد أغفلت فيها شروط النسب والكفاءة (٥٥) •

وبالطبع فان نتائج تطبيق الكفاءة في الزواج بمثل تلك الصرامة كثيرة وأهمها أن بنات العلويين قد يفوتهن قطار الزواج بسبب عـدم توفر الرجال من طبقتهن ويصبحن أرامل أو عوانس • وفـي دراسته للتركيب الطبقي في مدينة حريضة في حضرمـوت يسجل لنا الدكتور البجرة بروز الصراع بين طبقتي السادة والمساكين الى السطح بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م في صنعاء • وهذا تسجيل لما شاهده •

« وسرعان ما تصلبت المواقف أكثر في حريضة • فمثلا أصبحت مواقف بعض شباب الأخدام أكثر عدوانية ، وبدأوا يندِّدون بالمكشوف بسيطرة الفريق الأول وغلب على نكاتهم الطابع السياسي والاستهزاء الواضح • ومما قيل أن بعض أراملهم يسمعن وهـن يتمتمن مرحبات بالثورة عندما تأتي الى حريضة ستحضر معها حرية الزواج » (٥٦) •

٧

ومن الظواهر التي كانت سائـدة في المجتمع اليمني هـو زواج الفتيات في سن مبكر • وهذا بدوره يعكس اهتمام المـرأة بالنواحي الجنسية وذلك « ثمرة نشوئهن في بلاد ألف أهلها تزويج بناتـهم في

سن تتراوح بين العاشرة والرابعة عشرة ولم يكن من غير المألوف على أي حال في اليمن أن عجوزا في السبعين من عمره أو يزيد ، يبنى بفتاة في العاشرة لتحول كما يقولون بينه وبين الشيخوخة بما تحمله من نظرة الشباب ويفاعته • ولا تكون الفتاة في هذه البلاد وهي في العاشرة أو حتى الرابعة عشرة من عمرها أكثر نموا بدنيا وعقليا من مثيلاتها في هذا السن في أوربا ولكنها تكون أكثر ثقافة في الناحية الجنسية اذ أنـها نشأت على التطلع الى الزواج المبكر •• وذلك لأن الرجال والنساء على حد سواء كثيري الصراحة في الأحاديث الجنسية ولا يتورعون مطلقا على التحدث بجميع دقائق الحياة الجنسية » (٥٧) •

وترى طبيبة أجنبية أخرى أنه لا يوجد ضرر كما يظن من الزواج المبكر وانما ضرره يكمن في تأثيره على اعاقة النمو العقلـي المتكامـل لدى الفتاة فيما بعد وكذلك على اهتمامها المتزايد بالجوانب الجنسية• « لقد عرفت الكثيرات من صغيرات السن مزوجات ومخطوبات ولـم أتبين لذلك ضرر ، ويندر أن تحمل الفتاة خلال المرحلة الأولى لبلوغها• وعسر الولادة ينتجعن سوء التغذية أكثر مما ينتج على النمو الجنسي غير الكامل للام الشابة •• وفي نظام الحريم تعـد الفتيات الصغيرات اعدادا نفسيا ممتازا •• ويعرف الأزواج كيف يحصلون على ما يريدونه من متع ولذات » (٥٨) ثم تضيف هذه الطبيبة في مكان آخر قائـلة :• « وزواج الفتاة الصغيرة ليس فيه خطر من الناحية الجسمية ، بل أنـه جانب فتان في غالب الأحوال •• الا أن هناك أمرا في غايـة الأهمية ، وذلك أن وضع الفتيات تحت رعاية الرجال وهن في سن مبكرة•• يحول بينهن وبين النمو العقلي المتكامل » •

وظاهرة تعدد الزوجات في اليمن تختلف من منطقة الى اخرى •

فالعظم الذي زار شمال اليمن في العشرينات والثلاثينات قد لاحـظ تعدد الزواج فقال : « ويكثر الرجال في اليمن من الزواج وقلما يجـد الانسان رجلا متزوجا بأقل من زوجتين أو ثلاثة ، وكثيرا ما يطلق الزوج زوجاته ويتزوج من غيرهن ، وربما بلغ عدد زوجات بعضهم من مطلقات وغير مطلقات الثمانية أو العشرة أو أكثر • وقد روى لي أحدهم عن نفسه أنه تزوج من تسع زوجات طلق منهم ستا وبقي عنده ثلاث • وقـد رزقه الله من جميع زوجاته (٢٥) ولدا مات منهم (١٦) وبقي عنده تسعة • فسألته وكيف كان بامكانه أن يعدل بينهم فقال « ان الأمر سهل جدا لأن النساء في اليمن قد ألفن تعدد الزوجات فلا تجد الغيرة اليهن سبيلا ولايؤخذن رجالهن على الزواج ولا يلمنهم وتعيش غالبية زوجات الرجـل في منزل واحد دون ان يحدث بينهن شجار أو خصام » [٥٩] •

أما ما لاحظته كلودي فايان حول هذا الموضوع في بداية الخمسينات فكان بدرجة أقل ولكنها أيضا أيدت العظم في استنتاجه حول تأثير تعدد الزوجات فقالت « واذا توفرت الامكانيات فان واحدا من كل رجل تتعدد زوجاته ، اذ أن أرجح الأزواج عقلا وحنكة يشعرون وهم في سن الأربعين بحنين ورغبة الى جسد بعض جديد ، وزوجاتهم يعرفن كل هذا ويتقبلنه كما لا تتقبله المرأة في أي بلد آخر وذلك لأن الاسلام يقـره أولا ولأن كرامة الزوجة لن تمس بهذا الزواج تماما كزواجها وهي ليست نتيجة للحب• انها لاتخشى العواصف التي تقلب الحياة العائلية رأسا على عقب في البلاد التي تتعارف فيها الرجـال بالنساء • وهي أخـيرا ستجد صديقة أجنبية تساعدها وتأخذ عنها جزءا من العمل المنزلي » [٦٠] •

كما أكدت هذه الطبيبة الفرنسية في مكان آخر بأن « تعدد الزوجات يحمي الى حد كبير استقرار البيوت التي يوجد بها أطفال • فلا وجود هنا

للبيوت المنهارة مثل الغرب . ولعل المرأة الغربية التي هجرها زوجها والتي تبحث عبثا عن نفقتها من زوج هارب وليس عندها ما تعيش به ، لعل مثل هذه المرأة تكون أقل تعاسة في مجتمع فيه تعدد الزوجات ولا سيما والأب هو الذي يتكفل دائما بنفقة الأولاد وتنشئتهم » (٦١) .

وفي تريم في حضرموت فقد لاحظ البرفسور سارجنت بأن العلوي اذا ما تزوج بأكثر من واحدة فانه يضع كـلا منهن في بيت مستقل تجنبا لنشوء أية متاعب وأنـه حتى بالنسبة لطبقة المساكين اذا تزوج أحـدهم بأخرى فسيحاول أيضا توفيرها ببيت آخر . ثم يضيف سارجنت قائلا . « أعرف حـالة في مدينة أخـرى حيث كانت الزوجتان تعيشان في منزل واحد ، الا أن الرأي العام كان ضد ذلـك . كما أعـرف علويا ثريا كان متزوجا على الأقل بسبع زوجات . وكن كالآتي . الأولى شريفة ولها عدة أطفال ، والثانية قروية ، والثالثة شيخة مـن آل بافضل ، والرابعة سيدة شريفة والخامسة قروية من عائلة المشائـخ ، والسادسة شريفة ، والسابعة صينية . وعلى العموم فان الزوجة الأولى في العائلة يكون لها المركز الأول، الا أنه في حالة زواج العلوي بشيخة أولا ثم بشريفة بعد ذلك فان الشريفة ستكون لها المركز الأول وتكون الأسبقية لأبنها » (٦٢) .

٨

ولا شك أن تعدد الزوجات في اليمن قد قل الآن نتيجـة للتطور الاجتماعي الذي نتج بعد قيام ثورتيه في بدايـة الستينات ، وفي كتاب أخير تعرض لهذه الظاهرة في شمال اليمن يقول مؤلفه « ولا نستطيع الآن، تحديد مدى انتشار ظاهرة تعدد الزوجـات في المجتمع اليمني ، لأننا في الدراسة الحالية لم نأخذ سوى عينات قليلة في أماكن محدودة لا تصلح

للتعميم ، ومن هذه الدراسة الجزئية أستطيع القول أن تعدد الزوجات غير شائع في المجتمع اليمني بحيث أن نطلق عليها كلمة (ظاهــرة اجتماعية) تسود المجتمع ، كما يمكن القول أيضا أن التعدد يوجد في الحضر بأكثر مما يوجــد في الريف ويرجع ذلــك لزيادة الدخــل في المدن عنــه في القرى » [٦٣] •

وبسبب تكرر ظاهرة الطلاق فقد كان ينتج عنها الكثير مــن المآسي وأهمها رمي الأطفــال الى الشارع ودخــول النساء المطلقات ، خاصة في الموانىء ، عالم البغاء • وتقول جون نوكس ماور أن حوالى ٧٠ ٪ مــن المطلقات في عدن كن يضطرن الى ممارسة البــغاء وذلك لأنهن لــم يكن قادرات بأن يتزوجن ثانية كما أنهن لم يكن صالحات للقيام بأي عمل ولذلك كانت ممارستهن للبغاء سبيلا لكسب الرزق [٦٤] • وبالطبع فمما كان يساعد على سهولة ممارسة البغاء في الموانىء والمدن الساحلية السماح بممارسته ابان الاستعمار البريطاني في احياء معروفة من المستعمرة •

وفي أول كتاب رسمي عــن مستعمرة عــدن ، ألفه مساعــد المقيم السياسي البريطاني قبل حوالى مئة عام ، يتعرض الكاتب الى أخلاق سكان المستعمرة ــ وكان معظمهم من الأجانب المستوردين ــ فيقول • « وفــي الختام فمن الجدير ملاحظته أن أخلاق السكان ليست من المستوى العالي• وهذا نتيجة الغياب المستمر للازواج المهاجرين كالصوماليين في رحــلات تجارية خارج المستعمرة • وعادة لا يحضر الهنود معهم زوجاتهم عندمــا يأتون الى عدن ، كما انهم لا يستطيعون الزواج بالفتيات العذارى ، وانما بالمطلقات فقط ومثل هذه التغييرات المستمرة في الأزواج بالاضافة الى ما جبلن عليه النساء الصوماليات من حوك الدسائس ، كأن يؤدي دائما الى ممارسة الزنا من جانب الجنس اللطيف » [٦٥] •

كذلك فقد كان من نتائج طلاق الأمهات رمي أطفالهن الى الشارع فقد كان من عادة الرجال المهاجرين في الموانىء أن يطلقوا زوجاتهم بعد عودتهم الى بلدانهم الأصلية مما يضطر الزوجات المطلقات الى الزواج ثانية ولكنهن عموما كن يتركن أطفالهن وهم في سن ٤ ـ ٥ سنوات فيضطر أولئك الأطفال الى أن يقيتوا أنفسهم أما عن طريق الاستجداء أو السرقة أو الخدمة (٦٦) •

٩

ومن المشاكل التي كانت تعترض عملية الزواج المبالغة في المهور وتكاليف الزواج • وبسبب بروز المشكلة فقد كانت هناك محاولات كثيرة للحد منها • فمثلا عقدت اتفاقية في تريم في حضرموت عام ١٨٩٥ بين السادة والمشائخ وأهل الجوف حول ماذا يجب أن يصرف للزواج حسب العادة • كما وقعت اتفاقية مشابهة لذلك في شبام في بداية الخمسينات •

وفي الدولة القعيطية صدر منشور رقم (١٠) لعام ١٩٥٩ من أجل معالجة تكاليف الزواج • وقد جاء في مقدمة ذلك المنشور الديباجة التالية :

«أما بعد نظرا لما هو واقع من الضرر دينيا واقتصاديا وخلقيا بسبب التنافس في مؤن وشؤون الاعراس وتقاليدها من لباس وجهاز وغيرهما من العوائد التقليدية الخارج كل ذلك عن حدود الاعتدال الى حد الاسراف، قرر مولانا صاحب العظمة السلطان في المجلس ما يلي وذلك كقرار مجلس الدولة رقم ١ تاريخ ١٠ شوال الموافق ١٨ أبريل ١٩٥٩ م) وقد حدد

المنشور العادات المتبعة من بداية الخطبة حتى ليلة الزواج بعشرين مرحلة، وحدد لها القواعد والضوابط ٠

وفي السلطنة العوذلية قننت تكاليف وشروط الزواج عام ١٩٦١ ، كذلك حدثت ترتيبات مماثلة في دثينة ٠ أما في عدن فقد تعرضت الجرائد للمشكلة منذ بداية الخمسينات وهاجمت « مغالات أهل الفتاة في المهور والجهاز » ، كما هاجم الشيخ محمد سالم البيحاني في كتابه « أستاذ المرأة » الصادر في عدن عام ١٩٥٠ أزمة المساكن وأزمة الآثاث وارتفاع المعيشة وارتفاع المهور ٠ وفي عددها رقم ٢٢ بتاريخ ١١ نوفمبر ١٩٦١ نشرت جريدة صوت الجنوب العدنية «أوبريت الدفع» (٦٨) ٠

١٠

وترتبط الخطبة والزواج في كثير من المناطق اليمنية بالقيمة الاقتصادية للمرأة ٠ فكلما زادت مهارة الفتاة في الريف زاد مهرها ٠ فالمرأة في هذه المناطق تخطب لنشاطها ومهارتها في العمل وليس لجمالها أو حسبها أو نسبها ٠ ان الدافع الأساسي لديهم في تزويج أبنائهم هو الحصول على أيد عاملة فالأسرة تريد شابة تتقاسم مع ربة البيت الأعباء الشاقة التي تضطلع بها ٠٠ بل كثيرا ما يتزوج الشاب ثم يسافر للعمل أو الدراسة في المدينة ويترك زوجته تخدم أبويه (٦٩) ٠

ان الحياة في الريف اليمني في شمال اليمن بالذات قاسية شديدة القسوة فأغلب الزراعة تكون على مدرجات الجبال أو قاع الوديان بوسائل بدائية ، الأمر الذي يتطلب جهودا جبارة في الزراعة والعناية بالمزروعات، ويقع على عاتق المرأة جزء كبير من هذا العمل ٠ وهي بالاضافة الى القيام

بأعمال المنزل العادية تساعد زوجها في الحرث والبذر وخدمة المحاصيل ، وكذلك تقوم برعي مختلف أنوع الماشية والعناية بها وتربية الدواجن وأيضا تذهب الى السوق في عمليات البيع والشراء واذا فرغت من اعمال زوجها فقد تعمل بالأجر في حقول الآخرين ، ويصدق ذلك بوجه خاص على الأسر الفقيرة .. كما أنها تزاول مهنة الخياطة وغزل الكوفيات والطواقي وأيضا بعض الصناعات التي تقوم على الخامات المحلية .. ويختلف مدى مشاركة المرأة اليمنية من منطقة الى أخرى ، ويرجع ذلك أكثر ما يرجع الى طبيعة هذه المناطق ، فهي تقوم بنقل المحاصيل عند تعذر استخدام الدواب، وكثيرا ما تهبط المرأة جبلا بل عدة جبال أحيانا لجلب الماء ثم ترجع تصعد هذا الجبل أو هذه الجبال وهي تحمل المياه وكذلك لجمع الحطب (٧٠) .

ان المرأة في الطبقات الدنيا هي مكسب اقتصادي وليست ترفا ماديا. فالنساء الفقيرات عادة ما يزدن من دخل العائلة عندما يعملن في المزارع ، أو يجمعن ويبعن الأحطاب والماء أو يصنعن الحصر والسلال والأدوات الأخرى . وبعضهن قد يعملن في البيوت ويكونن العائد الرئيسي لأفراد الأسرة « أما زوجات البدو في جنوب الجزيرة فهن اللواتي يرعين الماشية ويغزلن ويحيكن الأصواف ، وهن في أحيان كثيرة لا يكلفن أية مصاريف منزلية ، لأنهن يبقين متجولات في البراري مع بقية أفراد الأسرة وراء الكلأ والمرعى» (٧١) . وبالنسبة لرجال القبائل في الماضي فقد حلوا انتقال الميراث الى خارج القبيلة عن طريق تجريد المتزوجات الى الخارج من الميراث وذلك بحكم الأعراف أو حكم الطاغوت من القبائل . وكما هو معروف فقد شن الامام يحي حروبه على القبائل القوية كحاشد وبكيل بحجة عدم توريثهم النساء بسبب اتباعهم حكم الطاغوت بدلا من الشريعة الاسلامية .

١١

وهناك اشارات الى بعض العادات الوحشية التي كانت تلحق بالمرأة ليلة عرسها في بعض المدن اليمنية كزبيد وحرض وعدن • واذا كانت هذه الممارسات تعكس شيئا فهي النظرة الاحتقارية التي كان يكنها المجتمع للمرأة • ففي زبيد وحرض يقول ابن المجاور ما نصه « من يوم تدرك البنت الى يوم تعرس لم يمكنوها من التنتف وتربيها الى أن تضفرها دبوقة ، ويقال أنه يدهن ويسرح ويغسل بالسدر والطين فاذا كان ليلة عرسها ظفرت دبوقتان وتشد كل دبوقة منها في احدى فخذها وتجلى على زوجها • فاذا خلا بها وقعد منها مقعد الرجل مع المرأة فحينئذ يمسك الرجل تلك الدبوقتين ولا يزال يمدهما الى أن يقلعهما من الاصل فاذا قلعهما استنفضها بعد ذلك • فاذا أصبحت من الغد يزورنها قرابتها ومع كل واحدة منهن صحن زبد وتداوي الموضع بالزبد ليبرد عنها الالم لأنه يقلع الشعر مع الجلد » [٧٢] • (لم نثبت من النص التعابير النابية جدا)•

أما في عدن فحتى الستينات من هذا القرن كانت هناك عادة قبيحة بدائية تمارس ليلة العرس خاصة بين أفراد الطبقات غير المتعلمة •• ففي ليلة دخول الزوج بزوجته تجلس تحت سرير العروسين (المعروف بالناموسية والمرتفع عن الارض كثيرا) امرأة تكون عادة مسنة تعرف بالمكدية ، ويكون عملها اعطاء الاشارات للعروسة العذراء كيف تتصرف أثناء العملية• ثم تأخذ المنشفة الملطخة ببقع الدم الناتجة عن عملية الأفتضاض وتذهب بها الى أقرباء العروسة الذين يكونون مجتمعين في بيت العروسة • ثم تقوم المكدية تغطرف (أي تزغرد) بصوتها كي يسمعها الجيران ويعرفوا أن العريس قد قضى وطره وأن العروسة كانت بكرا بالفعل • وفي الصباح

يأتي الجيران للتهنئة • ويعلق البروفسور سارجنت على هـذه العادة بأنها لا شك أن تكون جاهلية وأن الاسلام يمقتها (٧٣) •

١٢

والحق أنه منذ بداية الثلاثينات وظهور حركة الاصلاح الاجتماعي في عدن قام الكثيرون بالدعوة الى تعليم البنات والى اصلاح أحـوالهن الاجتماعية والثقافية ويدعو أول كتاب فكري صدر في عـدن في العصر الحديث الى المطالبة بمثل هذه الحقوق• وبما أن الحركة التبشيريةالمسيحية كانت أول من فتح المدارس للبنات الأجنبيات ، كمـا أن نساء بعض المسؤولين البريطانيين كن هن اللوائي حاولن تشجيع النساء العربيـات على الانخراط في النوادي النسائية ، فقد طلب المصلحون العدنيون في ترقية شؤون المرأة عن طريق المبادرات الأجنبية ففي كتاب (نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة) يقول مؤلفه الأستاذ الاصنج،والذي كانفي الوقت نفسه رئيسا لنادي الاصلاح ، ما نصه : « لا توجد في عدن مدرسة للبنات يعلمن فيها القراءة والكتابة والدين ، كما يتعلمن الخياطة والتطريز والنسيج • ولهذه المناسبة انتهزت الفرصة جميعة التبشير بالدين المسيحي وفتحت مدرسة لبنات المسلمين يتعلمن فيها الخياطة والتطريز،وهناك يتشربن المبادىء المسيحية شيئا فشيئا ويتثقفن فـي التمدن المعكوس على الطراز الأوربي وهـو التبرج والذهـاب الى المنتزهـات والتطلع على لوحـة السينما » (٧٤) •

وفي مكانين آخرين من نفس الكتاب الى تعليم البنت ، والى ضرورة الالتزام بالحقوق الزوجية من كلا الجانبين (٧٥) • وفي عام ١٩٤٣ هاجم بعض الكتاب العدنيين الطريـقة التي يتم بهـا الزواج وهـذه المجموعة

ومعظمهم من الصحفيين والأدباء تكلمت عن الاصلاح الاجتماعي • وفي جمعية مخيم ابي الطيب الأدبيــة أدان الأستاذ محمد علي لقمان ، تعــدد الزوجات ، كما اتهم عبد الرزاق فكري العدنيين لعــدم معرفتهم الحقيقة لمعنى الزواج (٧٦) •

وفي عام ١٩٥٠ أصدر الشيخ محمد سالم البيحــاني أحد رجال الدين المشهورين ، كتابا أسماه (أستاذ المرأة) وضع فيه القواعد السلوكية للمرأة المسلمة بما يتناسب مع الظروف السائدة آنــذاك ولكن على ضوء المبادىء الاسلامية • فمثلا استنكر عادة عــــدم صهور الخطيــب على المخطوبة ، بل وعدم معرفته لها ، الا ليلة العرس واعتمــاده الكــلي في معلوماته عنها على أمه أو الماشطة (أو المكدية التي سبق أن تكلمنا عنها) والتي لايهمها الا المسحة والعطايا التي تحصل عليها من أهل العروسة •

وفي عام ١٩٦٠ أصدر الصحفي محمد شفيق كتيبا بعنوان (ثــورة المرأة على الحجاب)•والحقيقة أنه نتيجة لتعليم البنات في الداخل والخارج والىالحملات الصحفيةالتي كانتتشن ضد الحجابفياواخر الخمسينات وضرره على الجسم والعقل معا ، فقد ثار جدل عام حول الموضوع بــين الداعين له من الشباب والمتنورين ، وبين خصومه من رجال الدين كالشيخ باحميش • وقد أدى الأمر في النهاية الى أن سارت ست فتيات بقــيادة رضية احسان في مظاهرة في شوارع عــدن وهن سافرات فــي ملابس غريبة وكان أقاربهن من الرجال يرافقوهن في مسيرتهن • وقد زرن دور الصحف العدنية وأعلن عن رمــي الحجاب نهائيا (٧٧) • وتعتقد كاتــبة بريطانية أن حكومة المستعمرة كانت تود منذ مدة الغاء الحجاب وادخال السفور ولكنها لم تتجرأ أن تفعل ذلك لخوفها من أن تتهم بهجومــها على

الشريعة الاسلامية (٧٨) • ولهذا كانت المرأة العدنية الى قبيل الاستقلال تسافر في جواز بدون صورة لها •

وبالمقارنة مع بقية المناطق اليمنية فـان المرأة في عدن قـد دخلت المدارس في تاريخ مبكر • ففي منتصف الثلاثينات كانت هناك مـدرسة مزدهرة للبنات ، كما بدء وقتذاك في انشاء مدرسة ثانوية • وكانت هناك مدرسة تبشيرية فيها عدد لا بأس به من البنات اليمنيات ، الا انه على الرغم من ذلك ــ كما تقـول المسز انجرامز ــ « فـلم تتجرأ على الخروج الى الشارع بدون حجاب في منتصف الثلاثينات سوى واحدة أو اثنتين وحتى اولئك لم يتجرأن على اسقاط الخمار الأسود كـله وانما ذاك الجزء فقط الذي كان على وجوهن » ثم تضيف السيدة انجرامز قائلة :

«ان النساء المتحررات في المستعمرة كن آل حسنعلي وبنات عمومتهن من آل جعفر وهؤلاء أنفسهن كن ذوات أصول فارسية • وواحدة منهن بالذات هي نبيهة كانت أول النساء الرائدات في العمل الاجتماعي في عدن • فقد التحقت بعدة جمعيات خيرية ، واستطاعت مع رحيمة جعفر وأخواتها بأن تساعدني في تجميع عـدد لا بأس به مـن النساء لصنع الضمادات للمرضى من الجرحى • كما ان المجلس البريطاني فتح ناديا للنساء العربيات بهدف زيادة مشاركتهن في الأعمال الاجتماعية الا أن المشروع أثبت فشله لأن القليل من الرجال كانوا يسمحون لنسائهم بمثل تلك الحرية كالالتحاق بالنوادي » (٧٩) وبمساعدة رحيمة جعفر أيضا حاولت زوجـة المستشار البريطاني تشجيع نساء المكلا لتكوين نـادي للنساء والمساهمة فـي عمل الضمادات لجرحى الحرب العالمية الثانية أو فتـح صفوف لتعليم الكبار • وكانت أول مدرسة للبنات تفتح في المكلا يديرها الشيخ عبد الله الناخبي

الذي استطاع أن يقنع عددا من الآبـاء بأن يرسلوا ببناتهـم ليقوم هو وزوجته وابنته بتعليمهن [٨٠] •

١٣

وعلى اختلاف اختها المرأة في الخليج العربي والجزيرة العربية ، فان المرأة اليمنية تقاسي باستمرار فراغا نفسيا وعاطفيا من جراء هجرة زوجها الى مختلف بقاع العالم جريا وراء الرزق منذ أمد طويل • وفيما عـدا المنطقة الشمالية من صنعاء فتكاد تكون الهجرة عامة في كل المناطق• وكل ما في الأمر أن اتجاهات الهجرات اليمنية هي التي تغيرت وهي الآن مركزة أكثر في المملكة العربية السعودية ومنطقة الخليج العربي بدلا من بلدان الشرق الأقصى والهند وشرق أفريقـيا وأمريكا وبريطانيا كما كانت عليه في السابق •

وفي الماضي كان الزوج المهاجر قد يبقى بعيدا عن زوجته أو أطفاله في بعض الأحيان ما بين ١٥ ــ ٢٠ سنة ، وبعضهم كانوا يضطرون للزواج في مهاجرهم ثم يعودون الى زوجاتهم الأصليات بعد كل تلك المدة • ومثل هذا الفراق بين الزوجة وزوجها لا شك وأنه كان يولد الفـراغ العاطفي عند كليهما وبالذات عند الزوجة • ولقد لاحظت ذلك الآنسة فرياستارك في منتصف الثلاثينات في وادي دوعن في حضرموت « جاءت الينا امرأة جميلة اسمها عطية من القرية السفلى وكان زوجها ، الذي تزوجته قريبا ، قد غادرها الى بلاد الصومال •• وبدأت تغني لنا قصيدة من تأليفها تتمنى لزوجها أن يعود لها بالسلامة • وفيها تقول عد فابنة عمك وحيدة كل ليلة وضحكت البنات اللواتي كن جالسات حوالينا • فمدت عطية يديها وقالت وعيناها تلمعان برقة • هل ما قلته خطأ ؟ أليس هو زوجي ؟ الا يجوز لي

أن أدعو له بالعودة ؟ ولكن كم سيبقى بعيدا عنك ؟ فأجابت . آه من يدري ربما عشر سنوات اذا أراد الله ثم تنهدن جميعا . وهذا هو حزن جميع من يعيش في هذه الأودية » [٨١] .

ويزخر الشعر اليمني بالقصائد المؤثرة حول الهجرة ومردوداتها النفسية بل وهناك من القصائد حول هذا الموضوع ما تعتبر من روائع الشعر العربي والانساني كقصائد الشاعر اليمني محمد أنعم غالب وبالذات قصائد (الغريب) و (الطريق) و (قطرة بن) [٨٢] . وهذه بعض الأبيات الشعرية في اللغة العامية من اليمن الاسفل والتي لا يعرف قائلها ولكنها جميعا تعبر عما يختلج في صدور زوجات المهاجرين من حزن وأسى وتشوق . وهذه الأبيات مما ترددها النساء ويغنينها أثناء عملهن في الحقول أو البيوت :

ليلي أهيم أحصي النجوم وحدي
والدمع تشوي مهجتي وخدي

العيد أتى كل من حزب وعيد
وانا بحبسك واحبيب مقيد

خرجت نص الليل ولا معك صوت
فرق الأحبة مثل نزعة الموت

خلي سرح مدينة خلف مدينة
شأرزم على قلبي حجر وطينة

ليتك ترى حبيبي بحالي
شتبكي النهار وشتقهد الليالي

بالله علـيك يا شمس لا تغيــبي
توقــعي حيــنا شصل حبيــبي

الا أنه نتيجة لهذا الفراغ العاطفي من جراء افتراق الزوج عن الزوجة في المهجر لمدة طويلة فقد وجدت زوجة مستشار بريطاني سابق ، كانت لها علاقات وطيدة مع بعض النساء في منطقة حضرموت ، لقد وجدت هــذه الزوجة أن الفراق يؤدي عادة الى انشاء علاقات جنسية بين النساء ذاتهن كتعويض لما فقدنه بسبب عدم وجود الأزواج •

« في حضرموت يعتقد الرجل أنه ما دام ليست هناك فرص للنساء في أن يقابلن الرجال فانهن سيحيين حيــاة عفاف •• ولكن عندمــا تثار عواطف البنات عن طريق الزواج المبكر وبعدها يصد من نتيجة الطلاق أو هجرة أزواجهن ، فليس من المستغرب ، مــا دام ليس أمامهن أي مخرج حتى ولــو كان غزلا بسيطا مــع الرجــال ، الا أن يتجهن نحو بنــات جنسهن » (٨٣) •

وفي مكان آخر من كتابها ، تصف لنا هذه الكاتبة أن ذلك ما كان يحدث لاثنتين تعرفهما تماما فهذه الأولى « ذات النظرات التي تخلب الألباب كأنها نجمة سينمائية ، والتي يمكنها أن تكون كذلك فيمــا لو نشــأت وترعرت في بيئةاخرى لقد كنت اشاهدها وانا مشدوهة بجمالها وصفاء قسماتها والتي كانت تخفي تحت طياتها ذكاء واهتماما بالعالم الذي حولها لربما كان بلا شك قادها الى حياة غنية ترضي بها اكثر فيما لو كانت تعلمت وتحررت • ولكنها كانت تضيع مواهبها ، غير المشكوك فيها ، في المزاح مع الحريم • لقد كانت مثل الاخرى تعزى نفسها بسبب فقدانها لزوجها الذي ذهب الى المهجر ، في عشق النساء الأخريات • (٨٤) •

الا ان الهجرة من ناحية ايجابية قد ساعدت المرأة اليمنية في أن تأخذ على عاتقها بعض المسؤوليات التي كانت من مهام الرجل. فالهجرة الكبيرة للرجال قد جعلت المرأة الممثل البالغ الوحيد للاسرة . فرحيل رب الأسرة وغيره من رجالها البالغين يلقي على عاتق الزوجة أيضا مسؤوليات جديدة. فكونها رب الاسرة المؤقت يجعلها تلتزم بمهام جديدة تخلى عنها رب الاسرة المهاجر . وتنطوي احد هذه المهام على قدر كبير من مسؤولية اتخاذ القرارات التي كانت وقفا على الرجل . وهكذا فأن الدور التي تلعبه المرأة في اقتصاد الاسرة قد توسع بشكل جوهري .. وبهذا الشكل تصبح الزوجة أثناء غياب زوجها في مرتبة اجتماعية مساوية على الاقل لمرتبة الابن الاكبر في الاسرة اذا كان دون سن الزواج من حيث السلطة ضمن العائلة . (٨٥) .

ومما ساعد المرأة على القيام بالواجبات التي كانت اساسا من مهام الرجل كالزراعة ، هو انه بفضل ادخال بعض المكتشفات الحديثة من الآلات كمكائن طحن الحبوب والقوارير الخوائيـة ، ومكائن الخياطة والسيارات قد قلص كثيرا من وقتها الذي كانت تصرفه يوميا لانجاز تلك المهام التقليدية اليومية الواجب عليها انجازها .

وبالمقارنة مع ما أحدثته الهجرة بالنسبة للمرأة في الريف العماني في هذا المجال فاننا نجد ان دورها لم يتغير كثيرا هناك كدور شقيقتها في اليمن وذلك بسبب ان الهجرة في اليمن أقدم وأشمل ، هذا من جهة ومن جهة ثانية لأن أي تغير يحدث في عمان يكـون بخطوات رتيبة بسبب المذهب الاباضي المتزمت هناك نوعا ما . ففي دراسة ميدانية اخيرة اجريت

في عمان عن أثر الهجرة في تغيير دور المرأة في الريف هناك ، يخلص الباحثان الى انه على الرغم من اتساع آفاق النشاطات التي تشارك فيها المرأة فما زالت هناك قيود واضحة أمامها ٠

«ان دور المرأة في المجتمع العماني في الريف مازال محدودا للغاية، ومع ذلك فان هناك اتجاها تدريجيا نحو تخطي القيود اذ تأخذ المرأة على عاتقها الآن وبشكل متزايد . بعض المسؤوليات المنزليـة ، الخاصة برب الأسرة الغائب عن المنزل وهذا بالضرورة لا يعني توقف المرأة عن اداء مهامها التقليدية لكي تقوم بالمهام الجديدة بل يعني احتواء هذه المسؤوليات الجديدة ٠ غير ان هذا التوسع في دور المرأة لم يؤد الى ارتفاع مكانتها وذلك لان القبول العرفي بالمكانة الاجتماعية المتدنية ما زال سائدا ، وهو يمثل عقبة رئيسية في وجه توسيع دور المرأة في حياة المجتمع ومساهمتها الفعلية في الحياة الاقتصادية للمناطق الريفية ٠ ومن غير المستطاع التغلب على هذه العقبة خلال جيل واحد ٠ وما لم يقتنع المجتمع بأن باستطاعة النساء المشاركة في الحياة العامة بشكل كامل ، فلن يستطعن تقديم المساهمة التي بمقدورهن » (٨٦) ٠

اما في اليمن فان دور المرأة في العمل بارز للعيان وهو ناتج عن أسباب موضوعية كثيرة منها الهجرة ذاتها ٠ وهذه ملاحظة احد الرحالين العرب الذين زاروا أواسط اليمن قبل حوالى اربعين عاما بشأن مشاركة المرأة الفعالة في أعمال الرجل :

« وفي أثناء الطريق كان يمر بنا كثيرا من النساء القرويات ذاهبات بمفردهن أو مع رجالهن الى الحقول والجبال لقضاء الاعمال المختلفة ٠ والنساء القرويات في اليمن يقمن بمعظم اعمال الرجال من زراعة وحراثة

ونقل وذهاب الى الاسواق لبيع الحاصلات وجلب البن وتقشيره الى غير ذلك مـن الاعمال الخشنة • وعلاوة على مشاركتهن في هـذه الاعمال فانهن يقمن بأعمال منزلهن خير قيام ويعنين« بتربيـة أطفالهن • وقد لاحظت أنهن نشيطات جدا على العمل ويشتغلن ليل نهـار دون كلل أو ملل ولا يتناولن من الراحة الا قسطا يسيرا » (٨٧) •

١٥

لقد قامت ثورةالسادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ م في شمال اليمن واطاحت بالنظام الامامي الكهنوتي الذي استمر حوالي الالف عام وأقامت على أنقاضه حكما جمهوريا أعلن عن أهدافه العصرية كأي نظام جمهوري آخر في الوطن العربي ويهمنافي هذا المجال ان نذكر ان الفتاة والمرأة في شمال اليمن بدأت منذ قيام الثورة تعرف طريقها الى المدرسة والمصنع • فقد اصبحت مدارس البنات تغطي الآن كل مراحل التعليم • والفتاة اليوم تلتحق بالجامعات خارج اليمن وفي جامعة صنعاء ذاتهـا جنبا الى جنب مع زميلها الطالب اليمني • فقد بدأت ظاهـرة الحجاب تختفي ايضا في المدن اليمنية ذاتها ، كما ان برامج محو الامية قد قطعت أشواطا لا بأس بهافي طريق تحرير المرأة من الجهل • أما في مجال العمل فان معظم عمال مصنع الغزل والنسيج في صنعاء هم من النساء العاملات • فالمرأة تعمل الان في التدريس والتمريض والاعمال الكتابية وفي الاذاعة والتلفزيون • وفي حكومة المقدم ابراهيم الحمدي بـدأ التفكير فـي معالجة قضايا الزواج والمهور بما يتناسب وضع المرأة الجديد بعد قيام الثورة • الا ان التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي للمرأة في شمال اليمن ليس بنفس الدرجة الذي هو عليه في جنوب اليمن كما سنرى •

وذلك لأسباب كثيرة منها أن تعليم المرأة واطلالها على المديـــنة الحديثة كان أسبق في الجنوب منه في الشمال هذا من جهة ، ومن جهة أخـــرى فهناك اختلاف بين النظامين السياسيين في شمال اليمن وجنوبه ، ونظرة كل منها الى الدور الحقيقي للمرأة اليمنية في المجتمع الجديد •

أما في جنوب اليمن فعندما قامت ثورة الرابع عشر مــن أكتوبر ١٩٦٣ م بكفاحها المسلح ضد الوجود البريطاني فان شوط لابأس به من تعليم المرأة كان قد قطع في هذا المضمار • ففي أواخر الخمسينات كان التعليم الثانوي للبنات قد ترسخ نوعا ما ، كما أن عددا من النساء كــن يعملن في التدريس والتمريض • وقد شاركت أعــداد منهن في الحركة الوطنية في ذلــك الوقت وأرسلت بعضهن للدراسة في الخارج • ولــم يقتصر تعليم البنات على فتيات مستعمرة عدن وانما شمل أيضا بعض مدن محمية عدن الشرقية في حضرموت •

وقد سبق أن رأينا أن المناداة في اصلاح أوضاع المرأة والبنات في عدن قد بدأ فــي الثلاثينات ، وأن الحركة انتهت الى المناداة الصريحة للسفور في أواخر الخمسينات وخروج بعض الفتيات بالفعل في مظاهرة لذلك الغرض •

وعند قيام حركة الكفاح المسلح نجد أن بعض النسـاء كن يشاركن مشاركة فعالة في المظاهرات ، وتهريب الاسلحة ، وايــواء الثوار ، بعد قيامهم بعملياتهم الفدائية ، في البيوت في عدن •• وحتى في جبال ردفان حيث كانت بداية الثورة المسلحة نجد أن المرأة تشارك أخاها في حمــل البندقية لمحاربة جنود الانجليز ، ومــن أشهر الاضرابات التي قامت بها الفتاة اليمنية اضراب طالبات كلية البنات فيعدن والذي أدى الى انتشار

الاضرابات الطلابية التي استمرت منتشرة الى أن خرج الانجليز من عدن واستقل الجزء الجنوبي من اليمن •

وبعد الاستقلال مباشرة لم تحدث أية تطورات جذرية في وضع المرأة وانما ازدادت مشاركتها بشكل ملحوظ في الأعمال المكتبية والطباعية وذلك بسبب ان كثيرا من تلك الوظائف كانت تشغل من قبل الأجنبيات قبيل الاستقلال • وبسفر تلك الأجنبيات ، ثم ادخال اللغة العربية بدلا من الانجليزية في تلك الأعمال ، أصبح المجال مفتوحا لاستيعاب عدد كبير من النساء والفتيات في هذه الوظائف • كما أن الفرص للدراسة الجامعية في الخارج بعد الاستقلال أصبحت متوفرة فذهبت اعداد منهن للتحصيل العلمي •

١٦

ان التطورات الجذرية لحقوق المرأة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد حدث بعد حركة ٢٢ يونيو ١٩٦٩ م التصحيحية ، وبالذات بعد صدور برنامج مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية ، والدستور الوطني الديمقراطي الصادر في نوفمبر ١٩٧٠ م حول المساواة بين الرجل والمرأة• فقد جاء في البرنامج ما يلي :

« ان التغيير الجذري لطبيعة الحياة المختلفة التي تعيشها المرأة اليمنية ومساواتها بالرجل ، والدفع بها لأن تأخذ مكانها الطبيعي في الحياة العامة والسياسية والاجتماعية الجديدة ، وكذلك مشاركتها في عملية الانتاج ودعم وتشجيع منظمة الاتحاد العام لنساء اليمن وحركة المرأة اليمنية في الاقليم وما تطرحه في نشاطاتها الاجتماعية من برامج

ومخططات تهدف الى تطوير المرأة والأسرة اليمنية ، سوف يضيف قوى جديدة عاملة الى صفوف الثورة تساهم بامكانيات كبيرة في خدمة الثورة وتطورها » •

كما أن المادة (٣٦) من الدستور قد نصت بأن «تضمن الدولة حقوقا متساوية للرجال والنساء وتوفر بشكل تقدمي الشروط اللازمة لتحقيق تلك المساواة » (٨٨) ومنذ عام ١٩٧١ م وضعت مسودة قانون الأسرة للمناقشة بين صفوف التنظيم واللجان الشعبية والمستشارين القانونيين وفي الصحافة • ثم شكلت وزارة العدل لجنة مهمتها أن تحمل مشروع قانون الأسرة وتطوف به على الناس في مختلف أرجاء البلاد • وقد ضمت اللجنة مأذونين شرعيين وأئمة مساجد ومسؤولين من وزارة العدل ، ثم انضم الى هذه اللجنة ممثلات عن اتحاد نساء اليمن • واشترك في مناقشة القانون المحافظون ونقابات العمال والطلاب وبقية المؤسسات الجماهيرية• وكانت هذه المناقشات تتم في اجتماعات جماهيرية مفتوحة مع اللجنة •

ومن الجدير بالذكر أنه قبل مناقشة مسودة الدستور واصداره في عام ١٩٧٤م قام المسؤولون في المحافظة الثالثة في منطقة زنجبار باصدار منشور قبل حوالى ثلاثة أعوام تقريبا من صدور القانون وأصبحوا يسيرون بموجب بنوده في المحاكم الشرعية بالنسبة لقضايا الزواج والطلاق • وسنجد أن كثيرا من بنود هذا المنشور المستحدثة ستكون من المواد الجديدة في قانون الأسرة الذي سيصدر عام ١٩٧٤ م •

فمثلا حدد المنشور أن المهر يجب ان لا يزيد عن (٢٠٠) دينار وبضرورة موافقة الفتاة على الزواج ، وان سن الرشد «١٥» عاما ، وان الطلاق يجب أن لا يتم الا في المحكمة وأن تكون الأسباب وجيهة لذلك•

كذلك جعل المنشور الزواج من زوجة واحدة ، الا في حالات استثنائية، كما خول للمحكمة الطلاق في حالة غياب الزوج أكثر من عامين وبعد أن ينذر في ذلك [٨٩] .

ان الهدف السياسي والاجتماعي من صدور قانون الأسرة رقم (١) لعام ١٩٧٤ بشأن الأسرة في اليمن الديمقراطية واضح وهو تحقيق المهام السياسية والاجتماعية التي يطمح لتحقيقها النظام الجديد والتي سبق أن حددها برنامج مرحلة الثورة الديمقراطية والدستور الوطني كما ذكرنا أعلاه . « لقد عمد القانون أولا الى رفض التقاليد السائدة في المجتمعات القبلية والعشائرية ، كما عمد ثانيا الى استحداث نصوص من شأنها أن تحقق المساواة بين المرأة والرجل . والقصد الأساسي من ذلك كله هو أن خطط التنمية والتغيير التي تقصد السلطة اليمـنية الى تحقيقها لا يمكن أن تنجز الا بتحرير نصف قوى الشعـب العاملة من قيود الحجـاب . فارتفع القانون بالمرأة الى مستويات لم يسبق أن حققها أي مجتمع لـه خلفيات تاريخية مماثلة للمجتمع اليمني . وحكمة القانون من ذلك كله ، هي أن ينتقل باليمن من مجتمع منفصل الى مجتمع متكامل يتساوى فيه الناس من ذكور واناث » [٩٠] .

وهذه أهم ميزات قانون الأسرة :

١ ـ لم يشترط القانون الكفاءة في الزواج ، وانمـا نص بأن « الزواج عقد بين رجل وامرأة متساويـين في الحقوق والواجبـات » المادة (٢) .

٢ ـ منع القانون أهل الفتاة المراد خطبتهـا من الانفراد بالموافقة على الخطبة دون استشارتها وأخذ موافقتها . المادة (٣) .

٣ ــ الغى القانون التمييز بين المرأة والرجل في الشهادة في عقــد الزواج ، وكل مايتطلبه القانون هو حضور شخصين عاقلــين بالغين ولم يشترط الذكورة أو الانوثة المادة (٨) [٩١] •

٤ ــ وضع القانون سنا محددا لاهلية الزواج لكــــل من الرجل والمرأة ــ ١٨ سنة للرجل و١٦ سنة للمرأة ــ كما أنه وضع حدا لفارق السن بين الرجل والمرأة وهو عشرون عاما الا اذا بلغت المرأة (٣٥) سنة من العمر • المادة (٩) •

٥ ــ جعل القانون الزواج من زوجــة واحدة هي القاعدة العامة ، وجعل الزواج من ثانية الاستثناء ، وقيــده بضرورة الحصول على اذن كتابي من المحكمة المختصة اذا ثبت لها عقم الزوجــة ومرضهــا مرضا مزمنا أو معديا وذلك بتقرير طبي المادة (١١) •

٦ ــ نص القانون على اشتراك الزوجين في تحمل نفقات الزواج، وتوفير متطلبات الحياة الزوجية ، وتحمل تكاليف حياتهــا المشتركة بعد الزواج فاذا كان أحدهما غير قادر على ذلك كان الآخر ملزمــا بالانفاق وبحمل أعباء الحياة الزوجية • المادتان (١٧) ، (٢٠) • [٩٢]

٧ ــ وضع القانون حدا أعلى للمهــر لايجوز أن يزيــد بشطريه المعجل والمؤجل عن مائة دينار • المادة (١٨) •

٨ ــ منع القانون الطلاق من طرف واحد وبأن لايعتد بالطلاق الا بعد الحصول على اذن من المحكمة الجزئية ، والتي لن تصدر الاذن الا بعد احالة القضية الى اللجنــة الشعبية ، كما أنه لايجوز للمحكمــة أن تأذن بأكثر من طلقة واحدة في كل مرة ، واعتبر القانون كل طلاق رجعيا الا المكمل للثلاث طلقات المتفرقات المأذون بهـــا من قبل المحكمــة ، وباستطاعة الرجل والمرأة على حد سواء التقدم للمحكمــة بطلب انهــاء

العلاقة الزوجية • وحدد القانون الاسباب التي تبرز الطلاق والتفريق القضائي كالاصابة بمرض غير قابل للشفاء ، وغياب احدهما عن الآخر لمدة تزيد عن ثلاث سنوات ، وامتناع القادر منهما عن الانفاق على الآخر ، أو تفاقم الشقاق بينهما • المواد (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٩) •

٩ ــ نص القانون أنه في حالة ان وجدت المحكمة أن الزوج هو المتسبب في الشقاق الذي أدى الى الطلاق جاز لها أن تحكم للمطلقة بتعويض مناسب لايزيد في كل الاحوال عن نفقة سنة • المادة (٣٠) •

١٧

وبعد صدور قانون الاسرة انعقد المؤتمر العام الاول لاتحاد نساء اليمن • كما انعقد مؤتمر ثان في شهر اكتوبر ١٩٧٨م ، وفي كلا المؤتمرين اتخذت القرارات المؤيدة لضرورة ممارسة المرأة كل حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سواء بسواء مع الرجل • والواقع أن المرأة الآن تشارك مشاركة فعالة في كل مجالات الحياة في اليمن الديمقراطية • فسياسيا هي منخرطة في صفوف الحزب من مرتبة عضوة في المنظمة القاعدية الى مرتبة عضوة في اللجنة المركزية • كما أن المرأة ممثلة أيضا في أعلى هيئة تشريعية هو مجلس الشعب الاعلى وفي هيئة رئاسة المجلس ولجانه الدائمة • فللمرأة الآن حق الانتخاب والترشيح لمجالس الشعب المحلية ولمجلس الشعب الاعلى الذي تم انتخابه لاول مرة عن طريق الانتخابات المباشرة في ديسمبر ١٩٧٨ م •

وفي مجال الانتاج والعمل فهي تكون في بعض المصانع ، كمصانع الغزل والنسيج وغيره ، الجزء الاكبر من العمال • كما أنها تعمل بجنب

الرجل في التعاونيات ومزارع الدولة بل وحتى في البناء ، وقد عملت المرأة منذ بداية السبعينات قاضية في المحاكم ولربما تكون في هـذا المضمار أول قاضية في الوطن العربي • وهناك الآن الطبيبة والمستشارة القانونية ، والمحاضرة في الكليات ، والكاتبة والاديبة • وحتى النساء الاميات اللواتي لم يعرفن العمل قبل الاستقلال ، أو عرفن فقط الخدمة في بيوت الموسرين والاجانب أصبحن الآن ـ خاصة بعد تحررهن من الامية ـ يعملن في الاماكن التي تناسبهن • فنتيجة لخطط التنمية فلم تعد هناك عطالة بأي شكل من الاشكال وانما هناك الحاجة الى أيدي عاملة أكثر من التي هي موجودة • وتشارك المرأة أيضا في المجالات العسكرية ، فهي تعمل في الجيش وفي الشرطة الشعبية ، فهناك فرق خاصة من ميليشيا النساء • وفي المدرسة لم يعد الاختلاط فقط في المرحلة الجامعية وانما أصبح معمولا به الآن في كل المراحل الابتدائية، والاعدادية والثانوية والجامعية •

وبالطبع فانه على الرغم من محاولة تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في اليمن الديمقراطية ، الا أنه وجب القول بأن على المرأة أن تناضل من أجل رفع وعيها وممارسة حقوقها الباقية التي عملت الدولة على اعطائها اياها • أن تقدم أي مجتمع يقاس بمدى حرية المرأة وبطبيعة نظرة الرجل اليها، وأن العلاقات الاقتصادية الاجتماعية السائدة تكشف جانبا كبيرا وهاما من جانب حرية المرأة وطبيعة النظرة اليها عمليا على صعيد الواقع • ومن الخطأ النظر الى الحرية الاجتماعية أو معالجتها بمعزل عن الحرية الاقتصادية والسياسية •

وبديهي أن العمل هو من حق المرأة والرجل على حد سواء ، وأن تحرير المرأة اقتصاديا شرط أساسي لتحررها اجتماعيا وسياسيا، فاذا لم

تتح الفرصة للمرأة للدخول الى ميادين العمل الانتاجي ومشاركتها الفعلية في الجبهة الاقتصادية وفي كل مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ، فان تبعية المرأة للرجل في كل شيء تظل قائمة وتظل خضوعها له أمرا واردا لا مفر منه مهما كانت هذه التبعية وهذا الخضوع غير ظاهرين للعيان وعندئذ يصبح الحديث عن حرية المرأة مجرد ثرثرة فارغة وغير ذي موضوع • (٩٣)

وفي المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي اليمني المنعقد في ١١-١٣ اكتوبر ١٩٧٨م جاء في برنامج الحزب مايلي بشأن المرأة •

« ان الاتحاد العام لنساء اليمن مدعو الى زيادة دوره في النضال لحل القضايا المشتركة مع جميع المنظمات الجماهيرية اليمنية والمسائل الخاصة بالحركة النسائية على حد سواء • ويتمثل الاتجاه الاساسي لنشاط الاتحاد في الظروف الراهنة في اشراك النساء اليمنيات على نطاق واسع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد وفي النضال الدؤوب من أجل تثبيت وتحقيق وصيانة الحقوق التي منحت للمرأة وتطوير امكانياتها وكفاءاتها واشتراكها في مجال بناء الحياة الجديدة » • (٩٤)

الهوامش والمصادر :

١ ـ انظر الدكتور محمود الغول . **حفيدات بلقيس** . مجلة العربي ، العدد ٦٢ ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤ ـ ٣١ .

٢ ـ انظر عبدالله الحبشي . **دراسات في التراث اليمني** ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٧٣ ـ ٨٣ .

٣ ـ سعيد عوض باوزير . **الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي** . ١٩٦١ ص ٩٩ .

٤ ـ محمد بن محمد زبارة . **نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الالف**، القاهرة، ١٣٥٩ هـ . القسم الاول ، ص ٧٠٩ ـ ٧١٩ .

* د . عبـد العزيز المقالـح . **شعر العامية في اليمن** . دار العـودة ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

٥ ـ عمر الجاوي ، **حديث مـع المستشرق التقدمي مكسيم رودنسون** ، مجلة الحكمة ، عدن ، العدد (٢٥) ديسمبر ١٩٧٣ م ، ص ٩ .

٦ ـ Knox - Mawer . *The Sultans cam . to tea* . Jhon Murray , 1961 . P. 56 .

٧ ـ Naval Intelligence Div . *Western Arabia and the Red Sea* . (for official only) . London, 1946 . P. 436 .

٨ ـ G. H. Brown . *Social and Economic Conditions and possible* Development *in Socotra* . (in stencil) 1966 . Beduin p. 2 .

٩ ـ R. B. Serjeant . *The White Dune at Abyan . An Ancient Place of Pilgrimage in Southern Arabia* . J. S. S. 1971 , Vol. 16 . pp. 80 - 1 .

١٠ ـ *Ibid* p. 82 .

١١ — *Ibid* . pp. 76 - 80 .

١٢ — فؤاد حمزة . **في بلاد عسير** ، مطبعة دار الكتاب العربي ، ١٩٥١ ، ص ٨٠ — ٨١ .

١٣ — **المصدر ذاتــه** . ص ١٣١ .

١٤ — الدكتورة ايفاهويك .**سنوات في اليمن وحضرموت** . ترجمة خيري حمــاد ، دار الطليعة ، ١٩٦٢ ص ١٥٧ .

١٥ — نزيه مؤيد العظم .**رحلة في بلاد العرب السعيدة** . ج ١ ، مطبــعة عيسى البابي ط ١٩٣٧ ، ص ٤٧ — ٩١ .

١٦ — Knox - Mawer . The Sultans came to tea . p. 140 .

١٧ — د . عبد العزيز المقالح . **شعر العامية في اليمن** (رسالة دكتوراه) دار العودة ، ١٩٧٨ ، ص ٣٩٩ .

١٨ — د . محمد مصطفى الشعيني ، **اليمن الدولة والمجتمع** . النهضة ، ١٩٧٥ ، ص ٨٠ .

١٩ — *Western Arabia and the Red Sea* . *pp. 436 - 7* .

٢٠ — R. B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation from Mukalla with Notes* on Marriage Customs. 1962. pp. 493-4.

٢١ — دكتورة ايفاهويك . **سنوات في اليمن وحضرموت** . ص ٣٦ .

٢٢ — Doreen Ingrams . *A time in Arabia* . Jhon Murray , 1970 . p. 24 .

٢٣ — دكتورة كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمــن** . دار الطليعــة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤١ .

٢٤ — Doreen Ingrams . *op. cit* . pp. 28 - 29 .

٢٥ — عبد الرزاق الهلالي . **حقائق وطرائف من تاريخ التعليم في العراق.** مجلة آفاق عربية ، العدد ١١ تموز ١٩٧٨ ، ص ٩٨ — ١٠٥ .

٢٦ — Doreen Ingrams . *op. cit* . p. 26 .

٢٧ — *Ibid* . p. 62 .

٢٨ ــ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٧١ ــ ١٧٢ .

٢٩ ــ محمد عبد القادر بامطرف . **الشهداء السبعة** . بغداد ١٩٧٤ ، ص ٣٣ .

٣٠ ــ ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز** .تحقيق اوسكر لوففرين ليدن ، ١٩٥١ ، جـ ١ ، ١٤٥ .

٣١ ــ ابن المجاور . **المصدر ذاته** . جـ ١ ، ص ١٤٦ .

٣٢ ــ ابن المجاور . **المصدر ذاته** . جـ ١ ، ص ١٣٤ ــ ٥ .

٣٣ ــ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٨٧ .

٣٤ ــ **المصدر ذاته** . ص ١٧٩ .

٣٥ ــ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣١ .

٣٦ ــ فايان . **المصدر ذاته** . ص ١٩٥ ــ ١٩٦ .

٣٧ ــ Knox - Mawer . *op. cit* , p. 92 .

٣٨ ــ *Western Arabia and the Red Sea* . p. 434 .

٣٩ ــ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣٣ ــ ١٣٤ .

٤٠ ــ الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨٠ .

٤١ ــ د . كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩٠ .

٤٢ ــ Knox - Mawer . *op. cit* . pp. 95 - 7 .

٤٣ ــ فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ١٣٢ .

٤٤ ــ المصدر ذاته ، ص ١٣٣ .

٤٥ ــ ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن** . جـ ٢ . ص ١٩١ ــ ١٩٢ .

٤٦ ــ *Western Arabia and the Red Sea* . p. 436 .

٤٧ ــ Ibid . p. 431 .

٤٨ ــ A.S. Bujra . *The politics of Stratification* . (ph. d. thesis) Oxford , 1971 , p. 131 .

٤٩ — R.B. Serjeant . *The Saiyids of Hadhramawt* . London , 1957 , pp. 21 - 22 .

٥٠ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... p. 494 .

٥١ — A.S. Bujra . *Op. cit* . p. 93 .

٥٢ — *Ibid* . p. 95 .

٥٣ — *Ibid* . p. 104 .

٥٤ — محمد الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨١ .

٥٥ — فؤاد حمزه . **في بلاد عسير** . ص ٨١ .

٥٦ — A.S. Bujra . op. cit . p. 181 .

٥٧ — دكتوره ايفاهويك . **سنوات في اليمن وحضرموت** . ص ٢٥ .

٥٨ — دكتورة كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩ .

٥٩ — نزيه العظم . **رحلة في العربية السعيدة** . ص ٩٠ .

٦٠ — د. كلودي فايان . **كنت طبيبة في اليمن** . ص ١٩٢ .

٦١ — **المصدر ذاته** . ص ١٩٥ .

٦٢ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... pp. 496-7 .

٦٣ — د. محمد الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٧٤ .

٦٤ — Knox - Mawer . *op. cit* . pp. 92 - 3 .

٦٥ — F. M. Hunter . *An Account of the settlement of Aden* . London , 1877 , p. 43 .

٦٦ — *Ibid* p. 42 .

٦٧ — See text in Sergeant's . *Recent Marriage Legislation* .... pp. 472 - 98 .

٦٨ — *Ibid* .

٦٩ — الشعيني . **اليمن الدولة والمجتمع** . ص ٨١ .

٧٠ **المصدر ذاته** • ص ٧٩ •

٧١ — *Western Arabia and the Red Sea* . p. 433 .

٧٢ — ابن المجاور . **صفة بلاد اليمن** ج ١ ، ص ٥٦ •

٧٣ — R.B. Serjeant . *Recent Marriage Legislation* .... p. 495 .

٧٤ — احمد محمد سعيد الأصنج. **نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة.** ١٩٣٤ مطبعة الثورى بمصر ص ٢٨ — ٢٩ •

٧٥ — **المصدر ذاته** • انظر ص ٩ — ١٤ ، ٨٣ — ٨٩ •

٧٦ — Serjeant . *op. cit* . pp. 490 - 8 .

٧٧ — Faroul Luqman . *Local Customs* . in Welcome to Aden . 1963 p. 208 .

٧٨ — Knox - Mawer . *op. cit* . p. 92 .

٧٩ — Doreen Ingrams . *op. cit* . p. 126 .

٨٠ — *Ibid* . pp. 127 - 8 .

٨١ — Frya Stark. *The Southern Gates of Arabia.* 1957, p. 126 .

٨٢ — محمد انعم غالب . **غريب على الطريق** (ديوان شعر . مؤسسة ١٤ اكتوبر ، ١٩٧٤ ، عدن •

٨٣ — Doreen Ingrams . *op. cit* . 62 - 63 .

٨٤ — *Ibid* . p. 26 .

٨٥ — س. ليتس ،د. بيركس . **دور المرأة في الريف العمانـي** ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ١٠ ، ابريل ١٩٧٧ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ •

٨٦ — الانسة س . ليتس ود . بيركس . **دور المرأة في الريف العماني** • مجلة دراسات الخليج العربي ص ١١١ •

٨٧ — نزيه مؤيد العظم . **رحلة في بلاد العربية السعيدة** • ص ٨٩ •

٨٨ ـ في الدستور المعدل الصادر في ١٢ / ١٩٧٨ م ، أضيفت الى المادة «وتعمل الدولة كذلك على خلق الظروف التي تمكن المرأة من الجمع بين المشاركة في العمل الانتاجي ودورها في نطاق الحياة العائلية وتعطي للمرأة العاملة رعاية خاصة للتأهيل المهني » .

٨٩ ـ أنظر سليم زبال . **تحقيق حول دلتا أبين** . مجلة العربي ، العدد ١٦٢ ، مايو ١٩٧٢ م ، ص ١٠٨ ـ ١٣٠ .

٩٠ ـ د. انيس فوزي قاسم . **تقرير** . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، اكتوبر ١٩٧٦ م ، ص ١٩٨ .

٩١ ـ **المصدر ذاته** . ص ١٩٩ تعتبر هذه المادة « انعطافا جذريا في مجال التشريع في الاحوال الشخصية » .

٩٢ ـ See. I. Ghanem . A note on Law No. 1 . of 1974 . Arabian Studies . III . 1976 . p. 195 .

حيث يقول عن هذه المادة ما ترجمته بأن لها نكهة أشتراكية مميزة لأن النفقة في التشريع الاسلامي محتمة على الزوج .

٩٣ ـ **حول بعض مايكتب وما يقال عن تحرير المرأة** . صحيفة ١٤ أكتوبر ، عدن ص ٥٤٤ يناير ١٩٧٩ م .

٩٤ ـ **برنامج الحزب الاشتراكي اليمني** . المؤتمر الأول ١١ ـ ١٣ اكتوبر ١٩٧٨ م ، ص ٣٤ .

ابن شداد في كتابه الاعلاق الخطيرة "قسم الجزيرة"

دراسة وتحليل مع نصوص من المخطوط

دكتور محمد سعيد رضا
كلية الآداب/جامعة البصرة

قبل أن نبدأ بدراسة الجوانب العلمية والسياسية لشخصية صاحب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة • لا بد أن نتعرف بشكل سريع على الحياة العلمية للعصر الذي عاش فيهومدى تأثره بتيارات ذلك العصر وارتشافه من مناهل العلم ومواطن المعرفة المتنوعة الفروع والتي لعبت دورا « كبيرا » في تكوين شخصيته المرموقة •

الحيــاة العلمية للعصر :

قضى ابن شداد [١] شطرا كبيرا منحياته في مصر علىعهد المماليك البحرية • حيث أصبحت مصر في عهدهم ميدانا لنشاط علمي واسع ، عرفت بمدارسها ومعاهدها واساتذتها وروادها من طلبة العلم والمعرفة ، وقد دعمت تلك الميادين العلمية بطاقات السلاطين وامكاناتهم المادية والمعنوية [٢] • يؤيد ذلك ماجاء على ألسن الشعراء والادباء من الثناء

على هذا العصر وتمجيد من ساهموا في اغنائه بالعلم او الانفاق على رجاله ومرافقه ومنشآته من مدارس ومعاهد ومكتبات • ومن أولئك الشعراء السراج والوراق[3] وابو الحسين الجزار[4] والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب [5] • كما أطنب الرحالة والمشاهدون في وصف مظاهر النهضة العلمية وتثمين نشاط مؤسساتها وخدماتها • فقد وصف القلقشندي كثرتها قائلا : « وفي خلال ذلك ابتنى آكابر الامراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الاخطاط وشحنها» [6] وقال ابن بطوطة مبالغا « لا يحيط احد بحصرها لكثرتها » [7] وقد دلل على أهميتها ذلك التراث الضخم من موسوعات ادبية وكتب تاريخية ومؤلفات في العلوم الدينية والفقهية تركها علماء ذلك العصر ورواد تلك المدارس • ويعلل السيوطي هذا النشاط العلمي في مصر على عصر المماليك بانه كان حصيلة لاحيائهم الخلافة العباسية في القاهرة بعد انتهائها في بغداد اثر الغزو المغولي لها سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م وذلك حين نصب الظاهر بيبرس اول خليفة عباسي في القاهرة سنة ٦٥٨ هـ/١٢٥٩–١٢٦٠م فغدت مصر بذلك موئلا للعلم والمعرفة ومحلا «لسكن العلماء ومحطا» لرحال الفضلاء [8]، واستقطبت بعض علماء الشام وغيرها من البلدان الاسلامية [9] •

والواقع انه ماكان لهذا النشاط العلمي أن يزدهر في مصر على عصر المماليك لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء • فقد كان الظاهر بيبرس (يحب العلماء والصالحين) [10] وعلى وجه الخصوص أهل التاريخ منهم ، فذكر عنه ابو المحاسن انه « كان يميل الى التاريخ واهله ميلا زائدا ويقول سماع التاريخ اعظم من التجارب» [11] • فليس من المستغرب اذن ، ان نرى ابن شداد ـ المؤرخ قد حظي باهتمام الملك الظاهر الزائد حتى أصبح من الملازمين له في حله وترحاله، ومن المعولين عليهم في استشاراته ، كما احتضن غيره من الكتاب المؤرخين ممن نبغوا

في عصره امثال محي الدين بن عبد الظاهر [١٢] وابن خلكان [١٣] وجمال الدين بن واصل [١٤] وعزالدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء [١٥] . وكان السلطان قلاوون لايقبل الا شفاعة القضاة ومشايخ العلم كما حصل له سنة ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م .

وكذلك وجد من سلاطين المماليك من حرص على عقد المجالس الدولية والاسبوعية لكبار العلماء والفقهاء [١٧] ، وحضور مناظراتهم العلمية في جميع المجالات التاريخية والفقهية والدينية . وقد ذهب بعضهم الى اكثر من ذلك في اشراكهم بتقرير السياسة العليا للبلاد ووضع الخطط الكفيلة لاخراجهم البلاد من محنتها فيذكر ابن أياس عن الاتابكي قطز انه عندما تحقق من استيلاء هولاكو على بغداد وقتل الخليفة وقصد حلب وأخذ البلاد الشامية (امر بعقد مجلس وجمع سائر الامراء والقضاة ومشايخ العلماء ...) ورسموا الطريق لقتال هولاكو ودفع خطره عن البلاد [١٨] .

كما تميز بعضهم بالرغبة الذاتية للاشتغال المباشر بعلوم التاريخ والفقه والحديث واللغة العربية . بل تصدى بعضهم لطلبة العلم والتدريس [١٩]. ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمي من حرصهم على انشاء كثير من المدارس ، فضلا عن المؤسسات الاخرى التي قامت احيانا « بوظيفة المدارس مثل المساجد والجوامع وغيرها . والمعروف ان السلطان صلاح الدين الايوبي عنى عناية خاصة بالمدارس فقد انشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصالحية والمدرسة القمحية [٢٠] . وقد استهدف صلاح الدين وخلفاؤه من بني ايوب من انشاء المدارس بمصر أن تكون مراكز لتنوير عقول الناس بفكر الاسلام . وكذلك سلاطين المماليك فقد أكثروا من انشاء

المدارس اظهارا لشعور التقوى من ناحية ، وليتخذوا من المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم في ايديهم وتساعدهم على تدعيم مركزهم في اعين الشعب من [٢١] ناحية أخرى .

ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك مدرستين انشأهما الملك الصالح نجم الدين سنة ٦٤٤/١٢٤٤م في مدينة الصالحية التيوصفها ابن اياس بكونها (قلعة العلماء)[٢٢] والمدرسة الظاهرية نسبة «الى السلطان الظاهر بيبرس الذي أسسها سنة ٦٥٨ هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م وتولى ابن شداد ادارتها وكالة » في عهد ابنه الملك السعيد [٢٣] وقد انشأ الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م المدرسة بين القصرين واضاف اليها قاعة للعلوم الطبية «سماها البيطرستان المنصوري ... وجعل لها في كل يوم من الرواتب ألف دينار ووقف عليها اوقافا «كثيرة» من ضياع واملاك وبساتين وغير ذلك [٢٤] » .

كما الحقت مكتبات هامة بتلك المدارس حيث نقل عن السلطان بيبرس انه زود المدرسة الظاهرية بخزانة كتب جليلة القدرتشمل على مجموعة ضخمة من المراجع التيتبحث في مختلف انواع العلوم [٢٥] . وكذلك زود السلطان المنصور قلاوون مكتبة المدرسة المنصورية باعداد كبيرة من (كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والادبيات ودواوين الشعر [٢٦] ويقال نفس الشيء عن المدرسة الناصرية التي اقامها السلطان الناصر محمد ٧٠٣ هـ/١٣٠٣م اذ أنشأ بها (خزانة كتب جليلة [٢٧]) ملأها بكتب منتقاة من قبل اصحاب المعرفة والاختصاص .

نشاطه الدبلوماسي :

فتحت اوضاع الدولة العباسية في اواخر عهودها وما بعدها ابوابا

جديدة للسياسة الدولية ، لعبت من خلالها الدبلوماسية العربيةالاسلامية دورا « كبيرا » ، فقد ازدحمت مدن الدولة الرئيسية كبغداد ودمشق بالوفود والرسل حتى التقت فيها عدة رسل فيآن واحد لاغراض مختلفة يؤكد ذلك ابو شامة في حوادث سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣م عند ذكره للرسل التي اجتمعت لدى السلطان صلاحالدين الايوبي في دمشق بقوله « واجتمع عنده في ذي القعدة عدة رسل منهم رسل الخليفة ورسل طغر ابن البهلوان ورسل قزل اخي البهلوان ورسل شاه ارمن صاحب خلاط ورسل المواصلة ورسل عماد الدين صاحب سنجار ورسل قلج ارسلان صاحب الشمال ... » [٢٨] كما يذكر البنداري عن الحركة الدائبة لتلك الرسل قائلا عن رسل السلطان لعام ٥٧٤ هـ/١١٧٨م (والسلطان في امر بعلبك مفكر ، والرسل بينهما اما رائح او مبكر وشمس الدولة لا يقبل عذرا ولا يرى عما طلبه صبرا ... [٢٩] .

وكان النشاط الدبلوماسي هذا مكرسا لأمور كثيرة منها تسوية الخلافات الجانبية بين امراء وملوك ولايات الدولة وخاصةفي منطقة الجزيرة الفراتية والقائمة بين الاخوة والاعمام ــ وابنائهم [٣٠]،وتنسيب العلاقات بين حكام الولايات وسلاطين الشام ومصر من الايوبيين والمماليك البحرية من جهة وبينهموبين ديوان الخليفة العباسية في بغداد ثم في مصر من جهة اخرى ، حيث كان اولئك الحكام يتلقون توجيهاتهم من الخلافة عبر الرسل المتبادلة بينهم فيما يخص ايصال الاخبار الهامة وتحديد مواقفهم من القضايا ذات العلاقة بمصير الامة والمتعلقةبالاوضاع العسكرية الناجمة عن تواجد الفرنج ثم التتار كمحتلين ومهاجمين لاراضي الدولة العربية الاسلامية [٣١] فكانت هذه المراسلات تقصد جمع كلمة العرب والمسلمين ايام المحن وتوثيق الصلة بينهم للوقوف صفا « واحدا » امام العدو ــ علما « بان بعض هذه المخاطبات الرسمية والسفارات قد

اخذت طابعا » جماعيا في بعض الاوقات ممثلة » لاهل المدن والبلدان التي استنجدت واستغاثت بالامراء والسلاطين في مصر والشام اوبديوان الخلافة في بغداد ومنهم الحلبيون والمواصلة أو أهل بدليس وأهل ماردين ... الخ [٣٢] .

لكن الجانب المهم من الدبلوماسية العربية الاسلامية تلك التي عبرت حدود الدولة ، وتميزت بتعقيداتها ، والتي يمكن حصرها في ناحيتين من حديث الهدف .

الاولى : كانت تهدف الى تنسيق العلاقة بين مؤسسة الدولة العربية الاسلامية واصدقائها من الدول المجاورة وتتناول شتى القضايا التي تقرها المنافع التجارية والثقافية المتبادلة بين الجانبين وعرفت بالهدوء في سيرها ونتائجها [٣٣] .

أما الثانية : فقد اوجدتها طبيعة العلاقات غير الاعتيادية الناشئة بين الدولة ـ ابان ضعفها وتفتتها السياسي ـ واعدائها من الطامعين في الاستيلاء على أراضيها من الصليبيين ثم التتار . وكانت هذه المفاوضات في حقيقتها تسعى الى تحييد البعض . وتحديد المواقف العسكرية ضمن استراتيجية المعارك التي تخوضها ولايات الدولة ضد اعدائها وتكريس الطاقات لصد زحفهم بشتى الوسائل العسكرية منها والدبلوماسية التي كثيرا ما كانت تقود الى عقد الهدنة او ابرام بنود الصلح معهم [٣٤] .

ولعل هذه الاوضاع كانت مدعاة لتطور الدبلوماسية العربية الاسلامية شكلا « ومضمونا »حيث شمل التطور حجم الوفود المعدة للتفاوض حتى بلغت الـ (١٥٠) عضوا « في بعضها وتسمت بالرسل او السفارات [٣٥] . كما استقرت اسسها ـ رغم التعقيد ـ واتضحت

مراسيمها وتطلب الامر اختيار من وصفوا بالذكــــاء والدهاء واللياقة والمباقة والنباهة وقوة الشخصية والقدرة على المحاججة والاقناع وقد اشار البنداري الى ذلك حين وصف الرسل في هذه الفترة قائلا « وان كان ولا بد من رسول فليلمح المولى من أمره النزاهة حـــتى لا يثقل تثقيلا لا ينفعنا ويثتثقل به من نفذ اليه ، ولعقل حتى يعرف ما يأتي وما يذر ، والصدق فانه لا رأي المكذب والاستقلال بالقول فان غيبة الحجة في وقتها خذلان عظيم . والمولى يعرف كل من طلب فما ينبغي ان يقال مع معرفته ، خذ فلانا « ودع فلان »[٣٦] وكلما كان الوفدعالي المستوى كان الاهتمام بالجهة المفاوضة اكبر لان درجة الوفد المشكل يتناسب طرديا مع مكانة وأهمية الطرف المفاوض ويؤكد ذلك ما ذكره البنداري عــن مهذب الدين بن النقاش رسولا الى الديوان العزيز من قبل نورالديــن محمود سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م بقوله (وصار له عنده قبول وخـــروج ورأي معقول وسعي بالنجاح مكفول فندبه نورالدين في هذه السنــة للسفارة [٣٧]). وبخلاف ذلك فقد أثار استنكار الخلافة شخصية رشيد ابن البوشنجي رسول صلاح الدين سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦م الى ديــوان الخلافة ببغداد ناقلا «اليها بشارة فتح السلطان للقـــدس حيث يقول ابو شامة (فحين وصل الى بغداد قامت القيامة بمراسلتــه وكتب الى صلاح الدين بالانكار عليه وقيل له اما كان في اصحابك أميز من هــذا ترسله الى الديوان فاعتذر صلاح الدين ووصلــت كتبـــه بالاعتذار وقبل عذره [٣٨]) لهذا اصبح الاهتمام بشخص السفير أو متراس الرسيلية امرا « ضروريا » لانجاح المهمة الدبلوماسية ومن قبل رسول المعتصم الى احد ملوك الروم (... ومنهم مثلي من يصلح ان توفده الخلفاء للملوك ويتحصل رسائلهم الى مثلك من أهل الجلالة والقدر والسناء والذكر فلولا لما راوني اهلا « للتوجه فيما توجهت فيه اليك . قليل لمثلي هذا الرزق مع هذا التحمل ومع هذا المحل من الخلافة وهي مــن الجلالة على مــا

هي [٣٩] » • لذلك فان المؤهلين من السفراء لمثل هذه المهام كانوا معودين في هذا العصر فشخص منهم القاضي بهاء الدين ابن شداد وضياء الدين الشهرزوري رسولا «السلطان صلاح الدين [٤٠]» وعزالدين ابن شداد رسول الملك الناصر يوسف الايوبي والظاهر بيبرس المملوكي علما « بان الاخير قد تميز في سفارته عن سواه بنزعته العربية الصادقة رغم التيارات المضادة التي تكتنف مهامه التي وضحها بالتفاصيل في كتابه الاعلاق الخطيرة ــ (قسم الجزيرة) والمنشورة في صفحة ٩ــ٣٠ من هذا البحث والتي بدأت منذ أن أوفده الملك الناصر يوسف الى حران سنة ٦٤٠ هـ/١٢٤٢ يتفقد شؤونها ويفتش مواردها المالية [٤١] بعد كسره شوكة الخوارزميين فيها • ومنذ يومئذ وهو لم يبلغ بعد السابعة والعشرين من العمر بدا نجمه يسطع في السياسة كسفير ممتاز ومنتدب بارع ومفاوض قدير نال بجدارة تقدير حكامه واحترامهم وبدأوا يشعرون بحاجتهم الى مشورته وقد اتضحت تلك في مفاوضات الملك الناصر مع وفدين مختلفين قدما حلب سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥١ م الاول منهما كان من قبل ملك التتار يطالب الملك الناصر بدفع مائتي الف دينار عن بلاده والايعاز لأمراء الموصل وماردين وميافارقين والجزيرة وحصن كيفا لتسديد المبالغ التي طالبهم بها الوفد المذكور بعد امتناعهم عن الدفع محتجين بضرورة انتظار اجراءات السلطان ولانهم اخبروا الوفد (بان السلطان الملك الناصر هو كبيرنا ونحن نخطب له وما يمكننا ان نزن شيئا ــ «أي ندفع ــ أن لم يزن هو [٤٢]) وكاد الملك الناصر ان يستجيب لمطاليبهم امتثالا» لاشارة الزين سليمان الحافظي وآخرين من مستشاريه لولا ابن شداد الذي انفرد بمعارضتهم ونجاحه في حمل السلطان على العدول عن الدفع والمصالحة [٤٣] •

اما الوفد الثاني قدم عليه من قبل الملك مسعود صاحب الجزيرة يشكو له اطماع صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ وتعدياته عليه ويعرض على الناصر رغبةالملك مسعود في ان يقدمله جزيرة بشرط أنيبادلهغيرها من البلاد . فاوفد الملك الناصر ابن شداد الى الأمراء المذكورين اعلاه ليقنعهم بالامتناع عن دفع الاموال التي طالبهم بها وفد ملك التتار الانف الذكر . وأوفده كذلك الى الموصل ليسوى خلافات مسعود مع صاحبها ويشفع له لدى بدرالدين لؤلؤ حيث كان ابن شداد مقدما » لديه وبذلك يقول عن نفسه (فرسم لي ان اشفع له عند بدرالدين صاحب الموصل واوفق بينهما ...[٤٤]) اما نتيجة هذه البعثة التي ترأسها ابن شداد فانها معروفه في الصفحة ٦٣ أ ـ ٦٤ ب من مخطوط الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة) والمنشورة في ص ٢١ـ٢٣ من هذا البحث . اذ ان بدرالدين لؤلؤقد رفض هو الاخر دفع الجزية الى ملك التتار امتثالا لأمر السلطان وبدبلوماسية ابن شداد المقنعة ، بل دس من قتل رجال الوفد التتري بعد خروجهم من حدود بلاده . ولكنه لم يأخذ بشفاعة ممثل السلطان هذا في الملك مسعود اذ كان بدر الدين لؤلؤ قد اغتاظ منه الى حد بعيد فسار قدما في عدائه للملك مسعود وتملك الجزيرة في السنة التالية وقد غرق مسعود في دجلة وهو في طريق سفره الى الموصل .

وفي سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ ـ ١٢٥٩ م ترأس بعثة كان هدفها اقناع ملكالتتار يشموط بن هولاكو لفك الحصار عنميافارقين حيث أن التتار كانوا قد حصروا فيها الملك الكامل محمد بعداختلافهم معه وغضبهم عليه لنكثه بالعهود ونقضه حلفهم وحبسه رجال وفدهم له [٤٥] . وقد صحب ابن شداد في هذه السفارة التي انطلقت من دمشق ثلاثة من اولاد الملك

الناصر وحريمه مع حمل من الهدايا الثمينة اليهم • وقد ترك ابن شداد حريم الملك الناصر في حلب وواصل مسيره الى معقل التتار ، وكاد ينجح في مهمته بعد الجهود الكبيرة التي بذلها في المفاوضات لولا تواطؤ بدر الدين لؤلؤ ومكاتبته للتتار (يخبرهم فيها ان الشهرزورية والامراء الصالحية وصاحب الكرك قد اتفقوا على الملك الناصر واخرجوا عساكره من البلاد والجاؤهم الى دمشق ••• (٤٦)) وبذلك كشف لهم عن امكانياته الضعيفة ووضعه العسكري الحرج امام اتفاق (اهل الساحل والاكراد الشهرزورية) للهجوم عليه لاسيما وان هذه المعلومات قد وثقت لديهم بعد ان وضعوا أيديهم على رسالة بعث بها الملك الناصر الى ابن شداد يلح فيها عليه بالتعجيل في عقد الاتفاق مع التتار الا ان هذه المكاتبات وكثرة الامطار والثلوج المتساقطة هناك ومارافقتها من شحة في الاقوات وهلاك في الخيل والدواب قد افرج عن الملك الكامل محمد حيث جددت المحالفة بينه وبين التتار على جزية يدفعها لهم مكونة من مال وقيان وبذلك اخذت جيوشهم تنسحب وراءهم تاركة «ميافارقين» ومتجهة لحرب الملك الناصر تاركين وراءهم حامية صغيرة امام المدينة • وكانوا قد اعادوا ابن شداد محملا برسالة شديدة اللهجة الى الملك الناصر الذي كان منشغلا حينذاك في حربه مع الجيش المصري في فلسطين وقد اطلع على الاخبار بعد عودته من تلك المعركة وبضمنها اقتراح الملك السعيد صاحب ماردين الذي لم يلق اذنا صاغية من السلطان وكان الاقتراح قد سلم الى رسول الخليفة عند مروره بماردين واجتماعه بالملك السعيد الذي اثنى على ابن شداد وشكره على مافعله بحق المسلمين في مفاوضاته مع التتار (٤٧) وطلب منه أن ينقل للسلطان رأيه في خطة لقهر بدرالدين لؤلؤ الخداع وطرده عن الموصل اذا انجده

الملك الناصر بالرجال والمال• لكن الملك الناصر كان مشغولا بالاستعداد لمواجهة التتار ولم يرغب في تشعيث جيشه على جبهات عديدة خاصة وان التتار قد هاجموا البلاد في السنة نفسها وتقدموا نحو حران واخضعوها بحيث ان الناصر اصبح مضطرا لتهجير حرمه وخدمه وولده وكنوزه عن حلب التي استهدفتها جيوش التتار في هجومهم وتم نقلهم الى مصر ، وقد اقتدى به الامراء والاعيان فارسلوا نساءهم وفعل فعلهم كثير من الشعب بعد ان رأوا جيش الناصر قد تشتت امام الزحف التتري الذي احتل حلب عنوة ، ثم ان الملك الناصر قد فر بنفسه الى غزه تاركا دمشق رغم بعدها عن حلب • وبذلك عم دمشق خوف شديد دفع بابن شداد أن يهرب الى مصر لا عن جبن كما يقول الاب لودي(٤٩) بل مقتفيا اثر سلطانه والامراء والوزراء والمعاصرين له من الرجال الكبار امثال ابن العديم الذي عرف بمقامه الرفيع من السلطان بل شأنه في ذلك شأن مافعله اهل حلب جميعا امام تلك الهجمة الوحشية التي دمرت المدن وقتلت الالاف من المسلمين •

ان هجرة ابن شداد الى مصر لم تحدث تغييرا كبيرا في حياته السياسية بل شملته رعاية الملك الظاهر بيبرس وصار من اقرب خواصه والمقربين اليه ، ملازما له في معظم اوقاته ومصاحبا اياه في اغلب حروبه واسفاره وبذلك يقول اليونيني « وكان له مكانة عند الملك الظاهر ركن الدين والملك المنصور سيف الدين ــ رحمهما الله تعالى ــ وحرمته وافرة ، وله توصل ومداخلة وعنده بشر كثير ومسارعة الى قضاء حاجة من يقصده» (٥٠)• وقد عبر هو عن تلك الظلال السلطانية الوارفة التي أظلته في مطلع الجزء الاول من كتابه (الاعلاق الخطيرة•••) حيث قال « وبعد فأني لما حللت بمصر المحروسة وتبوأت محالها المأنوسة •

وشملني من انعام مولانا السلطان الملك الظاهر ، الظاهر المقصد الباهر المفاخر ركن الدين ابي الفتح بيبرس . قسيم امير المؤمنين لازالت الويته في الخافقين خافقة ... (٥١) » وظل يعيش في كنف السلطان الظاهر بيبرس بمصر مصاحبا له قرابة عشر سنوات وعاد معه الى الشام حيث يقول «ولما رحلت في سنة تسع وستين وستمائة الى دمشق بصحبة مولانا السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه (٥٢) » . وربما هذه الملازمة الوثيقة الصلة بالظاهر بيبرس هي التي دفعت بابن الفرات في تاريخه وبابن ابي الفضائل في نهجه السديد أن يطلقا عليه اسم «الصاحب(٥٣)».

ومن المفيد هنا ان نقيم ابن شداد سياسيا بالعبارات المختصرة التي ذكرها المؤرخون في ترجمتهم له ، حيث تكمن فيها الملامح الواضحة لمكانته المرموقة في السفارة والاستشارة والتوكيل في المهام الجسام لسلاطين الايوبيين ومماليك البحرية العظام ، حتى انه عندما كتب الامير علم الدين مدبر الممالك الشريفة للسلطان قلاوون يعرض فيه بتوليه ابن شداد (ناضرا للصحبة الشريفة وكشف الشام) فكان جواب السلطان له (ان المولى عزالدين معد لاكبر من هذا . فسير القاضي شهاب الدين غازي بن الواسطي فتولى نظر الصحبة وكشف الشام (٥٤)). وفي نفس الوقت تكشف لنا هذه الرواية وغيرها عن براعته ونظره الثاقب وقدرته على اتخاذ المواقف الحكيمة في مفاوضاته الحرجة مع التتار الذين اختبرهم وعرف طبائعهم من خلال توليه ديوان الرسائل عند هولاكو كما يزعم البعض . واذا صح هذا الزعم فربما يكون هو السبب في انتدابه من قبل سلاطين المماليك لتمثيلهم في مفاوضاتهم مع التتار الغازين لبلادهم ، وقد عرف في كل هذه المفاوضات بالجرأة والاقدام ونستدل على ذلك بما دار بينه وبين ايلخان التتار التي ذكرها في كتابه الاعلاق الخطيرة كما اكد المؤرخون ذلك بما ذكروه عنه اذ قال

ابن الفرات (ت ٦٨٢ هـ/١٢٨٣) • « كان الوزير المشير عز الدين فاضلا دينيا مؤرخا رييسا معظما عند الامراء الاكابر محبوبا [٥٧] اليهم وكان الامراء والاكابر يحملون اليه في كل سنة دراهم وكسوة وغلة وغير ذلك» وجاء في الوافي بالوفيات للصفدي «ابن شداد الصدر المنشىء ابو عبد الله الانصاري الحلبي الكاتب ••• وكان من خواص الناصر ذهب في الرسلية الى هولاكو والى غيره وسكن الديار المصرية بعد اخذ حلب ، وكان ذا مكانة عند الظاهر والمنصور قلاوون الصالحي وله توصل ومداخلة وفيه مروءة ومسارعة لقضاء الحوائج [٥٨] •••» • وفي سنة ٦٧٦ هـ/١٢٨٨م عاد ابن شداد الى دمشق حيث حضر مجلس عزاء حميمة الملك الظاهر بيبرس المقام من قبل ولده الملك السعيد ناصر الدين محمد بن بركة خان ثم عين وكيلا عن الملك السعيد في ادارة الاوقاف مع توكيله المدرسة التي أنشأها بدمشق [٥٩] •

ولعل مكانة ابن شداد السياسية تتضح من خلال اتصاله بخدمة سلسلة من السلاطين امثال الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك المفضل موسى بن صلاح الدين صاحب حلب سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤٠م حيث استمر في خدمته حتى هروبه الى مصر سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٨م • والملك الظاهر بيبرس في مصر والملك المنصور قلاوون الصالحي والملك السعيد بالاضافة الى معرفته بعدد من الامراء والوزراء امثال الامير سيف الدين قشتمر العجمي [٦٠] وابن العديم والقاضي بهاء الدين بن شداد وغيرهم •

اما مكانته واهميته في مجال الدبلوماسية والسفارة فقد حفظته المعلومات التي اوردها في كتابه الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) [٦١] حيث كشف بمساهماته عن طبيعة العلاقات بين ملوك وامراء بلدان الجزيرة

الفراتية واختلافاتهم الشخصية التي فتحت ابواب مدنهم امــــام التتر وسهلت عليهم احتلالها كما فعل شرف الدين الاوى مع الملــك الكامل صاحب ميافارقين الذي «منع الخمر في بلاده وكان شرف هذا مدمنــا لها فسأله استئشاره بها ... فأبى فحملته على ان كاتب التتر ووعدهم ان يسلم اليهم ميافارقين ...» وماذكر عن نجدة بدر الــدين لؤلؤ صاحب الموصل للتتار المحاصرين لميافارقين التي أرسلها بقيــادة ولديه والملــك المظفر علاء الدين وعلم الدين سنجر الامدي [٦٢] ونجدة صاحب ماردين التي وصلتهم في الوقت نفسه [٦٣] . هذا بالاضافــة الى مراسلات بدر الدين لؤلؤ السريةالمستمرة للتتار وهو يطلعهم فيها على تحركات جيوش العرب المسلمين المعادية لهــم [٦٤] . وبذلك يقول الاميــر عز الدين بن الشماع الذي ارسل الى هولاكو حاملا هدية الملك الناصر له جاء فيــه « والله ماخرجت البلاد من ايدينا الا بتخــــاذل بعضنــا عن بعض فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى » [٦٥] .

وعلى كل حال فقد أظهرت المفاوضات التي أدارها وترأسهــا ابن شداد مع التتار عن حرصه الشديد على مصالح امته امام التتر المفاوضين الذين كانوا لا يضمرون لحكام هذه المناطق من العداء بقدر عدائهــم للعرب وقد كشفوا عن سريرتهم بجلاء عندما تكلــــموا مع ابن شداد قائلين «وانا لم ندخل الجزيرة الا في طلب اعدائنا التركمان والعرب[٦٦]» . وهم أهل الارض الحقيقيون ، لذلك حاول ابن شداد استنهــاض همم ملوك المماليك الذين معظمهم عرفوا باللامبالاة ومداراة التتــار الغزاة طالبين رضاهم وعارضين عليهم الهدايا ومظهرين لهــم الود والترحيــب بقدومهم ، كما حصل له مع مخدومه الملك النــــاصر الذي حـــاول استنهاضه ضد التتار بواسطة الملك الكامل عندما حفزه لهــذا الغرض في لقائه معه بحلب قائلا (فأشرت عليه انه اذا وصل الى بلاده يخرج منها

حريمه ويستخلف بها نوابا ويعود الى الملك الناصر لعل تنهض عزيمته فيعينه على بلوغ مراده) [٦٧]. كما عرف بعناده وجسارته في مخاطبته للتتار ويتضح ذلك من محاججتهم لاسترداد ما أخذوه من حران قائلا « وطلبت منهم ما كانوا أخذوه من بلد حران او العوض وقلت متى اتصفونا خرجنا عن الطاعة فاغاظهم ذلك وقالوا لي كم لك رأس من ذا الذي يقابل ايلخان بهذا الكلام . ثم أقاموا مزعجين ومروا بنا على قتلى وقالوا لنا ان الم تكونوا عقلاء والا كنتم مثل هؤلاء » [٦٨] هذا بالاضافة الى العديد من الامثلة التي تدلل على نظره وقابليته الدبلوماسية في المحاججة والخروج بنجاح من المواقف المحرجة في المفاوضات [٦٩] .

وفي نفس الوقت كشف لنا عن همجية التتار [٧٠] وما كانت تلاقيه الرعية في بلاد الجزيرة من ظلم وعسف على أيديهم . ويحكي لنا ابن شداد عن طباعهم الفظة واساليبهم الخشنة حتى مع الوفود المفاوضة التي كانت تتمتع بالحصانة والامان الدبلوماسي . ففي مقابلته ليشموط ابن هولاكو رغم أنه كان محملا «بهدايا ثمينة له لقي كثيرا» من العنت والمقابلة السيئة اذ قال : (ثم رحلنا ونزلنا منزلة اخرى فوصل الينا جماعة من التتار ومعهم قامات فعرضوا جميع اصحابنا وما معنا من الدواب ثم اوقدوا نارا « في ناحيتنا ومروا بنا بينهما وهم يضربوننا بالعصي وأخذوا من عرض الثياب ثوبا » حطابيا « مذهبا » فقطعوا منه قدر ذراع ثم قطعوا الذراع قطعا « صغارا » والقوه واحرقوها بالنار . ثم قالوا ايلخان يأمركم ان تستريحوا الليلة وتحضروا عنده غدا » فلما حضر الينا جماعة وأخذوا ماكان معنا من الهدايا وحملوها بين ايدينا وامرونا بالمسير معهم ، فلما حضرنا عنده ادينا الرسالة وكان مضمونها التهنئة بالقدوم والشكوى من تعرضهم لبلاد الجزيرة وقتل من بها من الرعية [٧١]) .

نشاطه العلمي في مجال الكتابة التاريخية :

آراءالمعاصرين له والمتأخرين /

كان على مستوى رفيع من الثقافة رغم ان كتب التاريخ قد ظلمته حيث لم يتطرق الى امكاناته العلمية الفذة لا في حقل التاريخ الذي اشتهر به فحسب بل كانت له معرفة في الأدب والبلاغة والفقه والرواية فقد (روى شيئا « وسمع منه المصريون) [٧٢] رغم انه لم يترك مؤلفا » فيها. وربما دفع ذلك بالذهبي وابن العماد الحنبلي واليافعي ان يسمونه بـ (الرئيس المنشىء البليغ) وأطلق عليه الصفدي (الصدر المنشىء) [٧٣] وشخص الذهبي قابليته الادبية بقوله (وكان اديبا «فاضلا») [٧٤] . كما يستشف من ترجمة ابن الفرات له على انه كان ملما «بالفقه» وملازمة رجاله ، امثال الصاحب بهاء الدين الفقيه الشافعي الذى كان يحضر حلقاته [٧٥] . لكن باعه في التاريخ كان اكبر حيث سطع نجمه واشتهر به اسمه كمؤرخ وطوبوغرافي ،كتب لسلطانه وفاء « منه لرعايته الكريمة واغداقه السخي عليه» كما جاء في كتاب الموسوم (سيرة الملك الظاهر) وكتب لمجتمعه الذي تربى فيه وترعرع في أحضانه كما جاء في كتابه (الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة) ومع ذلك لم ينس هنا افضال ـ الظاهر بيبرس ، الذى عبر عن شكره له في مطلع كتابه (رأيت انتهاز الفرصة في شكر انعامه العميم . وادراك البغية في وصف اكرامه الجسيم ان اضع كتابا «اذكر فيهما سنى الله له من الفتوحات) [٧٦] ». لذلك ذهب البعض الى جعل ابن شداد في صف المؤرخين الذين ألفوا للسلاطين . لكن المتفحص الجيد لكتابة الاعلاق الخطيرة قد يقف على خلاف هذا التصور لذلك لم يبخس المؤرخون ذكره وبيان فضله في هذا الحقل ـ التاريخ ـ وان قلت الاسطر المكتوبة عنه في تآليفهم وتراجمهم

حيث يقول ابن كثير «وكان فاضلا مشهورا ٠٠وكان معتنيا بالتأريخ»(٧٧) وقال ابن الفرات « فاضلا دينا مؤرخا »(٧٨) وقال الذهبي « ٠٠وصنف تأريخا لحلب وسيرة الملك الظاهر »(٧٩) ووصفه حاجي خليفة وصاحب كتاب هدية العارفين بـ «الكاتب الحلبي» (٨٠) وجاء ذكره في دائرة المعارف الاسلامية باسم «المؤرخ العربي » (٨١) وقال عنه سورديل في دائرة المعارف الاسلامية أيضا «مؤلف سوري في المجالات الطوبوغرافية والتأريخية » (٨٢) وقال عنه الزركلي « مؤرخ رحالة طاف بلاد الشام وجزيرة العرب وصنف رحلة سماها الاعلاق الخطيرة » (٨٣) ٠

وعلى كل حال فقد ترك لنا ابن شداد تراثا خصبا في مجال التاريخ يعتبر اليوم كشفا تأريخيا لجزء مهم من الوطن العربي الكبير ساهمت عدة عوامل في تحضيره وتشجيعه على الانكباب على هذا المجهود والنجاح فيه وأبرزها :

(١) مكانته لدى السلاطين والامراء والوزراء في بلاد الشام ومصر الذي استظل بانعامهم واكرامهم بحيث وفرت له مجالا خصبا للتفكير والكتابة التأريخية ٠ وبالفعل فقد صرف في تأليفه الاعلاق الخطيرة ـ تسع سنين تقريبا ٦٧١ ـ ٦٧٩ هـ / ١٢٧١ ـ ١٢٨٠ م وكان طوالها يعيش في رعاية الظاهر بيبرس وابنه الملك السعيد ، كما هيأت له هذه الرعاية الكريمة فرصا لم تسنح لغيره في الوقوف على خفايا الامور أو معايشتها لذلك جاء تأليفه لكتاب (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) (٨٤) ردا جميلا لذلك الانعام الذي ناله من السلطان بيبرس بالاضافة الى عبارات الشكر والثناء التي يصدر بها مؤلفاته الاخرى ٠ كما ان ملازمته لوزير الملك الظاهر والملك السعيد الصاحب بهاء الدين بن حنا قد افادته ونفعته لانه كان يحضر مجالسه الخاصة ويحظى بمرافقته في

اسفاره كالزيارة التي رافقه فيها الى دمشق حيث وقف على اثارها ومعالمها ومعرفة اسرارها التي لولاها لما كان بمقدوره الوصول اليها • وقد ذكر فضل هذه الزيارة في كتابه الاعلاق •

(٢) ربما كانت لأحداث عصره الخطيرة وموقف الدولة الاسلامية المتأزم بين هجمات التتار من المشرق والصليبيين من المغرب وعلاقتـــه المباشرة بالاحداث المرة الناجمة عنها قد دفعته الى تسجيـــل مشاعـــره وذكرياته عن تلك الاوضاع تسجيلا يبقى لهذه الامكان أصالتها لا سيما وان المنطقة المعنية بدراسته كادت تذوب او تندثر ــ في تصوره ــ من خلال وقوعها بين كماشتي الصليبيين والتتار القاسيـــة • لذلك جمـــع مفردات كتابه وما تضمنت من أحداث بدقـــة متناهية حفظت للمنطقـــة تاريخهـــا وواقعها •

منهجه وموارده :

استوعب ابن شداد العديد من المصادر الموثوقة واستفاد منها الى حد بعيد في كتابة تاريخه حيث اختصر باتقان عددا كبيرا من الاخبـــار الواردة في تلك الموارد واستخلص الجيد منها ونبذ الرديء مثال ذلك ما قاله عن قلعة البيره (لم يتصل بعلمي شيء من اخبارها فيما طالعته من كتب التواريخ المصنفة في صدر الاسلام والذي احطت بهعلما)(٨٥) وبصدد كلامه عن ميافارقين قال « ونقلت من بعض التواريخ انه كان موضعها أجمة وشركا وكان الريض قرية عظيمة » وقال في صدد موضع لم يعرفه « ولما لم أجد له ذكرا فيما طالعته من كتب التواريخ الموضوعة في صدر الاسلام ، ولا في الكتب المصنفة في المسالك والممالك ، لم أزل أبحث عنه الى أن أخبرني ثقة اعتمد عليه انه كان ديرا للنصارى » (٨٦) وفي وصف أمد قال « ووقفت على رسالة للقاضي الفاضل في صفة أمد

لما فتحها صلاح الدين » (٨٧) وعن حصن كيفا قال « ولقد بالغت في التقصي عمن اختطه من عمره ونسب اليه وملكه فلم اعثر على شيء من ذلك مع استيعابي مطالعة كتب التواريخ والمسالك والممالك وما يتعلق بهذا الفن ... » (٨٨) وعن ذكره عصيان عيسى بن الشيخ لديار بكر قال « سبب ذلك انه كان عاملا على دمشق من قبل الخليفة المهتدى وعلى حلب أيضا هذا كلام ابن العديم وقال غيره بل على دمشق » (٨٩) وهذا في نفس الوقت يدلل على مدى اهتمامه بتقصي الحقائق واتباعه للمنهج العلمي في الكتابة التاريخية ، الذي أشار اليه بوضوح في مطلع الجزء الثاني من كتابه (الاعلاق الخطيرة في امراء الشام والجزيرة) الخاص بالجزيرة الفراتية وهو يتكلم عن انقراض دولة بني حمدان قائلا « وتفرقت بلاد الجزيرة وصار كل بلد في يد ملك مستبد به نحن نأتي على ذكرها بلدا بلدا ونعيد الجملة الى التفصيل ونأتي بالتفريع مبينا لما مضى من التفاصيل ونقرها على ما رسمت اوضاعها ورتبت اصقاعها » (٩٠) وقوله « وسبب هذا الاختلاف تداول أيدي الملوك عليها ـ أي الجزيرة ـ وتغلب بعضهم على بلاد بعض وقد رأينا أن نعول على القول الاول فانه اشمل وأعم » (٩١) وقوله : « ونذكرها ـ أي الجزيرة ـ منذ فتحت وانتقلت في أيدي الملوك بلدا بلدا وموضعها من المعمورة في الاقاليم الاربع » (٩٢) . كما عرف بنقده للروايات الضعيفة الاسناد التي لا يؤيدها الدليل العقلي وذلك من خلال التشكيك وعدم التسليم بما تورده المصادر القديمة. ويؤكد ذلك موقفه من الروايات التي ذكرتها عن حران اذ وصف أصحابها بالزعم حين قال : « دخلها من الانبياء فيما زعم أهل التواريخ القديمة نوح وابراهيم ويعقوب وعيسى » (٩٣) .

واعتمد مؤرخنا المصادر المعاصرة للاحداث التاريخية التي اهتم مؤلفوها بالمشاهدات العيانية في وصفهم معالم الجزيرة الفراتية . ففي

كلامه عن الرها قال « وأخبرني من رآها ان لها سورا من الحجر يحيط بأشجار وارجاء .. » (٩٤) وذكر عن سنجار قوله « واستوضفت أحد أهلها لها فذكر انها كانت قبل استيلاء التتر عليها بليدة صغيرة لها سوران .. » (٩٥) وعن بيان سبب انتقال ملك ميافارقين الى الوزير ابن جهير وما جاء في كلام المنجم الهندي للملك نصر الدولة بهذا الصدد قال « وحكي من سمع من الوزير ابن جهير انه قال والله من ذلك اليوم بث في خاطري أخذ البلاد» (٩٦) وعن تسمية أمد أورد أنها « سميت بأمد ابن البلندي بن ملك بن دعر لأنه اول من اختطها كذا حكى الشرقي بن القطامي » (٩٧) . وكان ينقل مباشرة عن الملك الظاهر بيبرس وقائع الحروب التي يحظ بمصاحبته له فيها . وكذلك سمع من الامير سيف الدين قشتمر (٩٨) وابن العديم وغيرهم .

ومن خلال استيعابه للموارد الغنية بمعلوماتها قدم لنا دراسة متكاملة للحدث الواقع أو المكان الواحد لذلك يجد القارىء في كتابه الاعلاق تعددا للموارد في الحادثة الواحدة أو التسمية الواحدة أو الوصف للمكان الواحد فمثلا اعتمد في تثبيت اسم حران على الجواليقي والطبري وصاحب كتاب ابتداء عمران البلدان (٩٩) . وفي تسمية الرقة والرافقة نقل عن كل من هشام الكلبي والادريسي وابن حوقل والطبري (١٠٠) . وفي ذكره للرها نقل عن ابن الكلبي ومحبوب بن قسطنطين والروهي المنبجي والادريسي وابن أبي يعقوب والواقدي (١٠١) . وفي حكم مروان لماردين اعتمد كل من ابن الاثير وابن الازرق الفارقي والهمداني (١٠٢) .

كما اتخذ من مشاهداته المباشرة لبعض الاماكن او معاصرته لبعض الاحداث التي تخللت سفاراته الكثيرة والهامة للسلاطين وملوك المماليك موردا فريدا لتأريخه عن الجزيرة بحيث اضفت عليه طابع الخصوصية

فقد انفرد مثلا بذكر معلومات دقيقة عن ارتفاع حـران لعـــام ٦٤٠ هـ /١٢٤٢م لانه كان مبعوثا ماليا للملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب الى تلك الديار فكشف لنا بذلك عن ايراداتها السنوية التي قدرها بمليوني درهم [١٠٣] • كما زودتنا بعثته لسنة ٦٤٩هـ/١٢٥١ م بمعلومات عن محاولاته الجريئة في ردع بدر الـدين لؤلؤ وملـوك الاطراف عن الاستجابة الى مطاليب الوفد التتري القاضي بأكراه هؤلاء الملوك والامراء على دفع جزية سنوية الى ملك التتار [١٠٤] • وقد عرض لنـا في أماكن متفرقة من كتابه نتائج بعثاته الدبلوماسية كسفير وما اعترضته خلالها من احداث • ففي سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٨م وما بعدها بعث الى ملـك ميافارقين المحاصر من قبل التتار والى غيره من ملوك وامراء الجزيـرة • وقد بوب هذه المعلومات تحت عناوين عديدة منها (ذكر توجهي رسولا الى التتار على ميافارقين ، و (ذكر ماجرى لي مع نواب صاحب ميافارقين) و (ذكر عودي الى حلب) وغيرها التي يمكن مراجعتهـا في النصوص المنشورة مع هذا البحث [١٠٥] •

ومن الملاحظ ان ابن شداد قد اعتمد على المصدر الاقرب الى الخبر الواحد او المنطقة المراد دراستها وجمع المعلومات عنها ، لذا ركز بشكـل خاص على موردين اساسيين في القسم الخاص بالجزيـرة الفراتية من كتابه الاعلاق الخطيرة ، وهما الكامل في التاريخ لابن الاثير الذي رجع اليه عدة مرات في جمعه الاخبار التي غطى بهـا تاريخ معظم قصبات الجزيرة الفراتية حتى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م عدا آمد وميافارقين وديـار بكر التي غطاها تقريبا بمصدر آخر هو تاريخ الفارقي لابن الازرق • الا ان هذا لايعني احجام ابن شداد عن مصادر اخرى مهمة سنتطرق لأهمها بشيء من التعريف والتوضيح مع تحديد نوع الاستفادة منها :

أ ـ كتب التاريخ :

١) هشام الكلبي : ابو المنذر هشام بن ابي النظر محمد بن السائب ابن بشر بن عمرو الكلبي . النسابه الكوفي ... له كتاب (الجمهـرة) في النسب وهو من محاسن الكتب في هذا الفن ذكره حاجي خليفة بقوله « فتح هذا الباب وضبط علم الانساب » (١٠٦).وتصانيفه تربو على مائة وخمسين . منها خمسة كتب مشهورة في الانساب واخرى في التاريخ والاخبار منها تاريخ اخبار الخلفاء وبيوتات ربيعـة وملوك الطوائف وكتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير وكتاب التاريخ ١٠٧ ولعل ابن شداد قد اخذ عن هذه الكتب التي لم تصل الى ايدينـا ... توفي سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م (١٠٨) .

٢) الواقدي : ابو عبدالله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم وقيل مولى بني سهم توفي سنة ٢٠٤ هـ /٨١٩م(١٠٩).

٣) البلاذري : ابو بكر ، وقيل ابو جعفر وقيل ابو الحسن احمـد ابن يحيى بن جابر بن داود البغدادي لم يعرف تاريخ ولادته ويجعـل بعض المحدثين وفاته سنة ٢٧٩ هـ /٨٩٢ م (١١١) . يتضح من التطابـق اللفظي لما نقله ابن شداد عن كتاب فتوح البلدان انه لم يغيـر في نص رواية البلاذري الا قليلا كمـا لم يكلف ابـن شداد نفسه لذكـر اسم (فتوح البلدان) بل اكتفى بالقول (ذكـر البلاذري في تاريخه) أو (قال البلاذري) ١١٢ .

٤) الطبري : ابي جعفر محمد بـن جرير بن يزيد عـاش سنـة (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ/٨٣٨ ـ ٩٢٢م) ١١٣ . نقل عنه خبرين فقط ١١٤. والملاحظ انه لم يأخذ عن الطبري حرفيـا وانما استفـاد من فحوى

روايات الطبري فمثلا استفاد منه في تحديد سنة بناء الرافقة واسم بانيها مع اشارة الى ممانعة اهل الرقة في بناء المنصور لها . ولم يجهد نفسه في نقل ماتبودلت من احاديث حول الممانعة التي اظهرها اهل الرقة في بنائها طالما لم يكن لتلك الاحاديث من تأثير على تغيير عزم المنصور على بنائه للرافقة . فبذلك يكون قد ترك للطبري [١١٥] ذكرها والتفصيل فيها واكتفى ابن شداد بالاشارة اليها فقط .

٥) الهمداني/ابي الحسن محمد بن عبد الملك (الفرضي) المتوفى سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م اعتمد ابن شداد على عدد من كتبه التي لم يبق لنا الزمن منها غير الاسماء والكتب التي استخدمها عنوان السير [١١٧] وتاريخه [١١٨] والتذييل [١١٩] . مع العلم ان مؤرخنا قد رجع الى هذه الكتب الثلاثة مرة واحدة لكل منها [١٢٠] .

٦) ابن الازرق/ هو احمد بن يوسف بن علي بن الازرق ولد بمدينة ميافارقين في شهر شوال سنة خمس عشرة وخمسمائة للهجرة وتوفى بعد سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠م نقل ابن شداد عن تاريخه نقلا حرفيا وبشكل خاص فيما يتعلق بتأريخ آمد وميافارقين وديار بكر مما جعل بدري عوض [١٢١] يعتمد نسخه مارش المحفوظة في مكتبة بودلين برقم Bod. March 333 والتي لاشك في كونها جزءا من كتاب الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) لابن شداد ، كنسخة ثالثة اضافة للمخطوطتين اللتين اعتمد عليهما في تحقيقه الجزء المتعلق بالدولة المروانية في تاريخ الفارقي [١٢٢] . واذا كانت هذه النسخة قد لاتحمل اسم ابن شداد فهي تحمل سنة وفاته الموافقة لـ (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) .

ومن المفيد ان نشير الى بعض التغيرات الثانوية التي حاول ابن

شداد ادخالها على تقولاته هذه كي يبعد عن نفسه صفة النقل الحرفي عن الغير ــ صفة معظم مؤرخي العصر ــ فعمل على تغيير مواقع بعض الجمل والعبارات والكلمات عن طريق التقديم أو التأخير في تركيبها أو حشر بعض الكلمات المترادفة في سطور الكتاب الا ان كل ذلك لم يغير اساسا في جوهر المنقول عن تاريخ الفارقي ، ولم يخف عنصر التطابق اللفظي لديهما وتوضيحا لذلك نستدل بنقل نص من تاريخ ميافارقين لابن الازرق ــ على سبيل المثال ــ لمطابقته مع النص المماثل في كتاب الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) كي يتضح لنا طبيعة الاخذ عن ابن الازرق واسلوبه .

النص في تاريخ الفارقي كالآتي [١٢٣] « ... وبقي الممهد في الولاية . وحاجبه شروة متوليا واليه الامور بأسرها وقربه قربا كثيرا ، وأحبه حبا شديدا ، واطلعه على نسائه وجواريه بحيث انه قال له يوما « روحي دون روحك ياأبا شجاع ويومي قبل يومك ، وكان لشروة غلام يسمى ابن فليوس وكان يحبه حبا شديدا ...) اما في تأريخ ابن شداد فقد جاء النص تحت عنوان قتل ممهد الدولة وملك شروة بهذه الصيغة«كان هذا شروة متوليا أموره وكان قد قربه قربا زائدا واحبه محبة عظيمة بحيث انه اطلعه على نسائه وحرمه حتى قال له يوما روحي دون روحك يا شجاع ويومي قبل يومك، وكان لشروة غلام يسمى ابن فليوس وكان يحبه محبة زائدة ... » [١٢٤] .

وفي نفس الوقت نجح ابن شداد الى حد ما في اعادة سبك بعض عبارات أو جمل تأريخ ابن الازرق بحيث اصبحت واضحة في المعنى والقراءة [١٢٥] .

٧) محبوب ابن قسطنطين المنبجي/ لم اعثر له في كتب الرجال على ترجمة بل جاء اسمه في مطلع كتابه (العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوج بأنواع الفلسفة الممدوح بحقائق المعرفة) [١٣٦] وسمي باسم اغابيوس ابن قسطنطين الرومي المنبجي أسقف مدينة منبج وقد نقل عنه ابن شداد نقلا مباشرا وصريحا مايخص اخبار الملك الاول نمرود بن كنعان وملكه جميع الارض ببابل [١٣٧] .

٨) ابن الاثير (ابو الحسن علي بن عبد الكريم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الملقب عز الدين (٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ/١١٦٠ ـ ١٢٣٢م) . فهو ابن الجزيرة الفراتية ... وكتابه الكامل في التاريخ « ابتدأ فيه من اول الزمان الى اخر سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو من خيار التواريخ » [١٣٨] .

أخذ ابن شداد عن ابن الاثير في مواضيع عديدة من كتابه الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) [١٢٩] حتى يمكننا اعتبار كتابيه (الكامل في التاريخ) و (الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية) من المصادر الاساسية التي اعتمد عليها ابن شداد لانه كان يعتبرهما اكثر المصادر المتوفرة لديه وثوقا وربما يعود الى كون ابن الاثير اكثر المؤرخين خبرة ومعايشة ومعاصرة لاحداث الجزيرة الفراتية ومعالمها ، لهذا جاءت معلوماته أغزر واوثق مما تضمنته مؤلفات المعاصرين له وقد دلل على هذا الاهتمام بأبن الاثير اثناء كلامه عن قرقيسيا يقول فيه « لم يتصل بعلمي من ملكها بعد خروجها عن ايدي بني قريش فيما طالعته من كتب التواريخ الى ان قرأت في تاريخ ابن الاثير ... [١٣٠] » ، وعما يتعلق بتأريخ ماردين بعد سنة ثمان وسبعين واربعمائة قال « ولم اعثر لها بعد ذلك على ذكر الا في تاريخ ابن الاثير في حوادث ثمان وتسعين

واربعمائة [١٣١] » . ورغم هذا الاعتماد فان ابن شـداد لم يقتف اسلوب النقل الحرفي في أخذه عن ابن الاثير خلافا لموقفه من تاريـخ الفارقي السالف الذكر ـ لانه في معظم الاوقات كـان يتصرف في الروايـات والنصوص التي كان يحاول الاستفادة منها [١٣٢] . والاهم من كل هـذا ان ابن شداد كثيرا ما كان يشبع رواية ابن الاثير بمعلومـات فاتـه ذكرها أو أغفلها [١٣٣] . كما لم يستسلم للمعلومات الواردة في روايـات ابن الاثير من دون دراسة وتدقيق وتمحيص والرجوع الى المصـدر الاقدم في حالة حدوث اختلاف بشأنها ، مثال ذلك موقفهما من روايـة مكاتبة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى سعـد بن ابي وقاص قائـد فتوحات الشام والعراق جاء فيها « عن ابن اسحق قال/ كتـب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سعد بن ابي وقاص ان الله تبارك وتعـالى فتح على المسلمين الشام والعراق فأبعث من قبلك جندا من العراق الى الجزيرة وأمر عليهم خالد بن عرفطه أو هشام بن عتبه او عيـاش بن غنم ... [١٣٤] » في حين جعل ابن الاثير [١٣٥] هذه المكاتبة قبل فتح الجيش العربي للشام والعراق التي توقعها الخليفة في رسالته الى سعد وبذلك تغاير رواية ابن شداد التي جاءت مطابقة لروايـة الطبري [١٣٦] في جعل المكاتبة بعد فتح المسلمين للشام والعراق .

وعلى كل حال ان النصوص الكثيرة التي غدت اعـلاق ابن شداد تفسر لنا مدى الصلة بين الكامل في التاريخ وتاريخ الجزيرة الفراتية في كتاب الاعلاق الخطيرة حتى اعتبر ابن شداد كتابه ذيلا لتاريخ ابن الاثير بقوله « وسنذكر هذه الوقائع على ماوقعت بينة واضحة في تأريخنـا الذي جعلناه ذيلا لتأريخ ابن الاثير » [١٣٧] .

٩) الحموي/ القاضي شهاب الدين ابراهيم بن عبـد الله بن ابي

الدم (ت ٦٤٢ هـ/١٢٤٤م) في كتابه (التـاريخ المظفري) وهو تاريخ يختص بالملة الاسلامية في نحو ست مجلدات [١٣٨] .

وان ابن خلكان يورد في ترجمته لكل من يزيد بن مفرغ الحميري ويوسف بن تاشفين ، مايفيد بان المظفر بالله ابو بكر محمد بن عبد الله ابن مسلمة التجيبي (من فحول العلماء) وكان ملكا له تصانيف أعظمها واشهرها الكتاب المنسوب اليه وهو (المظفري) في علم التاريخ ، وقيـل انه في خمسين مجلدا [١٤١] .

١٠ ابن العديم/ كمال الدين ابي حفص عمـر بن عبد العزيز بـن احمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله العقيلي الحنفـي المعروف بأبن عديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦١م اعتمده ابن شداد لمرة واحدة في (ذكر عصيان عيسى بن الشيخ لديار بكر) رغم ان الذهبي فـي تاريخه (العبر في خبر من غبر) يذكر بأن ابن العديم الف تاريخـه من نحو ثلاثين مجلدا وانتزع منه كتابا سماه «زبدة الطلب في تاريخ حلب» [١٤٢] . ولعل معاصرة ابن شـداد لـه وعلاقتـه الجيدة معـه قلل من ظاهرة اتخاذه مصدرا ، لان كلاهما كان مقربا من السلطان وكانـت الاحداث التي عاصرها ابن العديم قريبة العهد بأبن شداد الذي كان من معاصريها أو مشاهديها ايضا .

ب ـ كتب المسالك والبلدان :

١) الاصطخري/ ابو اسحق ابراهيـم بن محمـد (ت ٣٤٦ هـ /٩٤٧م) صنف كتاب الاقاليم في الجغرافية ، وكتاب الممالك في التاريخ والجغرافية [١٤٣] ، الذي لم يشر اليه ابن شداد في متن تاريخه علما بأنـه اعتمد عليه في اكثر من موقع بل نقل عنه في بعض الاحيان نقلا حرفيـا

[144] كما حصل له بالنسبة الى نصيبين . كما اخذ عنه بتصرف في كلامه عن رأس العين وغيرها من بلدان الجزيرة . علما بأن الاصطخري لم يشر الى قلاع الجزيرة التي اهتم ابن شداد بذكرها والتفصيل فيها .

٢) ابن حوقل / ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (ت٣٥٠ هـ /٩٦١م) وكتابه المسالك والممالك [145] . وقد اعتمده ابن شداد مصدرا في جغرافية الرقة [146] ، ودار [147] ، وسنجار [148] .

٣) الادريسي / محمد بن محمد الادريسي الصقلي . كتابه نزهة المشتاق في اختراق الافاق . ألفه في منتصف المائة السادسة لصاحب صقلية [149] . رتبه على الاقاليم السبعة واورد فيه اوصاف البلاد والممالك مستوفية ، وبين المسافات بالميل والفرسخ [150] . وقد اعتمده ابن شداد مصدرا في مكان واحد في وصفه لمدينة الرقة [151] .

٤) صاحب كتاب ابتداء عمران البلدان : اعتمد عليه ابن شداد في تحديده لسنة بناء حران حيث نقل عنه قوله « حران بنيت لما بين خمسة وسبعين بعد الطوفان بناها فيقان بن أرفخشد بن سام بن نوح وسماها آران [152] » الا اني لم احصل على ترجمة لصاحب الكتاب في كتب التراجم والرجال .

جـ ـ كتب اللغـة :

ان ابن شداد استفاد من الكتب اللغوية والمعاجم العربية رغم انه لم يشر اليها الا نادرا ، فمثلا تطرق الى كلمة آران وتعريبها الى حران . [153] معتمدا على ماقاله منصور بن موهوب بن الحضر الجواليقي (٤٦٥ ـ ٥٤٠ هـ/١٠٧٢ـ١١٤٥م) في كتابه (المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم [154] وفي تسمية آمد بأسم آمد بن البلندي ، جاء مطابقا لما في

(معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضيع) [١٥٥] للبكري المتوفى ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م) وقد التجأ الى ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ/١٢٢٨م) في تأصيل اسماء مدن الجزيرة الفراتية واشتقاقاتها وتحديد مواقعها حيث نقل حرفيا عما أورده ياقوت عن تسمية ميافارقين والروايات التاريخية التي تدور حول مصدر تلك التسمية وخاصة مايتعلق منها بزواج هيلانة من تيودسيوس وامتلاكها البلاد بعد موت زوجها كوصية على ابنها الصغير قسطنطين ... ثم علاقة مروثا بن تيودسيوس ـ من زوجته مريم بنت رئيس الجبل ـ بميافارقين منذ كان صاحب ماشية من غنم وبقر وغيرها فأتخذها خطة له (وقطع عن ارضها الشوك والقصب والطراش وجعله سياجا ودوارا للغنم ...) [١٥٦] .

وقد استفاد مؤرخنا ايضا من معلومات ياقوت الخاصة بتأريخ قاعة جعبر وتسميتها القديمة [١٥٧] . بالاضافة الى معلومات اخرى عن سنجار [١٥٨] والرقة [١٥٩] وحران [١٦٠] .

الاعلاق الخطيرة مصدرا :

من خلال استقراء الكتب التي اهتمت بالجزيرة الفراتية وقصباتها ومنها على وجه الخصوص كتاب تقويم البلدان لابي الفداء [١٦١] (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١م) ، وكتاب مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق [١٦٢] (٧٣٩ هـ/١٣٣٨م) ، وكتاب تلخيص الاثار وعجائب الملك القهار للشيخ عبد الرشيد صالح بن نوري الباكوي[١٦٣] ألفه سنة (٨٠٦ ـ ٨١٦ هـ/١٤٠٣ ـ ١٤١٣م) وكتاب الروض المعطاء في خير الاقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري [١٦٤] (من رجال القرن التاسع الهجري) والتاريخ المنصوري لابي الفضل محمد بن علي الحموي [١٦٥] لم يتأكد لدي ان هذه الكتب وغيرها المعاصرة لها قد

اعتمدت النقل الحرفي عن ابن شداد فيما اوردته عن بلـــدان الجزيرة عامة وآمد وميافارقين خاصة ، رغم ان ابن شـــداد قد فصل في كتابه الاعـلاق الخطيـرة عن ميافارقـين طوبوغرافيـــا [166] وتاريخيـــا [167] ، وضمن تآريخه اخبارا ومعلومات قيمه قد تفتقـــر اليه المصادر الاخرى المماثلة، والمستقاة من مشاهداته العيانية لهذه المدينة [168] وغيرها من مدن الجزيرة التي زارها مرات عديدة ، حيث قدم لنا وصفا وافيـا عن حران والرها وقرقيسيا ورأس العين وأرزن ونصيبين والرقة وسنجار وقاعة البيرة وجعبر وآمد وميافارقين وحصن كيفا ودارا وغيرها. فحدد مواقعها وقاس ابعادها طولا وعرضا بالدرجات ، وتكلـــم عن طبيعـة تضاريسها ، فعدد جبالها وسهولها ووديانها ، وعرف انهارها وسواقيهـا وعيون مائها ، وما انشيء عليها من قناطر وجسور ، كمـــا تطرق الى أسوار مدنها وأبراجها وأبوابها ومنافذها [169] ومن أنشأها وذكر اسواقها وحوانيتها وجواسقها وارجائها ، ووصف جوامعها ومساجدها واديرتها وبيمارستاناتها ومدارسها وطبيعة الخدمات التي تؤديهـــا وقد احصى اعدادها في كل مدينة [170] . وبذلك يكون قد كشف لنـــا عن خارطة تلك المدن والقلاع . كما اعطى الجانب الاقتصادي للجزيرة الفراتيـة أهمية خاصة حيث ذكر بساتينها وما تنتجه أشجارها من ثمار وصنف مزارعها وماتعطيه من غلال محصيا بدقة [171] ارتفاعاتها السنوية في معظم الاحوال ، مشيرا الى تذبذبها في اوقات الازمات الاقتصادية التي كثيرا ما كانت تلم بالمنطقة وتؤدي الى شحة السلع الاستهلاكية في الاسواق وارتفاع اسعارها ومايسبب ذلك من هـلاك . وقد قرن دراسته هـذه باحصائيات دقيقة عن تلك المواد النادرة واسعارها معللا اسباب اختفائها من السوق ومبينا اثر ذلك على الوضع الاجتماعي في مثل تلك الاوقات العصيبة في حياة الامة . [172]

علما بأن كتاب الاعلاق الخطيرة قد اعتمد من قبل من كتب عن مدينة دمشق بعد ابن شداد ونخص بالذكر منهم [١٧٣] الحسن بن أحمد ابن زفر الاربلي (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م) ويوسف بن عبد الهادي (٩٠٩ هـ / ١٥٤٦ م) وعبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م) وابن طولون الصالحي (ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م) ومحمد بن عيسى بن كنان (ت ١١٣٥ هـ / ١٧٢٧ م) وكان النعيمي أكثرهم اعتمادا على ابن شداد حيث ذكره أكثر من ١٢٨ مرة في كتابه الموسوم (الدارس في تاريخ المدارس) [١٧٤] حيث نعته فيه بنعوت وأسماء عديدة ومختصرة فسماه (القاضي عز الدين الحلبي) و (القاضي عز الدين بن شداد) و (القاضي الحلبي) و (عز الدين) و (ابن شداد) كما ألقى عليه تسميات لم يسمه أحد مثل (العز الحلبي) و (العز بن شداد) و (العزي الحلبي) •

ومع كل ما مر يستطيع الباحث المتفحص ان يستشف فائدة لدى بعض المؤرخين والكتاب مستقاة من المعلومات الغنية التي أوردها ابن شداد في مصنفه المذكور فشيخ الربوة مثلا [١٧٥] في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) اتبع نهجه في كلامه عن ميافارقين وماردين حيث قال في تسميته لميافارقين بانها (معربة الاسم من خاركين ويقال ميا ، اسم بانيها وفارقين اسم المدينة) [١٧٦] كما ان اليونيني هو الآخر اعتمد على ابن شداد في معلوماته عن أمد وميافارقين وقلعة جعبر ومقتل الملك الكامل ، مع عدم الاشارة اليه ، ـ ربما تقصد اخفاء ذكره ـ لكن القارىء قد يلمس ذلك بسهولة من خلال قراءته في ذيل مرآة الزمان المعلومات التي كان ابن شداد قد انفرد في ذكرها دون غيره وخاصة فيما يتعلق بسفارته الى ملوك التتار وغيرهم • فقد أشار اليونيني ضمنا الى هذه البعثة التي ثبتها في شخص الملك العزيز غياث الدين

محمد بن الملك الناصر متجاهلا ابن شداد الذي كان الملك العزيز مجرد أحد أعضاء البعثة الموجهة الى هولاكو ملك التتار المحاصرين لميافارقين. والذي لم يتم الرحلة بل تأخر مع أخيه وبقية ذويه عن البعثة في مدينة حلب . وجاء هذا التجاهل عندما تعلم اليونيني عن التجاء الملك الناصر ابن داود ـ عدو الملك الناصر يوسف الأيوبي ـ الى الشيخ نجم الدين البادرائي رسول الخليفة الى هذه الديار بقوله . « وسأله ان يتوجه صحبته الى العراق فاجابه فتوجه ومعه جماعة من اولاده فلما وصلوا حابا وكان بها الملك العزيز غياث الدين محمد بن الملك الناصر يوسف وكان أبوه قد أرسله الى ملك التتار » [١٧٧] .

وخلاصة القول يمكن ان نعلل صدود المؤرخين[١٧٨] عن النقل المباشر من كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة) الى كون صاحب الكتاب كان سفيرا محضيا لدى الملوك وسلاطين المماليك مهديا لهم انتاجاته [١٧٩] العلمية وتأليفه التي ربما اكتنزت مع ذخائرهم ولم يبق في مقدور من الف في هذا الميدان بعد ابن شداد من الرجوع الى كتابه هذا وقد يكون الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) من اولئك الذين عجزوا عن الحصول على هذه الكتب وما يماثلها وذلك حين أبدى أسفه بسبب عدم وجود تواريخ لبعض البلدان ، وعدم قدرته في الحصول على بعض منها [١٨٠] . او قد يكون سببه ان (الاعلاق الخطيرة ....) يعد من الكتب الشبيهة بـ (التواريخ المحلية) ذات الصفة التخصصية التفصيلية [١٨١] . وان معظم الذين ألفوا في هذا الميدان عرفت كتبهم بأنها عامة تعرضت الى موضوعات كتاب الاعلاق بشكل سريع ومختصر .... ولذا لم يحاولوا ان يجهدوا انفسهم باللجوء الى مثل هذا الكتاب المفصل المتشعب في موضوعاته عن الجزيرة الفراتية .

(بعض النصوص التي انفرد بذكرها حول سفارته)

[٦٢أ] (ودخلت سنة تسع وأربعين وستمائة : كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز [١] • صاحب الشام قد عاد من كسره المصريين على الصوة [٢] فلما وصل الى دمشق وصحبته الملك المظفر

---

١ ـ الملك الناصر يوسف بن عبد العزيز محمد بن الظاهر غازي صاحب حلب دمشق سنة ٦٤٨ هـ وهو حفيد صلاح الدين الاول وزعيم الاسرة الايوبية في هذه الفترة ، فقد جمعها لصد الزحف المغولي على بلاد الشام التي دانت له مدنها بالطاعة والتأييد • قتل من قبل هولاكو سنة ٦٥٩ هـ راجع ابن كثير (عمادالدين اسماعيل بن عمرة ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ـ القاهرة ١٣٥٦ هـ ١٣ / ١٧٩ ، ابو شامة (شهاب الدين ابو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ) ذيل الروضتين ـ تحقيق محمد زاهر كوثري ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ ص ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد بن احمد ت ٧٢٦ هـ) • ذيل مرآة الزمان حيدر اباد • ١٣٧٤ هـ ص ٤٥ ، المقريزى (تقي الدين احمد بن علي ت ٨٤٥ هـ) : السلوك في معرفة دول الملوك ـ تحقيق مصطفى زياده ـ القاهرة ١٩٥٧ م طبعة ثانيه منقحة م ١ ق ٢ ص ٤٦٦ •

٢ ـ في الاصل (له على الصوة) : كلمة (له زائدة • اما (الصوة) : لم أجد لها ذكرا في كتب البلدان والمواقع والمدن وان ابا المحاسن بن تغرى بردي الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ) ذكر وصول الملك الناصر الى (غزة) وعودته منها الى دمشق (راجع كتابه النجوم الزاهرة) ـ طبعة دار الكتب المصورة ـ القاهرة ٧ / ٢٣ علما بان القلقشندي قد ذكر الصوة على انها احدى مناطق القاهرة التي تقع تحت القلعة حيث ذكرها قائلا (ثم أتبني ...... الاشرف شعبان بن حسين المدرسة الاشرفية بالصوة تحت القلعة ومات ولم يكملها) صبح الاعشى مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ ٣ / ٣٦٣

علاء [1] الدين علي ابن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومجاهد الدين قايماز [2] ومقدم عسكر الموصل وكانا لحقاه الى العريش[3] عند قصده مصر . وصلت اليه رسل بدر الدين لؤلؤ [4] صاحب الموصل بعد عشرين

---

١ ـ تولى أمرة سنجار وناب عن السلطان في حلب . ومات سنة ٦٥٧ هـ راجع عنه المقريزي في كتابه السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢١ ، ٤٣٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ / ٨٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية .

٢ ـ مجاهد الدين قايماز ابو منصور بن عبدالله الزينبي ، مدبر الاتابك نورالدين ارسلان شاه بن عزالدين مسعود (راجع عنه ابن خلدون : العبر ـ دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر م ٥ ق ٣ ص ٥٧٢ ، ٥٨٠ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٩ / ٢١٠ ، ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) وفيات الاعيان ط القاهرة ٣ / ٢٧١ ، رحلة ابن جبير (لابن جبير محمد بن احمد الاندلسي ت ٦١٤ هـ) تحقيق حسين نصار ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ٢١٠ .

٣ ـ عن عند : (عن) زائدة .

٤ ـ هو الملك الرحيم ابو الفضائل بدر الدين لؤلؤ بن عبدالله الاتابكي وقد ذكرت له القابا عديدة كحسام امير المؤمنين والمؤيد المنصور المظفر وركن الاسلام والمسلمين محي العدل في العالمين وابو الفضائل النوري والملك المسعود . (راجع ابن الفوطي عبدالرزاق بن احمد ت ٧٢٣هـ): تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ـ تحقيق مصطفى جواد ـ دمشق ١٩٦٥ م ج ٤ ق ٣ ص ١٧١ ، ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية الموصل ـ تحقيق عبدالقادر طليمات ص ٢٠٣ ، الكامل في التاريخ ١ / ٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٥ / ٤٦ . وكان في اوله مملوكا « ارمنيا » اشتراه رجل خياط ثم صار الى الملك نورالدين ارسلان شاه بن عزالدين مسعود بن عزالدين ومات بدرالدين سنة ٦٥٧ هـ . راجع ابن كثير (ابو الفدا عمادالدين اسماعيل) ـ البداية والنهاية في التاريخ ط اولى مصر ١٩٣٢ م ١٣ / ٢١٤ ، وذكره الذهبي بلقب (السلطان ... الارمني الاتابكي)

يوم من وصوله ومعهم هدية [٦٢ ب] سنية من خيل [١] وقماش وآلات تساوي عشرين الف دينار مهنئا له بالسلامة ومعهم كتاب الى ولده الملك المظفر علاءالدين على المذكور بأمره فيه ان لا يبرح [٢] من خدمةالمولى الملك الناصر ولو خاض البحر خاض معه او ولج النار لج معه فبعد أيام وصلت رسل من بايجونوين [٣] ومعهم تجار وعلى أيديهم يغالـغ [٤]

راجع دول الاسلام ٢ /١٢٢ . وسماه الخزرجي بـ (الرومي الاتابكي) راجع العسجد المسبوك فيتاريخ دولة الاسلام وطبقات الخلفاء والملوك (نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي) للخزرجي ابـو الحسن علي بنالحسن بن وهاس (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م) ج٢ ورقة ١٤٨ وراجع امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ للدكتور سوادي عبد محمد الرويشدي. ط أولى مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧١م ص٢٤ .

١ ـ فيالاصل خيل .

٢ ـ في الاصل لايبرح في .

٣ ـ قائد مغولي وهو يعتبرمن اعظم قواد هولاكو ومن اكثر المقربين له وقد حاصر بغداد معه (ابن العبري مختصر تاريـخ الدول) المطبعـة الكاثوليكية بيروت ص ٢٦٦ ، ٢٧٠،واقدم على احتلال مدينة الموصل ومنعه هولاكو وامره بالتجول في مناطق الجزيرة ، ويعلق ابن العبرى على ذلكبكون هولاكو لم يجد أقدامجنود بايجونوين علىالتحرشاتفي ضواحي الموصل(راجعتاريخالدولالسرياني). في مجلة المشرق المجلد الخامس صفحة ١٢٩ ، وراجع ابن خلدون : العبر والمبتدأ والخبـر ج٥ ق٣ ص٦١٠ ، سوادي عبد محمد في كتابه (امارةالموصل في عهد بدر الدينلؤلؤ) ص ١٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ .

٤ ـ اليغالغ : ومفردها يغلغ . وقد ذكرها ابن العبرى باسم لليراليغ مع البوايز التي كان يصدرها القائد المغولي (تاريخ مختصر الـدول ص ٢٧٧) وربما تغلي الفرامين والتصابيح التي جاء ذكرها في كتاب العراق في عهد السيطرة المغولية للقزاز والذي قال فيه (الفرامين جمع فرمان وهو الامر (البرليغ) السلطاني بالامان لاصحاب السلطة ص ١٠٢ هامش رقم ٢ علما بانه قد اعتمد على دوزى فيها ذكـر) Dozy, A. Supplement Aux Dictionnaires Arabes Paris 1927 . pp. 126 - 127 .

تتضمن حوالات على سائر الملوك منها يغلغ على السلطان الملك الناصر بمائتي الف دينار، وعلى صاحب الروم (١) عزالدين بمائتي الف دينار وعلى الملك السعيد (٢) صاحب ماردين بمائة الف دينار وعلى الملك الكامل صاحب (٣) ميافارقين بمائة الف دينار وعلى صاحب الجزيرة بمائة الف

---

١ ـ صاحب الروم سنة ٦٤٩ هـ : هو عزالدين الابن الاكبر لغياث الدين كبخسرو المتوفى سنة ٦٤٣ هـ والذي ترك اولاده الثلاثة يتصارعون على السلطة وهم بالاضافة الى عزالدين ركن الدين وعلاءالدين . وقد استطاع ركن الدين ان يوثق صلاته بزعماء المغول خلال وجوده بينهم ويحصل على تاييدهم له في تولي السلطة بدلا من اخيه الكبير عزالدين الذي كان على صلة غير جيده مع المغول . وفي سنة ٦٥٥ هـ قرر منكوخان المغولي تقسيم البلاد بين الاخوين دون اخيهم الصغير الذي بقى مع اخيه عزالدين (راجع تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص٢٦٦ـ٢٦٨). القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ـ مطبعة القضاء في النجف . ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ص ٨٣ ـ ٨٥ .

٢ ـ الملك السعيد نجم الدين ايلغازي ابن الملك المنصور ناصر الدين ابي المظفر أرتق بن ارسلان بن نجم الدين ابن البي بن تمرتاش بن ايلغازي ابن ارتق السلطان ابو الفتح الملقب ـ بالارتقي (راجع ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ ص ٩٠، ٩ /١٦ وراجع ابن خلدون : العبر م ٥ ق ٣ ص ٦٤٩) .

٣ ـ الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل ابي بكر بن ايوب بن شادي ملك ميافارقين سنة ٦٤٥ هـ . وكان عادلا «محسنا» الى الرعية، عالما «فاضلا» شجاعا. قاتل التتار وحاصروه عشرين شهرا واسروه ثم ضرب هولاكو عنقه ، وحمل التتار راسه على رمح وطافوا به في حلب ودمشق وغيرها من المدن الشامية ثم علق على باب الفراديس بدمشق حيث ظل معلقا حتى اعادة دمشق الى المسلمين فدفنه المسلمون بمشهد الحسين في دمشق

دينار وعلى صاحب [1] حصن كيفا بخمسين الف دينار وكانت الرسل والتجار قد راحوا الى جميع الملوك والتمسوا ماكان في اليغالغ [2] فأحالهم علينا واحتجوا بان السلطان الملك الناصر هو كبيرنا ونحن نخطب له وما يمكننا ان نزن شيئا ان لم يزن هو فجاءوا الى الملك الناصر كما ذكرنا . وطالبوه فاشار عليه الزين سليمان الحافظي وجماعة تاج [3] الملوك الى كونك خان [4] (٦٣) سنة ثلاثة واربعين وستمائة كتبوا له يغالغ مضمونها

(داخل الباب سنة ٦٥٨ هـ) راجع ابو المحاسن النجوم الزاهرة ٩ / ١٦ ، ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ص ٢٠٤٢، ابن العماد الحنبلي-طبعة بيروت - لبنان ٥/ ٢٣٣ ، ٢٩٥ ، المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤١ ، الصفدي : صلاح الدين خليل بن ايبك : الوافي بالوفيات : باعتنائها موت ربتر - طهران ١٣٨١ / ١٩٦١ ط . الثانية ٤ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

١ - الملك الاوحد عبدالله بن الملك المعظم ثوران شاه بن الملك الصالح نجم الدين ايوب الذي تولى الأمر فيها منذ سنة ٦٤٧ هـ - حيث توجه ابوه الى الديار المصرية وملكها بعد كسره للفرنج ثم قتل في اوائل سنة ٦٤٨ هـ وبقي الاوحد في الحصن مالكا له ولما استولت التتار على الشام في اوائل سنة ٦٥٨ هـ قصد هولاكو وقدم له تقدمة ، فلما حضر عاد وسأله عن نسبه وجلة أمره فرق له وابقى عليه الحصن وهو به الى الان وهي سنة ٦٧٩ هـ كما يقول ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة قسم الجزيرة (المخطوط) ص : ١٢٨ أ - ١٢٨ ب .

٢ - في الاصل بغالغ .

٣ - تاج الملوك : هو الملك القاهر بهاء الدين تاج الملوك اسحاق اخو الملك المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين (راجع المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٩١ .

٤ - ورد اسمه في تاريخ مختصر الدول لابن العبري (كيوك خان) راجع ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

اننا لا نقبل حوالة ولا ننجد بعسكر فلما سمع الملك الناصر كلامي سير الى حلب واستحضر اليغالغ فلما حضرت وجد مضمونها كما قلت فتقدم الي بالمسير مع الرسل الى الملوك المذكورين [1] لاحقا فهم بحضور الرسل والتجار وأمرني بالسفر فاتفق في ذلك الوقت وصول رسل الملك المسعود صاحب الجزيرة [2] يشكو [3] من صاحب [4] الموصل ومن تعديه عليه لوفاة والده الملك المعظم ، ويطلب ان يسلم الجزيرة اليه وان يعوض عنها ، فلم يسمع الملك الناصر ذلك الوقت لاشتغال وجهه بالمصريين ان ياخذ الجزيرة وان يعوض عنها ، فرسم لي ان أشفع له عند بدر [5] الدين صاحب الموصل وأوفق بينهما ، وسير معي ما جرت به العادة من خيل وخلع وسنجق [6] . فتوجهت ، وتقدمتني الرسل الى الموصل ، وكان مجد الدين عبد الرحمن ابن الصاحب كمال الدين عمر المعروف بابـن العديم [7] قد توجـه الى

---

١ ـ في الاصل لاحافقهم .
٢ ـ في الاصل (صاحب الموصل) .
٣ ـ في الاصل (ويشكوا) .
٤ ـ في الاصل (منه) .
٥ ـ في الاصل (الى بدر) .
٦ ـ سنجق : (جمعها سناجق) ـ وهو لفظ تركي كان يطلق اصلا على الرمح ، ثم اطلق على الراية التي تربط به . ويعرفها القلقشندى بكونها (راية صفيرة صفراء اللون) وكانت السناجق تحمل بـين يدي السلطان في موكبه . وقد ذكر القلقشندي نقلا عن المختصر في اخبار البشر لأبي الفداء (ان اول من حمل السنجق في رأسه من الملوك في ركوبه هو سيف الدين غازي بن زنكي ، ثم أصبح هـذا من تقاليد سلاطين بني أيوب والمماليك في مصر والشام) راجع صبح الاعشى ٤ / ٨ ، بن واصل جمال الدين : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ـ تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٥ـ٤٤
٧ ـ راجع ترجمة في ص ١٥ .

الموصل معزيا له في ولده ، فتقدمني اليه ، فلما وصلت الى الموصل اجتمعت ببدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأديت ما معي من الرسالة وتحدثت معه في قضية الملك المسعود وشفعت فيه عن السلطان الملك الناصر فأخذ يذكر ما اعتمده الملك المسعود في حقه بعد وفاة أبيه من التعدي ومن اساءه لابنته الكلام القبيح وذكر ما لا يليق ، ثم أمرني بأن اكون حيث اسمع كلام أبنته فأبيت . [٦٣ ب] وقلت ما يحتاج كلام [١] السلطان الى برهان [٢] ففي كلامه كفاية . وقال لي البلاد تصلح لمن ينفع المسلمين [٣] ويداري عنهم ، وهذا فهو مشغول بالانهماك في اللذات والأكل والشرب ، واذا نزلت بالمسلمين نازله [٤] لم ينفعهم ، وانا احمل الى السلطان الملك الناصر خمسين الف دينار [٥] عينا وسلم [٦] الي الجزيرة . وتقيم أنت عندي الى ان أسير اليه واشاوره ، فلاطفته وقلت له ما يليق ان ترد خلعة الملك الناصر وسلجقه ، فلما لم يرمني موافقة على ما أراد عدل عن الحديث معي . وتحدث مع مجد الدين بن العديم،فكتب كتابا الى ولده كمال الدين [٧] والى [٨] السلطان الملك الناصر يقول له : ان فلانا قد طلب ان يخرج بدر الدين من يدك لأجل صاحب الجزيرة .

---

١ ــ في الاصل (مع كلام) .
٢ ــ في الاصل (في) .
٣ ــ في الاصل (ويداى) .
٤ ــ في الاصل (ولم) .
٥ ــ عينا « أي ذهبا » .
٦ ــ في الاصل جاء (الى) .
٧ ــ الملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ ذكره المقريزي في حوادث سنة ٦٥٧ هـ بقوله « وبعث (أي السلطان) بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار الى حلب نائبا : بها واقطع اعمالها بمناشيره ... » راجع السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق٢ ص ٤٢١ ، ٤٣٣ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ٧ / ٨٢ .
٨ ــ في الاصل (والي) .

واصلح السلطان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الصاحب كمال الدين في الباطن بما عطف به الملك الناصر وسيره رسولا [1] من جهته خفيه عني، وسير معي رسولا الى صاحب الجزيرة فخرجت مـن عنده وتوجهت الى الجزيرة ، ولما وصل رسول بـدر الدين سيره باطنا ، الى السلطان الملك الناصر واجتمع بالصاحب كمال الدين والشيخ نجم الدين البادرائي[2]. رسول الديوان فأتفقا والملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ ،

---

١ ـ في الاصل (رسلا) .

٢ ـ في الاصل (البادراي) . والبادرائي (بفتح الباء الموحدة والدال والراء) : هو نجم الدين عبدالله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن ابن المظفر أبا محمد البادرائي المنسوب الى قرية بادرايا في شرق العراق الاوسط ومن عمل واسط وهي (بدره الحالية) وعرف بكونه بادرائي الاصل بغدادي المولد . ولد سنة ٥٩٤ هـ وسمع الحديث وتفقه وبرع في الفقه ودرس بالمدرسة النظامية ووصفه ابن العماد الحنبلي بـ (العلامة) وصار رسولا عن الديوان العباسي غير مرة ، وحدث بالحديث وبنى بدمشق المدرسة البادرائية المنسوبة الـى نسبه ، وولى القضاء ببغداد خمسة عشر يوما ، توفي في أول ذى القعدة سنة ٦٥٥ هـ . (راجع ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣/٢٢٢ الحنبلي : شذرات الذهب ٥ / ٢٦٩ ، الصفدى : الوافي بالوفيات : نسخة دار الكتب الوطنية بباريس (نسخة باريس ٢١٤٤ ورقـة ٥٧) . ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) البداية والنهاية ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣ / ١٨٤ ، ١٩٦ قطب الدين اليونيني (ت ٧٢٦ هـ) : ذيل مرآة الزمان ـ حيدر اباد الدكن ـ الهند ـ ط اولى ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م ١ / ٥٢ ، ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ورقة ٧١ نقل عنه ناجي معروف في كتابه تاريخ علماء المستنصرية ـ مطبعة العاني ـ بغداد ط اولـى ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ص ١١ ـ ١٢ ، عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ) : الدارس في تاريـخ المدارس ـ مطبعـة الترقي ـ دمشق ١٩٥١ م ـ ١٣٧٠ هـ ٢٠٥/١ ـ ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨) .

ولم يزالوا الى أن أخذوا مديا السلطان الملك الناصر بأنه متى خلا وجهه من جهة المصريين يأذن له في أخذها ؛ ولما وصلت أنا الى الجزيرة تعلق بي الملك المسعود وقال انا اسلم اليك الجزيرة واتوجه الى الملك الناصر وتقيم أنت فأبيت ذلك وخرجت من الجزيرة وتوجهت الى ماردين •

[٦٤ أ] رجعنا الى ما جرى بين بدر الدين صاحب الموصل ورسل التتار الواصلين بالحوالة • ولما وصلت الرسل المقدم ذكرهم الى بدر الدين احضرني واحضرهم وادعوا عليه بالمائة ألف دينار،فكان جوابه انني مملوك السلطان الملك الناصر ونائبه في البلاد وانا اخطب له والبلاد بلاده ، فان وافقكم في الوزن وزنت • وكان جوابي ان قلت نحن معنا يعالج تخلصنا مضمونها اننا لا نقبل حوالة ولا نتجد بعسكر فخرجوا على بدر الدين وخاطبوه بما لا يليق فقال لي أنت ما جئت بهم الا حتى اخرقوا بي فقالت له أنت كنت السبب في جسارة هؤلاء عليك وعلينا ، فحمله هذا القول على انه اخرق بهم واقامهم من مجلسه اقبح قيام ثم أحضر نائب التتار بالموصل يقال له نوين [١] فشكا اليه منهم فاحضرهم وعنفهم ثم احضرهم الي [٢] وانا نازل في دار السباع بالموصل وكان جوابي الرسل نحن ما نزن لكم شيئا ولا نقبل حوالة حسب ما تقتضيه البوايز [٣] التي بأيدينا ، وهؤلاء

---

١ ــ هو بايجونوين الذى ترجمنا له في ص هامش •

٢ ــ في الاصل (الى) •

٣ ــ البوايز : مفردها بايزة . وهي عبارة عن اوح من الذهب مرسوم عليه رأس أسد ونقش فيه الامر السلطاني الذى يعطي لممثل السلطة الشرعية ، او لمن هو في منزلة عالية . (راجع القزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، هامش ٣ ص ٨٤ ، وانظر القاموس الفارسي الانجليزي . Dozy , I. P. 49 , Steingass p. 235 . وعن البوايز راجع العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول ص ٢٧٧) •

الملوك جميعهم تابعون لنا ما يعطون [1] لكم شيئا ، وخرجوا من الموصل ودخلوا في أرض أربل[2]، فسير بدر الدين في السر جماعة قطعوا عليهم الطريق وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا ما معهم [٦٤ ب] من قماش [3] وآلات فلما بلغ نوين ذلك حضر الى عند بدر الدين وعاتبه على ذلك فقال ما قتلوا في أرضي،على أنني لا بد[4]ان ابحث عن فعل هذا الامر،وتقدم اليهم [5] في السر ان يحضروا معهم من سائر قلاعه من وجب عليه القتل. فغابوا مدة وقدموا ومعهم جماعة في حديد ، فأمر بشنق الجميع ودفع الى نوين ما كان معهم من القماش وقال هؤلاء الذين تعدوا على الرسل وهذا ما كان أخذوه منهم فأعجبت ذلك لنوين ورضي به . ثم قال لي بدر الدين سرا،رأيت هذا الأمر يحسن مولانا السلطان الملك الناصر يعمل مثله.

---

١ ـ في الاصل (ما يعطوكم) .

٢ ـ اربل ـ بالكسر ثم السكون وباء موحدة مكسورة ولام بوزن آثمد ولا يجوز فتح الهمزة فيه .. فان كان اربل عربيا ، فقد قال الاصمعي الربل ضرب من الشجر اذا برد الزمان عليه (فيجوز ان تكون اربل مشتقة من ذلك) وقد قال الفراء الريبال النبات الكثير الملتف الطويل . وقد قال ياقوت ، واربل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الارض واسع بسيط ولقلعتها خندق عميق وهي في طرف من المدينة ، وسور المدينة ينقطع في نصفها وهي على تل عال من التراب عظيم واسع الرأس وفي هذه القلعة أسواق ومنازل الرعية وجامع الصلاة وهي شبيه بقلعة حلب الا انها اكبر واوسع . قام بعمارتها وبناء سورها وعمارة اسواقها وقيسارياتها الاميرمظفرالدين كوكبري بن زين الدين كوجك . (معجم البلدان (باب الهمزة والراء وما يليهما ١/١٨٦) وراجع ابو الفداء : تقويم البلدان ـ طبعة باريس ١٨٤٠ م ص) البغدادي : مراصد الاطلاع ١/٥١ .

٣ ـ في الاصل (من القماش) .

٤ ـ في الاصل (لا بد ما) .

٥ ـ اليهم : ضمير يعود الى جماعة بدرالدين لؤلؤ المكلفين باحكام تدبير اخفاء قتل الوفد المغولي .

[١١٤ أ] ذكر توجه صاحب ميافارقين الى الملك الناصر :

لما عاد الملك الكامل [من] (١) عند منكوقا آن(٢) الى ميافارقين خلع الطاعة وحبس نواب التتر واتصل ذلك بمنكوقاآن فلم يظهر له شكرا

---

١ ـ ومن ، زيادة لم ترد في الاصل زدناها للايضاح .

٢ ـ منكوقاآن : بن تولي بن جنكيزخان (١٢٥١ ـ ١٢٦٠ م) اخو هولاكو ، ويرد اسمه في الاصول التاريخية (منكوقا أن ومنككوقا آن أو مكوخا ان ، ومونككاقا آن) . وقد أورد عنه رشيد الدين فضل الله (انه عندما توجه هولاكو خان الى ايران ترك عشيرته في خدمة منكوقا آن) (تاريخ المغول الايلخانيون) نقله الى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد عبدالمعطي وراجعه يحيى الخشاب ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ بلا تاريخ ص ١٦ . ويذكر المقريزي بان منكوقا ان قد سير اخاه هولاكو سنة ٦٥٠ هـ لمحق الاسماعيلية بفارس وهدم الخلافة العباسية ببغداد (راجع السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٣٨٣ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٨١

Browne : Alit . Hist . of Persia , II. pp. 252 - 260 .

ويسمى ايضا بـ (القا آن) او خاقان ، وهذا اللفظ هو الصورة العربية للقب التركي (قاغان Kaghan) الذي كان يطلق على رؤساء الترك في القرن السابع الميلادي ، ومعناه رئيس الرؤساء . وقد استعمل اولئك الترك المتقدمين لقب قان ـ اوخان ـ أيضا بمعني قان وربما كان اختصارا له . ولبث هذا الاستعمال شائعا بين الترك حتى أيام ملوك المغول فصارت كلمة قاغان ـ أو قان ـ تطلق على ملك المغول الاعظم وقصر لفظ خان على الملوك الذين يتولون جزءا من الامبراطورية المغولية . ومثل ذلك التمييز موجود في الاستعمال الاصطلاحي لكلمتي سلطان وملك فالسلطان وهو الملك الاعظم . والملك هو أحد ولاة السلطان من ابناء بيته . ومثل ذلك عند الفرس . فان لقب شاهنشاه مختص بملك الملوك عندهم تمييزا له عن لقب شاه فقط وهو الملك الصغير (راجع رشيد الدين : نفس المصدر والصفحة ، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٣٠٧ هامش رقم ٤) .

Enc. Isl. Arts : Khakan , 1927 , Vol. II p. 875 .

وبعث اليه يأمره ان يتوجه بعساكره الى بغداد فدافعه رسوفه فلما نـزل هولاكو على بغداد [1] خرج من ميافارقين الى حران فلما وصلها كتب الي كتابا وكنت بحلب على عزم السفر بالهدية [2] يحذرني من الحركة ويشير علي بالمقام الى ان يجتمع بي فكتبت الى الملك الناصر أعرفـه بوصوله . وخرج الملك الكامل من حران وسار على البرية حتى نزل القريثين[3] من اعمال دمشق فلما اتصل بالملك الناصر وصوله استشار ذوي الرأي مـن أهل دولته في تلقيه فأشاروا عليه بالخروج خلا الرين الحافظي فأنه قال : متى بلغ هولاكو خروجك اليـه جعله سببا الى قصد بـلادك والمصلحة اعتذارك اليه ورده فلم يمكن الملك الناصر الا موافقة الجمع الغفير فخرج اليه وتلقاه وانزله بدار السعادة . فلما اجتمعا قال لـه الملك الكامل : ان هؤلاء التتر لا تفيد معهم مدارة [١١٤ ب] ولا تنجح فيهم خدمة وليس لهم الا غرض أذهاب الانفس [4] والاستيلاء على البلاد ومولانا السلطان قد بذل لهم الاموال من سنة اثنين وأربعين الى اليوم فما الذي اثرت فيهم من خلوص المودة ، فلا يغر مولانا بكلام بدر الدين ولا بكلام رسولك فانه لا يناصحك ولا يختارك عليهم وغرضه اخراج ملكك من يدك وانا فقـد علمت انني مقتول سواء كنت لهم أو عليهم فأخترت بأن أكون باذلا مهجتي في سبيل الله والانتظار ، وقد نزلوا على بغداد والمصلحة خروج السلطان

---

١ ـ الاصل (وخرج) .

٢ ـ في الاصل (الهدنة) .

٣ ـ القريثين : قال ياقوت في معجم البلدان ٤/٧٧ ـ ٧٨ (والقريثان ايضا قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وأراك أهلها نصارى .. وهي التي تدعى حوارين) وذكرهـا البغـدادي في كتابه مراصد الاطلاع على انها بعد تدمر الى جهة دمشق واسمها حوارين . (ابن عبد الحق البغدادي ت ٧٣٩ هـ : مراصد الاطلاع ـ طبعة القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ط اولى ٣ / ١٠٨٦) .

٤ ـ في الاصل (الادهاب) .

بعساكره لانجاد المسلمين وانا بين يديه فأن ادركناه عليها فبها ونعمت وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وان لم ندركه أخذنا بثأره • فحسن هذا القول في عقول من حضر خلا الملك الصالح نور الدين علي [1] بن صاحب حمص وابن اخيه الملك الاشرف[2] والامير نجم الدين محمد بن الافتخار[3] ياقوت أمير حاجب فانهم كانوا متفقين مع الزين الحافظي [4] باطنا فعرض

---

١ ـ راجع عن ترجمة ابن خلكان : وفيات الاعيان ـ تحقيق احسان عباس ـ دار الثقافة بيروت ـ لبنان ١٩٦٨ ـ ٨٥/٥ ـ ٨٦ ، ٢٥٩/٦ ـ ٢٦٠ ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ١٦٩/١ •

٢ ـ الملك الاشرف موسى مظفر الدين بن الملك الناصر ابن الملك المسعود بن الكامل بن العادل تولى سنة ٦٤٨ هـ وبخلعه انتهت الدولة الايوبية • توفي في اواخر سنة ٦٦١ هـ (راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٨١/٢ ، ٨١/٥ ، ٨٥ ، المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ج١ ق ٢ ص ٣٩٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ١٤٦ ، المكي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي : سمط النجوم العوالي في بناء الأوائل والتوالي (٤٩ . ا ـ ١١١١ ت) ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٥/٤ . القزاز : العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٣٧٢ •

٣ ـ ترجم له ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ـ طبعة بيروت ـ لبنان ٣٨٩/٥ •

٤ ـ هو زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقربائي المعروف بالزين الحافظي (المقريزي : السلوك في معرفة السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٢٣). والعقربائي ، نسبة الى عقرباء احدى قرى دمشق (ياقوت : معجم البلدان ٦٩٥/٣) ويذكر مصطفى زيادة ان ابوه كان خطيب عقرباء، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه ، وخدم به الملك الحافظ نور الدين ارسلان شاه بن العادل ابي بكر بن ايوب صاحب جعبر ، فخوله في دولته ، وداخل اولاده . ثم انتقل الى خدمة الملك الناصر يوسف بحلب فصارت له عنده يد ورفعة . وكثرت أمواله وصار مكينا في دولته . ويرسل عنه الى هولاكو . فمازح التتر واطمعهم في البلاد. وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب . فقام بأمر دمشق للتتار ، ودعوه بالملك زين الدين وسار معهم خوفا من الملك المظفر قطز : فقتله وقتل اولاده . (اعتمد مصطفى زيادة في معلوماته هذه على هامش ←

عليه الملك الناصر ان يبعث معه رسولا الى هولاكو يشفع فيه عنـده .
فقال له : جئتك في امر ديني تعوضني عنه بأمر دنيوي ولو اردت هذا كنت
اوجه منك عنده فأني رأيت وجهه مرتين . فقال لـه : متى نزلوا عليك
انفذت لك عسكرا تستنصر به عليهم فقال : كل هذا لا ينفعني حينئذ اذ لا
وصول له لي . ثم انفصل الحال وبقي الى ان أخذت بغداد فأجتمع به وقرر
معه ان ينجده متى قصده [١١٥ أ] ثم فارقه وقصد بلاده ، فلما وصل الى
حلب اجتمعت به وقلت له اصبت في قصدك الملك الناصر ، (ما . ت) [١]
في رجوعك . هلا قصدت مصر . فقال خفت على قلب الملك فأشرت عليه
انه اذا وصل الى بلاده يخرج منها حريمه ويستخلف بها نوابا ويعود الى
الملك الناصر لعل ننهض عزيمته فيعينه على بلوغ مراده منه .

ذكر ما اعتمده صاحب ميافارقين بعد عوده :

لما عاد الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين
غازي الى ميافارقين تواترت عليه الاخبار بقصد التتر بلاده فنقل حريمه الى
قلعة اليمانية [٢] ، وخرج من ميافارقين الى آمد فلما وصل اليها جرد منها
عسكرا الى ميافارقين لتكون مع نائبه فيها الأمير عماد الدين بـن نباته .
فلما خرج العسكر من آمد عرج منه الأمير شرف الدين [٣] الاوى وقصد

قد كتب على ورقة مستقلة وارفق مع الصفحات ١٠٧ ب ــ ١٠٨ أ
من كتاب السلوك في معرفة دول الملوك المقريزي . راجع هامش ٤
ج ١ ق ٢ ص ٤٢٣ .

١ ــ كتب هكذا في الأصل ولعله (ما نلت) كي يستقيم سياق الجملة .

٢ ــ احدى قلاع ديار بكر في الجزيرة الفراتية بقرب ميافارقين . راجع
قلاع وحصون ديار بكر في كتاب الاعلان الخطيرة ــ قسم الجزيرة ــ
المخطوط ص ٦٥ ب .

٣ ــ Revue des études Islamiques, Année 1934 Tome, VIII . « La Djazira au Milieu du Troiziémesiécle D'Aprés izz- Addin Ibn Chaddad » by CLAUDE CAHEN p. 123 .

ماردين لحقد كان في نفسه ، وذلك ان الملك الكامل قد منع الخمر في بلاده وكان شرف الدين هذا مدمنا بها ، فسأله استئثاره بها فأبى ، فحملته الحمية على ان كاتب التتر ووعدهم انيسلم اليهم ميافارقين.ولما وصل الى ماردين اطلع صاحبها الملك السعيد على عزم التتار ليأخذ حذره منهم واقام عنده الى ان قصد التتر ميافارقين فتوجه اليهم .

ذكر نزول التتر على ميافارقين :

خرجت التتر من موغان (١) الى خلاط (٢) فلما وصلوا اليها تقدمتهم طائفة الى ميافارقين مقدمها كهداي فاتصل ذلك بالملك الكامل [١١٥ ب] وهو بآمد فجمع خواصه واستشارهم فأشار عليه سيف الدين محبي زوباش (٣) آمد ان لا يخرج اليهم ولا احد من جهته . فلم يوافق ذلك رأيه ، وخرج من آمد يريد كبس كهداي فلما قرب من عسكره رأى ان لا

---

١ ـ موغان: اسم مكان . بالقرب من دربند وشروان (راجع جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني م ٢ ج ١٢/٢) وجاء في ياقوت (معجم البلدان ٦٨٦/٤) باسم موقان : بالضم ثم السكون والقاف . وآخره نون . وأهله يسمونه موغان بالغين المعجمة ، وموغان : ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم وهي من آذربيجان . وراجع ايضا مراصد الاطلاع للبغدادي ١٣٣٥/٣ ، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ) معجم ما استعجم من أسماءالبلاد والمواضع ـ تحقيق مصطفى السقا ـ القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م ١٢٧٩/٣ .

٢ ـ خلاط : بكسر أوله وآخره طاء مهملة . البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة . طولها أربعة وستون درجة ونصف وثلث . وعرضها تسع وثلاثون درجة وثلثان . في الاقليم الخامس وهي من فتوح عياض بن غنم ... (معجم البلدان لياقوت ـ باب الخاء واللام وما يليهما ـ ٤٥٧/٢ ، وراجع عنها ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٣٩٥ ، مراصد الاطلاع للبغدادي ٤٧٦/١ .

٣ ـ ذكره ابن العبري ايضا راجع تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٠ .

طاقة له بهم وخاف ان يلقي بنفسه الى التهلكة ، وكان ذلك ليلا فلم يصبح الصبح الا ويشموط[1] ابن هولاكو قد وصل بالعساكر فبادر الملك الناصر الى ميافارقين فدخلها ، ونزلت العساكر عليها في يوم الاربعاء الثاني عشر من ذي القعده من سنة ست وخمسين وبعث كهداي رسولا الى الملك الكامل يحضه على الخروج الى يشموط بهدية وضيافة . فانكر عماد الدين بن نباته ان الملك الكامل في ميافارقين وبعث اليهم ضيافة[2] فقبلوها وكانت الهدية [3] على يد ناصر الدين محمد بن ركن الدين طنغز مملوك السلطان العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي تقي الدين[4] عباس بن الملك العادل من امه ، فسألوه عن السلطان الملك الكامل فانكره فوعدوه بالجميل وان يكون في خدمتهم فأقر انه بالبلد واستمر في خدمة التتر ولم يعد الى ميافارقين وجعل امير شكار [5] بسبب انه كان معه في جملة الهدية طيور جوارح وكان يلعب بالجارح . ثم وصلت الى التتر نجده صاحب الموصل معولديه الملك المجاهد سيف الدين اسحق والملك المظفر علاء الدين علي وعلم الدين سنجر الآمدي . ووصلت اليهم

---

١ ــ هو الابن الاصغر لهولاكو بن تولي خان قاد جيش ابيه للهجوم على مدينة ميافارقين وغيرها من الجزيرة الفراتية وسماه ابن العبري (يشموت) راجع تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٧ وكذلك رشيد الدين في كتابه جامع التواريخ (تاريخ المغول) م ٢ ج ٢ ص ٩ ، ١٢ ، ١٣، ٤١، ٥٧ في حين يسميه في ص ٣٤ ولمرة واحدة فقط اسم (يشيموت آغول) وذكر المقريزي باسم (يشموط) السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ٤١٤ في النجوم الزاهرة (أشموط) ٧/٧٤ .

٢ ــ ٣ ــ في الأصل (وضايقه) وفي الاصل (الهدنة) .

٤ ــ أصغر أولاد الملك العادل ولد سنة ٦٠٣ هـ ومات اخرهم بدمشق سنة ٦٦٩ هـ في ايام الملك الظاهر بيبرس (راجع المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٩٢) .

٥ ــ أمير شكار : أمير الصيد .

نجدة صاحب ماردين (1) مع ولده الملك المظفر وجدوا في طلب الملك الكامل ، فلما تمادى اهل ميافارقين على انكاره حضروا خندقا ونصبوا المجانيق ودخلت سنة سبع وخمسية وستمائة .

ذكر توجهي رسولا الى التتر الذين على ميافارقين :

خرجت من دمشق رسولا الى التتار النازلين على ميافارقين في مستهل المحرم صحبة الملك المفضل صلاح الدين يوسف ابن الملك المفضل موسى بن صلاح الدين ، واخرج معنا الملك الناصر اولاده الثلاثة وحريمه ليكونوا بحلب وهم الملك العادل والملك الأشرف وولد آخر صغير وامر [ان] (2) نأخذ معنا من حلب هدية الى يشموط وهي ألف وخمسمائة دينار عينا وحياصة(3) مجوهرة وسيف مجوهر . فلما وصلنا حماة (4) تعرضت رسل التتر لصاحبها وانتهكوا حرمته وأخذوا شجاع الدين

---

1 ـ راجع ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب 287/5

2 ـ (ان) زيادة لم ترد في الأصل زدناها للايضاح .

3 ـ حياصة مجوهرة : حزام مجوهر .

4 ـ حماة : مدينة كبيرة ، عظيمة كثيرة الخيرات ، رخيصة الأسعار ، واسعة الرفعة ، حفلةالاسواق يحيط بها سور محكم . وبظاهر السور حاجز كبير جدا فيه اسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي ... وهي مدينة قديمة جاهلية ذكرها امرؤ القيس في شعره فقال :

تقطع اسباب اللبانة والهوى   عشية رحنا من حماة وشيزرا

معجم البلدان لياقوت الحموي (باب الحاء والميم وما يليهما) 331/2 . وقال عنها أبو الفداء انها من أثره البلاد الشامية والعاصي يستدير على اغالبها من شرقيها وشماليها ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وفي داخلها الارحبة على الماء بها نواعير على العاصي (تقويم البلدان ص 263) .

مرشد [1] الخادم مقدم عسكره وشيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز وطلبوا الملك المظفر ليأخذوه معهم بسبب الرسل الذين قتلوا في بلاده ، فتوسطت بينه وبينهم على ألفي درهم وضيافة فقبلوها واطلقوا من كان أخذ ، ثم وصلنا الى حلب في الخامس عشر من المحرم وخرجنا منها في الثالث والعشرين منه فوصلنا الى حران [2] في الثامن والعشرين ورحلنا منها مستهل صفر فوصلنا الى ماردين [3] في الرابع منه فاقمنا بها ليلتين

---

١ - ذكره المقريزي وبين علاقته بالسلطان وبمخدومه صاحب حماه الذي كان مشغولا باللهو (راجع السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٣٢٩ ، ٥٠٣ .

٢ - قدم ابن شداد في كتابه الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة دراسة تاريخية وطوبوغرافية لمدينة حران . ذكرنا مقتطفات منها في الملحق الطوبوغرافي المنشور مع هذا البحث . وراجع للمزيد ١٣ ب ، ١٤ أ ص ٢٠ أ - ٢٠ ب ، وراجع ايضا . القزويني (٦٠٠ - ٦٨٢ هـ) : اثار البلاد واخبار العباد . بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ص ٣٥١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك طبعة ليدن ١٨٨٩ ص ٧٣ . معجم البلدان لياقوت الحموي ، طبعة طهران ١٩٦٥ ٢٣٢/٢ ، ابي بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بأبي الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن - ١٣٠٢ هـ ص ١٣٢ ، ١٣٦ ، عبد الرشيد الباكوي : كتاب تلخيص الاثار وعجائب الملك القهار - ترجمة وتعليق . د . ضياء الدين بن موسى بونياتوف - موسكو ١٩٧١ . الف الكتاب في الفترة (٨٠٦ - ٨١٦ هـ)، المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم - مطبعة ابريل - في ليدن ١٩٠٦ م ص ١٣٧ .

٣ - قدم ابن شداد في كتابه الاعلاق الخطيرة - قسم الجزيرة ترجمة تاريخية وطوبوغرافية تفصيلية عن ماردين ذكرنا مقتطفات منها في الملحق الطوبوغرافي المنشور مع هذا البحث . وللمزيد راجع ص ١٣٠ أ - ١٣٠ ب وما بعدها . وراجع ايضا ابن حوقل : مسالك الممالك ص ١٤٣ ، ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص ١٣٢ ، ١٣٦ ، ابي الفضائل محمد بن علي الحموي:التاريخ المصوري - نشر غريا زينويج - موسكو ١٩٦٠ ص

واجتمعنا بالملك السعيد صاحبها وانهينا اليه رسالة من الملك الناصر مشافهة تتضمن استشارته في امر التتر فلم يجبنا بكلمة وقال : قد ضجرت من نصحي اياه ثم توجهنا [1] الى [١١٦ ب] ميافارقين فوافينا في طريقنا على مدينة صور[2] طائفة من التتار قاصدين الاغارة على الجزيرة ومقدمها هندوخان فقدمنا له تقدمة وانفصلنا عنه بعد ان بلغنا [3] الى ماردين وحران [4] نخفي من بها ثم رحلنا من صور وعبرنا الشط فنزلنا منزلة وصل الينا فيها من [5] المغول جماعة كبيرة ومعهم امير يقال له صقلبو فنزل عندنا وطلب منا طعاما فاطعمناه ثم رحلنا ونزلنا منزلة اخرى فوصل الينا من التتر جماعة ومعهم قامات فعرضوا جميع اصحابنا وما معنا من الدواب ثم اوقدوا نارا في ناحيتين ومروا بنا بينهماوهم يضربوننا بالعصي وأخذوا من عرض الثياب ثوبا حطابيا [6] مذهبا فقطعوا منه قدر ذراع ثم قطعوا الذراع صغارا وألقوها واحرقوها بالنار ثم قالوا ايلخان يأمركم ان تستريحوا الليلة وتحضرون عنده غدا ، فلما اصبحنا حضر الينا جماعة واخذوا ما كان معنا من الهدية وحملوها بين ايديهم وامرونا بالمسير معهم فلما حضرنا عنده أدينا الرسالة وكان مضمونها التهنئة بالقدوم والشكوى من تعرضهم لبلاد الجزيرة وقتل من بها من الرعية فتمت [7]

---

١ ـ في الأصل توجها .

٢ ـ احدى حصون ديار بكر بالقرب من قلعة ماردين (راجع الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ لابن شداد ص ٦٥ ب ، وراجع ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٩) .

٣ ـ في الاصل (بطقنا)

٤ ـ في الاصل (نخفيذ)

٥ ـ في الاصل (المغل)

٦ ـ في الاصل (حطايايا)

٧ ـ في الاصل (نمت)

عليهم بانقياده اليهم منذ عشرين سنة طوعا واختيارا وبما يبعثه من الهدايا والاموال التي لم تجد عليه شيئا . فلما سمعوا الرسالة اذنوا لنا في الانصراف الى المكان الذي انزلنا فيه فلما كان من الغد احضرونا واسمعونا كلاما « غليظا » وقالوا ان رعاياكم قاتلونا وبدأونا بالحرب وانا لم ندخل الجزيرة الا في [١١٧ أ] طلب اعدائنا التركمان والعرب وطلبت منهم ماكانوا أخذوه من بلد حران او العوض عنه وقلت متى اتنصفونا خرجنا عن الطاعة فاغاظهم (١) ذلك وقالوا لي كم لك رأس من ذا الذي يقابل ايلخان (٢) بهذا الكلام ثم اقاموا مزعجين ومروا بنا على قتلى وقالوا لنا ان لم تكونوا عقلاء والا كنتم مثل هؤلاء .

ذكر ما جرى لي مع نواب صاحب ميافارقين :

كنا قدمنا القول بأن التتر طلبوه لما نزلوا على ميافارقين فأنكروه لما تحققوا انه فيها احضرت بعد يومين في هذه المحاورة وقيل لي صاحب

---

١ ـ في الاصل (فافالظهم)

٢ ـ ايلخان : (ايل خان : لفظة تركية معناها سيد القبيلة ـ ايل ـ قبيلة، وخان ـ سيد ـ وهو زعيم اقطاعي تابع للخاقان (الخان الكبير أو للايلخان الكبير) الذي كان يقيم اولا في بلاد المغول البعيدة بشمالي صحراء غوبي ثم في بكين) راجع فيليب حتي : تاريخ العرب المطول ـ دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٥٣ ط . ثانية م ٢ / ٥٨٤

ويذكر القزاز عن نظام الحكم الايلخاني ، بأنه جاء نسبة الى اللقب الذي اتخذه مؤسسه هولاكو لنفسه هو الايلخان (العراق في عهد السيطرة المغولية ص ١١٧ ، ١٢٧ ، وكذلك راجع تاريخ الموصل لسليمان الصائغ ١/٣٣٤) .

ميافارقين يطلبك فقلت مالي عنده حاجة فقالوا تتوجه اليه بأمرنا فقلت ما أمرني صاحبي بذاك فقالوا لا بد من مضيك اليه فقلت ما الذي اقول له اذا اجتمعت به قالوا تقول له قد جئنا من عند الملك الناصر لنشفع فيك على ان تخرج الى ايلخان وتكون في طاعته ، فأبيت تحمل هذه الرسالة ، فأمروا باخراجي ومروا بي على واد مملوء قتلى وقالوا انت الى ساعة اخرى من هؤلاء ، فقلت لا يدفع قضاء الله بحيلة — فسألني بعض كبرائهم عن المانع من الدخول اليه والاجتماع به ، فقلت : هؤلاء يريدون أن يعملون بي حيلة حتى أخرج صاحبها فتقتلوه ويملكوا البلد فيقتلوا من فيه وأكون السبب في ذلك فاستعظم ما قلته وقال لي لا تتكلم بهذا فتقتل ثم انهم أمروني بالاجتماع به وألحوا في ذلك فشرطت عليهم انه لا يخرج [١١٧ ب] اليهم ولا يخرج من البلد وانهم يرحلوا متى تم الصلح بينه وبينهم ، ثم تقدمت الى باب المدينة ومعي اردمر بن بانجو فلما وصلنا الى بابها خرج الينا علم الدين الاعسر واليها ، فقلت له قد أخذت المسألة منكم ومنهم حقها وانتم آخبر بمصلحتكم ، وترددنا بينهما ثلاثة أيام وهم مع ذلك يبعثون [1] الينا الشواء والحلوى والدجاج ليظهروا بذلك قوة وكانوا في ضيق من الحال شديد ، وقررنا الصلح على مائةالف درهم سلطانية وستة الف نصفية من عمل البلدوثلاثين جملا وثلاثين بغلا وسبعين فرسا فأخرجوا لنا بعضها وقالوا متى رحلوا سيرنا الباقي اليهم فرحلوا من غربي البلد الى شرقيه عازمين على الرحيل فوردت عليهم كتب من بدر الدين صاحب الموصل يخبرهم فيها ان

---

١ — في الاصل يبعثوا .

الشهرزورية [١] والامراء الصالحية [٢] وصاحب الكرك [٣] قد اتفقوا

---

١ ــ الشهرزورية : نسبة الى شهرزور (بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وضم الراء المهملة والزاء المعجمة وسكون الواو وفي الاخر راء مهملة) . وهي كورة واسعة في الجبال بين اربا وهمذان احدثها زور بن الضحاك وبنى بها مدينة سميت باسمه (شهرزور) اي مدينة زور . لان شهر بالفارسية : مدينة (راجع ابو الفداء : تقويم البلدان ص ٤١٣ ، ياقوت : معجم البلدان باب الشين والهاء وما يليهما) وكان بتلك الجهة جماعة الاكراد الكوسية وقد ظلموا بها حتى استولى هولاكو على بغداد ، وتقدمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها . ففر الشهرزورية من وجه التتار الى الشام ومصر (راجع القلقشندي: صبح الأعشى ٣٧٣/٤ ، النجوم الزاهرة لابي المحاسن ٨١/٥ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة شهرزور) وذكرهم المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك في اكثر من موضع راجع الصفحات ج ١ ق ٢ ص ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٥٩٥ ، ٦٤٠) .

٢ ــ والامراء الصالحية كما في كتاب السلوك المقريزي ج ١ ق ١ ص١١٤ وما بعدها من صفحات متفرقة(وعلى ما يبدو تسموا بالصلاحية نسبة الى صلاح الدين الأيوبي الاول مالك البلاد الشامية ومصر) وقد تولى المماليك او الامراء الصالحية حكم هذه البلاد بعد عزل اخر الملوك الايوبيين وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف الذي كان صبيا لم يتجاوز العشر سنوات من العمر ومن الامراء الصالحية الامير فارس الدين اقطار الجمدار وبيبرس البندقداري وبلباي الرشيدي وسنقر الرومي (راجع المكي : سمط النجوم العوالي ١٦/٤) ، ومنهم من تلقب بالصالحي (نفس المصدر ١٩/٤) .

٣ ــ صاحب الكرك في سنة ٦٥٧ هـ هو الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل محمد (ابو المحاسن النجوم الزاهرة ٩٨/٧ ، المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٤ ، ٤١٩ والكرك : بسكون الراء وآخره كاف قرية في اصل جبل لبنان وهي ليست

على الملك الناصر واخرجوا عساكره من البلاد والجؤهم الى دمشق وقد عزم على الهرب منها هذا وكتبه تصل الي يحرضني على ترحيل التتر عن ميافارقين والاصلاح بين الملك الكامل وبينهم فلما وقفوا على مكاتبته عدلوا عن الصلح ومالوا الى الغدر وكان القتال قد بطل اياما فاغتنم الملك الكامل الفرصة في عمارة ما هدمته المجانيق من السور فأحضرنا عند يشموط وسألنا عن الامراء [1] الصالحية وعدتهم فأخبرتهم انهم شجعان [2] الاسلام وهم الذين كسروا عسكر اربد افريس [3] على

من القلعة التي يقال لها الكرك بفتح الراء (معجم البلدان لياقوت ٣٦١/٤) ووصفها ابو الفداء في كتابه تقويم البلدان ص ٢٤٧ بقوله: وهي بلد مشهور له حصن عالي المكان وهو احد المعاقل بالشام التي لا ترام ... وتحت الكرك واد فيه حدائق وبساتين كثيرة وفواكهها مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك وهو على اطراف الشام من جهة الحجاز) ويقول عنها البغدادي انها قلعة حصينة جدا في اطراف الشام من نواحي البلقاء في جبالها (مراصد الاطلاع ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١١٥٩/٣) .

١ ـ في الاصل الامر الصالحية .

٢ ـ في الاصل شجعاء .

٣ ـ اربدافريس او ريدافرانس ويقال له الفرنسيس واسمه لويس بن لويس . وريدافرنس لقب بلغة الفرنج معناه ملك افرنس . وهو من اعظم ملوكهم في هذه الفترة واشدهم بأسا . وريد معناه الملك وفرنس هي امة من الفرنج . وكان متدينا بدين النصرانية مرتبطا به ، فحدثته نفسه باحتلال القدس ، سالكا الخطوة الاولى باحتلال مصر التي بدونها لا يحقق مأربه فجمع جنده البالغ عددهم خمسين الف بين فارس وراجل وتحرك من بلاده سنة ٦٤٦ هـ وقصد في اول الامر جزيرة قبرص ثم وصل السواحل المصرية سنة ٦٤٧ هـ (الساعة

دمياط وانهم يكونوا ألف فارس فأنكر ذلك وقال أن عدتهم أقل [١١٨ أ] من هذا فقلت لهم أنا أعرف الذي نقل اليكم ، ثم جدوا في القتال وأمروني بالعود .

ذكر عودي الى حلب :

لما اذن لي يشموط بالعود رحلت الى ماردين وأجتمعت بالملك السعيد فقال لي قد بلغني ما فعلته في حق المسلمين فجزاك الله خيرا ثم قال لي انا اقرض صاحبكم ثلثمائة الف دينار مصرية ويسير في ثلاثة الاف فارسا اقترحتهم عليه ويصل الى حلب بنفسه وله علي ان ارحل التتر عن ميافارقين فاذا بلغت غرضي من ذلك اتفقت معه على قصد الموصل واخراجها من يد هذا المنافق [١] فاستحلفته على ذلك الحلف ثم توجهت الى حران فوافاني عليها كتابه يخبر فيه [٢]، ان التتار ندموا على اقامتهم وعزموا على ردك لتوفق بينهم وبين صاحب ميافارقين ثم توجهت الى حلب فوافاني بها كتاب الملك السعيد يخبر ان يشموط رحل عن ميافارقين

الثامنة من يوم الجمعة لتسع بقين من صفر) وفي سنة ٦٤٨ هـ اسر بعد هزيمته المنكرة امام الجيش العربي الاسلامي في دمياط ثم اطلق سراحه من قبل الملكة عصمة ام خليل المعروفة بشجرة الدر بعد ان افدى نفسه بأربعمائة الف دينار واخرج ايضا عن اخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه وسائر الاسرى الذين بمصر والقاهرة (راجع المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك طبعة القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م ج ١ ق ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٦٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ــ طبعة دار الكتب ــ القاهرة ٦/٣٦٤ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ــ المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ص ٢٥٩) .

١ ــ يعني به بدر الدين لؤلؤ (الملك الرحيم) صاحب الموصل .

٢ ــ في الاصل ميه

واستخلف عليها سياى في ثلاثة الف راجل ليمنعوا صاحبها من الخروج منهل والسبب في رحيلهم كثرة الامطار والثلوج وعدم الاقوات ووقوع الفناء في خيولهم حتى لم يبق معهم سوى ألف وخمس مائـــة فرس • وكان رحيله في سلخ شهر ربيع الأول ورسل الملك الكامل تتواتر الـى دمشق وقصد حريمة مستصرخين بحيث انهم سيروا مقالعهم وشعورهم واستمر الأمر على ذلك الى أن انقضت سنة سبع وخمسين [1] ولما حللت حلب ورد علي كتاب الملك الناصر يستدعيني [١١٨ ب] فخرجت منها قاصدا دمشق فدخلتها في العشرين من جمادى الاول ثم خرجت منها قاصدا الملك الناصر فوافيته عائدا من القدس الشريف ومعه العساكـر والشهرزورية على قرار [2] فعرفته ما أشار به صاحب ماردين فلم يحر جوابا •

١ ــ يعني سبع وخمسين وستمائة •

٢ ــ في الاصل قرارا •

أ ـ جدول طوبوغرافي عن أهم مدن ومواقع الجزيرة الفراتية في الأعلاق الخطيرة

التسلسل	اسم المدينة والصفحة	خطوط ط .	خطوط ع .	الجبال والسهول	الانهار والقنوات	العيون والخنادق	الأرباض . البساتين . الجواسق
١ـ	حران ١٣أ ـ ١٣ب	٧٧°	٣٦° ٤٠َ		ديصان جلاب		
٢ـ	الرقه ٢١ ب	٣٧° ١٥َ	٣٦° ٨َ				بساتين كثيرة غرسها الملك الأشرف جواسق أنشأها الملك الاشرف
٣ـ	الرها ٢٦ أ	٧٣° ٢٠َ	٣٧°			عين الطويلة عين المدوره	بساتين كثيرة
٤ـ	نصيبين ٣٧ أ			قربها جبل ماردين	فيها شعب بالومن		بساتين كثيرة
٥ـ	سنجار ٤٥ ب			جبلها المدينة تقع على سفحه	نهر دارالعين نهر عين نهر الاحتاف		لهاربضان.وبساتين كثيرة
٦ـ	جزيرة أبي عمر ٥٧ب ـ ٥٨أ		٣٧°				٣٠ بستان داخل المدينة تحت السور
٧ـ	أمد ٦٦ أ	٦٥°	٣٨°			عين سورا عين زعورا	

تابع الجدول (أ)

٨ــ	ميافارقين ٦٧أ–٧١ب ٨٦ أ	٧٧ ١/٣°	٣٨°	جبل حرم عباد	قناة اني جري	١ ــ عين رأس العين ٢ ــ عين حنباص ٣ ــ عين الخفيرة ٤ ــ خندق جحليه الحمدانية حول المدينة ٥ ــ خندق الغدران فيه ٦٠ بركة	بستان القصر غرسه نصير الدولة سنة (٤٠٣هـ) جوسق شهاب الدين غازي شرق الحصون
٩ــ	حصن كيفا ١٢٧ أ			جبل عال عليه الحصن		١ ــ عيون ماء جارية في الجبال المحيطة بالحصن ٢ ــ عين طورعبدني	الربض الواقع في جهة الشمال وبه الأسواق والحوانيت والحمامات والمدارس بساتين كثيرة الكروم والفواكه. مزارع القمح والشعير. جوسق القلعة
١٠ــ	قلعة أرزن ١٢٨ ب			تل عال		فيها عين ماء لكن شرب أهل القلعة والربض من الشط	بساتين كثيرة للكروم والفواكه
١١ــ	ماردين ١٣٠ أ	٧٦ ٢/٣°	٣٧ ٢/٣°	فيها وادي الرملة. والمدينة فوق جبل. وعلى شكل		١ ــ عين الجوزه ٢ ــ عين الحربيات ٣ ــ عين الحزيوب يحيط بالمدينة	١ــ واديها عامر بالأرباض والبساتين ٢ــ تكثر الجواسق والبساتين على عين

التسلسل السابق	الأسواق والأبراج	الأبواب والمنافذ	الميادين والبيع	الاسواق والحوانيت والخانقاهات	الأرحاء.القناطر والجسور
١ –		الباب الكبير . النيار . يزيد الفدان الصغير . السرو . باب الماء		لها سوق خانقاه أنشأه نورالدين محمود وخانقاه جمال الدين شاذ نخب	
٢ –				فيها سوق خانقاه بناه نور الدين محمود . وآخربناه عماد الدين الأصفهاني	
٣ –	سورواحدمن حجر	باب حران . باب اقساس. باب شاع			عدة ارحاء
٤ –					
٥ –	سورمن حجرالكلس	باب الماء . باب للعتيق باب الجديد . باب الجبل		١– اسواق عامره ٢– خانقاه نورالدين زنكي وجمال الدين محمد الأصفهاني	
٦ –		باب الجبل . باب الجديد باب الماء		فيها(٤)خانقاهات صلاح الدين الأعرج.الظهرية. واثنين في الباقتان	

تابع الجدول (ب)

٧ —	١ — السور الكبير ٢ — سور الفصيل. على اسوارها ٦٠ برج	باب التل. باب الروم . باب الماء . باب الفرج . باب وراء السور	١ — بيعة مريم ٢ — بيعة بجوار بستان مناوي		
٨ —	١ — سور سيف الدولة الحمداني ٢ — السور الرئيسي فيه ٤٢ برجاً ٣ — برج الروضية ٤ — برج الزاوية ٥ — برج الملك ٦ — برج باب الربض ٧ — برج الأربعين ٨ — حصن نصير الدولة	١ — أبواب برج الربض : أرزن او الجنائز قلوفج او المرأة الشهرة. الجبل. الربض الفرج والغم. القصر الميدان. القصر الشمالي . ٢ — ابواب الفصيل الصغار ٣ — الباب الاوسط ٤ — باب الهوه ٥ — اربعة أبواب للسور المحدثة. الحديد.. الربض. الهوه	١ — اتيلان شهاب الدين غازي شرق الحصون. ٢ — البيع : الكبيرة العقبة . تحت التل. المدورة الملكية. دار السيدة. ٣ — ربض المحدقة فيــه الأسواق والحانات	١ — اسواق نصير الدولة ٢ — اسواق في ربض المحدثة ٣ — سوق الخيل	فيها (٤) ارحاء من جهة القبلة. جسر الحسينية بناه نصير الدولة
٩ —	ابراج مبنية بالحجر	١ — سراديات تحت الأرض على هيئة حلزون يتصل بالشط ٢ — طريق الشعب يوصل القلعة بالخندق ٣ — للقلعة (٧) أبواب	ميدان القلعة		
١٠ —	٣٥ برجاً	باب رئيسي مؤدي إلى الجسر القائم على الخندق. طول الجسر ٢٠٠ ذراع		فيها اسواق ومعايش	جنس واحد
١١ —	لها سور واحد ليس بمرتفع	ابواب السور (٦) ١ — باب النسور ٢ — باب قسيس ٣ — باب الحمارة ٤ — باب الشواط		لها اسواق	

التسلسل السابق	الحمامات	الجوامع والمشاهد والأديرة	المدارس	البيمارستانات
١ —	البلاط . الشيخ. الكنيسة. السباع . علي. الدليات . الرئيسة . باب فدان . الزكي . الولي. الباب الكبير باب الزبير	مسجد ابراهيم الخليل . مسجد صخرة ابراهيم الخليل	مدرسة نور الدين محمود . شمس الدين شقير . الحاجة ست النعم . شرف الدين العطار	بيمارستان مظفر الدين صاحب اربل
٢ —		مشهدعلي. مشهدالجنائز . قبر يحيى ابن عبدالله بن الحسين	واحدة شافعية . واخرى حنفية	
٣ —				
٤ —		مشهد علي. باب الروم . ابي حريره زين العابدين. مشهد الرأس. النقطة . بني بكر. للنبي. باب سنجار		
٥ —		مساجد آهله	مدرسة نور الدين زنكي . ابن الشيخ مجاهد الدين قايماز. ابن الكافي. عماد الدين زنكي . أم قطب الدين	
٦ —	١٤ حمام لم يذكر أسماؤها	جامعان: احدهما قديم. الاخر لشبل الدين مولى بدر الدين لؤلؤ مساجدها ٨٠ لم يذكر اسماؤها	مدرسة ابن البزري. الرضويه. القاضي جمال الدين عبد الرحيم . شمس الدين سرتكين	واحد فقط
٧ —			مدرسة الناحية شرق الجامع انشأها تاج الدين. مدرسة في جوار الجامع	

تابع الجدول (ج)

٨ —	حمام نصير الدولة. حمام القاضي . حمام سعيد حمام العقبة . حمام الحطابين. حمام الأزج. حمام حزيمة. حمامين بالمحدثة بالربض حمامين (منباض وجوزه) حمام النجارين	جامع ومنارة احمد بن عيسى الشيخ . جامع المحدثة . قبة ست الملك بجوار الجامع . جامع بني مروان . دير عباد . أديرة تسمى الحصون . (في المدينة ٢٠٠ مسجد)	مدرسة شهاب الدين غازي للحنفية مدرسة ابن الفقاغي للشافعية مدرسة عند باب الجامع للحنابلة	بيمارستان نصير الدولة
٩ —	حمام الربض الكبير حمام الفصيل . حمام السلطان. حمام الأسد. محمود الحلمي حمام بالربض آخر	جامع القلعة	(٣) مدارس لم يذكر اسماؤها	
—١٠			مدرسة واحدة لم يذكر اسمها	بيمارستان واحد
—١١	(٦) حمامات لم يذكر اسماؤها	فيها نحو من ١٠٠ مسجد لم يذكر اسماؤها	مدرسة نجم الدين ايلغازي مدرسة نظام الدين البغشي مدرسة سديد الدين مدرسة عمدة خاتون — حنفية [illegible]	

د — جدول بأسماء القلاع والحصون في الجزيرة الفراتية موزعة حسب مناطقها

التسلسل	المدينة والصفحة	القلاع والحصون
١ —	حران ١٣ أ	قلعة حران — كانت تسمى قديما المدورة . وهي إحدى هياكل الصائبة
٢ —	الرها ٢٦ أ	قلعتها على جبل عال يتصل بها سور المدينة من الجانب الغربي
٣ —	سروج ٣٠ أ	لها عدة حصون
٤ —	جعبر ٣٣ ب	قلعة كانت تعرف قديماً دوسر نسبة إلى دوسر غلام النعمان بن المنذر اللخمي الذي بناها
٥ —	البيرة ٣٦ أ	قلعة البيره على جبل مشرف على الفرات
٦ —	الباز ٣٧ أ	قلعة الباز الاشهب فوق جبل ماروني بناها بنو حمدان
٧ —	سنجار ٤٥ ب	لها قلعتان على تلين : الاولى بناها احد العقيليين من ملوك الموصل الثانية — تسمى الجديدة أنشأها قطب الدين محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي سنة ٦٦٠ ه
٨ —	جزيرة ابن عمر ٥٨ أ	لها من القلاع الجراجية : قلعة فرح . برجو . فناك . الجديدة . القصر . أروخ . كنكور
٩ —	ديار بكر (١) ٦٥ أ — ٦٥ب	تشمل على الأمصار الأربعة وهي : أحد . ميافارقين . أرزن . ماردني

(١) قسم ابن شداد الجزيره الفراتيه الى ثلاثة كور تحمل اسماء بطون العرب التي سكنت هذه الديار مضر (١٣ أ) . وديار ربيعة (٣٧ أ) . وديار بكر (٦٥ أ) .

			والحصون ، ومنها ما هو قديم رومي ومحدث إسلامي وهي : قلعة الجبابرة قلعة آكل قلعة الشقيقين قلعة حاني قلعة أرقنين قلعة حرموك قلعة باغين السفلى قلعة شمشكاراك قلعة كفرزال قلعة انكرخرتت قلعة بغنيك قلعة سيروس قلعة السويدا قلعة مقطينا قلعة بلدنين قلعة الفيلار قلعة نصيبين الروم قلعة خصور قلعة قف أنظر قلعة شيروا قلعة طبوس قلعة اليمانية قلعة باتاشاه قلعة باهمرد قلعة صاف قلعة قطليس قلعة جوارا قلعة أروق قلعة قلب قلعة اسبالرد قلعة ايرون قلعة الديوره وهي ثلاثة ديرلجين دير مرقما دير برصوفا وكلها حصون مانعة حصن الران مدينة دنيسر مدينة أشعرد حصن كيفا حصن الهيثم حصن طالب حصن القريشة حصن المعدنان حصن حارث حصن ذي القرنين حصن الصور حصن الهتاخ حصن البارعية جبل ميني البحيرتان وهما حصنان أحدهما في الماء والآخر على جانب البحيرة جبل جور جبل السلالة
١٠ —	كيفا	١٢٧ أ	قلعة على جبل زائد الارتفاع وبالقلعة قصور ودور للسلطنة
١١ —	أرزن	١٢٨ ب	قلعة مدورة على جبل عال . عدد أبراجها ٣٥ برجاً
١٢ —	ماردين	١٣٠ أ	مدينة مدورة . لها قلعة على قمة الجبل المشرف على البلد

الهوامش :

١ ـ هو ابو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم عزالدين بن شداد الكاتب الانصاري الحلبي . ولد في مدينة حلب في السادس من ذي‌الحجة سنة ٦١٣ هـ / اذار ١٢١٦ م ـ ١٢١٧ م وعاش احدى وسبعون‌سنة مبجلا من قبل حكام زمانه حيث توفي بمصر في السابع عشر من صفر سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ودفن بسفح جبل المقطم . ولم يتطرق المؤرخون عن صباه بل بدأوا الحديث عنه وذكروا اسمه واثنوا عليه يوم ارتقى سلم الشهرة والرفعة في الوسط السياسي والثقافي . (ابن الفرات تاريخ ابن الفرات المطبعة الاميركانية ـ بيروت ١٩٣٩م ٣٣/٨ الصفدي/الوافي الوفيات طبعة دمشق ١٨٩/٤ ، اليافعي/ مرآة الجنان . مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان ١٣٩٠ هـ ط ٢ ٤ / ١٩٣ ، البغدادي (اسماعيل باشا) / هدية العارفين ـ استنبولي ١٩٥٥ م ٢ / ١٣٤)

٢ ـ راجع ابو المحاسن بن تغرى برداء الاتابكي (٨١٣ ـ ٨٧٤ هـ) النجوم الزاهرة طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ٣٨١/٥ ، المقريزي (احمد بن علي ، (٧٦٦ هـ ـ ٨٤٥ هـ / ١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ صححه ووضع حواشيه د . محمد مصطفى زياده ط ثانية منقحة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦ مج ١ ق ٢ ص ٤٦٤ ، ٥٠٤ ، ج ١ ق ٣ ص ٨٥٥ ، السخاوي : التبرك المسبوك ص ٢١٦ .

٣ ـ راجع عنه المقريزي : ١٢٧٠ هـ ٢ / ٣٧٩ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ مطبعة بولاق ـ مصر ١٢٧٠ هـ ٢ / ٣٧٩ .

٤ ـ نفس المصدر والصفحة .

٥ ـ نفس المصدر والصفحة

٦ ـ القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) احمد بن علي‌بن ابي‌اليمن القاهري صبح الأعشى في صناعة الانشا ـ المطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة١٣٥٧ ـ ١٥٣٨ م ٤ / ٣٦٤ .

٧ ـ ابن بطوطة : محمد بن عبدالله بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ \ ١٣٧٧ م) : تحفة النظار مع غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ م ١ / ٧٠ ، وراجع ايضا البلوى المغربي (ت ١٣٣٦ م) : رحلته التي تمت للقاهرة سنة ٧٣٧ هـ في رحلته المسماة (تاريخ العراق في تحلية علماء المشرق) مخطوط ورقة ٥٤ .

٨ ـ السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ /١٥٠٥م) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ـ مطبعة الموسوعات في مصر ٢ / ٨٦ .

٩ ـ ابن حجر : احمد بن علي العسقلاني (، ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) : رفع الاصر عن قضاء مصر ـ نسخة المكتبة الوطنية بباريس . ورقة ١٦٨ .

١٠ ـ ابن اياس ، محمد بن علي المصري (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) : كتاب تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ط . اولى . المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر ١٣١١ هـ ١ / ١١٠ .

١١ ـ ابو المحاسن / النجوم الزاهرة ٧ / ١٨٢ .

١٢ ـ ولد بالقاهرة في ٩ محرم سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م ومات سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م عينه الظاهر بيبرس كاتبا لسره بديوان الانشاء ، وذهب الى عكا سنة ٦٦٢ بأمر منه ليحضر قسم اميرها على طاعة السلطان بيبرس كما تولى قراءة نسب الخليفة العباسي في القاهرة سنة ٦٦٦ هـ وخدم المنصور قلاوون والاشرف خليل من بعده .
Enc. Isl. Art : Ibn Abdal-Zahir , 1971 Vol. III pp. 679 - 680 .

١٣ ـ ولد سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م بمدينة اربل من اعمال الموصل وهو منسوب الى اسرة يحيى البرمكي . دخل القاهرة سنة ٦٣٦ هـ . عينه الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م قاضيا للقضاة بدمشق ثم عزل عنه سنة ٦٦٩ هـ /١٢٧١ م واشتغل مدرسا في المدرسة الفخرية التي اسسها الامير فخرالدين استاذ دار الملك الكامل سنة ٦٧٢ هـ ولمدة سبع سنوات ثم اعيد الى منصبه الاول بدمشق ثم عزل سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م وتوفي بعدها بسنة اي سنة ٦٨١ هـ/

وجعل ابن أياس وفاته سنة ٦٨٩ هـ (ابن اياس / تاريخ مصر ١/١٢١ ، المقريزي / السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٥ ، جا ق٣ ص ٧١١ ، ابو المحاسن / النجوم الزاهرة ٧/٢٦٤ / ٣٥٣ .
Nicholson : Alit . History of the Arabs p. 448 .

١٤ ــ جمال الدين محمد بن سالم بن نصرالله بن واصل الحموي قاضي حماة . ولد بحماه وتعلم وتأدب ثم عين مدرسا بها وقدم القاهرة سنة ١٢٦١ م / ٦٥٩ هـ فأرسله الملك الظاهر الى منفرد ملك صقلية يتفق معه على عقد معاهدة بين البلدين فقضى هناك وقتا طويلا الف فيه كتابه (نخبة الفكر في المنطق) ومات بحماة في ثاني عشر شوال سنة ٦٩٧ هـ عن ثلاث وتسعين سنة . المقريزي / السلوك لمعرفةدول الملوك جا ق٣ ص ٨٥١ ، ابو المحاسن / النجوم الزاهرة ٨/١١٣ .
Enc. Isl. Art : Ibn Wasil , 1971 , Vol. III p. 967 .

١٥ ــ راجع عنه ابن اياس/تاريخ مصر ١/١١٢ ، المقريزي/السلوك لمعرفة دول الملوك جا ق ٢ ص ٤٥٠ ، وذكر ابو المحاسن في وفيات عام ٦٦٠ هـ قوله (وفيها توفي الشيخ الامام العلامة شيخ الاسلام عز الدين ابو محمد عبد العزيز بن عبد السلام ابي القاسم بن المحسن بن محمد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي المعروف بابن عبد السلام مولده سنة سبع او ثمان وسبعين وخمسمائة) واستطرد ابو المحاسن في تقديم ترجمة له ليست بالقصيرة مستشهدا فيها على مكانته العلمية والفقهية بما نقله عن الذهبي راجع النجوم الزاهرة ٧/٢٠٨

١٦ ــ ابن اياس / تاريخ مصر ١ / ١١٦ .

١٧ ــ السخاوي / التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ ، عبد الوهاب عزام / مجاسر الفوري ص ٤٩ .

١٨ ــ تاريخ مصر/المطبعة الاميرية ــ ببولاق مصر ١٣١١ هـط . الاولى ١/٥٤ ــ ٩٥

١٩ ــ المقريزي / خطط ــ طبعة بولاق ٢ / ٣٦٣ ــ ٣٦٤ .

٢٠ ــ نفس المصدر والصفحة

٢١ ــ Ibrahim Salama : L'Enseignement , Islamique en Egypte , pp. 60 - 64 .

٢٢ ـ تاريخ مصر ٨٤/٢

٢٣ ـ المقريزي / السلوك في معرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ص ٦٤٧ ، ابن الفرات/تاريخ ابن الفرات ـ تحقيق قسطنطين زريق للمطبعة الاميركانية ـ بيروت سنة ١٩٣٩ م ٩٨/٧

٢٤ ـ ابن اياس / تاريخ مصر ١ / ١١٦ .

٢٥ ـ عبد اللطيف علي ابراهيم/المكتبة المملوكية ص ١٦

٢٦ ـ النويري/شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (٧٣٢ هـ) نهاية الأرب في فنون الادب مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ج ٢٩ ورقة ٢٨٢

٢٧ ـ سعيد عاشور/المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٦

٢٨ ـ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ـ مطبعة وادي النيل ـ القاهرة ١٢٧٨هـ/١٢٨٨هـ مطبعة جديدة ج٢ ص٥٣ ، ٢٠٣ ابن واصل الحموي/مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ـ تحقيق ونشر الدكتور جمال الدين شيال ـ القاهرة ١٩٥٧ ـ ١٤٦/٢

٢٩ ـ قوام الدين الفتح بن علي البنداري/سناء البرق الشامي ـ تحقيق د. رمضان ششن ـ القسم الاول ـ دار الكتاب الجديد بيروت ـ لبنان ط. اولى ١٩٧١ ص ٢٩٣ .

٣٠ ـ المصدر نفسه والصفحة ، ابو شامة / كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ١٣٣/١ ، ٨٩/٢ ، ١٨٩ ، ٢٠٣ ، ابن خلدون / العبر والمبتدأ والخبر في اخبار من غير ـ دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ف ٢ م ٥ ص ٥٥٨ ، ق ٤ م ٥ ص ٧٧٠ .

٣١ ـ ابن واصل الحموي / مفرج الكروب ٢ / ٩٢ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٦٦ البنداري / سناء البرق الشامي ق١ ص١١٧ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٤٢، ابو شامة/كتاب الروضتين ١٥٥/١ ، ٢١٧ ، ٢٨٣ ، ١٩/٢ ، ٢٣ ، ١٢٣ ، ١٨٩ ، ابن خلدون / العبر ق ٤ م ٥ / ص ٧٧٩ .

٣٢ ـ راجع في ذلك القلقشندي/صبح الاعشى ٥٢٦/٦ ، ٣٤١/٧ ، ابن خلدون / العبر ق ٣ م ٥ / ص ٦٣٩ ق ٤ م ٥ / ص ٦٥٧ أبو شامة/

كتاب الروضتين ٢ / ٢٤ ، ابن واصـل الحموي / مفرج الكـروب ٢ / ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ١٦٨ ، ١١٥ ، البنداري سناء البرق الشامي ق ١ ص ١٩٥ ، ٢٧٥ ، ٢٦٨ ، الحنبلي ابن العماد / شذرات الذهب بيروت ـ بلا تاريخ ٤ / ٦١ .

٣٣ ـ راجع فاضل زكي/الفكر السياسي العربي الاسلامي ـ دار النشر والطبع الاهلية ـ ط. اولى ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ ص ٢٢٥، الدبلوماسية في النظرية والتطبيق ـ مطابع دار الجمهورية ـ بغداد ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م ص ٢٢ ، ٢٣ .

٣٤ ـ القلقشندي/صبح الاعشى ٥٢٦/٦ ، ٣٤١/٧ ، ابن خلـدون/العبر ق٣ م٥ ص٦٠٦ ، ق٤ م٥ ص٧٢٦ ، ٧٩٢ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ابـن واصل الحموي/مفـرج الكـروب ٩٧/٢ ، ٩٧ ، ٢٦٧ ، ابو شامة/ كتاب الروضتين ١٧٨/١ ، ابن شداد الاعلاق الخطيـرة ـ قسم الجزيرة ورقة ٦٧ ، وكان صلاح الدين الايوبي لا يكـاتب الفرنج الا عندما يجد في ذلك الأطراف لبـلاده ، كثيرا ما كان يوجه الى ملوك الاطراف التوبيخ واللوم عندما يظهرون تنازلا في مكاتبـاتهم مـع الفرنج٢٣١/١، ١٦/٢، البنداري/سناء البرقالشامي ٥٤/١ ،١٩٤

٣٥ ـ انظر في هذا الصدد الهامش رقم ٣ في كتاب الفكـر السيـاسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ، للدكتور فاضـل زكـي ص ٢٢٧ ، ابن الجوازي المنتظم ـ حيدر اباد ١٣٥٨هـ ٦٤/٨ .

٣٦ ـ سناء البرق الشامي ٢٧٣/١ ، وراجع ابن العماد الحنبلي/شذرات الذهب ١١١/٤ ، وبهذا الصدد راجع ابن الفراء/رسل الملوك ومن يصلح للرسالة أو السفارة ـ تحقيق صلاح الدين المنجد . مطبعـة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٧م ص ٢٨

٣٧ ـ نفس المصدر ج١ ص ١٤٢ ، وراجع بهذا الصدد ابن الفراء/رسـل الملوك . ص ٣٢ ـ ٣٣

٣٨ ـ كتاب الروضتين ١٢٣/٢ .

٣٩ ـ ابن الفراء/المصدر السابق ص ٣٢ ـ ٣٣ .

٤٠ ـ راجع البنداري/سناء البرق الشـــامي ٣٤٣/١ ، ابن واصـل الحموي/مفرج الكروب ٥٩/٢ ، ٦٢ ، ١٠٠ ، ١٢٢ ، ١٧٢ ، ١٧٩، ١٩٢ ، ٢٦٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٦٠ ، ٤٣٠ .

٤١ ـ راجع ابن شداد/الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيــرة ـ مخطوط ص ٢٠ أ ـ ٢٠ ب .

٤٢ ـ ابن شداد/الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة مخطوط ص ٦٢ ب .

٤٣ ـ نفس المصدر والصفحة .

٤٤ ـ يمكن ملاحظة الرواية كاملـــة في ص ٦٣ أ ، ٦٣ ب من مخطوط الاعلاق الخطيرة لابن شداد

٤٥ ـ لودي ، شارل/الاعلاق الخطيرة لعز الدين بن شـداد ـ مجلـة المشرق العدد ٢٣ ـ نيسان ـ حزيران ١٩٣٥ ـ ص ١٦٤ .

٤٦ ـ ابن شداد/الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ ص١١٧أ ـ ١١٧ب.

٤٧ ـ المصدر نفسه ص ١١٨أ .

٤٨ ـ المصدر نفسه ص ١١٨أ ـ ١١٨ب ، وراجع مقالة لودي السابقة ـ مجلة المشرق السنة ٣٣ في عام ١٩٣٥ ص ١٦٥ .

٤٩ ـ المصدر نفسه ص ١٣٦ ا ، ومقالة لودي للوقوف على رايـه بشأن هذه الحادثة ـ في نفس المصدر والصفحة .

٥٠ ـ ذيل مرآة الزمان ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ بحيدرأباد الدكن ـ الهند ١٣٨٠ هـ/١٩٦١م ط. أولى ٢٧١/٤ .

٥١ ـ ابن شداد/المصدر السابق ـ (قسم مدينة دمشـق) تحقيق سامي الدهان ـ دمشق ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦م ص ٢٢٢ .

٥٢ ـ المصدر نفسه ص ١٨٧ ، وقواله في ص ٧٤ من الكتاب « ولما دخلنا دمشق سنة تسع وستين وستمائة في خدمة مولانا السلطان الملك الظاهر كان في الصحبة الشيخ خضر ... » .

٥٣ ـ المفضل بن ابي الفضائل/النهج السديد والدر الفريـــد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ١٩٢٠م ٤٢٩/٢ ، ابـن الفرات/المصدر السابق ٣٣/٨ .

٥٣ ـ نجمل هنا اسماء المؤرخين الذين ترجموا لـه بكلمات مستفيضة او مختصرة ومنهم/ابن كثير/البداية والنهاية ـ مكتبـة المعارف ـ بيروت ١٩٦٦م ط اولى ٣٠٥/١٣ ، ابي المحاسن/النجوم الزاهرة ـ طبعة دار الكتب المصرية ٩٥/٧ ، ابن الفرات/تاريخه ـ المطبعـة الاميركانية ـ بيروت ١٩٣٩م ٣٣/٧ ، الصفدي/الوافي بالوفيـات طبعة دمشق ١٨/٤ ، اليافعي / مـرآة الجنـان مؤسسـة الاعلمي المطبوعات ـ بيروت ـ لبنان ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ط م ثانية ٢٠١/٤، ابن العماد الحنبلي/شذرات الذهب ـ بيـروت ٣٨٨/٥ ، حاجي خليفة / كشف الظنون ـ نسخة مكتبة المثنى بغـداد ص ٧٣٩ ، البغدادي/هدية العارفين/استنبول ١٩٥٥م ١٣٤/٢ ، جرجـي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . دار الهلال ١٩٨/٣ ،
Enc. Isl. : Ibn Shad . by Sourdel , Vol. III p. 933 .

٥٤ ـ ابن الفرات/المصدر السابق ٢٧٤/٧ .

٥٤ ـ راجع مفاوضاته مع التتار . ثم موقفه مما دار بين بـدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ورسل التتار ومواقفه مـن الملك الكامـل صاحب ميافارقين . راجع المجموعة والنصوص الـتي حققهـا عن اصـل المخطوط في الصفحات ١٩ ـ ٣٠ من هذا البحث .

٥٥ ـ راجع عمر رضا كحاله معجم المؤلفين ـ مطبعة الترقي ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م ٢٩٩/٩ .

٥٦ ـ ص ١١٧ أ : ص ٢٨ من البحث .

٥٧ ـ المصدر السابق ٣٣/٨ .

٥٨ ـ طبعة دمشق ١٨٩/٤ ، وراجع اليونيني ، قطب الـدين موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان ـ طبعة أولى ـ حيدر اباد الدكن ـ الهند ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ٢٧٠/٤ .

٥٩ ـ ابن الفرات/المصدر السابق ٩٨/٧ ، المقريزي/السلوك في معرفة دول الملوك ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـر ـ القاهرة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م ط. ثانية منقحة ج١ ق٢ ص٦٤٧ .

٦٠ ـ المصدر نفسه ١٠٣/٧ .

٦١ ـ ابن شداد/الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ص ١١٥أ ٠

٦٢ ـ المصدر نفسه ص ١١٥ب ٠

٦٣ ـ المصدر نفسه والصفحة ٠

٦٤ ـ المصدر نفسه ص ١١٧ب ٠

٦٥ ـ المصدر نفسه ص ١٣٥ب ـ ١٣٦أ ٠

٦٦ ـ المصدر نفسه والصفحة ٠

٦٧ ـ المصدر نفسه ص ١١٥أ ٠

٦٨ ـ المصدر نفسه ص ١١٧أ ٠

٦٩ ـ المصدر نفسه ص ١١٧ب راجع بعض النصوص التي انفرد بذكرها حول سفارته ص ١٩ ومابعدها ٠

٧٠ ـ راجع البنداري ـ سناء البرق الشامي ٢٤٥/١ ٠

٧١ ـ ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ص ١١٦ب ٠

٧٢ ـ الصفدي ـ الوافي بالوفيات ١٨٩/٤ ، ابن الفـرات ـ تاريخه ١٠٣/٧ ٠

٧٣ ـ مرآة الجنان ٢٠١/٤ ، شذرات الذهب ٣٨٨/٥ ، الذهبي ـ العبر في خبر من غبر ٠ مطبعة حكومة الكويت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م تحقيق د٠ صلاح الدين المنجد ٣٤٩/٥ ٠

٧٤ ـ الوافي بالوفيات ١٨٩/٤ ٠

٧٥ ـ الذهبي ـ سير اعلام النبلاء ٥٢٥/٤ ٠

٧٦ ـ تاريخه ٣٣/٨ ٠

٧٧ ـ راجع الورقة الاولى من الجزء الاول من كتابه الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (قسم حلب) ٠

٧٧ ـ البداية والنهاية ٣٠٥/١٣ ٠

٧٨ ـ تاريخه ٣٣/٨ ٠

٧٨ ـ الذهبي ـ سير اعلام النبلاء ٥٢٥/٤ ، ـ العبر ٣٤٩/٥ .

٧٩ كشف الظنون ٧٧٩/٢ ، هدية العارفين ١٣٤/٢ .

٨٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ، ١٩٣٣/١٣٥ . ترجمة ابن شداد لمحمد ثابت الفندي .

٨١ـ Enc. Isl. Art : Ibn Shad . by Sourdel , 1971 , Vol. III p. 933

٨٢ ـ الاعلام ـ المطبعة العربية بمصر ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م ٥٥٩/٢ .

٨٣ ـ راجع الاعلاق الخطيرة (قسم مدينة دمشق) ـ تحقيق سامي الدهان ـ دمشق ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ص ١٨ .

٨٤ ـ ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ص ٣٦ أ .

٨٥ ـ المصدر نفسه ص ٦٧أ .

٨٦ ـ المصدر نفسه (قسم مدينة دمشق) المحقق من قبل سامي الدهان م ص ٢٨ نقلا عن الجزء الثاني من الكتاب نفسه ص ٩٢ .

٨٧ ـ المصدر نفسه ص ١٢٦ب .

٨٨ ـ المصدر نفسه ص ١٢٧ب .

٨٩ ـ المصدر نفسه ص ١٧٤أ ـ وابن العديم هذا من معاصري ابن شداد توفي سنة ٦٦١هـ سنأتي على ترجمته .

٩٠ ـ المصدر نفسه ص ١٢ب .

٩١ ـ المصدر نفسه ص ١٣ .

٩٢ ـ المصدر نفسه والصفحة .

٩٣ ـ المصدر نفسه ص ١٤أ .

٩٤ ـ المصدر نفسه ص ٢٦أ .

٩٥ ـ المصدر نفسه ص ٤٥أ .

٩٦ ـ المصدر نفسه ١٨٩أ .

٩٧ ـ المصدر نفسه ص ١٦٦أ .

٩٨ ـ ابن الفرات ـ تاريخه ١٠٣/٧ .

٩٩ ـ ابن شداد ـ الاعلاق ـ (قسم الجزيرة) ص ١٣أ و١٤أ .

١٠٠ ـ المصدر نفسه ص ٢٠ب ، ١٢٦أ .

١٠١ ـ المصدر نفسه ص ٢٥ب ، ١٢٦أ .

١٠٢ ـ المصدر نفسه ص ١٣٢ب .

١٠٣ ـ المصدر نفسه ص ١٢٠أ .

١٠٤ ـ المصدر نفسه ص ١٦٢أ ـ ٦٤ب ، راجع هذا البحث ص ٢٧ ، ٢٩، ٣٠ .

١٠٤ ـ راجع هذا البحث ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ .

١٠٥ ـ ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ٨٢/٦ .

١٠٦ ـ كشف الظنون ـ ١٧٨/١ .

١٠٧ ـ ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ٨٢/٦ ، عمر رضا كحالة ـ معجم المؤلفين ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ١٤٩/١٣ ، البنداري ـ هدية العارفين ٥٠٩/٢ .

١٠٨ ـ المصدر نفسه ٨٤/٦ .

١٠٩ ـ المصدر نفسه ٣٨٤/٤ ابن النديم ، الفهرست ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن حجز التهذيب ص ٣٦٥ ، شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون ١٦٣/١ ـ ١٦٦ .

١١٠ ـ المصدر نفسه ٣٧٢/٦ ، ١٠٣/٧ .

١١١ ـ احمد امين ـ ظهر الاسلام ٢٠١/٢، راجع فتوح البلدان للبلاذري مقدمة المحققان ـ بيروت ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م ص ٣ .

١١٢ ـ فتوح البلدان ـ تحقيق عبد الله انيس الطباع وعمر انيس الطباع ـ دار النشر للجامعيين بيروت ـ ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م في الصفحات

٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ يماثلها ما ورد في صفحات الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) لابن شداد في ص ٣٠أ ، ١٤٣ ، ١٤٦ .

١١٣ ـ حول الطبري ـ راجع ترجمته المفصلة في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٤٧/٩ ، شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٨م ص ٢٥٣/١ ـ ٢٦٤ .

١١٤ ـ ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة ـ (قسم الجزيرة) ص ١٣ب ، ١٢١.

١١٥ ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م ١٧١/١ ، ٢٩٧/٦ .

١١٦ ـ حاجي خليفة ـ كشف الظنون ١١٧٥/٢ .

١١٧ ـ ابن خلكان ـ وفيات الاعيان ١١٦/٢ ، حاجي خليفة ـ كشف الظنون ١٧٧٥/٢ .

١١٨ ـ اعتمده ابن شداد في كتابه الاعلاق (قسم الجزيرة) ص ١٣ب ، ٢١أ ، كما اعتمد عليه ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان في الصفحات ٦٧/٥ ، ٧٢ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ٢٨٥ .

١١٩ ـ لم يذكر كتابه (التذييل) في كشف الظنون وهدية العارفين وبروكلمان ، بل اعتمد عليه ابن خلكان المعاصر لابن شداد باسم (ذيل تاريخ الطبري). وقد حقق الذيل د . احسان عباس باسم(تكملة تاريخ الطبري) وطبع في بيروت سنة ١٩٦١م وهو الاثر الوحيد للهمداني وقد نسب ابن خلكان الذيل الى (تاريخ الطبري) مرة واخرى ذكره باسم الذيل فقط وربما جاء اسم التذييل في مخطوط الاعلاق عن طريق التصحيف والتحريف . راجع ابن خلكان ٢٨٤/٣ ، ١٣٥/٥ .

١٢٠ ـ راجع صفحات الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) وهي ١٠ب ، ١٣١أ ـ ١٣٢ب .

١٢١ ـ تاريخ الفارقي (الدولة المروانية) لمؤلفه احمد بن يوسف بن علي ابن الازرق الفارقي توفي سنة ٥٧٦ هـ ، حققه وقدم له د. بدري عبد اللطيف عوض ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ـ الهيئة العامة لشؤون المطابع

الاميرية . اعتمد النسخة المنسوبة الى ابن شداد كجزء من الاعلاق (اي الخاص بالجزيرة) ـ نسخة ثالثة مع النسختين الاخريتين لتأريخ الفارقي وذلك في تحقيق الجزء الخاص من تاريخ (الدولة المروانية) كجزء من متطلبات دراسته للدكتوراه .

١٢٢ ـ راجع وصف النسخ الثلاثة في مقدمة المحقق (بدري عوض) التاريخ الفارقي (الدولة المروانية) ص ٦ـ٧ .

١٢٢ ـ راجع بهذا الشأن ٨٢أ ، ٨٨أ ، ٨٩أ ويقابلها في الفارقي على التوالي ص ٨٧ ، ص ٨٩ ص ١٤١ ، ص ١٧٨ .

١٢٣ ـ تأريخ الفارقي (الدولة المروانية) (اي الازرق ـ تحقيق بدري عوض ص ٨٧) .

١٢٤ ـ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ص ٨٢أ .

١٢٥ ـ راجع ابن شداد نفس المصدر ص ٨٢أ ، ٨٨أ ، وفي تاريخ الفارقي لابن الازرق راجع ص ٨٧ ، ١٤٤ لكنه لم يستطع تجنب الالفاظ العامية في كتابه وقد تميزت بها لغة عصره .

١٢٦ ـ الروهي ـ هكذا جاء اللقب المخطوط والصحيح (الرومي) والتحريف ربما جاء بقلم الناسخ راجع ص ٢٥ب .

١٢٧ ـ راجع كتاب (العنوان المكلل بفضائل الحكمة المتوج بأنواع الفلسفة الممدوح بحقائق المعرفة لاغابيوس بن قسطنطين الرومي المنبجي الذي نشر معه تاريخ محبوب بن قسطنطين الرومي المنبجي ـ أسقف مدينة منبج ـ الجزء الثاني منه ـ مطبعة الاباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٧م ص٣ .

١٢٨ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣٤٨/٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٩/١٣ .

١٢٩ ـ راجع الصفحات التالية في الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ص ٣ب ، ١١ ب ، ٤٤ب ، ٤٧ أ ، ٥٩ ب ، ٦١ب ، ٦٧أ ، ٨٠أ ، ٨١ب ، ١٠٠ب ، ١٣٢أ ، ١٣٤ب .

١٣٠ ـ راجع في نفس المصدر ص ٤٤ب .

١٣١ ـ المصدر نفسه ص ١٣٢ب .

١٣٢ ـ راجع على سبيل المثال ص ١٠٠ب في مخطوط الاعلاق (قسم الجزيرة) وفي الكامل في التاريخ لابن الاثير ٤٣٠/١٠ .

١٣٣ ـ راجع على سبيل المثال ص ١١١أ من مخطوط الاعلاق (قسم الجزيرة) وفي الكامل في التاريخ لابن الاثير ٣٥٤/١ ، ٣٦٣ .

١٣٤ ـ المصدر نفسه ص ١٣أ .

١٣٥ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ٥٣٣/٢ .

١٣٦ ـ الطبري : تاريخ الرسل والملوك ط. اوروبا ٢٥٠٥/٤ ، رغم أن ابن شداد لم يشر الى الطبري في هذه الرواية باعتباره اقدم من ابن الاثير الذي يخالفه في تطابق صيغة الرواية .

١٣٧ ـ الاعلاق (قسم الجزيرة) ص ٤٠ب .

١٣٨ ـ حاجي خليفة (١٠٠٤ ـ ١٠٦٧هـ) : كشف الظنون ـ المطبعة الاسلامية طهران ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م طبعة ثالثة ٣٠٥/١ وقد اعتمد عليه ابن شداد مرة واحدة في ص ١٣٢أ من كتابه الاعلاق (قسم الجزيرة) .

١٣٩ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ـ تحقيق احسان عباس ـ دار الثقافة بيروت ١٩٧٢م ٣٥٢/٦ .

١٤٠ ـ المصدر نفسه ١٢٣/٧ .

١٤١ ـ المصدر نفسه ٣٥٩/١ هامش رقم ٢٥ .

١٤٢ ـ حاجي خليفة/كشف الظنون ٢٤٩/١ .

١٤٣ ـ البغدادي / هدية العارفين ـ استنبول ١٩٥ م ط ٦/١٣ .

١٤٤ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسني ـ دار العلم ـ القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦١ ص٥٢ ، ٥٣ .

١٤٥ ـ حاجي خليفة/كشف الظنون ١٦٦٤/٢ .

١٤٦ ـ الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ص ١٢١أ .

١٤٧ ــ المصدر نفسه ص ٤١ب .

١٤٨ ــ المصدر نفسه ص ٤٥ أ .

١٤٩ ــ حاجي خليفة/المصدر السابق ١٩٤٧/٢ .

١٥٠ ــ المصدر نفسه والصفحة .

١٥١ ــ الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) ص ٢١أ .

١٥٢ ــ المصدر نفسه ص ١٤أ .

١٥٣ ــ المصدر نفسه ص ١٣ب .

١٥٤ ــ تحقيق ــ احمد شاكر ــ طبعة الاوفست ــ طهران ١٩٦٦م (حران) .

١٥٥ ــ ابي عبيدة ، عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي (ت ٤٨٧هـ) (معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضيع) تحقيق مصطفى السقا . ط. اولى ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م . ٩٣/١ .

١٥٦ ــ ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) / معجم البلدان . طهران ١٩٦٥ م ٧٠٣/٤ .

١٥٧ ــ نفس المصدر ٨٤/٢ ــ ٨٥ .

١٥٨ ــ المصدر نفسه ١٥٨/٣ .

١٥٩ ــ المصدر نفسه ٨٠٢/٢ .

١٦٠ ــ المصدر نفسه ٢٣١/٢ ــ ٢٣٢ .

١٦١ ــ ٤٦٩/١ ــ ٤٩٧ .

١٦٢ ــ تحقيق جونبول ــ طبعة ليدن ٣٠٦/١ ، ٣٨٢ ، ٤٥٣ ، ٢٨/٢ ، ٢٩ ، ٥٧ ، ٤٠١ ، ٢٩/٣ ، ١٨٢ ، ٢١٤ .

١٦٣ ــ لم يعرف وفاته بل ذكر والده سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م ان عمره كان كان ٧٧ سنة ــ موسكو ١٩٧١ م .
p. 21a, 25a, 26a, 35a, 40a, 42a, 50a, 265, 375, 446, 23a2, 42a5 .

١٦٤ ـ طبع دار القلم للطباعة ـ لبنان ـ بيروت ١٩٧٤ .

١٦٥ ـ راجع الجداول المتعلقة بطوبغرافية بعض مدن وقصبات الجزيرة الفراتية في ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

١٦٦ ـ عني بنشره ووضع فهارسه بطرس غريا زينوني ـ موسكو ١٩٦٠ دار النشر للاداب الشرقية . راجع فيه قصبات الجزيرة الفراتية في الصفحات . P. 31a - 2136

١٦٧ ـ راجع الجدول الطوبوغرافي لبعض مدن وقلاع الجزيرة الفراتية والذي جاء في معظمه وصفا لمشاهداته العينية لهذه المواقع . وعن ميافارقين بالذات راجع الوصف التفصيلي في الاعلاق الخطيرة كما راته عينيه ص ٧٧٠ ـ ١٧١ .

١٦٨ الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) راجع ص ١٣ أ ، ٢١ ب ، ١٢٦أ ، ٣٠أ ، ٤٥ب ، ٧١أ ، ١٢٧ب ، ١٢٨ب، ١٣٠أ .

١٦٩ ـ نفس المصدر . راجع ص ١٢٦أ ، ٤٥ب ، ٧٠ب : ٧١ ، ١٣٠أ .

١٧٠ ـ نفس المصدر /راجع ص ١١٣أ ، ١٩ب ، ٢٠أ، ٢١ب ، ١٢٥أ ، ١٢٦أ، ٢٦ب ، ٢٩أ ، ٣٠أ ، ٣٣ب ، ٤٥ب ، ٥٧ب ، ٦٦أ، ٧١أ ، ١٢١أ ، ١٢٧ب ، ١٢٨ب ، ١٣٠أ ـ ١٣٠ب .

١٧١ ـ نفس المصدر . راجع ص١٢٦أ ، ٤٥ب ، ٥٥أ ، ١٢٨ب ، ١٣٠ أ .

١٧٢ ـ نفس المصدر . راجع ص ١٩ب ـ ٢٠أ ، ٢٩ب ، ٧١أ ، ٧٩أ ، ٨٠ب ، ١٢١أ ، ١٢٨ب .

١٧٣ ـ ابن شداد/الاعلاق الخطيرة (تاريخ مدينة دمشق) تحقيق سامي الدهان ـ دمشق ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م م.ص ٣٧ ـ ٣٨ .

١٧٤ ـ عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ) الدارس في تاريخ المدارس ـ عني بنشره وتحقيقه جعفر الحسيني ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٥١ م/١٣٧٠ هـ ـ الجزءين الاول والثاني . اما الصفحات التي اخذ بها عن ابن شداد فقد ادرجت من قبل المحقق في فهرست الاماكن في نهاية الجزء الثاني منه .

١٧٥ ـ فشيخ الربوة / هو شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابي طالب انصاري الصوفي ـ بطريورغلا مطبعة الاكاديمية ١٩٦٥م ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

١٧٦ ـ المصدر نفسه ص ١٩١ .

١٧٧ ـ قطب الدين ابي الفتح موسى بن محمد بن احمد اليونيني البعلبكي الحنبلي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) . طبعة حيدر اباد ـ الدكن في الهند ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ـ الطبعة الاولى ٥٣/١ .

Revue des E'Tudes Islamiques . Paris année 1943 Tome VIII « La Djazira au milieu du Troiziéme siécle D'Aprés 177 - AD DIN Ibn Chaddad » by CLAUDE CAHEN p. 110 .

١٧٩ ـ راجع ابن شداد في صدر كتابه الاعلاق الخطيرة (تاريخ مدينة حلب) ورقة ١ .

١٨٠ ـ راجع د. بشار عواد معروف/الذهبي منهجه في كتابه التاريخ . مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة الطبعة الاولى ١٩٧٦ ص ٤٢١ .

١٨١ ـ راجع عن هذا الصنف من المؤلفات التاريخية . شاكر مصطفى في كتابه (التاريخ العربي والمؤرخون) دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٨م ط. اولى ٣٥/١ وما بعدها وراجع ايضا الذهبي منهجه في كتابة التاريخ لبشار عواد ص ٤٢١ .

القرن ١٦ وحركة التعليم في تمبكتو مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب

الدكتور عبد القادر زبادية
أستاذ التاريخ الافريقي الحديث
جامعة الجزائر

١ ـ نحو الأوج

كان القرن السادس عشر ، هو الفترة التي بلغت خلالها الحضارة العربية الاسلامية أوجها بالسودان الغربي ، أما الحقبة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر ، فقد كانت فترة تطورات متلاحقة لبلوغ مرحلة الأوج هذه [١] .

---

١ ـ بدات اول محاولة استطلاعية قام بها العرب لتبليغ رسالة الاسلام الى غرب السودان في القرن السابع الميلادي فقد ذكر ابن عبد الحكم أن عقبه بن نافع الفهري ارسل فرقة صغيرة من جيشه الى الجنوب الغربي ، وذلك حينما بلغ برقة في حدود ٦٧٦م . وقد وصل رجال تلك الفرقة الى جبال الطومو ، وتوقفوا عند مكان يدعى (ماء الفرس) ، وموقع ذلك المكان في الوقت الراهن عند حدود فزان النيجر .

ولا نميل الى الاعتقاد بأن هجومات المرابطين في القرن الحادي عشر على بعض المناطق المحاذية لنهر السنغال من ناحية الشمال ، ←

ومنذ استقرار الاسلام بالمنطقة مع نهاية القرن التاسع الميلادي ، بدأت تتكون بها عدة تنظيمات حكومية ، ظلت تتخطى الشكل القبلي القديم بالتدريج ، وقد وصلت الى المرحلة الوطنية مع نهاية القرن الخامس عشر (٢) .

كان لها اثر كبير في حمل الناس على الاسلام ، لان المرابطين مالبثت عنايتهم ان تعلقت بالشمال ، ولم تبق منهم بالجنوب الا جماعة صغيرة ، ما لبثت أن توقفت عن النشاط هي الاخرى، وذلك حينما وصلت منطقة (كمبى صالح) في حدود سنة ١٠٧٦م .

ولعل الأثر الاكثر اهمية في اعتناق السودانيين للاسلام كان قد حصل نتيجة لاسلام المغاربة، فقد كان هؤلاء على اتصال منذ القديم بغرب افريقيا ، ولما ازدادت تلك الصلة قوة عن طريق التجارة خلال العصور الوسطى ، كان من اثرها المباشر اقبال امراء وسلاطين السودان على اعتناق الاسلام ، وكان رعاياهم يتبعونهم بصورة تلقائية تقريبا .

٣ ــ خلال العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، تكونت في السودان الغربي ثلاث ممالك كبرى ، فقد ظهرت في البداية مملكة غانا (في منطقة شمال السنغال وجنوب موريتانيا حاليا) ، وقد اثبتت دراسات الاستاذ (بازل دافدسن) ، انها قامت منذ البداية في شكل قبلي صرف ، طغت فيه قبيلة على مجموعة من القبائل ، وفرضت عليها الخضوع لحكمها . وبنفس الطريقة اقامت قبائل الماندينغ مملكة مالي التي بلغت قوتها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ولكن نوعا من الكونفدرالية ظهر على مالي منذ القرن الثالث عشر ، فكان في ذلك جمع بين الصورة القبلية السابقة والصورة الوطنية المقبلة .

ثم قامت مملكة سنغاي في عهدها الاول في شكل قبلي ايضا ، الا ان الاسقيا محمد الاول (١٤٩٣ ــ ١٥٢٨) ادخل عليها تعديلات

وقد اعتمد استقرار الاسلام منذ البداية على عنصرين أساسيين ، هما : التجارة والتعليم ، وظلت المظاهر الحضارية في كل السودان الغربي انما تزداد ازدهارا في كل حقبة بالمدن التي تتلاءم مواقعها مع توارد قوافل الشمال عليها ، بالدرجة الاولى [٣] .

جوهرية ، فأبعدها عن الشكل القبلي واعطاها صبغة وطنية ، بحيث أصبحت تشترك في تسيير المملكة معظم القبائل المنضوية تحت لوائها . وقد اضطر من اجل الوصول لذلك الهدف الى خوض معارك حامية ضد زعماء قبيلة سنغاي الذين لم يرضوا مشاركة بقية القبائل لهم في الحكم ، ولما انتصر عليهم ، كان ذلك ايذانا بتخطي الاشكال القبلية القديمة، وذلك لأول مرة في تاريخ السودان الغربي حتى القرن السادس عشر .

لزيادة التفاصيل ، يمكن مراجعة المصادر التالية بصورة خاصة، وهي :

- دافيدسن ، بازل ، افريقيا تحت اضواء جديدة ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٦٣ ، (ترجمة م. احمد) .
- قداح ، نعيم ، افريقيا الغربية في ظل الاسلام ، مطبعة الوحدة ، دمشق (دون تاريخ) .
- عبد القادر ، زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين ، الجزائر ، ١٩٧٣ .

- J. FAGE . *Introduction to the history of West Africa* , Cambridge , 1955 .
- A. DIOP , *L'Afrique Noire , pré-coloniale* . Paris . 1960 .
- J. Suret-Canale , *Afrique Noire , Géog . Civilisations* , Histoire , Paris , 1961 .

٣ ــ ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربي حتى القرن السادس عشر، هي المدن التي كان يأتي اليها او يقطنها كثير من تجار الشمال ، أما البوادي والقرى ، فقد ظلت تعيش على الاساليب البدائية القديمة. ويرى الاستاذ (ديبوا) أنه لا يوجد في تاريخ السودان الغربي اثر

وكان القرن السادس عشر قد قيض خلاله لمدينة تمبكتو ان تصبح محطة القوافل الاولى في كل بلاد السودان ، فسكنها كثير من التجار وقصدها جم غفير من العلماء والطلاب ، مما بوأها اثناءه مكانة المدينة الاولى للعلم والثقافة في السودان الغربي كله (٤) . وفي تلك الحقبة

حضاري وثقافي الا في المدن التي كانت تتوارد عليها القوافل ، وبهذه الصورة قامت (والاتا) في البداية كمركز ثقافي وحضاري كبير ، ولما ظهرت الاضطرابات في منطقتها كنتيجة لتوسع مالي خلال القرن الثالث عشر ، ضعفت والاتا بسرعة منذ ذلك الحين ، وهاجرها العلماء الى (تمبكتو) التي اتخذها التجار من جديد محطة لنزولهم ، انظر

F. Dubois , *Tombouctou la mystérieuse* Paris , (Flammarion) , 1897 . p. 263 .

٤ ـ يعود تاسيس مدينة تمبكتو الى القرن الحادي عشر ، وقد أسسها طوارق (ايمغراشن) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود ذلك التاريخ . اما خلال الصيف فانهم يعودون الى (أروان) حيث مرابعهم الاصلية، ويقال ان اسمها اخذته من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا اليها بالبقاء في ذلك المكان ، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية ، وكانت تحرس لهم فيه بعض المخازن والبيوت . ثم ما لبث بعض التجار ان عقدوا سوقا في ذلك المكان واتخذوا فيه مستودعات للبضائع ، وبذلك اخذت المدينة طريقها الى النمو التدريجي ، ولكن دون نظام ، وفي أيام كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بنى له فيها قصر فخم ، كما أسس أول مساجدها المسمى (دنقريبر) ، وقد بناهما الشاعر الساحلي ، وهو مهندس غرناطي استقدمه كنكان موسى معه حين عاد من الحج حوالي سنة ١٣٢٦م . وفي تلك الاثناء هاجر عدد من العلماء مدينة والاتا (المركز الثقافي الاول في غرب السودان حتى ذلك الحين)، وسكنوا تمبكتو ، فزادها ذلك ازدهارا ، اما التجارة فقد اخذوا

وصفت بأم مدائن السودانيين سواء في العلم والحضارة أو في العمران والتجارة (٥) .

٢ ـ من مظاهر الازدهار

خلال القرن السادس عشر أصبح سكان تمبكتو يزيدون على خمسة وثلاثين ألف ساكن ، وربما لم تعد تفوقها آنذاك في كثرة السكان مدينة سودانية أخرى في غرب افريقيا ، غير غاو العاصمة السياسية للامبراطورية السنغائية التي كانت تمبكتو آنذاك احدى مدنها الهامة (٦) .

يستعيضون بها عن والاتا بالتدريج ، وما أن اطل القرن السادس عشر حتى جمعت تمبكتو بين التجارة الواسعة والنشاط الثقافي المتزايد ، وقد بلغت فيهما مرحلة الاوج خلال الفترة ١٤٩٦ و ١٥٩١ وفي تلك الاثناء انتظمت شوارع المدينة ، واكتسبت معظم ابنيتها شكلها الهندسي على النمط المغربي ـ الاندلسي ، كما نقله اليها الساحلي يقول السعدي : « وما تكامل البناء (في تمبكتو) في الالتصاق والالتئام الا في أواسط القرن العاشر ، في مدة اسقيا داود) . انظر :

ـ السعدي : عبد الرحمن ، تاريخ السودان ، (ميزوناف) باريس ، ١٩٤٦ . (تحقيق هوداس وبونوا) ، ص ٢٢ .

- Dubois , F., *op.cit.*, pp. 313 - 318 .

٥ ـ *Ibid* , p. 252 .

٦ ـ جرت محاورة لطيفة في ذلك الوقت بين جماعة من سكان تمبكتو وجماعة من سكان غاو ، وقد احتد النقاش بين الفريقين حول أي من المدينتين اكثر بيوتا ، مما أدى بهما الى عد بيوت كل من المدينتين على حدة ، وقد استدل من ذلك على أن سكان تمبكتو يزيدون على الثلاثين ألف ساكن ، انظر :

ـ كعت ، محمود ، تاريخ الفتاش ، ميزوناف ، باريس ، ١٩٦٤ (تحقيق هوداس) ص ١٤٥ .

Mauny R., *Tableau géographique de L'Ouest African* , Dakar . 1961 p. 491 .

وفي تلك الاثناء أصبحت تمبكتو العاصمة الثانية للامبراطورية في ميداني الاقتصاد والثقافة معا (٧) . وقد انتظمت شوارعها ، واحيطت المدينة بسور . اما المنازل فقد ازدانت نسبة كبيرة من بينها بواجهات في شكل زرائب أو حدائق صغيرة تربطها الى حيطان البيوت سياجات (٨) . وقد احتوت تمبكتو في تلك الأثناء على ثلاث مساجد كبيرة (جوامع)، مما لم يتهيأ لغيرها من كبريات مدن السودان الغربي آنذاك(٩). وأخذت

---

٧ ـ في ميدان الثقافة تتفق مراجع تلك الفترة على ان تمبكتو لم يكن يجاريها في ذلك الوقت مدينة اخرى ، لكثرة العلماء والطلاب بها ونشاطهم المتزايد . اما في ميدان الاقتصاد فان امراء سنغاي ، كانوا حينما يحتاجون للمال في اوقات الشدة يلجأون للاقتراض من تجار تمبكتو ، كما ان بعضهم زوج بناته بأغنياء التجار في تمبكتو ، ولم يحصل هذا مع غيرهم ، وقد تأثر الحسن بن محمد الفاسي الوزاني بالنشاط التجاري الذي كانت عليه المدينة ، وكثرة بضائعها ، مما جعله يعتبرها امارة قائمة بذاتها ، انظر :
ـ السعدي ، عبد الرحمن ، نفس المصدر ، ص ٢٢ .
ـ احمد بابا ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، فاس ، ١٣٧١ هـ ، ص ٤١ .
- Jean Léon l'African . *Description de L'Afrique* Trad . Schefer et Cordier , Paris . (Burdin) , 1898 , T. 3, p. 292 .

٨ ـ يذكر السعدي ، نفس المصدر ، ص ١٨ ، ان تمبكتو كانت حين نشأتها الاولى لا سور لها والواقف خارجها يستطيع مشاهدة داخلها ، وفي أيام الاساقي اصبحت تتوفر على ذلك السور كما أن البيوت لم تعد مكشوفة ، ثم يذكر انه في عهد الطوارق لم يكن لبيوتها نظام ، اما في القرن السادس عشر ، فقد انتظمت بيوتها ودكاكينها ووجدت بينها ممرات في شكل شوارع .

٩ ـ وجود المساجد الكبيرة في مدينة ما ، كان يشير الى نشاط التعليم وتكاثر السكان واتساع الاحياء ، والمدن الكبيرة بالسودان الغربي في تلك الحقبة ، هي : غاو ، جنى وتمبكتو . اما جنى فقد كان بها مسجدان احدهما صغير ، وربما لم يكن في غاو غير جامع واحد ،

أسواقها طابعها الاسلامي ، [١٠] كما كانت ترى توارد العديد من القوافل الكبيرة عليها. [١١] وسكنتها جماعة من التجار الاغنياء،أما حركة التبادل، فانها كانت تمر بفترة من النشاط معتبرة [١٢] . واذا كان القرن السادس عشر قد ظهرت خلاله تمبكتو مدينة السودان الاولى في علاقاتها التجارية مع بلدان المغرب ومصر ، فان ذلك القرن ، هو الذي أصبحت خلاله تلك المدينة أيضا ، مركزا هاما من مراكز الانتاج الثقافي ضمن ميدان الحضارة الاسلامية الفسيح ، وبذلك لم يقتصر دورها في هذا الجانب على مجرد التبادل مع جزء من العالم الاسلامي وانما تجاوزه الى استيعاب ما انتجه العالم الاسلامي ككل ، والمشاركة في تنميته ونشره

وأما تمبكتو فقد كان بها ثلاثة مساجد كبيرة هي : أ (مسجد الونكريين (دنكربير) ب) مسجد سنكري ـ ج) مسجد سيدي يحيى .

١٠ ـ كان يغلب على نظام الاسواق في المدن الاسلامية الكبرى ، تقسيمها الى اقسام ، ويختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع ، مما مكن الفاطميين من اتخاذ عرفاء على تجار كل نوع من البضائع ، في شكل نقابيات ، ينظر : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١١ ـ لانستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تجهز بين شمال افريقيا والسودان في القرن السادس عشر ، اما في القرن الرابع عشر ، وكان أقلّ من السادس عشر نشاطا بدون شك، فقد قدر ابن خلدون في (التاريخ ج ٧ ، ص ٤٣٥ ط. بيروت ، ١٩٦٣) حجم كلّ قافلة بما لا يقل عن اثني عشر جملا ، وذهب الى ان كل القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز تلك القوافل باتجاه السودان .

١٢ ـ Cf. J. L. l'African . *op. cit.*. pp. 292 - 96 ; Dubois . *op. cit.*. chap. XIII .

بين أمم السودان الغربي وشعوبه [١٣] .

٣ ـ حركة التعليم

رأت تمبكتو في القرن السادس عشر نشاطا فيما يختص بحركة التدريس ، وقد ضمت مدارسها العديد من الطلاب والاساتذة ، كما رأت لأول مرة في تاريخ السودان الغربي ، اتساع التعليم الجامعي ، وتوارد عليها في تلك الأثناء عدد من الاساتذة من بلدان المغرب ، فساهموا في تنشيط التعليم وتعميقه [١٤] ، وفي تلك الفترة بدأ العلماء السودانيون في الانتاج ، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي الفت خارج السودان ، وقد صاحب ذلك انتظام مراحل التعليم ، واخذه طابعا عاما ، كانت له مميزاته وخصائصه [١٥] .

---

١٣ ـ Incyclopédie de l'Islam. T. IV (S - Z). Leyde. 1934, p. 816

غير ان صاحب الدراسة يذكر أن تمبكتو قد احتلت من قبل المغاربة في أيام الاسقيا داود ، والواقع غير هذا ، لان المغاربة لم يدخلوا المدينة كفاتحين الا في اخر عهد الاسقيا اسحاق الثاني ١٥٩١ .

١٤ كان من ابرز من وفد عليها من علماء المغرب واكتسبوا بها شهرة في تلك الاثناء : محمد بن عبد الكريم المغيلي ، سيدي يحيى التادلسي ، مخلوف البلبالي وابراهيم الزلفي ، وكذا عدد هام من علماء توات .

ـ ينظر السعدي ، المصدر المذكور ، صفحات ٢١ ـ ٤٥ ، وعن المغيلي خاصة ينظر تحقيقنا لاسئلة الاسقيا واجوبة المغيلي ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

١٥ ـ من الجدير بالذكر هنا أن كل التأثيرات الخارجية التي عرفها السودان الغربي في ميدان الحضارة ، حتى نهاية القرن السابع عشر ، كان الفضل فيها يعود للمغاربة وللمصريين بالدرجة الاولى ، وبالنظر للعوامل الجغرافية ، فان المغاربة كانوا اكثر تأثيرا من المصريين . أما الاوروبيون فأنهم حتى القرن الثامن عشر كانوا لم يتجاوزوا السواحل ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ، ظلت معلوماتهم عن الداخل نظرية بحتة ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر

أ) مراحل التعليم

كان التعليم في تمبكتو خلال القرن السادس عشر ، يقسم الى ابتدائي وثانوي وعال ، وكان التعليم الابتدائي تتجسم فيه المرحلة الاولى الاساسية لكل الطلاب ، (١٦) هذا بالاضافة الى ان مرحلته هي الوحيدة التي يبدو انه كان يراعى فيها الى حد ما ، مستوى السن ، فكان التلاميذ في السلك الابتدائي لا يتجاوزون في أغلبيتهم مرحلة الصبا (١٧) .

بقي اكتشاف داخل القارة الافريقية عموما ، والسودان الغربي بشكل خاص ، للعرب وحدهم ، ولعل أول محاولة اوروبية للوصول الى المناطق الواقعة جنوب المغرب الاقصى، كانت هي رحلة الاخوين (فيفالدي) من جنوى، اللذين حاولا الاوصول الى ريو دي اور (وادي الذهب) سنة ١٢٩١م ولكن غابت اخبارهما من ساعتئذ . وفي ١٤٤٧ حاول الرحالة (مالفانت) الايطالي الوصول الى تمبكتو عن طريق توات ، ولكنه لم يتمكن فبقي اياما في تلك الواحة ثم عاد ، ومن هنا ، فاننا نميل الى الاعتقاد بأن كل تقدم أحرزه السودان الغربى في ميدان التعليم ، ظل اسلاميا وبتأثير من الحضارة العربية وحدها ، وهذا حتى بداية القرن العشرين .
لزيادة التفاصيل ، يراجع بصورة خاصة :

Coquery . Catherine . La *découverte de l'Afrique* . Paris , 1915 .

De Zuraca, C.E., *Chronique de Guinée* (Trade. Bourdon). Paris, 1841, Chap. 9, p. 56 .

Ca de Mosto, *Relation de voyage à la Côte occidentale de l'Afrique*, (Trad. Schefer), Paris. 1895. pp. 49 - 51 .

De Baross. J.. De Asia. *Lisbonne 1778.* T. I. Chap. 2 .

١٦ ـ كان الاساتذة في المرحلتين الثانوية والعالية ، لا يتعاطون تعليم القراءة والكتابة ، ولذا كان على كل طالب أن يدخل المدرسة الابتدائية أولا ، ليتزود بما يمكنه من معرفة القراءة والتسجيل وهذا قبل ان يجلس في حلقة أي استاذ كان .

١٧ ـ لا يشير المؤرخون السودانيون من تلك الفترة لتلاميذ المرحلة

وبعد ان ينهي الطالب مرحلة التعليم الابتدائي ، يدخل مرحلة التعليم الثانوي والعالي ، ولم يكن لهاتين المرحلتين عرف معين في السن ، كما أن الفروق بينهما لم تكن واضحة ، ولعل مرد ذلك الى ان هاتين المرحلتين كان التعليم فيهما حرا بالنسبة لانخراط الطلبة [١٨] ، أما في المرحلة الابتدائية ، فلا شك أن الآباء هم الذين كانوا يقودون أبناءهم الى معلمي الصبيان ، ويجبرونهم على الدوام ، كما يراقبون مدى استيعابهم [١٩] • وكانت مرحلة التعليم الثانوي تمتاز بأن الكتب التي تدرس فيها ، هي الكتب المبسطة ، وكان يتولى تدريسها غالبا من يسمون بـ (الاشياخ)[٢٠]

الابتدائية الا بعبارة (الصبيان) • ينظر مثلا :
ـ كعت ، نفس المصدر ، صفحات ٩٥ ـ ١٧٨ ـ ١٨٠ •
ـ السعدي ، نفس المصدر ، صفحات ١٩ ـ ٢٢ ـ ١٣٠ ٠٠ الخ •

١٨ ـ كان الاساتذة في هاتين المرحلتين يجلسون للتدريس ، ويتحلق حولهم الطلاب ، ويجلس الطالب في حلقة ما ، حسب رغبته في المادة التي يكون الاستاذ بصدد تدريسها أولا ، ثم حسب قدرته على الفهم والاستيعاب •

١٩ ـ تحدث ابن بطوطة (القرن الرابع عشر) عن حرص السودانيين على تحفيظ ابنائهم القرآن وتعليمهم الاخلاق منذ الصغر ، ويذكر من أمثلة ذلك عن احدهم انه كتف ابنه بحبل يوم العيد ، ولم يفك وثاقه رغم توسل البعض اليه في ذلك ، حتى لحفظ الجزء الذي يطلب منه • ولم يؤثر لنا شيء عن تغير تلك العادة لديهم ، فيما بعد •

٢٠ ـ تحدث محمود كعت مثلا عن مدرس كان يشرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني الاسقيا داود فسماه بـ (الشيخ) ، وتحدث كل من السعدي وأحمد بابا عن عدد ممن أخذوا عليهم ، فوصفا من درسوهما الكتب المفصلة الكبيرة في مادة ما ، مثل الفية ابن مالك والعاصمية بـ (الاساتذة) • ووصفا اللذين كانا قد اخذا عليهم مثل الرسالة وابن عاشر والاجرومية بـ (الاشياخ) • وهناك فريق ثالث كانا قد أخذا عليهم ، مثل الاجرومية والالفية معا ، أو الرسالة

ويبدو أن الأشياخ في العرف العام آنذاك ، كانوا متوسطي الثقافة بالنسبة للاستاذة ، ولكن عددا من الاساتـذة تعاطوا ايضا تدريس مثل هـذه المؤلفات ، وهذا مما يجعل الانفصال بين المرحلتين واضحا للباحث ، لأن أولئك الاساتذة في نفس الوقت كانوا يجمعون الى ذلك ، تدريس أمهات الكتب المفصلة في نفس الموضوع ، ويبدو أنهم كانوا يقسمون أوقاتهم خلال النهار ، فيدرسون مثلا في الصباح لطلاب في مستوى الثانوي ، ثم يجلسون بعد الظهر لطلاب المرحلة العليا أو العكس [٢١] ومن هنا يبدو الانتظام في المراحل التي يمر بها الطالب من حيث التدرج في مستويات التعليم بين المراحل ، ووجود منهج قار لكل مرحلة .

ب) المنـاهج

رأت مناهج التدريس منحى وحدويا بين كل البلدان الاسلامية ، وخاصة في القرن الرابع الهجري [٢٢] . وكان العرف السائد والجاري به العمل ، هو ان التلميذ يدخل الكتاب اولا ، لتعلم القراءة والكتابة والخط ويحفظ شيئا من القرآن ، وقد تساعد امكانيات المعلم علـى تلقينه أوليات في الفرائض والحساب واللغة أيضـا . على أن امكانيات هذا كان قليل الحصول في بلاد المغرب على ما يظهر ، وظل يغلب على منهج المغاربة في المرحلة الابتدائية الاقتصار على تحفيظ القرآن مـع تعليم الكتابة والخط [٢٣] .

وخليل ، فوصفاهما بـ (شيخي واستاذي) . ينظر :
ـ السعدي ، نفس المصدر ، صفحات ٢٠ ـ ٣٣ ـ ٩٤ .
ـ احمد بابا ، نفس المصدر ، ص ١٧٩ .

٢١ ـ احمد بابا ، المصدر نفسه ، والسعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٤.
٢٢ ـ ينظر شلبي ، أحمد ، تاريخ التربية الاسلاميـة ، دار الكشاف ، بيروت ، ١٩٥٤ صفحات ١١٧ ـ ١٨٦ .
٢٣ ـ يذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه اختلافا بين المغاربة والمشارقة في هذا الميدان ، فحواه ان المغاربة يبداون بتحفيظ القرآن قبل اي

وبما أن السودانيين أخذوا أساليب التعليم مباشرة عن المغاربة فان منهج هؤلاء هو الذي يبدو أنه ظل يجري به العمل لديهم (٢٤) .

أما مناهج المرحلتين : الثانوية والعالية ، فقد كانت واسعة حقا ، وكانت المواد الاساسية فيها ، هي : النحو وفقه اللغة ، الحديث والفقه ، التفسير والتجويد، التوحيد والمنطق، ثم الحساب وشيء من العروض[٢٥] . وكانت المناهج في المرحلتين مرتبطة ببعضها غالبا ، بمعنى أن الطالب يدرس المؤلفات المبسطة في موضوع ما ، خلال المرحلة الاولى (الثانوية)، ثم يتدرج الى دراسة المؤلفات المفصلة مع شروحها وحواشيها بعد ذلك وفي نفس الموضوع . (٢٦)

شيء آخر ، في حين كان المشارقة يجمعون الى ذلك بقية الفعاليات التي توصل التلميذ الى الفهم .

٢٤ ـ يذكر عبد الرحمن السعدي أن كل معلمي الكتاب في تمبكتو حين قدوم محلة الباشا جودار سنة ١٥٩١م . كانوا مجرد (معلمي قرآن) ـ انظر ، السعدي ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

٢٥ ـ أحمد بابا ، نفس المصدر ص ١٧٩ ، والسعدي ، نفس المصدر، ص ٢٠ . هذا وان المصادر لم تسعفنا بما يؤكد أو ينفي الافتراض بان الطب كان من المواد التي تحتويها المناهج ، مع وجود اشارات الى تداول كتاب السيوطي في الطب بين الناس ، كما ان عددا من مرضى العيون كانوا يقصدون الاساتذة المشهورين بـ (قدح العيون) على حد تعبير محمود كعت ، وكانوا حينما يجدون على أيديهم الشفاء يقدمون لهم كثيرا من الهدايا ، اما العروض فبالرغم من انه كان من المواد التي تدرس ، الا ان انتاج السودانيين في ميدان الشعر ظل ضعيفا في تلك الفترة . ولعل مرد ذلك الى أن أساس الانتاج الشعري لا تكفي فيه معرفة القواعد وحدها .

٢٦ ـ مما يلفت النظر أن عددا من المؤلفات المغربية عرفت في تمبكتو خلال تلك الفترة ، ولم تعرف في المشرق ، مثل جامع المعيار للونشريسي وأرجوزة المغيلي في المنطق ، فقد كانا من بين المصنفات التي كان يتناولها المدرسون بالشرح لطلابهم في مساجد تمبكتو ،

ومن المؤكد أن المناهج كانت تشمل صفوة ما بلغتـه الحضـارة الاسلامية في ميدان المعارف ، غير أنه لا يبدو أن تلـك المناهج قد عصمت بالناس من بعض الانحراف ، ذلك أن المتتبـع لسيرة غالبيـة المدرسين في تمبكتو خلال تلك الفترة ، يجد لديهم نوعا من الصوفية المبالغ فيها ، مما جعل الكثيرين من بينهم يعتقدون بالغيبيات ، ويعملون لحمل الناس على تصديقهم ، وكان المتخرجون على أيديهـم يتطبعون بتلك الروح في الغالب . (٢٧)

د) أمكنة التدريس

كانت أمكنة التدريس الاساسية هي المساجد والجوامع ، وكـان من أشهرها وأكثرها اكتظاظا بجموع الطلبة والمدرسين ، خـلال القرن

→

في حين أن كتب المشارقة عرفت كلها ، سواء في المغـرب أو في السودان الغربي . ينظر أحمد بابا ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

٢٧ ــ زخرت كتابات كل من أحمد بابا وعبد الرحمن السعـدي ومحمود كعت ، أثناء الحديث عن أشياخهم واساتذتهم ، بذكـر كل ما كان يدعى معظمهم الانصاف به من (معرفة الغيب) و (انطباق مايرونه في النام على واقع المستقبل) ، و (توقيفهم لنـزول المطر عن طلابهم حين يجتمعون بهم في العراء) ، أو ك (انفتاح باب قبر الرسول على مصراعيه لأحدهم حين الحج) ، و (انشقاق مياه النيجر الى شطرين اثناء عبور آخر النهر) ، وغير ذلك ، وهم يفسرون هذا دائما بكون اولئك العلماء الذين تتفق لهم مثل تلك الخوارق من (أولياء الله) . ولعل مرد ذلك كله الى بقاء الروح الاسطورية القديمة في النفوس، وليس لما ذهب اليه الاسقيا محمد في رسالته الى المغيلي مثلا ، من أن العلماء في بلاده لا يفهمون العربية فهما جيـدا ، ثم يؤدي بهم الادعاء الى القول بما ليس في القرآن ، لان اولئك المدرسين كـان يبدو من أعمالهم التضلع الكافي بما يدرسون ، وقد تـرك أغلبهـم شروحا وحواشي للمواد التي كانوا يدرسونها وقد قيـدها عليهم طلابهم ، وبقيت موجودة حتى الان وهي تؤكد تضلعهم في العربيـة وفي المواد التي كانوا يدرسونها .

السادس عشر ، جامع (سنكورى) [٢٨] وهو يقع في القسم الشمالي من مدينة تمبكتو ، وقد بنته سيدة فاضلة ، قيل أنها كانت من الموسرات ، [٢٩] ثم جامع (دنفربير) ، وكان قد بناه في الاصل أحد الاندلسيين لكانكان موسى صاحب مالي ، [٣٠] ثم أدخلت عليه تحسينات ووسعت مساحته مرتين خلال القرن السادس عشر ، وذلك لكي يسع جموع قاصديه من الطلبة والمصلين ، ويبدو أن تكاثر الازدحام عليه ، هو الذي كان يدعو باستمرار الى العمل على

---

٢٨ ـ اصبح جامع سنكوري في تلك الفترة ، بمثابة جامعة للسودان الغربي كله ، وقد توارد عليها جماعة من الاساتذة اللامعين ، وكانت المواد التي تدرس فيها بتعمق . ينظر بصورة خاصة :

- Delafosse. *M.. Haut Sénégal-Niger.* Paris, 1912, T. 2, p. 346 .
- Péfontan (Lieut.) « Histoire de Tombouctou » *in Bull. de l'Afrique occidentale, 1922,* (Tirage à part) .

٢٩ ـ بناء السيدات الموسرات للجوامع كان قاعدة مرعية لدى المسلمين على ما يظهر ، ويمكن أن نذكر من أمثلة ذلك أيضا ، بناء السيدة فاطمة الفهرية لجامعة القرويين ، كما ان عددا من الخاتونات هي اللائي كن بنين عددا من المساجد في العراق والشام ومصر ، ويلاحظ بهذا مدى تأثر التمبكتيين بالتقاليد الاسلامية من المشرق او المغرب على السواء .

٣٠ ـ الاندلسي ، هو ابو عبد الله الساحلي أحد شعراء غرناطة ، وكان معماريا ، ثم التقى في موسم الحج بالسلطان موسى الاول ، فاستقدمه معه الى السودان الغربي حوالى ١٣٢٦م وقد بنى في تمبكتو جامعا وقصرا للملك ، كما بنى في (يني) عاصمة مملكة مالي انذاك ، قصرا اخر ، ويقال انه منذ ذلك الوقت اخذ الاسلوب المغربي ـ الاندلسي في فن البناء ينتشر بغرب السودان .

توسيعه. (٣١) ويأتي بعد هذين مسجد سيدي يحيى ، وقد بني تخليدا لأحد علماء المغرب الذين باشروا التعليم في تمبكتو خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، فاجتهدوا في تعليمهم وأفادوا النـاس . (٣٢) والى جانب هذه المساجد الثلاث ، كان يوجد جامع خالـــد، وهو كما يدل اطلاق اسم الجامع عليه ، كان كبيرا نسبيا ، الا أن الدراســة فيه ربما كانت مقتصرة على المرحلة الثانوية فقط . (٣٣)

وقد كانت بعض الجوامع تحتوي على مراحل التعليم الثـلاث ، فيجلس في جانب من الجامع طلبة القرآن مع تلاميـــذهم ، ويجلس في

---

٣١ ـ وسع جامع سنكوري مرتين خلال القرن السادس عشر وكانت المرة الاخيرة حوالى ١٤٨٥ وقد قام بذلك القاضي (العاقب) الذي تناهى الينا انه كان يصرف على الاشغال من ماله الخـاص ، ولم يقبل من بعض الموسرين رغم الحاحهم عليه مشاركتهم له في الانفاق، الا أشياء رمزية فقط ، ومهما يكن فان اعمال التوسيع في حـد ذاتها تشير الى تكاثر الطلبة وازدهار التعليم في سنكوري ، مما جعلـــه يحتل المرتبة المولى بين جوامع تمبكتو في تلك الاثناء . انظر كمت ، نفس المصدر ، ص ٤١ .

٣٢ ـ هو يحيى التادلسي ، وقد سكن تمبكتو ، وكان في حياته قد اتخذ في مكان ذلك المسجد بيتا صغيرا للتدريس . ويقول كعت : ان اهل تمبكتو (كانوا يعتقدون فيه) . فلما مات بنوا على قبره ذلك المسجد. وقد تحول سريعا الى جامع كما يبدو لتكاثر سكـان الحي الموجود به ، ولازدهار التدريس في المدينة ككـــل ، مما جعـــل الطلبة والمدرسين يملأون كل الرحاب .

٣٣ ـ لا يذكره محمود كعت الا كجامع صغير ، ورغم ذلك فقد كان يتوارد عليه الطلبة والمعلمون ، ويفهم من كلامه انه كـــان يوجد بالمدينـــة آنذاك ، كثير من المساجد الصغيرة غيره ، ينظر كعـــت ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

فنائه وقاعاته غالبا اشياخ التعليم الثانوي وأساتذة التعليم العالي .(٣٤)
ولكن طلبة القرآن في الغالب . كانوا يتخذون دكاكين خاصة لعملهم
أو يلتصقون بجنبات المساجد الصغيرة ، (٣٥) كما أن بعض الاساتذة
وكذلك الاشياخ ، كانوا أحيانا يتعاطون التدريس في منازلهم ، الا أن
هذا كان في حالات قليلة ، أما غالب جلوسهم ، فقد كان في رحاب
المساجد والجوامع . (٣٦)

هـ) طريقة التدريس

كانت المناقشة بين الاستاذ وطلابه جاريا بها العمل ، (٣٦) أما
التواضع ولين الجانب للطلبة ، فقد كانا من شيم الاساتذة اللامعين
بتمبكتو في تلك الفترة ، (٣٧) وكان صبر الاستاذ على تفهيم طلبته

---

٣٤ ـ هذا ما يفهم من كلام السعدي أثناء الحديث عن تمبكتو في عهد الاسقيا داود ، أنظر السعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٧ .

٣٥ ـ كانت المدارس الابتدائية الخاصة بمعلمي الكتاب (خارج المساجد) قد تراوحت في تلك الفترة بين مائة وخمسين ، الى مائة وثمانين مكتبا ، وكان معظمها يحتوي على العديد من التلاميذ ، وقد ذكر عن واحد من بينها، وهو مكتب المعلم (علي تكريا) انه كان يضم في سنة ١٥٩١م اكثر من ١٢٣ تلميذا . (ينظر كعت، المصدر السابق ، ص ١٨٠) .

٣٦ ـ يشير الى ذلك بوضوح كل من احمد بابا والسعدي ، أثناء الحديث عن أساتذتهما وأشياخهما . (انظر السعدي ، المصدر السابق ، صفحات ١٩ ـ ٤٦ ، وأحمد بابا ، المصدر السابق ، ص ٢٧٩).

٣٦ ـ السعدي ، المصدر المذكور ، ص ٤٦ .

٣٧ ـ المصدر نفسه .

يعتبره الناس من صفات الاساتذة الناجحين في مهنتهـم ، [٣٨] وكانت الطريقة الشائعة في الدرس ، هي أن يبدأ الاستاذ باملاء رأيه في المسائل على طلبته ، وبعدها يقرأ الطلاب درسهم من الكتاب المقرر بحضور الاستاذ ، ثم يطلب كل منهم توضيح ما يشكل عليه، وأثناء ذلك يقيد الطلبة التفاسير التي يعطيها الاستاذ كجواب على استفساراتهم . [٣٩]

ويبدو أنه أثناء الشرح كان الاساتذة يختارون العبارات المبسطة لكي يتمكن طلابهم من استيعاب ما يقولون . [٤٠] ولعلنا اذا أردنا أن نوجز معالم الطريقة المثلى في اعتبار الناس آنذاك ، فاننا ربما نجد في أبيات المرثية التالية ، وهي من تلك الفترة ، خير معبر عن ذلك : [٤١]

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي   يثير هموم القلب من كل وافد ؟
يثير هموم القلب فقد سميدع   فقيه حليم حامل للفرائد
بحسن تعليم مقرب فهمه   وفتاق تهذيب بحسن الفوائد
محمد الاستاذ مؤدب ذي النهى   رباطا صبارا أمره في التزايد

ويضاف الى هذا أن المدرسين على اختلاف مستوياتهم، لم يكونوا

---

٣٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

٣٩ ــ احمد بابا ، المصدر السابق ، ص ٣٧٦ .

٤٠ ــ المصدر نفسه ،والسعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٦ .

٤١ ــ الابيات للشيخ يحيى التادلسي ، الذي كان أحد المدرسين اللامعين بتمبكتو آنذاك ، اما المرثي، فهو محمد الكابري احد المدرسين الكبار في جامعة (سنكري) في تلك الاثناء . وقد اقتصرنا هنا على ايراد الابيات المتعلقة منها بتبيين طريقة الكابري في التدريس ، وقد أورد المرثية كاملة السعدي ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

يلتزمون بالتوقف عند مادة بعينها، بل انهم كانوا يتصدون غالبا لتدريس مواد عديدة ، ولكنهم لا يدرسون الا المواد التي يكونون قد اتقنوهـا وأجيزوا فيها • (٤٢)

و) الاجازات

عرف المدرسون والطلاب في تمبكتو خلال القرن السادس عشـر نظام الشهادات ، كما عرفته البلاد الاسلامية الاخرى ، وبما أن طلـب العلم كان يتصف بالحرية التامة ، فيما يتصل بالطلاب ، فانه يبـدو أن الإساتذة ايضا ، كانوا لا يجيزون الطلاب الا بعد التأكد من تمكنهم في المواد التي يدرسونها لهم • (٤٣)

أما طريقة الاجازة ، فقد كانت بسيطة ، ولكنها كانت مما يتـلاءم والطريقة الحصيفة التي تستند الى تأكد الاستاذ من أن الطالب يكـون قد أحرز على التمكن الكافي في مادة بعينها ، ذلك أن الاستاذ لا يراعي أية شكليات في منح الاجازة لطالب العلم على يديه ، ولكنـه يراعي

---

٤٢ ــ لعل مما يجدر ذكره هنا ، ان طريقة الاختصاص بمادة واحدة ، لم يكن يعرفها العالم قبل القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخه • أما في السابق فان اسلوب (الموسوعات) هو الذي كان يجري به العمـل عند كل الامم •

٤٣ ــ ذكر كل من احمد بابا والسعدي عديدا من الاساتذة والاشياخ الذين كانا قد اخذا عليهم العلم ، ولكنهما لايشيران لمن اجازوهما من بين اولئك الاساتذة ، على كثرتهم ، الا للقليل ، بحيث لايتجاوز عددهم اثنين او ثلاثة فقط •

بدقة ، مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليهاه [٤٤] وقد كانت الشهادات تعطى فردية ، بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من الاستاذ ، في المواد التي يتقنها ذلك الاستاذ ويتعاطى تدريسها ، ولكنه يبقى طالبا في مواد أخرى • وبناء على هذا ، فان الشهادات كانت في شكل انطباع يسجله الاستاذ على مذكرات الطالب في مادة أو أكثر ، بعد أن يكون هذا الاخير ، قد اطلع على كل المؤلفات الكبيرة والصغيرة في موضوعها ، وايجاد تحصيل المعلومات الموجودة بها • [٤٥]

ومن ناحية أخرى ، فقد كان الاساتذة يتحرون في العبارات التي

---

٤٤ ـ يجد المتتبع لحالات الاجازات في ذلك الوقت ، ان الطلبة الذين يكونون قد لازموا مجلس الاستاذ لفترة طويلة ، وأصبحوا حجة في المواد التي يدرسها استاذهم هم وحدهم الذين اعطيت لهم الاجازة في تلك المواد ، وبعض الذين اعطيت لهم شهادات ، كانوا قد بلغوا درجة من التحصيل والتمكن ، جعلت استاذهم يضطر احيانا لنقل بعض تعليقاتهم على المسائل واجتهاداتهم فيها ، ويدرسها لطلاب آخرين بمحضر منهم •
ينظر أحمد بابا ، (نفس المصدر ، ص ٧٩ ، والسعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٦) •

٤٥ ـ يقول احمد بابا عن أحد الاساتذة الذين أجازوه : « حضرت انا عليه أشياء عدة ، وأجازني في جميع ما يجوز له وعنه ، وكتب لي بخط يده » ، نيل الاتهاج ، ص ٧٩ • ولعل بهذا تثبت امامنا صورة الشهادة كما كانت تعطى • أما عبد الرحمن السعدي ، فيقول عن استاذه الذي أعطاه اجازة : « باحثته كثيرا في المشكلات ، وراجعته في المهمات ، وبالجملة فهو شيخي واستاذي ، ما نفعني احد كنفعه وبكتبه •• وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه »، تاريخ السودان ص ٤٦ •

يكتبون بها الشهادات للطلاب ، بحيث ينحصر محتواهـا في نطـاق المعلومات التي يتقنها الاستاذ المدرس ، ولا يتجاوزها لغيرها [٤٦]. ومن هنا يتضح مدى الدقة في نظام تلك الاجازات ، رغم بساطته .

ز) تنقلات الاساتذة والطلاب

كان توارد الاساتذة من بلدان المغرب على تمبكتو قد أخذ شكلا أوسع خلال القرن السادس عشر . وكانت نسبة كبيـرة من المدرسـين بتلك المدينة من بلدان المغرب . [٤٧] أما الطلبة فقد كانت لهـم خلال القرن السادس عشر حركة نشيطة وراء طلب العلم ، وأكثر الذين كانوا يردون على تمبكتو كانوا من المناطق الغربية . [٤٨] وكثير من الطلبـة

---

٤٦ ـ المصدر نفسه ، صفحات ٢٠ ـ ٤٨ .

٤٧ ـ منذ القرن الثالث عشر اينتقل عدد من علماء (والاتا) الـى تمبكتو ، كنتيجة لانتقال مركز التجارة بين المغرب والسودان الغربي ، الـى تلك المدينة ، وكانوا في اغلبهم من صنهاجة ومسوفـة ، وهمـا قبيلتان مغربيتان سكنتا مشارف الصحراء في عصور سابقة. والى قبيلة صنهاجة ينتسب احمد بابا، ويقال ان نهر السنغال اخذ اسمه من اسم صنهاجة . اما خلال القرنين الرابع والخامس عشـر ، فقد كان كثير من التجار الذين وفدوا على تمبكتو يطيب لهم البقاء بـين اهلها ، ويباشرون التعليم فيجدون اقبالا كبيـرا على دروسهم ، وحينما زار ابن بطوطة تلك المنطقة في القرن الرابع عشـر وجـد جماعة من معارفه مقيمين هناك ويتعاطون التدريس ، اما في القرن السادس عشر ، فان معظم من ذكرهم أحمد بابا والسعدي كأساتذة لامعين في تمبكتو كانوا من أصول مغربية ، ويسجل محمود كعـت وجود كثير من العلماء جاءوا من توات ، واقاموا بتمبكتو خلال ذلك القرن .

٤٨ ـ كعت ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

كانوا حينما ينهون دراستهم في تمبكتو ، ينتقلون الى المغرب الاقصى أو المشرق • أما الى المغرب ، فانهم كانوا يذهبون الى مدينـة مراكش بالدرجة الاولى ، وبعضهم كان يقصد فاس • (٤٩) كما كان العديد من الحجيج يغتنمون الفرصة أثناء ذهابهم الى المشرق ، فيجالسون العلمـاء اللامعين بمصر والحجاز ، وقد تطول اقامة بعضهم عدة سنين فلا يعودون الى تمبكتو الا بعد أن يكونوا قد حصلوا على عدد من الاجازات (٥٠)• وقد عرف عن سكان تمبكتو حرصهم على تهيئة كل ما يمكن لهم تقديمه من أنواع المساعدات للطلبة الذين كانوا يقصدون مدينتهم (٥١) ، وقـد كان لأولئك الطلبة مشاركة اجتماعية واسعـة في ولائـم الافراح والجنائز • (٥٢)

ن) التعليم المهني

لا يوجد في كتابات المؤرخين من تلك الفترة ما يشير الى وجود تعليم مهني منظم في تمبكتو الا في ميدان الخياطة • (٥٣) وهذا بالرغم من وجود دكاكين يبدو أنها كانت عديدة ومتنوعة يشغلهـا اصحاب

---

٤٩ ــ احمد بابا ، نفس المصدر ، صفحات ٨٤ ــ ٧٩ ــ ٢٧٣ •

٥٠ ــ السعدي ، المصدر السابق صفحات ٢٠ ــ ٤٣ •

٥١ ــ نفس المصدر •

٥٢ ــ كعت ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، والسعدي ، المصدر السابق، ص ٢٢ •

٥٣ ــ عرفت بلاد المغرب في تلك الفترة تعليما حرفيا كان يشمل الحياكة والخياطة والنجارة وبعض الحرف الاخرى المشابهة لها • ــ ينظر (ابن مريم ، المديوني ــ البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ــ تحقيق ابن أبي شنب) (م• الثعالبية) الجزائر ١٩٠٨ ص ٦٣•

الحرف المختلفة في تلك المدينة • (٥٤) أما في ميـدان الخياطة ، فانـه يبدو أن المدينة كان بها تعليم منظم الى حد ما ، وكان طـلابه كثيرين ، فقد ذكر كعت أنه كان يوجد بها حوالى (ستة وعشرون بيتا من بيوت الخياطين) ، وكلها من النوع المتخصص في تعليم مهنة الخياطة ، وكانت تسمى باللهجة المحليـة (تند) بكسـر الاول والاخيـر وسكون الوسط ، (٥٥) وكان كل بيت من بينها يتراوح عدد الطلبـة فيه بـين خمسين الى سبعين طالبا ، ويتولى التدريس في كل بيـت من بينهـا معلمون متخصصون في تعليم تلك المهنة، يدعى كل واحد منهم (الشيخ الرئيس) • (٥٦) ولا ندري كيف كان يقبل الطلبة في كل مدرسـة من تلك المدارس ، غير اننا اذا قارنا بما كان يوجد في الجزائر آنذاك ، لان تمبكتو كانت كثيرا ما تقلد المغاربة ، نجد أنهم ربما كانوا يدخلون تلك المدارس المهنية ليشتغلوا بدون أجرة ، وذلـك حتى يتقنوا الحرفـة ويحذقونها • أما قبل الوصول الى مثل هذه الغاية ، فان أجرتهـم انما تقابل في العادة بما يتعلمونه مجانا • (٥٧)

خاتمـة

لقد حظيت مدينة تمبكتو خلال القرن السادس عشر ، بما لم تحظ

---

٥٤ — J. Léon l'Africian, *op. cit.*, p. 293 .

٥٥ — كعت ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ •

٥٦ — لا ندري أصل هذه التسمية ، غيـر أن المعروف عن ابن سينا ، الفيلسوف الطبيب ، انه كان قد لقب بمثل هذه العبـارة ، ولعل اطلاقها كان يختص بمن يتقنون حرفة ما ، ويعلمونها للناس •

٥٧ — ابن مريم ، نفس المصدر ، ص ٦٣ — ١٦٩ •

به مدينة أخرى في غرب أفريقيا في ذلك الوقت • وكـــان من أبـرز العوامل التي هيأت لها ذلك ، ازدهار الحركة التعليمية بهـــا في المقام الاول • [٥٨] ولـــذا أخـــذت نوعـا من (القداســة) في نظـر الناس ، [٥٩] مما حمل الحكومة على اسناد جميع امور النـاس فيهـا للقاضي • [٦٠] وقد بلغت شهرتها الآفاق فقصدها الطـــلاب من جميع بلاد السودان ، كما توارد عليها بعض الطلبـة من مراكش أيضا • [٦١] اما الاساتذة فقد كان عدد كبير من بينهم مغاربة ، [٦٢] وبهذه الصورة قامت تلك المدينة بدور كبير فيما يتعلق بنشـــر الثقـــافة في سهوب السودان الغربي كلها ، كما أصبحت من بين المراكز الهـــامة في العالم الاسلامي جمعيه وأسفر ذلك عن تحضر السكان بها ولـــين عريكتهم وصلاح حالهم • [٦٣] ولكن الباحث رغم ذلك كله ، لايستطيع اجــلاء

---

٥٨ ــ يقول كعت انها أي تمبكتو كانت « يومئذ (١٥٩١م) لا نظير لها في البلدان ، من بلاد السودان الى أقصى بــلاد المغرب » ، ثم يقرن ذلك بالحركة الثقافية فيقول عن اهلها ، انهم كانوا من أكثر النــاس (تلطفا بطالبة العلم واعانتهم ... كثر قراؤها وادباؤها من كوكي الى جنى) (المصدر السابق ، ص ١٧٩) •

٥٩ ــ W. R. July, *A History of the African people,* London (Faber), 1970, p. 68 .

٦٠ ــ كعت ، نفس المصدر ، ص ١٨٠ •

٦١ ــ السعدي ، نفس المصدر ، ص ٤٤ •

٦٢ ــ واعتمادا على هذا يقول السعدي ابن تنبكت الذي أحبهـــا من كل قلبه : (ما أتتها العمارة الا من المغرب ، ســواء في الديانـــات أو المعاملات) ، نفس المصدر ، ص ٢١ •

٦٣ ــ يقول كعت في هذا المعنى : (الا من خص الله به أهـــل تمبكتو ، ونرى من بينهم مائة رجل ليس لأحد منهـــم حريش ولا سيف ولا مدية) • نفس المصدر ، ص ١٨٠ •

كل المعلومات الكافية حول الازدهار الاكيد الذي عرفته المدينة في حقل التعليم ، ولا يعود ذلك فقط لشح المصادر الموجـــودة حول هـــذا الموضوع ، وانما يعود أيضا لندرتها • ولنا الامل في أن يسفر النشاط الواسع الذي يقوم به الباحثون حاليـا في مختلف جامعـات العـالم ومؤسسات البحث المنتشرة في أرجائه ، عن نتائج طيبـة في موضوعات التاريخ الافريقي جميعها ، وكلها لا يزال الغموض يكتنف العـديد من جوانبها حتى الآن •

د • عبد القادر زباديـة

استاذ بقسم التاريخ
معهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر

سجلات "يوميات مقيمية البصرة"

١٧٩٨ - ١٨١١

الدكتور عبدالأمير محمد أمين
كلية التربية - جامعة بغداد

تحتفظ دار السجلات الحكومية في بومباي بعدد كبير جدا من السجلات ذات الصلة بتاريخ العراق والجزيرة العربية والخليج العربي [١] . ولعل تلك السجلات الموسومة بـ « يوميات البصرة Bussora Diaries » هي من اكثرها تميزا من حيث وفرة المادة وغزارتها [٢] . وهناك صنفان من هذه اليوميات هما : « يوميات مقر البصرة التجاري Bussora Factory Diaries « ويوميات مقيمية البصرة Bussora Residency Diaries » .

وتغطي مجلدات الصنف الاول ، البالغ عددها أحد عشر مجلدا مرقمة ١٩٣ ــ ٢٠٣ ، الفترة من ١٧٦٣ الى عام ١٧٧٧ ، وهي فترة تميزت بازدياد نشاط القبائل العربية في الخليج العربي وشط العرب ، وبرزت فيها قبيلة كعب كأقوى قبيلة بحرية عربية في المنطقة . وكانت الحرب سجالا بين تلك القبيلة العربية الشديدة البأس من جهة وأساطيل

شركة الهند الشرقية الانكليزية والجيوش العثمانية والايرانية من جهة اخرى • وجاءت « يوميات مقر البصرة التجاري » طافحة بالمعلومات عن تلك القبيلة وعن صلاتها الحربية والسلمية بالانكليز والعثمانيين والايرانيين • كما احتوت تلك اليوميات على معلومات أخرى كثيرة تخص بقية القبائل العربية والاقطار المحيطة بالخليج ، بالاضافة الى تلك المعلومات الخاصة بالتجارة وبنواحي النشاط البشري الاخرى •

أما الصنف الثاني من سجلات « يوميات البصرة » وهو « يوميات مقيمية البصرة » والتعريف بها هو هدف هذا البحث ، فيبلغ عدد مجلداتها تسعة ، تغطي الفترة من عام ١٧٩٨ الى عام ١٨١١ • وهذه اليوميات منتظمة بشكل عام • فكل مجلد من المجلدات التسعة يبدأ في اليوم الاول من كانون الثاني ويغلق في الواحد والثلاثين من كانون الاول من العام نفسه ، مع وجود بعض الاستثناءات لهذا الانتظام • منها ان المجلد رقم ٢٠٥ يضم يوميات عامين كاملين فيبدأ في الاول من كانون الثاني عام ١٧٩٩ في الواحد والثلاثين من كانون الاول عام ١٨٠٠ (٣) • كما أن المجلد رقم ٢٠٨ يبدأ في اليوم الاول من كانون الثاني عام ١٨٠٣ وينتهي في الواحد والثلاثين من كانون الاول عام ١٨٠٦ اذ توجد فجوات في يومياته • فهناك فجوة تبدأ في ٥ نيسان عام ١٨٠٣ وتمتد الى الاول من كانون الثاني عام ١٨٠٤ • ثم هناك فجوة أخرى تبدأ من ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٠٤ وتمتد الى ٨ أيلول عام ١٨٠٦(٤) • ويلاحظ هناك تقديم وتأخير في المجلد رقم ٢١٠ خاصة بالنسبة ليوميات الاشهر : تشرين الاول وتشرين الثاني وكانون الاول(٥) • كما أن يوميات المجلد رقم ٢١١ تبدأ في الاول من شهر كانون الثاني عام ١٨١٠ وتنتهي في ١٢ كانون الثاني عام ١٨١١(٦) •

ومما تجدر الاشارة اليه أن مجلدات مقيمية البصـــرة ، بصورة خاصة ، في حالة رديئة للغاية وقد عملت الرطوبـــة والحرارة وفقدان وسائل الصيانة الحديثة عملها في تهرئة الاوراق وتمزقها وطمس بعضـ ـمعالم الكتابة فيها • لذا فان مبادرة مركز دراسات الخليـج العربي في تصوير اليوميات والاحتفاظ بها ، لهي خطوة هامة لضمان الاستفادة من معلوماتها الغزيرة ومن مادتها الوفيرة •

والحقيقة ان للفترة التي تغطيها « يوميـــات مقيمية البصـرة » (١٧٨٩ ــ ١٨١١) أهمية خاصة في تاريخ منطقة الخليج العربي • فهـي من ناحية تميزت بازدياد النشاط السياسي والعسكري البريطاني بشكل لم يسبق له مثيل • وقد كان ذلك رد فعل للحملة الفرنسية على مصـر وتحركات الفرنسيين المريبة في الشرق • فتوالت البعثـات السياسيـة البريطانية الى ايران ومسقط وبغداد ، وفتحت المقيميـــات البريطانية هنا وهناك ، وازدادت تحركات الاساطيل البريطانية في ميـــاه المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج العربي [٧] •

وباضافة الى ذلك النشاط الاوروبي خلال الفترة الآنفـة الذكر ، فان القبائل العربية استمرت في اظهار حيويتها وفعاليتهـــا في الخليج العربي ، بل ان تلك السنين بالذات شهدت أول مراحل المجابهة الطويلة والمريرة بين البريطانيين وقبائل القواسم القوية الشكيمـــة والشديدة البـأس •

والى جانب كل تلك النشاطات السياسية والعسكرية العربية منها والاوروبية فقد شهدت منطقة الخليج العربي ازدهارا تجاريا ملموســا خلال العقد الاخير من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشـر •

ان التقارير المفصلة التي كتبها بعض البريطانيين عن حالة التجـــارة في أقطار الخليج العربي والاقتراحات الكثيرة التي تقـــدموا بها لتشجيع التجارة البريطانية هناك ، والفصول الطويلة الـــتي كتبهـــا الرحالة الاوروبيون عن التجـارة خلال هذه الفتـــرة انمـــا هي أدلـــة على ازدهار التجارة وانتعاشها وعلى ازدياد اهتمام الاوروبيـــين بها [٨] • وكان لاستقرار الاوضاع في ايران في عهد القاجاريين من جهة ، وتمتع العراق بشيء من الامن والهدوء في عهد سليمان باشا الكبير من جهـة أخرى ، الجوانب أثرهما في تحسن وضع التجارة في منطقة الخليج •

وسجلات « يوميات مقيمية البصرة » توفر المعلومات الكثيرة عن كل جانب من الجوانب السياسية والعسكريـــة والاقتصاديـة الآنفة الذكر • فقد سبق أن بينا في بحث سابق اهتمام شركة الهند الشرقيـــة الانكليزية الكبير بالحفاظ على سجلاتهـــا وولعهـــا الشديـــد بجمـــع المعلومات التي تخص كل جزء من أجزاء الشرق كانت قد امتدت تجارتها اليه وكانت لها مصلحة فيه • لقد كانت الشركة تصـــر على مستخدميها بتدوين كل شأن من شؤونها على الورق [٩] • وبلغ هـــذا الامر حـــدا وصفت الشركة معه بانها « حكومة أوراق » • وكثيرا ما حثت الشركة مستخدميها على تزويدها بالمعلومات وبمزيد من المعلومات عن كل موقع وعن كل حدث يقع في أماكن تواجدهم مهما كانت صلة ذلـــك كبيرة أم صغيرة مباشرة أم غير مباشرة بأعمالهم • ولعل النص الذي نورده هنـــا وهو جزء من تعليمات جهز بها هارفرد جونز عندما عين مقيما في بغداد عام ١٧٩٨ خير نموذج لسياسة الشركة في هذا المجال •

وعليك أن تحاول الاهتمام بكل الوسائل المتوفرة لديك أن تجمـــع كل المعلومات الخاصة بعدد السكان والقوة العسكريـــة وموارد الثروة

والتجارة في كل البلاد التابعة لباشا بغداد أو لأي شيخ أو أمير تابع له. وكذلك عليك أن تبعث لنا بمثل تلك المعلومات عن البلاد الخاضعة للحكومتين الايرانية والمصرية ، أو تلك التابعة لأي أمير مستقل يقطن الجزيرة العربية أو يحكم بلدا في الشرق يحتمل أن تتعرض الهند الى غارة عن طريقه . سواء كان مصدر تلك الغارة قوة محلية شرقية أم أوروبية أجنبية .

وخلاصة الأمر ، يتحتم عليك جمع شتى أنواع المعلومات التي ترى أنها قد تكون مفيدة بأي شكل من الاشكال أو لأي شأن من الشؤون سواء كانت تلك الفائدة تخص شركة الهند الشرقية أم أنها تخص حكومة جلالته (١٠) .

ومثل هذا الاهتمام بجمع المعلومات يفسر المادة الغزيرة التي يجدها الباحث في سجلات شركة الهند الشرقية الانكليزية اينما وجدت وبكل أصنافها ولا تشذ سجلات « يوميات مقيمية البصرة » عن ذلك . فجاءت طافحة بالمعلومات التي تخص كل جانب من جوانب النشاط البشري في العراق والخليج العربي والجزيرة العربية .

وتحتل أخبار البريد المار بالبصرة حيزا مهما في جميع تلك اليوميات (١١) . والحقيقة أن تاريخ طريق البريد البري المارة بالبصرة يرجع الى ما قبل هذه الفترة بزمن طويل . على الرغم من أن الاتصال بين أوروبا والهند كان يتم عادة عبر الطريق الطويل والبطيء حول رأس الرجاء الصالح . ومن بين أسرع الطرق التي كان يسلكها أحيانا الاوروبيون ــ البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والانكليز ــ الطريق الذي كان يمر برا عبر بلاد الرافدين (١٢) . فقد كان هذا الطريق

ولا يزال اقصر الطرق التي تربط البحـــر الابيض المتوسط بالخليـج العربي ، أو بعبارة اخرى ، اوروبا بالهند والشرق الاقصى • وقد صار هذا الطريق في الواقع طوال القرنين السابع عشر والثامن عشـر البديل السريع والامين الوحيد للطريق البحري عبر رأس الرجاء الصالح • وغدا هذا الطريق البري مهما بشكل خاص للبريطانيـــين وذلك بعد قيـام امبراطوريتهم في الهند، وكانت أهميته لهم تزداد ابان صراعهم وحروبهم مع الهولنديين والفرنسيين • ومن ذلك ما حدث خـلال حرب الوراثـة الاسبانية ، وحرب الوراثة النمساوية وحرب السبـع سنوات وحـرب الاستقلال الاميركية • حيث كان للانباء المبكرة تأثير كبيــر على سير العمليات العسكرية • أما في وقت السلم فان الاخبـــار المبكرة حول وضع السوق والطلب المتوقع ورحيل السفن وايابها كلها أمور مهمـــة للتجارة ونجاحها [١٣] • ولذا طور البريطانيون خلال القرن الثامن عشر وسائل أمنية نسبيا لنقل البريد ، وصار نقل الرسائل بين البصرة وحلب وساحل البحر الابيض المتوسط وبين البصرة والهند اكثر دقة وانتظاما • لقد نظمت المراحل عبر طول الطريق واحسن اختيار السعاة وصار المقيم الانكليزي في البصرة مسؤولا ، بالاضافة الى واجباته التجـارية ، عن الاشراف على البريد وذلك باختيار السعاة وتوفير أفضل السبل لنقـل الرسائل وحمايتها [١٤] • وخلال الحرب النابليونية ، وفي خضـم ذلك الصراع المصيري الذي كان يخوضـه البريطـــانيون ضد اعدائهـم الفرنسيين ، صار للطريق البري ، وللبصرة بشكل خاص ، أهميـة تفوق كل ما كان لهما من قبل • لقد كانت الرسائل ترد الى البصرة من حلـب واسطنبول وبغداد وطهران وبوشهر ومسقط وبومباي وكلكتـــا ومن قادة الاساطيل البريطانية وربابنة السفن في الخليـــج العربي والبحر

الاحمر والمحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط ومنها توزع الى كل تلك الاماكن والاشخاص [١٥] • وكان المقيم الانكليـــزي في البصرة منهمكا في تدبير شؤون هذا البريد • والواقع أن « يوميـــات مقيمية البصرة » هي السجل الدقيق لكل الرسائل المتبادلة بين أوروبا والشرق والسالكة طريق البر • وهناك معلومات عن كل رسالة تقريبـا من حيث طبيعتها ومصدرها ووجهتها والطريقة التي سلمت بها وتلك التي سترسل بواسطتها الى الجهة المعنية •

وتحوي « يوميات مقيمية البصرة » الى جانب أنباء البريد البري، معلومات سياسية وعسكرية واقتصادية مستفيضة سواء منها تلك الخاصة بتحركات الفرنسيين وردود الفعل البريطانية لها أم فعاليـــات القبائل العربية في الخليج العربي أو النشاطات التجارية هناك •

فمنذ عام ١٧٩٨ صارت منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي أحد ميادين الصراع بين البريطانيين والفرنسيين • وكانـت جزر موريشيوس قاعدة للفرنسيين في المياه الشرقية • ومنها انطلقت التهديدات الفرنسية لخطوط المواصلات البريطانية ، بل لقد وصلت السفن الفرنسيـــة الى مياه الخليج العربي نفسه • واضطر البريطانيون الى ابقـــاء جزء من اسطولهم في باب المندب والبحر الاحمر وسواحل الهند الغربية لحماية خطوط مواصلاتهم • واستمر ظهور السفن الفرنسية في هــــذه المياه واستمرت الاجراءات البريطانية ضدها حتى أواخر عام ١٨١٠ ، حيـث استولى البريطانيون على جزر موريشيوس وحيث اثبتـــت الجهـود الدبلوماسية الفرنسية فشلها في طهران واسطنبول وكابل ، بل وفي كل مكان آخر في الشرق • ولكن الجهـود الدبلوماسيـــة والعسكريـــة

البريطانية كانت مكثفة في كل تلك الاماكن وطيلة الفترة التي تغطيها « يوميات مقيمية البصرة » [١٦].

ففي عام ١٧٩٨ بادر البريطانيون الى فتح مقيمية لهم في بغداد واسند منصب المقيم فيها الى شخصية هامة هو هارفرد جونز (الذي حصل على لقب سير بعد ذلك) . وهذه الخطوة بحد ذاتها تمثل توجها جديدا يوضح ازدياد الاهمية السياسية والاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي بشكل عام والعراق بشكل خاص بالنسبة للبريطانيين .

لقد اقتصر اهتمام الانكليز في منطقة الخليج العربي طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر على الناحية التجارية . وكان بيع الاقمشة الصوفية الانكليزية هو الهدف الاساس لشركة الهند الشرقية الانكليزية . وعندما تدهورت التجارة في أواخر القرن الثامن عشر لم تنردد الشركة من اتخاذ قرار في عام ١٧٧٧ يقضي بالانسحاب من منطقة الخليج . ووصل هذا القرار الى الشرق في الوقت الذي كانت فيه انكلترا متورطة بحرب مع فرنسا وذلك بسبب حرب الاستقلال الاميركية . فقرر مستخدمو الشركة في الشرق الابقاء على وجود لهم في الخليج ، وذلك لحاجتهم الماسة الى الاحتفاظ بمقرهم بالبصرة لما لهذه المدينة من أهمية كاحدى المحطات الرئيسية لبريدهم البري. ولكنهم في الوقت نفسه خفضوا درجة مقرهم التجاري من وكالة الى مقيمية وأبقوا فيه مستخدما بريطانيا واحدا فقط [١٧] . أما بالنسبة الى بغداد فلم يسبق لشركة الهند الشرقية أن كان لها أي نوع من التمثيل في هذه المدينة ، عدا فترة قصيرة في عام ١٧٦٥ وذلك عندما أقدم مستخدمو الشركة في الشرق على تأسيس مقيمية في بغداد . وقد اعترض مدراء الشركة في لندن على هذه الخطوة وأمروا مستخدميهم بغلق المقيمية

نظرا لقلة الفوائد التجارية المرجوة منها من ناحية وللاحتجاجات الشديدة التي تقدمت بها شركة The Levant Company من ناحية اخرى [١٨] .
وفي عام ١٧٨٣ أقرت الشركة تكليف أحد سكان بغداد بالاشراف على شؤون الشركة التجارية لقاء أجر شهري محدد . وجاءت الآن هذه الخطوة التي تضمنت اقامة مقيمية بريطانية في بغداد وتعيين شخص بريطاني ذي خبرة معروفة بشؤون المنطقة . وجاء التعيين بعد مفاوضات طويلة وتنسيق تام بين شركة الهند الشرقية والحكومة البريطانية . وأعلن عن هذا التعيين في لندن في ٥ تموز عام ١٧٩٨ . وجاء في كتاب التكليف :

« انه لسبب الاحوال الراهنة والاشاعات التي انتشرت بان الفرنسيين يحاولون أن ينفذوا الى الهند اما عن طريق البحر الاحمر أو عن طريق الخليج العربي فانه يجب تعيين شخص في بلاط باشا بغداد . وقد تم اختيارك لهذا الغرض » .

وتمثل التعليمات التي صدرت الى هارفرد جونز السياسة البريطانية الجديدة خير تمثيل :

عليك أن تبلغ الباشا خبر وصولك الى بغداد باسلوب مناسب . وعليك أن تقدم له الهدايا الملائمة . وبعد أن يتم هذا يتحتم عليك أن تعلمه بان شركة الهند الشرقية قد أوفدتك الى عاصمته لتعزز أواصر الصداقة التي كانت قائمة دائما بين سعادته والشركة . وتحذره في الوقت نفسه من العواقب الوخيمة التي ستصيب اراضي باشويته بل ، أراضي الامبراطورية العثمانية كلها في حالة افساحه المجال للفرنسيين التغلغل في أي جزء من أجزاء تلك الامبراطورية ، وفي حالة

السماح باتخاذ موطن قدم لهم فيها عليك أن تبذل كل ما في وسعك لاحباط المحاولات الفرنسية الرامية الى التغلغل والتوسع • وعليك أن تقنع الباشا بتقديم التعهدات اللازمة بمنع تلك المحاولات بكل الوسائل المتوفرة له (١٩) •

ويتضح من كل ما سبق الاهمية السياسية والاستراتيجية التي أخذ البريطانيون ينظرون اليها نحو العراق • فلم تعد التجارة هي الرائد الاساسي • ولم يعد بيع الاقمشة الصوفية الانكليزية في بغداد والبصرة هو الهدف الرئيسي لوجودهم في المنطقة • هذا وتغطي « يوميات مقيمية البصرة » أنباء المقيمية والظروف المحيطة بها وفعاليات المقيم هارفرد جونز (٢٠) •

وتحرك البريطانيون في جهة اخرى • فقد أرسلت السلطات البريطانية في الهند مهدي علي خان مندوبا عنها الى منطقة الخليج العربي• وقد عهد اليه تشجيع التجارة البريطانية في المنطقة واحباط مؤامرات الفرنسيين في ايران والحيلولة دون قيام الافغانيين بتهديد حدود الهند • ونجح مهدي علي خان في ابرام معاهدة مع امام عمان في تشرين الاول عام ١٧٩٨ • تعهد فيها الامام بالوقوف في صف البريطانيين ضد اعدائهم الفرنسيين •

ولم تكتف السلطات البريطانية في الهند بالنجاح الذي حققته بعثة مهدي علي خان ، بل عمدت الى ارسال بعثة أخرى ، كان على رأسها الكابتن جون مالكولم وهو شخصية مرموقة في حكومة الهند • واستطاع الكابتن مالكولم في كانون الثاني عام ١٨٠١ تجديد الاتفاقية السابقة التي عقدها مهدي علي خان مع امام عمان • كما استطاع في

كانون الثاني عام ١٨٠١ عقد معاهدة مع شاه ايران ، تعهد الاخير بعدم السماح للفرنسيين باتخاذ أية قاعدة لهم في ايـران والتعـاون مع البريطانيين للتصدي لهم في بلاده. وقد مر مالكولم بالعراق ولقي ترحيبا من باشا بغداد [٢١] .

ولم يكن الحماس والاندفاع لينقص الفرنسيين في هذا الوقت . فقد كانت مراسلاتهم مستمرة مع الشاه . وقـام نابليون بونابرت في ١٨٠٥ في ارسال عدة مبعوثين الى طهران . كما أرسل الشاه من ناحيته مبعوثا الى باريس . وقد عقدت فعلا معاهدة فنكنشتين بين الطرفين في أيار عام ١٨٠٧ . وكان غرض الشاه من هذا التقارب مع الفرنسيين هو ضمان مساعدتهم ضد الروس أعدائه التقليديين .

كما وصل الى مسقط في عام ١٨٠٣ مندوبا فرنسيا كان غرضـه اقناع الامام في الموافقة على فتح قنصلية فرنسية في مسقط . ولم يوفق المندوب الفرنسي في مسعاه هذا . واستمرت محاولات الفرنسيـين في هذا الاتجاه . ونجحوا في عام ١٨٠٨ في اقناع الامام بعقـد معاهدة صداقة معهم ، افتتحت بموجبها قنصلية فرنسية . وقد أثار هذا النجاح الفرنسي حفيظة البريطانيين وجدد مخاوفهم .

وعلى أثر النجاح الذي حققه الفرنسيون في ايران وعمان ، أرسلت بعثتان بريطانيتان في آن واحد الى المنطقة . فقـد قامت السلطـات البريطانية في لندن بارسال السير هارفرد جونز الى الخليـج . وفي الوقت نفسه قامت حكومة الهند بارسـال جون مالكولم (وقد صار الآن جنرالا) على رأس بعثة جديدة الى منطقة الخليـج العربي . وقد نشب صراع وتنافس شديد بين البعثتين . ووصل جون مالكولم مسقط

في أوائل عام ١٨٠٨ ثم نزل في بوشهر في أيار من نفس العام • وكان النفوذ الفرنسي على أشده في ايران في هذا الوقت • ولم يوفق في ازلة ذلك النفوذ أو في تقليله • وكانت الحكومة الايرانية على علم بمخطط السلطات البريطانية في الهند الخاصة باحتلال بعض جزر الخليج العربي ، الامر الذي أثار مخاوفها وشكوكها تجاه الجنرال مالكولم • ولم يستطع الجنرال مالكولم تحمل هذا الجو المتوتر ، فعاد الى الهند في تموز عام ١٨٠٨ •

وفي أوائل عام ١٨٠٩ وصلت بعثة سير هارفرد جونز الى ايران • وكان الجو قد تغير في صالح البريطانيين هناك ، فقد تضاءلت امام الشاه فرص التعاون مع الفرنسيين ضد اعدائه الروس • وأصبحت فرنسا وروسيا حليفتين حميمتين في أوروبا بعد عقد معاهدة تيلست • وأيقن الشاه ان الفرنسيين يضللونه ، وانه لا فائدة ترتجى منهم •

ونجح جونز حيث فشل مالكولم • وفي آذار عام ١٨٠٩ وقع الشاه معاهدة مع البريطانيين ، ألغى الشاه بموجبها كل تعهداته السابقة تجاه الامم الاوروبية الاخرى • وتعهد بالحيلولة دون غزو الهند عن طريق ايران • وحصل الشاه لقاء كل ذلك على تعهدات بريطانية ببعض المساعدات المالية والعسكرية • وفي نيسان عام ١٨٠٩ غادر آخر دبلوماسي فرنسي طهران، وأخذ النفوذ الفرنسي يتضاءل بسرعة من المنطقة كلها • وفي أواخر عام ١٨١٠ اغلقت القنصلية الفرنسية في مسقط •

ولم تكتف حكومة الهند بكل هذا النجاح ، بل عمدت الى ارسال الجنرال مالكولم مرة أخرى في عام ١٨١٠ على رأس بعثة كبيرة الى

منطقة الخليج العربي ، ولم يكن هدف حكومة الهند الحقيقي هذه المرة التصدي للفرنسيين الذين لم يعد لهم نفوذ يذكر ، بل لاستعادة هيبتها وكرامتها التي جرحت بفشل بعثة مالكولم السابقة والنجاح الكبير الذي حققه منافسه السير هارفرد جونز مبعوث السلطات البريطانية في لندن. وأحاطت حكومة الهند بعثة مالكولم الجديدة بكل مظاهر الأبهة . وقد عهدت اليه بمهمة القيام بدراسة جغرافية واقتصادية شاملة لمنطقة الخليج العربي اضافة الى مهمته السياسية التي يفترض أنه جاء من أجلها . وصحب الجنرال مالكولم هذه المرة نخبة من الضباط الاكفاء والخبراء المرموقين ولم تحقق بعثة مالكولم هذه شيئا معينا . وقد شغلت بالرسميات والمجاملات واكتفت بحرارة الاستقبال وحفاوة التوديع .

تمثل الصفحات السابقة عرضا موجزا للتحديات الفرنسية والمواقف البريطانية . وهي ما عنيت به ، الى حد كبير « يوميات مقيمية البصرة »، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن نشاطات القوى المحلية المتمثلة بالقبائل العربية والايرانيين والعثمانيين ، وردود الفعل لبريطانيا لها . فانه مما يميز تاريخ الخليج العربي خلال الفترة التي تغطيها تلك اليوميات هو استمرار حيوية القبائل العربية وازدياد فعاليتها واشتداد مقاومتها للسيطرة الاوروبية المتمثلة بالبريطانيين والهيمنة المحلية المتمثلة بالايرانيين والعثمانيين . لقد كانت القبائل العربية فعالة ومندفعة في كل زاوية من زوايا المنطقة : في حوض نهر كارون وشط العرب حيث قبيلة كعب . وفي البحرين والكويت . وفي عمان وعلى امتداد الساحل العماني وعلى طول الساحل الشرقي للخليج ، برزت قبائل القواسم في هذه الفترة بالذات ، أكثر الجميع قوة وأشدها بأسا .

لقد ظهرت قوة القواسم ، لأول مرة في منتصف القرن الثامن عشر

حيث كانت قد غنمت بعض قطعات من الاسطول الكبير الذي أسسه نادر شاه[٢٢]. واستمرت قوة هذه القبائل في النمو خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ووصلت تلك القوة ذروتها في أواخر القرن الذي تلاه . وكانت الحرب سجالا بين القواسم والعمانيين . فبينما اهتم الاخيرون بالتجارة ، وتوسعوا في عملياتهم التجارية في كل اجزاء الخليج العربي والبحر الاحمر وشرق أفريقيا والهند ، اندفع القواسم الى الحرب والنضال .

وحدث تطور هام كان له أبعد الأثر في تاريخ الخليج العربي ، عندما اعتنق القواسم الدعوة الوهابية . فقد زادتهم هذه قوة واندفاعا . وقد وجد فيهم السعوديون خير حلفاء لهم ، وصار امام عمان في وضع لا يحسد عليه ، فبينما كانت القوات السعودية تهاجمه وتضيق الخناق عليه من البر ، كان القواسم يشددون الخناق عليه من البحر .. وقد وجد هذا حلفاء له في الانكليز . فان تعاظم قوة القواسم وتحالفهم مع السعوديين وازدياد نفوذهم في الخليج العربي ، أثار مخاوف الانكليز ودفعهم الى التحالف مع خصومهم العمانيين . وتعرض القواسم لبعض السفن الانكليزية . فاتخذ الانكليز من ذلك ذريعة لشن الحرب عليهم وتحطيم قواتهم البحرية ، تلك القوة التي كانت تخيف الانكليز وحلفاءهم العمانيين أكثر من أي شيء آخر .

لقد كان الصراع بين القواسم والانكليز صراعا طويلا وقاسيا[٢٣]. وقد تمثل في قيام الانكليز بارسال عدة حملات برية وبحرية الى منطقة الخليج وفي استماتة القواسم وبلاءهم بلاء حسنا في الدفاع عن أنفسهم وأوطانهم وسيادتهم ، وفي حزيران عام ١٨٠٥ بدأت الحرب بين الطرفين وقامت حملة انكليزية عمانية بشن تلك الحرب ، واستطاعت هذه

محاصرة جزء كبير من اسطول القواسم قرب جزيرة قشم • ولـكن لم يقع صدام حاسم بين الفريقين وانتهى الامر بتوقيع معاهدة بينهما في ٦ شباط عام ١٨٠٦ • تعهد القواسم بموجبها بعـدم التعرض للسفـن الانكليزية في المستقبل •

ولم تنه الحملة البريطانية الآنفة الذكر ولا معاهـدة الصلح التي تلتها ، الصراع وسرعان ما تردت العلاقات وتجددت الحرب [٢٤]• وقام القواسم بالمهاجمة والاستيلاء على عـدد كبيـر من السفن العمانية والانكليزية والهندية • وكان اسطول القواسم مؤلفا في هذا الوقت من ٦٣ سفينة مسلحة تسليحا جيدا وعدد كبيـر من السفن الصغيرة التي تحمل كل منها بضع مدافع ، وقدر عدد محاربي القواسم بـ (١٩ر٠٠٠) رجل • وقام الانكليز في عام ١٨٠٩ ــ ١٨١٠ بحملتهم البحرية الثانيـة ضد القواسم ، وقد اشتركت في هذه الحملة قطع مهمـة من الاسطول الملكي البريطاني الى جانب اسطول شركة الهند الشرقية • وكانت رأس الخيمة ، الهدف الرئيسي للحملة • وقد قصفت في يـوم ١٢ تشرين الثاني وسقطت في اليوم التالي • ودار قتال عنيف انتقل من بيـت الى بيت واحرقت ثلاثون سفينة من سفن القواسم كانت راسية في الميناء • وفي ١٤ منه علم البريطانيون أن قوة سعودية تتجـه نحـو الساحل فسارعوا الى الانسحاب من رأس الخيمة فعاد القواسم لاحتلال مدينتهم• وتجول الاسطول البريطاني في الخليج باحثا عن سفن القواسم ، مدمرا كل ما يعثر عليه منها ثم عاد الى الهند دون أن يحقق نصرا حاسما ودون أن يستطيع تحقيق هدفه الرئيسي ، وهو تدمير قوة القواسـم • ولم يكترث القواسم كثيرا بما لحق بهم من أذى ولم يعترفوا بالهزيمة كمـا أنهم لم يقدموا هذه المرة ، أي تعهد بشأن سلوكهـم في المستقبل •

وتنتهي الانباء الخاصة بالقواسم وبغيرهم من قبائل الخليج وباحداث الخليج والمنطقة عامة في « يوميات مقيمية البصرة » عند هذا الحد •

يتضح لنا مما تقدم الاهمية الكبيرة لـ « يوميات مقيمية البصرة » كمصدر للتاريخ الدبلوماسي والسياسي والعسكري لمنطقة الخليج العربي للفترة بين عامي ١٧٩٨ و١٨١١ • ولكن أهمية اليوميات لا تقف في الواقع ، عند هذا الحد ، بل تعداها الى المجالين الاقتصادي والاجتماعي • فالمعلومات الاقتصادية والاجتماعية المبعثرة بين طياتها غزيرة جدا • وهي تصلح لتكون أساسا لكثير من الدراسات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقة الخليج العربي عامة وللعراق بشكل خاص •

فالتجارة ، وما يتصل بها ، بشكل مباشر او غير مباشر، تحتل حيزا واسعا في مجلدات تلك اليوميات • فهناك المعلومات السنوية الدقيقة في أغلب الاحيان ، الخاصة بالتجارة الاوروبية عامة وبالتجارة البريطانية بشكل خاص مع اقطار الخليج اذ كثيرا ما تتوفر جداول سنوية مفصلة بالصادرات البريطانية وعلى رأسها الاقمشة الصوفية الانكليزية • مع وصنف دقيق لتلك الاقمشة من حيث الكميات والالوان والانواع ، ويصح القول عن بقية الصادرات الانكليزية وعن وارداتهم من منطقة الخليج العربي (٢٥) •

واذا تركنا التجارة الانكليزية والاوروبية جانبا ، وهي لم تكن في تلك الازمنة الا جزءا ضئيلا من تجارة الخليج العامة ، فهناك أنباء التجارة الكبيرة والمهمة بين الهند والصين وغيرهما من أقطار شرق آسيا وبين أقطار حوض البحر الابيض المتوسط واوروبا عبر العراق والخليج العربي (٢٦) • هذا الممر التجاري الحيوي الذي احتل مركز الصدارة

بين طرق الاتصال التجاري والحضاري بين الشرق والغرب عبر جميع عصور التاريخ .

وبالاضافة الى كل ما سبق ، فيوميات البصرة طافحة بالمعلومات عن التجارة المحلية ونعني بها التجارة بين أقطار الخليج بعضها مع بعض والحركة التجارية النشطة بين موانيه وعلى رأسها البصرة ومسقط وبوشهر والكويت والبحرين والمحمرة (٢٧) .

والمعلومات الآنفة الذكر تتناول ، في الواقع ، كل جانب من الجوانب . فهناك أنباء السلع التجارية الرئيسية ، مثل السكر والشاي والقهوة والتوابل بأنواعها والاقمشة الاوروبية والمعادن من حيث واردات المنطقة والتمور واللؤلؤ من حيث صادراتها الى جانب المئات من السلع التجارية الاخرى التي كانت تدخل في النطاق التجاري . وكثيرا ما نجد المعلومات الخاصة بكميات تلك السلع وأنواعها وأسعارها (٢٨).

ثم هناك الاخبار المتعلقة بأحوال السوق وتقلباته والعوامل التي كانت تتحكم فيه والتجار وأصنافهم وانتماءاتهم العنصرية (عرب ، فرس ، أرمن اوروبيين) والدينية : (مسلمون ، مسيحيون ، يهود ، هندوس) (٢٩).

واذا تجاوزنا أخبار السلع والصادرات والواردات والتجارة ، فهناك أنباء السفن وتحركاتها وأنواعها وأثمانها وأسعار الشحن فيها ، وأسماء ربابنتها والشيء الكثير عن حياة ملاحيها (٣٠) .

ثم هناك المعاملات التجارية ووسائلها وأساليبها، وموقف السلطات الحاكمة في كل ميناء من التجارة والتجار ، هل هي متسامحة ومتعاونة،

أم أنها جائرة ومتعسفة وما هو أثر كل من هـــذا وذاك في الحركـة التجارية ؟ (٣١)٠

ويجد الباحث معلومات مبعثرة هنا وهناك عن الضـــرائب التي تفرض على التجارة والتجار في الموانيء ومن تلك الضرائب ما تكون ، من وجهة نظر التجار طبعا عادلة ومقبولة ، ومنهـــا ما تكون كثيـــرة وظالمة ٠ والشيء نفسه يقال عن الموازين والمكاييل والمقاييس والنقود ، ففي منطقة الخليج العربي ، وفي موانيه خليط عجيـــب من كل هذه ٠ ويستطيع الباحث أن يستخلص المعلومات المفيـــدة والثمينـــة من كل ذلك (٣٢) ٠

وتبقى هناك امور اخرى جديرة بالاهتمام يمكن أن يلتقطها المرء من « يوميات مقيمية البصرة » ، فهناك الاشارات العابرة الـتي ترد في تلك اليوميات ذات الصلة بقضايا النقل النهـــري في شط العرب ونهر الكارون ودجلة والفرات(٣٣) ٠

لقد كان للنقل في هذه الانهر أهمية بالغة تفوق أهميتها الحاضرة٠ وكانت القوارب والسفن بأنواعها المختلفة شيدت بشكـــل يتلاءم مع الملاحة في الأنهر الآنفة الذكر ٠ وقد اكتسبت بعض الاماكن في وسط وجنوب العراق سمعة خاصة ببناء تلك السفن والقوارب ٠

لقد كان الجزء الاكبر من السلع التجارية والمسافرين بين البصـرة وبغداد والمدن الاخرى يتم نقلها بواسطة النقل النهري وبواسطـة سفن كبيرة نسبيا ، كما كانت هناك قوارب خاصة تقوم بنقل الركـــاب بين البصرة وقراها الكثيرة وضواحيها ، بل بين أجزاء مدينة البصرة نفسهـا ــ بين البصرة والعشار ــ ويعرف القـــارب من هـــذا النوع بالبلم

العشاري . وهكذا كانت القوارب والسفن تقوم مقام السيارات والعربات والشاحنات والقاطرات في هذه الايام .

وأسماء القوارب والسفن ، والاجور التي يتقاضاها أصحابها والعاملين بها ، كل ذلك يرد ذكره بهذا الشكل أو ذاك في تلك الصفحات من اليوميات .

ولا تقل أهمية من أنباء النقل النهري تلك الانباء الخاصة بتحركات القوافل ، تلك القوافل التي تقدم الى البصرة ، والتي تنطلق منها . فالسلع الهندية تصل الى البصرة في أشهر معينة ، وذلك وفقا لهبوب الرياح الموسمية . ومن البصرة توزع تلك السلع في اتجاهات متعددة. وتقوم القوافل بنقل جزء كبير منها . وتذهب أغلب السلع الهندية الى بغداد ، ومن بغداد يبدأ التوزيع على نطاق واسع . فتغادرها القوافل الى بلاد الشام عن طريق البادية لتذهب الى حلب أو الى دمشق ، وهناك قوافل كبيرة تتجه الى أصفهان وجورجيا وكردستان والاناضول. ويصل قسم كبير من البضائع الهندية عن طريق هذه القوافل الى الاسكندرونة والقسطنطينية ، ومن هناك تنقل برا وبحرا الى أقطار حوض البحر الابيض المتوسط وأوروبا .

ولعل أكثر القوافل اثارة للخيال والشوق تلك القوافل التي تخترق الصحراء من البصرة الى حلب بشكل مباشر ، دون أن تقترب من الفرات ، ودون أن تمر باماكن السكنى بأي شكل من الاشكال ، ويعرف هذا الطريق : بطريق ــ الصحراء الكبير ــ ويتميز بأنه أقصر الطرق وأسرعها ، ولا تسير القوافل فيه الا في أوقات معينة ومحدودة من السنة (٣٤). كما تتميز القوافل التي تسلكه بكبرها وبكثرة الابل

التي تستخدم فيها وبمهارة الأدلاء الذين يتولون تسييرهـــا وتقاليدها وأعرافها الخاصة التي نمت وتكونت عبر القرون • وبالاضافـــة الى طريق ــ الصحراء الكبير ــ هناك طريق اخرى للقوافل بـــين البصرة وحلب تسير عادة محاذية ومتقاربة لمجرى الفرات ، وتمر بكثير مـن المدن ومواطن السكنى •

وتستقبل البصرة في الوقت نفسه القوافل القـــادمة من بغـداد وحلب ، وتحمل مثل هذه القوافل مختلف أنواع السلـــع من أقطـار حوض البحر الابيض المتوسط وأوروبا وبلاد الاناضول وبلاد الشـام وايران •

وتبقى هناك معلومات كثيرة ترد بشكل عرضـــي في اليوميات ، وباستطاعة الباحث استخلاص مادة لها غاية الاهمية في مجالـي البحث الاقتصادي والاجتماعي • وسنكتفي بايراد بعض الأمثلة :

فهناك الجداول الخاصة بتجهيزات السفن الراسية في شط العرب. فقـد اعتادت المقيمية البريطانية فـي البصرة تجهيز سفن شركـة الهند الشرقية الانكليزية القادمة الى البصرة بما تحتاج اليه من المواد الغذائية وغيرها ، واعتادت المقيمية اعداد جداول مفصلة بتلك المواد وبكمياتها وأسعارها (٣٥) • ومن تلك المواد على سبيل المثال : الـرز واللحـوم والماشية والملح والخضروات والشعير والدقيق •• الخ •

واستعراض هذه الجداول الكثيرة جدا في « يوميات مقر البصرة التجاري » و « يوميات مقيمية البصرة » والتي تغطي فترة نصف قرن، تساعد الباحث ، من غير شك على تتبع تطورات الاسعـــار بمثل تلك المواد • وهذا أمر لا يستغني الباحث الاقتصادي عن معرفته •

وما يقال عن جداول تجهيزات السفن يمكن أن يقال عن تلك الجداول الخاصة بهيئة موظفي المقيمية في البصرة وفي المؤسسات الانكليزية الاخرى في الخليج العربي [٣٦] • فقد اعتادت المقيمية اعداد جداول مفصلة بالموظفين والمستخدمين من الانكليز وغيرهم من السكان المحليين ــ في البصرة وبوشهر وبغداد ومسقط ــ ويجد الباحث في تلك الجداول المرتبات والعلاوات السنوية لأولئك الموظفين والمستخدمين • كما يجد فيها معلومات اخرى مفيدة وطريفة كالمبالغ المدفوعة لايجار بعض الدور وأجور بعض صغار المستخدمين ــ القهوجي والبستاني والسقا والحارس والبلام ... الخ ــ ، وهذه المعلومات وأمثالها تلقي من غير شك شيئا من الضوء على بعض جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية وعلى مستويات المعيشة بشكل خاص •

ثم هناك المعلومات المتعلقة بما يعرف بـ « الرسوم القنصلية »[٣٧] (The Consulaye) ، وهذه ضريبة خاصة تأخذها شركة الهند الشرقية الانكليزية بنسبة مئوية معينة • وتفرض على جميع التجار الانكليز الذين يقيمون بالمتاجرة لحسابهم الخاص • وذلك لقاء سماح الشركة لهم بممارسة هذه التجارة من جهة وللحماية التي توفرها لهم من جهة أخرى •

ومن تلك « الرسوم القنصلية » التي تعطى سنويا عادة في « يوميات البصرة » يمكن معرفة مقدار التجارة الانكليزية الخاصة • وكانت مثل هذه التجارة تكون الجزء الأعظم من التجارة الاجمالية لمنطقة الخليج العربي خلال الفترة التي تغطيها « يوميات البصرة » لذا فان « الرسوم القنصلية » ذات فائدة كبيرة للباحث في التاريخ الاقتصادي لتلك الحقبة من الزمن •

واخيرا ما هو دور « يوميات البصرة » بشكل عـــام بالنسبـة للدراسات الاجتماعية وللجواب على هذا السؤال ، يمـكن القول : ان المعلومات المتنوعة والكثيرة التي توفرها اليوميات والتي تتنـــاول كل جانب من جوانب النشاط البشري والتي فيها ذكرا عرضيـا لمعامـلات وممارسات الافراد والجماعات في مختلف المجالات والميادين وعلى كل المستويات [٣٨]. كل هذه تجهز الباحث المختص ، من غير شـك ، بمادة غزيرة ونادرة للدراسات الاجتماعية لمنطقة الخليج العربي عامة والعراق خاصة لتلك الفترات الغامضة والمظلمة التي تعوزنـا فيهـا المصـادر التاريخية الاخرى .

الهوامش

١ ـ لمعرفة المزيد عن هذه الدار وعن سجلاتها انظر :
الدكتور عبد الامير محمد أمين والدكتور مصطفى عبد القادر النجار، دور السجلات الهندية ومحفوظاتها من وثائق العراق وبقية اقطار الخليج العربي والجزيرة العربية ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي (٢٠) بغداد : ١٩٧٨ .

٢ ـ لقد قام الباحث بالاشتراك مع الدكتور مصطفى عبد القادر النجار والسيد عبد الوحيد خان بفهرسة هذه اليوميات . وكتاب الفهرسة في مرحلة الطبع الان . وسيكون في جزءين الاول منهما يخص « يوميات مقر البصرة التجاري ١٧٦٣ ـ ١٧٧٧ » والثاني يخص « يوميات مقيمية البصرة ١٧٩٨ ـ ١٨١١ » .

(3) See Bombay Government Records , Records of Factories and Residencies . Bussora Residency Diaries , Vol. 205 .

(4) Ibid . Vol . 208 .

(5) Ibid . Vol . 210 .

(6) Ibid . Vol . 211 .

٧ ـ انظر صالح محمد جاسم العابد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ ـ ١٨١٠ ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب جامعة بغداد ، ١٩٧٨ .

٨ ـ انظر على سبيل المثال India Office Library , Marine Records Vol 89 Aug . 15 . 1790 .

تقرير حول تجارة الجزيرة العربية وفارس وضعه كل من صاموئيل مونستي وهارفرد جونز ، G. A. olivier , Voyage dans l'Empire ottoman, l'Egypte , et la perse . 3 Vols . 1801 .

٩ ـ الدكتور عبد الامير محمد أمين « مصادر تاريـــخ العراق والخليج العربي في دار السجلات الحكومية الهندية في بومبـــاي » مجلـة المؤرخ العربي ، العدد التاسع .

(10) J. G. Lorimer , Gazetteer of the Persian Gulf , Oman , and Centeral Arabia , 2 Vols . calcutta : 1908 , Vol , 1 Part 1 , p. 1621 .

(11) Bussora Residency Diaries Vols . 204 - 212 .

١٢ ـ للمزيد من المعلومات عن هذه الطريق انظر :

H. Furber « The overland route to India in the Seventeenth and Eighteenth Centuries » . Journal of Indian History , Vol . XXIV , 1951 .

عبد الامير محمد امين : المصالح البريطانية في الخليـــج العربي ، بغداد : ١٩٧٧ .

١٣ ـ نفس المصدر

١٤ ـ نفس المصدر .

(15) Bussora Residency Diaries , Vols . 204 - 212 .

١٦ ـ العابد ، نفس المصدر .

١٧ ـ محمد أمين ، المصالح البريطانيـــة في الخليـــج العربـــي ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

١٨ ـ انظر : عبد الامير محمد امين « التنافس بين الشركـــات التجارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي والاقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » مجلة كلية الاداب العدد ٦ سنة ١٩٦٣. كانت الشركة المذكورة تؤكد أن بغداد تقع ضمن مجـــالها التجاري وانه لا يحق لشركة الهند الشرقية المتاجرة معها .

(19) Lorimer , op. cit . p. 1621 .

(20) Bussora Residency Diaries , Vols . 204 - 212 .

(21) Ibid .

٢٢ ـ عبد الامير محمد أمين ، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد : ١٩٦٦ .

٢٣ ـ انظر صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ ، بغداد : ١٩٧٦ .

٢٤ ـ نفس المصدر .

(25) Bussora Residency Diaries , Vols 204 - 212 .

(26) Ibid .

(27) Ibid .

(28) Ibid .

(29) Ibid .

(30) Ibid .

(31) Ibid .

(32) Ibid .

(33) Ibid .

٣٤ ـ للتفاصيل عن هذه الطريق انظر D. Carruthors (ed.) : The Desert route to India . London . 1929 ; C. P. Grant : Syrian Desert . London : 1937 .

(35) Bussora Residency Diaries , Vols 204 - 212 .
انظر الجداول الخاصة بتجهيزات السفن .

(36) Ibid . انظر الجداول الخاصة بموظفي الشركة ومستخدميها .

(37) Ibid . انظر الجداول الخاصة بالرسوم القنصلية .

(38) Ibid , Vols . 204 - 212 .

بدء تحديث السودان عام ١٨٢١

سعاد عبد العزيز أحمد
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة الخرطوم

نعني بالتحديث الخروج من المجتمع المحلي الضيق والانفتاح على العالم الخارجي العريض ، كما نعني به استخدام طرق ووسائل جديدة في الاقتصاد ، والسياسة ، وطرق الانتاج ، والمواصلات والنقل، مستمدة من تلك التي تستعمل في الدول الاوروبية والتي تحسن طرق المعيشة التي كانت سائدة في المجتمع التقليدي المتخلف . أما السودان فنعني به الاجزاء التي تكون السودان الحالي . وعملية التحديث تمت في فترة مبكرة كانت نتيجة مباشرة للفتح التركي المصري ١٨٢٠–١٨٢٢ وكانت عناصر التغيير في هذه الفترة العثمانيين والاتراك والناطقين بالعربية في أملاك محمد علي . أما في المرحلة الثانية والتي كانت بين حكم اسماعيل وتفجير الثورة المهدية ، فكانوا أوروبيين .

لنبدأ بالمجتمع السوداني التقليدي قبل فتح محمد علي للسودان نجده غاية في البساطة ويضم عدة مجموعات تختلف بعضها عن بعض في طرق الحياة واللغة والعادات والدين . ومن حيث الأثر الاسلامي نجد

مجتمعين مختلفين أحدهم في الجنوب والآخر في الشمال ونلاحظ أن فصائل المجتمع الشمالي كانت تتمتع بنصيب من المعرفة وأبجديات الثقافة ونجد تأثير لحضارة العرب الاسلامية من الشرق الاوسط عليها كان أعظم من تأثيرها على المجتمعات في الجنوب فهم قد تعربوا كثيرا وكان هناك زواج بين البدو والعرب والسكان الاصليين والنوبة والبجا في البحر الاحمر وأصبحت اللغة العربية هي السائدة على اللغات الاصلية في الشمال ما عدا البجا [١] • والنفوذ العربي واضح من ادعاء الفونج وحتى البجا بأنهم أصلا من سلالة الرسول • الروابط الاسلامية القوية ربطت الناس في شما ل السودان بصورة فعلية أكثر من أي تنظيم سياسي • والولاءات الاقليمية والقبلية كانت قوية • وكان انتشار الاسلام تدريجيا • أما المناطق الجنوبية فقد انتشرت بها الوثنية • يشمل هذا الفونج أنفسهم • وانتشار الاسلام كان على يد رجال الدين الذين أقاموا المذهب المالكي والطريقة القادرية • أسس هؤلاء العلماء «كتاتيب القرى» وأصبح لها نفوذ روحي وسياسي مما أضاف عاملا آخر للاستقرار • وكان اتباعهم مخلصين ومطيعين • ثم ادخلت السمانية والختمية في القرن الثامن عشر ولكنهما سرعان ما ذابتا في التركيب والطبقات الصوفية التقليدية • كان الاقتصاد في المجموعتين معيشي • وقد ربطت الطرق التجارية الهامة بين افريقيا والاراضي الساحلية في البحر الابيض والاحمر وهناك قوافل تجارية بين سنار أو دارفور ومصر• خط آخر يمر من الغرب الى الشرق خدم التجارة والحجاج من غرب بلاد السودان الى الحجاز [٢] • تستغرق الرحلة زمنا طويلا ، وقد

(1) ed. Holt P.M : of Modernization in the Middle East : (America 1968) , *Modernization and reaction in the 19 thc: Sudan, P.403*
(2) Ibid , P. 404 .

يستقر المسافرون • وكانت شندى مركزا تجاريا كبيرا ، شمل نشاطها التجاري الرقيق الذي كان بعضه يعمل في المنازل والحقول وبعضه يعمل كقوة محاربة في جند الزعماء •

ظلت بلاد السودان مغلقة عن العالم الخارجي أجيالا طويلة • قبل أن تدخلها جيوش اسماعيل بن محمد علي سنة ١٨٢١ • ومن ارتادها قبل ذلك كان جهده من تلقاء نفسه كرحالة ومكتشفين ، كجيمس بروس وبراون ومحمد بن عمر التونسي ومؤخرا رحلات بيكو لاكتشاف منابع النيل • وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كان السودان تحت سيطرة العرب الذين مدوا سلطاتهم حتى السوباط وبحر الغزال ، وتركوا في البلاد اثارا اجتماعية وسياسية واقتصادية فانتشر الاسلام تدريجيا ، فضعفت المسيحية والوثنية • وصاحب ذلك نهضة اسلامية غذاها الكثير من الرواد المسلمين من الاقطار الاسلامية المختلفة • كما انتشرت التجارة وقامت عدة ممالك في سنار ودارفور وبوزنو ووداى • ولكن دولة الفونج الاسلامية التي قامت في سنار في أوائل القرن السادس عشر على يد عمارة دنقس وعبد الله جماع من عرب القواسمة كانت أهم تلك الممالك • وكانت هذه المملكة اسلامية وفد اليها الكثير من العلماء المسلمين ، فدرسوا وارشدوا وحمل تلاميذهم الرسالة من بعدهم • ورحل بعض المفقهين السودانيين الى الاقطار الاسلامية للتزود من العلوم الدينية ، وخاصة مصر حيث الجامع الأزهر • كما كانت سنار طريقا للمبشرين الكاثوليك للحبشة تحت اشراف قنصل فرنسا العام في القاهرة • وقد كانت دولة الفونج قوية استطاعت صد غزو الاحباش في سنة ١٧٤٤ وغزت اقليم كردفان • وكانت تحكمه قبيلة المسبعات تحت سيادة ملوك الفور في دارفور وضمها لأملاك السنار ولكن غزو كردفان

أدى الى عزل بادي ابو شلوخ ، وتولية ابنه تحت سيطرة الهمج بقيادة محمد أبولكيلك • وسرعان مانشبت الحروب الداخلية والخلافات والمنافسة على السلطة بين الهمج ، وتفككت الدولة ، وانعدمت الرابطة بين قبائلها مما سهل دخول جيوش اسماعيل الى السودان •

ولا بد لنا أن نذكر أن الطرق الصوفية والزعامات الدينية كانت من أهم دعامات المجتمع السوداني خاصة في عهد الفونج • ذلك بجانب الرابطة القبلية • فرجال الدين وحولهم آلاف الطلبة حظوا باحترام زعماء الفونج • فكثيرا ما خصصت لهم الاراضي واعفوا من الضرائب • كما كان السودانيون عامة قد جذبتهم كرامات هؤلاء الاولياء فانتشر انصار ومريدو الطرق الدينية في كل أنحاء السودان • أما القبيلة فقد كانت الوطن الصغير وكل سوداني لا بد أن ينتمي الى قبيلة لها دارها، مهما سافر واغترب في اقليم آخر فهو يظل منتميا لقبيلته • وبما أن مطالب العيش بسيطة فالرجل ليس بحاجة لان يفارق دياره وموطنه لذلك لم يعرف في تاريخ هذه الحقبة هجرة الى خارج السودان الا في طلب العلم والتجارة • وحتى في داخل السودان فالهجرة الفردية نادرة الوقوع [1] • والحياة الاجتماعية بسيطة لم يكن هناك طبقات أو تفاوت كبير بين حياة الاثرياء وبقية أفراد الشعب ، فاللبس أبيض خفيف صنع بالأيدي من القطن ، والبيوت من الطين والقطاطي المبنية من القش والقصب في المناطق ذات الامطار الغزيرة• اللبن والعصيدة والدخن هو الغذاء الرئيسي • ومما دعم نظرية عدم وجود الطبقات وجود الرقيق بكثرة

---

(١) شبيكة ، مكي : **مختصر تاريخ السودان الحديث** (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ١٢ •

وسهولة الحصول عليه • عرف السودان الاتجار مع الخارج خاصة مصر منذ عهد الفراعنة • وكان درب الاربعين من دارفور الى أسيوط أحد الطرق لذلك ، وهناك طريق آخر من دنقلا حتى الواحات ثم يتصل بطريق الاربعين • وكان ميناء سواكن منفذ السودان الوحيد للبحر ، خلال هذه الطرق حمل التجار الى السودان العطور الهندية (الروائح والصابون) ، المنسوجات والبهارات يستبدلونها بالرقيق والصمغ وسن الفيل وغيرها •

تتكون مملكة سنار من دويلات صغيرة عمادها القبيلة الواحدة • والوراثة كانت أحد عوامل الشهرة والزعامة الا أن اظهار المقدرة في قيادة القوم في الحروب ، والكرم والعطف على أفراد القبيلة في زمن السلم أيضا من الأهمية بمكان • أما الحكومة فكانت قليلة النفقات قليلة الضرائب • والمجتمع « ديمقراطي » دون طبقات ، تغلب عليه المساواة ، والاسلام هو العقيدة يميل الى التصوف ، وزعماء الدين بدرجة عظيمة من الاحترام والاجلال• في سلطنة سنار لم يسك السلاطين عملة سودانية ، فالتجارة الداخلية كانت بالمقايضة وهي وسيلة بدائية ولكننا نجد بالسودان في ذلك الوقت عملات متداولة • ففي شرق السودان كان الروبال النمساوي متداولا في ميناء سواكن ومصوع • كان نقدا ثابتا في تجارة البحر الاحمر والحبشة ، وثمة نقود أخرى من الذهب والفضة كانت متداولة على الساحل وفي الداخل أيضا •

كانت دارفور قد قامت بها مملكة في نفس الوقت الذي قامت فيه دولة سنار تقريبا • وتعاقب عليها سلسلة من السلاطين ظلوا يحكمون على أساس اسلامي ، ودخلت في حروب مع جيرانها كما اشتبكت مع سنار كثيرا بسبب المنافسة بينهما لامتلاك كردفان ، مما انهك قوى

المملكتين • كما أن تجارة الرقيق قد انتشرت وأصبحت بعض المدن كسنار وشندي وبارة مثلا أسواقا لهذه التجارة ، فسارت القوافل بالرقيق الى جانب السلع الاخرى من هذه الاسواق الى الحبشة ومصر وسائر الاقطار الافريقية في الشمال والغرب • ولكن هذه القوافل كثيرا ما تعرضت للسلب والنهب • ففي الشرق كانت العبابدة والحلانقة وبنو عامر يهاجمون القوافل بين شاطيء البحر الاحمر والنيل • أما في الغرب في الطريق الصحراوي فقد تعرضت القوافل لهجوم البقارة والكبابيش والغديات وغيرهم • وفي الشمال كان الشايقية مصدر رعب وفزع لهذه القوافل وكان الشايقية كثيرا ما استقلوا ولكنهم لم يؤلفوا حكومة ثابتة مستقرة• وقد أكثروا من الاغارة على سلطنة دارفورد ، منذ أن أخذ الضعف يدب فيها في أواخر القرن الثامن عشر • بجانب الشايقية كان هناك العبدلاب كما كانت مشايخ خشم البحر شرق النيل الازرق ومملكة فازوغلي جنوب خشم البحر ومشيخة الحمده على الدندر ولكنها مشايخ شبه مستقلة • وهناك مملكات خضعت للفونج عن طريق العبدلاب كالجعليين والجموعية والميرفاب والرباطاب وغيرها • ولكن جميع هذه المشايخ والممالك استغلت ضعف مملكة سنار ودخلت في منافسة مع بعضها البعض • بل ازدادت الحروب الداخلية من أجل التنافس على السلطة • فانتشرت الفوضى والاضطراب • وانحصر النزاع على السلطة بين الوزير عدلان ومنافسه حسن ودرجب • وتفاقم الامر حتى سيطر الهمج على السلطة فامتنع الشايقية عن دفع الجزية • وتحررت الهدندوة وبني عامر والحلانقة من سلطنة سنار • كما تمكن العبدلاب بقيادة محمد الامين بتأييد من سلطان سنار عدلان من تحقيق قدر كبير من الاستقلال بعد أن هزموا

الهمج وقتلوا زعيمهم بادي ودرجب في سنة ١٧٨٠م كما صارت الشكرية أعظم قوة في البطانة .

من كل هذا نخلص الى أن المجتمع في السودان كان قبل سنة ١٨٨٢ مجتمعا قبليا ، رابطة القبيلة هي الاساس ، وليست الوحدة القومية والى يومنا هذا مازالت بعض بقايا هذه النعرة العنصرية والقبلية موجودة . أيضا كانت سلطة الحكومة في سنار في اضمحلال واضح . وانتشر التطاحن بين الدويلات والمشايخ واختل الامن نتيجة لغارات القبائل الكبرى كالعبابدة والشايقية على القوافل التجارية .

تلك كانت الحالة عندما عزم محمد علي على فتح السودان . وقد خبر محمد علي خبر سنار من التجار المصريين المترددين اليها . وجاءه الملك نصر الدين ملك الميرفاب ببربر، وشرح له حال سنار وهون اليه أمر الفتح[1] . وأيضا جاءه رجل من عائلة الزبير المالكة في أرقو وأخبره بحال دنقلا ، وعبث المماليك فيها . ومحمد علي أراد أن تكون لمصر شخصية مستقلة ويكون هو قويا على رأسها . وكان قد سمع عن خيرات السودان مما ذكره الرحالة والمكتشفون الذين زاروا السودان، ومما أغراه بفتح السودان. ورغبة الزعماء المصريين لامداد ملكهم جنوبا لم يبدأها محمد علي . فقد بدأت منذ الفراعنة ، بلغت قمتها وصارت فتحا حقيقيا منذ عهد تحتمس الاول في المملكة المصرية الحديثة . وبما أن محمد علي أراد تكوين دولة قوية عظيمة في مصر فقد كان عليه تكوين جيش قوي يحميه ولكن كان يواجهه العجز المالي لذا كان تفكيره

---

(١) شقير ، نعوم : **جغرافية وتاريخ السودان** (بيروت ، ١٩٦٧) ص ٤٩١ .

قد اتجه جنوبا الى اراضي السودان ، حيث الرجال الاقوياء لجيشه . والسود السودانيون عرفوا بطاعتهم وولائهم لقادتهم وشدة بأسهم . كما أراد الاستيلاء على الذهب في فازوغلي وبني شنقول ، والتي طغت شهرتها الآفاق ، وهذا سيمكنه من تحقيق هدفه . كما أراد استئصال شأفة المماليك الذين فروا للسودان بعد مذبحة القلعة ، وشكلوا خطرا على مصر بعد أن قويت شوكتهم في شمال السودان . كما ذكر أنه أراد اكتشاف منابع النيل لنفع العلم والزراعة المصرية . ولكنني أرى أن محمد علي لم يرد نفع العلم بمحاولته لكشف المنابع انما أراد فائدة الزراعة المصرية . فاهتمامه بالمنابع أتى متأخرا حين أرسل سليم قبودان سنة ١٨٣٩ أي بعد الفتح بعشرين سنة . كما أراد توسيع التجارة المصرية . والانتفاع بموارد التجارة السودانية . أيضا هدف وحرص على سلامة مصر ووحدتها السياسية . وذلك بالاستيلاء على مجرى النيل ، اذن محمد علي كان يضع مصلحة مصر ومصلحته الشخصية في المقام الاول في تفكيره لفتح السودان .

بالفعل كان محمد علي قد تأكد من سوء الاحوال في سنار ، ومن ضعف الحكومة فيها اذ أرسل وفدا لهذا الغرض ولكنه تظاهر بأنه وفد صداقة ، لتحريض الملك على طرد المماليك الذين لجأوا اليه من مصر وفي الباطن أتى الوفد لاستطلاع أحوال البلاد « وما يلزم من الجند لفتحها » [1] . وفي أثناء ذلك أرسل محمد علي المسيو فردريك كايو العالم الفرنسي الى الصحراء الشرقية لاكتشاف الزمرد والذهب الذي دلت التواريخ العربية على وجوده . ووصلها فردريك ووجد فيها كهوفا

---

(١) شقير ، نعوم : **المرجع السابق** ، ص ٤٩٣ .

قديمة ، وحفائر ودهاليز ، وآلات شتى وآثارا تـــدل على استخراج المعادن هناك • فالتقط بعض قطع الزمرد فقويت بها آمال محمد علي • وبعث به مرة ثانية ومعه نفر من الأورام والارناؤوط ولكنه عاد بعد قليل بلا فائدة •

تضافرت عدة عوامل لان يسير محمد علي حملـــة الى السودان لادخاله في نطاق النظام السياسي الذي أوجده محمـــد علي ووضـع قواعده في سنة ١٨٠٧ ، سنة ١٨١١ على اساس الحكومـــة المستبدة المستنيرة في الداخل • والتوسع شرقا وجنوبا في الخـارج لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية بسيطة الى باشوية وراثية سواء كانت منفصلـة عن جسم الدولة العثمانية أم داخلها اذا تعذر الانفصال أو الاستقلال • ويقول محمد فؤاد شكري [١] أنه « من أكبر العوامل شأنـا في ارسال حملة السودان مطالبة أهل السودان أنفسهم بانشاء حكومة قوية على يد مصر تقضي على أسباب الفوضى المنتشرة وتستبدل بها عهـدا من الامن والنظام والرخاء والانتعاش الاقتصادي » • ولكن من الواضـــح ان هؤلاء الزعماء قد لجأوا الى محمد علي لتحقيق مطـــامع وأهـداف شخصية • فمثلا الملك بشير ود عقيد الجعلي كـــان قد هرب للقاهرة واستنجد بمحمد علي لان الملك نمر كان قد وشى به لدى ملك سنار ، الذي أرسل اليه من يقتله •

كان محمد علي يرى ضرورة المحافظة على وحدة الوادي لأسباب عدة منها ايمانه بأن لمصر رسالة في السودان لا يمكن التخلي عنها، ومن

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **مصر والسودان** (القاهـرة ، ١٩٥٨) ص ٨٠ •

أحاديث محمد علي مع الزعماء المحليين في فازوغلي ، وتوجيهاته للحكام المسؤولين واضح اهتمامه بتأمين الاهالي على أرواحهم وأرزاقهم وبمنع اعتداءات الاحباش عليهم ، واعتداءات أهل سلطنة دارفور ثم حثه الناس على استغلال موارد بلادهم وتعليم ابنائهم ، وأبدى اهتماما فائقا بشؤون السودان . كما أنه رأى أن الاحتفاظ بالسودان سيضمن لمصر توفير المياه . كما أراد انتعاش التجارة بعد أن أوقفتها الفوضى التي انتشرت في السودان بسبب عدم قيام الحكومة الموحدة ، وهذا الضعف أيضا اطمع الاحباش في مقاطعات سنار المتاخمة لحدودهم . زد على ذلك أنه كثيرا ما كانت تختمر في رؤوس الاحباش فكرة تحويل مجرى النيل بعد خروج مائه من منابعه في الحبشة ، بأن يحفروا قناة كبيرة تذهب بمياهه صوب الشرق بدلا من جريانها في النيل الازرق وعطبره وغيرهما من الروافد [1] . هذا ان حدث سيحرم مصر من المياه ، ولكن بما أن الاحباش لا طاقة لهم بذلك فالخوف كان من توسع صلات الاحباش بالبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، والخطورة في أن تستطيع احدى هذه الدول التوغل في الحبشة ثم في السودان لضعف سنار ، وهذا يهدد مصر وأمنها الاقتصادي . كما أن محمد علي استند على نظرية « الخلو » في حقه في السودان . وفحواها أنه عندما فتح السودان لم يكن يملكه أحد . ولكن ذلك ليس بالامر الصحيح اذ أن السلطة كانت في يد سلطان سنار ، وان سيطر عليها الهمج . اذن السودان لم يكن خاليا عند فتح محمد علي له .

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الآداب العدد الثامن، ١٩٤٦ **صفحة من تاريخ السودان الحديث** . رحلة محمد علي باشا الى فازوغلي ١٨٣٨ – ١٨٣٩ . ص ٣٠ .

جمع الوفد الذي أرسله محمد علي الى سنار المعلومات وبعدها أعد محمد علي حملتين الاولى بقيادةابنه اسماعيل ووجهها نحو سنار،والثانية بقيادة صهره الدفتردار توجهت نحو كردفان ودارفور . فسار اسماعيل بجيشه من الاتراك والالبان والمغاربة مزودين بالاسلحة النارية ، ومعهم ممثلين للمذاهب الاربعة لبث الدعاية ولاقناع النـــاس بان الخضــوع لسلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب ديني . لم يجــد اسماعيل مقاومة الا في اقليم الشايقية . فحاورهم لتسليــم أسلحتهم ودفع الجزية ولكنهم رفضوا تسليم أسلحتهم ، مع استعــدادهم لدفع الجزية فحاربهم اسماعيل وتغلب على معظمهم وهرب بعضهم جنوبا الى شندى . وما لبث أن أتته القبائل تقدم الولاء والتسليــم . فسلــم الجعليون . وفي شندى تصالح مع الشايقية ، الذين فروا بعد المعــارك وانخرطوا في جيشه كباشبوزق . وتوجه اسماعيل بعد ذلك الى سنــار المتهالكة وفشلت مقاومة محمد ودعدلان باغتياله ، فسلمت له بقيــادة بادي . وهكذا لم يجد اسماعيل صعوبة في زحفه بعد هزيمته للشايقية في كورتي ، فالبلاد مفككة ، وفوق ذلك لم يكن هناك قومية عامة تربط الجميع وتجعلهم يتكتلون ضد أي غزو أجنبي . وهكذا زال ملــك دام اكثر من ثلاثة قرون، حفظ للاسلام والعروبة اسمهمــا وتقاليــدهما في حوض النيل الادنى وروافده .

أما الدفتردار فقاد حملة كردفان ، واشتبك مع المقــدوم مسلم حاكمها في بارا . وانتصر عليه وضم كردفان الى أملاك محمد علي ، كما ضمت سنار من قبل . ثم بعث محمد علي ابنه ابراهيم ليساعد أخـــاه اسماعيل لوضع خطة لتنفيذ أهداف الحملة ، لجلب السود الصالحين المجندية وهو هدف رئيسي لمحمد علي ولتوجيه الغزوات ولكنهـــم لم يأتوا بالعدد الكافي .

ثم بدأوا في فرض الضرائب وكانت باهظة لم يألفها الناس ، فأهل السودان آنذاك أغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد ، والروبالات المتداولة بين الناس قليلة . وتتيجة لذلك كانت بوادر الثورة في منطقة سنار ومهاجمة الحاميات المنعزلة وهروب الاهالي الى الشرق والى الحبشة . رغم محاولات اسماعيل لتخفيفها الا أن الحال لم تتغير مما زاد من الكراهية للحكم المصري . لعدم ملاءمة مناخ سنار نقل اسماعيل العاصمة الى ودمدني وبنى بها ثكنات . وطمع اسماعيل في أن تكون عودته للقاهرة عودة الفاتحين والابطال . وهو في طريق عودته الى القاهرة وفي منطقة الجعليين يبدو أنه طلب منهم مطالب لا تسمح مواردهم المحدودة بايفائها ، فاعتذروا له فأهانهم وكانت النتيجة مقتله. ومن هنا كانت حملات الدفتردار العنيفة انتقاما لمقتل اسماعيل وكانت نقطة سوداء في تاريخ الحكم التركي المصري في السودان . عين عثمان بك مأمورا لاقليم سنار وأعجبته الخرطوم فنقل اليها العاصمة ، وتلاه محو بك واتبع سياسة لين ومسالمة لمحو بعض ما علق بنفوس الناس نتيجة للضرائب التي فرضت وحملات الدفتردار .

ثم كان خورشيد وعهده عهد استقرار الادارة والأخذ باسباب العمران . وفي فترة حكمه على سنار اتبع سياسة أرجعت الفارين للسودان . واستعان في ذلك ببعض كبار السودانيين كالشيخ أحمد الريح والشيخ عبد القادر ود الزبير وشيد مسجدا بالخرطوم ومباني الحكومة وثكنات الجيش ، وفرق الاخشاب على الاهالي تشجيعا لهم على عمرانها ، وتوسعت الخرطوم وازداد عدد السكان حتى بلغ خمسة عشر ألف نسمة في ١٨٢٤ [١] . وصارت الخرطوم من أهم المراكز

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** (القاهرة ، ١٩٤٧) . ص ٢١ .

التجارية ، اذ جاءها التجار من مختلف انحاء العالم خاصة من مصر والقسطنطينية ، كما بذلت الجهود لزيادة انتاج البلاد واستغلال ثروتها الطبيعية من زراعية وحيوانية ، وذلك بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات وادخال الطرق الحديثة في كليهما ، وارسال الخبراء المختصين من أجل الغرض فارسل محمد علي مع خورشيد آغا ما ينوف عن المائة من الفلاحين ليعلموا الاهالي عمليا أحدث وأنفع طرق الزراعة، ووصل الخبراء في زراعة الأفيون والدباغة وأعمال الجبس والجير ، ولفشلهم رأى محمد علي أن يستعيض عنهم بالسودانيين يرسلون الى مصر لتعليم بعض الصناعات والحرف ليعودوا ويمارسونها في السودان، أيضا طلب خورشيد عمالا من مصر يجيدون صناعة السواقي المصرية لتروي أراضي الجعليين بعد أن فكر في الاعتماد على الري المستديم بدلا عن الامطار ، وطلب عمالا لحفر الترع لاستغلال مياه الفيضان ، وأغرى السكان البعيدين عن النيل في الجزيرة بأن يبنوا بيوتهم على النيل وينشئوا السواقي هناك ، كما استحضر أغراس الاشجار المثمرة من مصر لتزرع في السودان ، وشجعت بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر والقطن والقمح الذي نجحت زراعته في مديريتي بربر وسنار ، فأنشأت الحكومة مزرعة قصب سكر ضخمة في الكاملين على النيل الازرق ومعها مصنع للسكر [1] ، ولتحسين نسل الماشية الموجودة بالسودان طلبت كباش ممتازة من مصر ،

عموما تميزت الادارة الجديدة بعد هدوء الاحوال واستقرار الامن بنهوض عام هدفه زيادة الانتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية ،

---

(1) Hill , R. : Egypt in the Sudan (London 1959) ' P. 54 .

واستطاع عدد من الرحالة الاجانب القدوم للسودان • وكـــان من بين هؤلاء هاي وهوشت فقد زارا السودان عام ١٨٢٤ وبلغا موضعا قريبـا من موقع مدينة الخرطوم الحالية وفي عام ١٨٢٧ قام البلجيكـي أدولف ليناز دي بلفون برحلته المشهورة الى النيل (أو البحر) الابيض علـى نفقة الجمعية الافريقية البريطانية • وكان أول اوروبي استطاع اعتـلاء هذا النهر منذ العصور القديمة [١] حتى تمكن الكاشف الاغريقي داليون من السير في النيل الى ما بعد موقع الخرطوم• وفي ١٨٢٩ قام ادوارد روبل برحلة علمية الى السودان وعبر الصحراء من دبة الى الابيض وكان بذلك أول اوروبي زار كردفان [٢] • أمـــا هوسكنس فقـد وصف ما شاهده في بربر فتحدث عن مصنع النيلة الذي أنشأه محمد علي دون أن يستخدم لأدارته اوروبيا واحدا ، وكيف ازدهـــرت حتى كان من المستطاع الحصول على أربعة عشر أقة من النيلة سنويــــا • اذن فقد توسعت الزراعة وانتعشت وادخلت الصناعة ويقول محمد فؤاد شكري في هذا ان هذه الزراعة قد « ادخلت في بلد لم يعرف معنى الزراعة ولم يسبق لأهله الاشتغال بالصناعة [٣] » وكأنما اراد شكري بقوله هذا أن يعطي المصريين فضل ادخال الزراعة في السودان • وهذا ينافي الواقع اذ ان السودان قد عرف الزراعة منذ العصر المروي أي القرن الثالث قبـل الميلاد اذ أدخلها الاغريق وكان النشاط الرئيسي لمعظم المرويين حيـــث مارسوا انواعا متعددة من الزراعة ، فزرعوا الذرة وقد اكتشفت بقايـا ملابس من القطن في مروى تشير الى أن هذا المحصول قد زرع أيضـا

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ص ٢٧ •
(٢) المرجع السابق ص ٢٧ •
(٣) المرجع السابق ص ٣٣ •

وقطع من الكتان وهذه ان لم تزرع فربما تكون نتيجة التجـــارة مع مصر . أما الري فبجانب الامطار قد استعمـــل الشادوف لرفع الميـاه من النهر واستعملت الساقية أيضا [١] .

أما الذهب والمعادن فقد جرى التنقيب عنها في سنار وكردفان وبني شنقول وفازوغلي وقد ارسل محمد علي المهندسين لاستخراجه . كمـا أنه فكر في رحلته للسودان لذلك الغرض ، اذ ذكـر للقنصل الروسي الكونت ميدوم في أغسطس ١٨٣٨ ... « أما اذا عـدت من فازوغلي ومعي مركب محمل بالذهب أصبح من الميسور انهاء كل هذه الخلافات بشكل يحقق جميع آمالي لانه ان كان لدى المرء مـــال فانه لن يعدم اصدقاء أو جيوشا تجعل مهمة الوصول الى اتفاق سهلة ميسورة.[٢]» وربما كان أحد هذه الآمال الحصول على الذهب حتى يعرض على تركيا مبلغا ضخما من المال تستعيض به عما كان يدفعه لهـــا من جزية سنوية حتى يستميل كبار السياسيين باوروبا [٣] . أرسلت البعثات للتنقيب عن الذهب وغيره من المعادن ولكن كمياته كانت ضئيلة لم تتناسب والجهود التي بذلت لاستخراجه . والسودانيون أنفسهم عارضوا هذه البعثات . أما الحديد فقد اكتشف بكميات قليلة في كردفان .

رسمت خطة واضحة للتعليم ، وأعيد بناء ما تهـــدم من المساجد وقد كانت آنذاك دور التعليم وموئل الثقافة الاسلامية وشيدت مساجد

---

(١) Shinnie, P.L. : Meroe, A Civilization of the Sudan, (London 1967) ' PP. 158 - 160 .

(٢) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الاداب العدد الثامن ١٩٤٦ ، « صفحة من تاريخ السودان الحديث » ، ص ٣٦ .

(٣) المرجع السابق . ص ٣٦ — ٣٧ .

اخرى • ونظم القضاء وقبل مجيء الحكم التركي المصري كان السودان المسلم لا يعرف شيئا في مجال القوانين ، غير تعاليم الشريعة الاسلامية، ولم يكن لدى السوادنيين في الأغلب الأعم معرفة أو المام بقليل أو كثير من القوانين الوضعية وحتى الشرع الاسلامي لم يتمكن من معرفته معرفة حقة الا القليلون • لم يكد محمد علي يفتح السودان حتى ادخل فيه القوانين المدنية والعسكرية المتأثرة بالنظم الغربية • وقد سعت الحكومة لكسب الفقهاء والعلماء المسلمين فاستجاب هؤلاء مع غيرهم من المتعلمين للوضع السياسي القائم ، لانهم مدينون له برواتبهم وقد آخذت هذه الفئة مكانها مع القضاة والعلماء المبعوثين من مصر وكونوا طبقة موالية للحكومة • من هؤلاء القضاة الشرعيون الذين كانوا يعالجون كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية التي تهم المواطنين من أمور الزواج والطلاق والميراث وما الى ذلك • أما في المدن الصغيرة فكان ينظر في هذه المسائل نواب شرع تابعون للجهاز القضائي وهناك المفتي وعلى رأس هؤلاء جميعا رئيس القضاء • كان لكل مجلس محلي محكمة ، رئيس وثمانية أعضاء من الاعيان وبعض التجار• وهناك مجلس الاحكام بالخرطوم ويخضع هذا المجلس للمحكمة العليا بالقاهرة • أيضا زاد الاهتمام بالمذهب الحنفي • أما غارات الحبشة فقد ردت وتوسعت عمليات الكشف عن منابع النيل• رغم كل هذه الاصلاحات فقد انتشرت الرشوة والاختلاس وقد عوقب من ثبتت عليه التهمة كما حدث في بربر ودنقلا • كان العبيد يدفعون بدلا عن المرتبات ولكن ضغط الدول الاوروبية جعل محمد علي يأمر بالغاء ذلك •

استمرت التنظيمات واصلاحات خورشيد في عهد خلفه أحمد باشا ابوودان • فخصبت الاراضي ورخصت الاسعار حتى صار اردب الذرة بخمسة قروش •وعندما تضخمت مصروفات محمد علي من

الناحية العسكرية نتيجة لاحتلاله لسوريا بدأ يطالب بارسال الصمغ من السودان حتى تفرج الضائقة المالية . أيضا ضمت التاكا في شرق السودان بعد مقاومة من الهدندوة . وانشيء سد من التراب لتحويل مياه فيضان القاش الى اراض جديدة لزراعتها وانشئت مديرية التاكا هنالك كما أسس مدينة كسلا . وفي عهد خلفه أحمد باشا ابوودان استمر التوسع الزراعي خاصة في زراعة قصب السكر . وزادت العناية بتنظيم مالية السودان وشؤون الحكم والادارة وتثبيت دعائم الحكم في التاكا وقد انشئت الصناعة وأنشأ نور الدين افندي ــ احد المصريين ــ غدة مصانع كما أسس رجل الماني يدعى باور مصنعا للصابون والكونياك ، وكان يدير احد ابناء الغرب مصنعا للسكر والنيلة كما استطاع استخراج الكونياك من البلح وقصب السكر [1] .

عهد المنكلي هو بداية اللامركزية في فترة الحكم التركي المصري . وقد كان محمد علي حريصا على أن يبقى السودان وممتلكاته في يده حرصه على مصر نفسها فقسمت المديريات ، وعين اللواء حسن باشا لمديرية دنقلا التي وسعت حدودها حتى المتمة وشندي ، وأمين باشا للجهات العليا وتبدأ من المتمة وشندي ، وتشمل الخرطوم والنيل الابيض والجزيرة حتى ودمدني والاقسام الشرقية للنيل الازرق ، وسليمان باشا لمديرية سنار وهي من ودمدني جنوبا حتى حدود فازوغلي وشرق النيل الازرق ، وسليم باشا لمديرية فازوغلي ، وفرهاد باشا لمديرية التاكا ، ومصطفى باشا لمديرية كردفان . وامتازت فترة المنكلي باهتمام واسع في ترحيل المواشي من كردفان والبحر الابيض الى مصر .

---

(١) شكري ، فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٢٧

وجهزت محطات على النيل وعددها خمس وتسعون • كما نشطت حركة التجارة في النيل الابيض بالمراكب• وطلب الاجانب الدخول في الجنوب لجلب سن الفيل والريش • ولكن هذه الفترة شهدت أيضا خلافات بين المنكلي وبين المديرين وبينه وبين مدير الخرطوم ونتيجة لذلك أعاد محمد علي المركزية مرة أخرى • وبعد انشاء التاكا ضمت سواكن ومصوع نظير مبلغ من المال وكثيرا ما التجأ اليها الفارون من الضرائب والاعباء الحكومية الاخرى خاصة سكان الشمال ، وفي دنقلا بالذات • ومنهم من فر الى كردفان وسنار والخرطوم والنيل الازرق • هؤلاء الفارون رغم فقد مناطقهم لهم فقد نقلوا نشاطهم وخبرتهم بفلاحة الارض الى الاقاليم التي استوطنوها فزادوا انتاجها •

أما اللغة الرسمية للمكاتبات بين والي مصر والمسؤولين في السودان فكانت التركية كما يقول ريتشارد هل ، الا أن الكثيرين من المسؤولين كخورشيد كثيرا ما استعملوا العربية التي أصبحت اللغة الطاغية بعد وفاة محمد علي ، ومحمد علي نفسه كان تركيا • السودان لم يفتحه مصريون عرب فليس من بين الجنود الذين فتحوا السودان مصري واحد كما يقول هل •

هذه هي أعمال محمد علي في السودان ، أجريت على يد أبنائه وحكمدارية الذين اصطفاهم حتى يتمكن من تثبيت دعائم حكمه في مصر السودان وبالتالي يقوى ويدعم مركزه في مصر • فهو لتنفيذ أغراضه من فتح السودان أرسل البعثات والاداريين والمشرفين . كما زاره بنفسه وهو في السبعين من عمره وبقي فيه خمسة شهور • والسودان في رأيي مدين لمحمد علي في جعله حوض النيل الى فشودة وحدة ادارية لأول مرة • فهو أزال الى حد كبير الفوارق التي كانت موجودة بين

الممالك الصغيرة التي كانت موجودة قبل فتحه للسودان . ووضع حدا للحروب التي كانت تنشب بين القبائل ، وأمن المواصلات. بسبب الوحدة الادارية قلت العصبية القبلية وطغى الشعور بأن الجميع تحت ظل حكومة قوية ذات «هيمنة»، وتدفق السياح على السودان فاتصل بالعالم الخارجي متأثرا بالمدنية الموجودة آنذاك . وبينما كان في الخرطوم عمل على ازالة أسباب الشكوى . وقابل المشايخ والزعماء وقلد سليمان بك ملك ابو رملة الحكم من الخرطوم والى فازوغلي ، وقلد رؤساء سنار وكردفان الحكم في أقاليمهم كذلك[1]. وعندما وصل فازوغلي اعجبته قرية فامكة وموقعها فأمر المهندس الفرنسي دارنو أن يبني بها قصرا ويبني المهندسون بيوتا بجوار القصر وثكنات لاقامة الجند وتأسست من ثم مدينة محمد علي . أما السياسة العمرانية فقد كانت رشيدة هدفت الى تحسين الزراعة وطرق الري وزيادة الانتاج الحيواني فجلب العمال المهرة وحفرت الترع وأقيمت السواقي الجديدة وسلالات الحيوانات والاشجار المثمرة وتقاوي المزروعات الجديدة وغيرها من الاصلاحات التي ذكرتها من قبل .

ولكن هذه الادارة الجديدة كان لها توابعها اذ عرف السودان جشع الحكام والرشوة والاختلاس وادخل نظام جديد للضرائب لا قبل للسودانيين به . أما الادارة المالية فقد كانت على أساس تجاري بحت فمحمد علي كان يريد استغلال موارد السودان الزراعية ، التجارية والبشرية وهو لم يرد أبدا أن يكون السودان عبئا اقتصاديا على مصر ولا يحتمل أن تزيد مصروفات حكومته في السودان عن ايراداتها .

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الاداب العدد الثامن ، ١٩٤٦ ، « **صفحة من تاريخ السودان الحديث** » ، ص ٤٠ .

أما السودان في عهد عباس فلم يجد العناية التي وجدها في عهد محمد علي • ولكن لعباس اصلاحاته التي أدخلها • وقد وجد الزعماء الوطنيون والمشايخ حظوة عظيمة في عهد عباس • فقد قلد عباس الشيخ عبد القادر ود الزين وظيفة معاون الحكمدارية ومشيخة مشايخ عموم الجزيرة ، وقلد الشيخ عدلان محمد مشيخة جبال الفونج ، وعهد الى حسين خليفة مشيخة العتمور • وعومل شيخ الشكرية أحمد ابو سن أحسن معاملة • واشترك الزعماء الوطنيون في شؤون الحكم والادارة فاصبح الشيخ علي جلابي والشيخ محمد نور ضيف الله بمجلس الدعاوى وهو بمثابة محكمة عليا • كما عين الشيخ ابراهيم عبد الدافع مفتيا للمحكمة • كما صدرت لائحة في عهد الحكمدار عبد اللطيف باشا يسير العمل بمقتضاها في السودان وهي أن من يخدم في دنقلا يبقى ثماني سنوات وفي الخرطوم ست سنوات وفي كل من سنار وفازوغلي وكردفان والتاكا أربع سنوات، ولا يسمح أن يغادر أي موظف مقر خدمته قبل أن يأتي خلفه ، ولا يسمح له بالذهاب الى مصر أثناء تلك المدة الا بشهادة طبية • كما أجريت بعض التعديلات في المديريات، فادمجت فازوغلي في سنار وفصلت دنقلا عن بربر • وجعلت كل منهما مديرية مع اضافة بلاد الجعليين الى بربرة ، ودعمت الادارة الحكومية بعدد من الكتاب والمحاسبين والاطباء والاجزاجية • وزاد الاهتمام بتجميل الخرطوم فانشأ ديوان الحكمدارية وديوان المديرية والمطبعة ومحكمة العموم والاجزخانة وقشلاقات الطبجية وكلها بالطوب الاحمر• كما شهد هذا العهد دخول الرهبان المبشرين السودان • وأنشئت القنصليات بالخرطوم أولها القنصلية النمساوية وبدأ تبشيرها وتعليمها في الانتشار • كما نشط التجار الاوروبيون خاصة في النيل الابيض وشملت هذه التجارة الصمغ والرقيق وغيره والغى عباس منذ عام

١٨٤٩ احتكار تجارة الصمغ بين مصر والسودان، وأبطل العمل في منجم الذهب لعدم جدواه وتم الغاء مصلحة المواشي السودانية ، وقد كانت هذه المواشي تموت في الطريق الى مصر وتموت في مصر نفسها لعدم ملاءمة المناخ .

وفي مجال التعليم فقد وجدت معاهد التعليم الديني في السودان اهتماما وتشجيعا وأصلحت المساجد وعمرت ، وهي اذ ذاك دور العلم والدرس وبيوت العبادة وآداء الفريضة الدينية . وأجري على القائمين بها الرواتب ، وأكرم الفقهاء وشجع منهم من أراد الدراسة بالازهر ومن هؤلاء الشيخ محمد السنوسي والشيخ ابو بكر محمد. كما انشئت أول مدرسة نظامية في السودان في عام ١٨٥٣ تتسع لنحو خمسين ومائتين من التلاميذ . وكانوا يدرسون القرآن الكريم واللغة العربية والتركية وقليلا من الرياضيات . ولادارة هذه المدرسة اختيرت نخبة من الاساتذة كمحمد بيومي واحمد طائل وخليفة محمود وجعل رفاعة رافع الطهطاوي ناظرا عليها . وقد كان رفاعة مديرا لمدرسة الترجمة بالقاهرة. هذه المدرسة لم تبق الا سنوات قليلة ولم تلعب دورا يذكر في تعليم النشء بالسودان .

نال السودان في عهد سعيد نصيبا من اهتمامه ، ففي أول عهده عين علي باشا شركس حكمدارا على السودان ، وأوفد الامير عبدالحليم للتفتيش على ادارته واصلاح شؤونه . ولما زار سعيد باشا ، السودان في عام ١٨٥٧ التقى بالاعيان الذين قدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ومظالم الحكام ، فاستمع لهم ، وقيل أنه فكر في اخلاء السودان الا أن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا له أن يعدل عن رأيه محتجين بان اخلاء السودان سيؤدي الى تفاقم الحال فيه فعدل عن رأيه،

واعتزم اصلاح حاله ، فألغى الضرائب الجمركية على التجارة بين مصر والسودان . وأمر باعفاء الاهالي من المتأخر من الاموال ، وخفض الضرائب ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بان جعلها تتبع عدد السواقي في الاطيان لان السواقي تبين مبلغ خصب الارض ودرجة انتاجها . كما قرر عزل الموظفين الاتراك الذي شكا الاهالي سوء معاملتهم . واعتزم تعويد الاهالي حكم أنفسهم بانشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات . وأصدر مرسوما بالغاء السخرة [1] وأمر مديري الاقاليم بأن يحسنوا معاملة الاهالي خاصة في جباية الضرائب تقضي بألا يعهد للجنود تحصيلها لما اشتهروا به من القسوة . كذلك أمر بالغاء الغزوات ضد الرقيق . وأيضا انشأ محطات في صحراء كروسكو لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف انحاء السودان لضمان اتصال المديريات بعضها ببعض وبمصر ٦ وأنشأ محطات الجمال (البريد) فأسس قسم من الهجانة يقوم بهذه المهمة . وأنشأ نقطة عسكرية على نهر السوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين . ولما عاد الى مصر عهد الى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين حلفا والخرطوم فرأى موجيل ضرورة انشاء سكة حديد . ووضع مشروعا لذلك ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من النفقات . وقد أبطل منصب الحمكدار وجعل السودان خمس مديريات مستقلة في ادارتها بعضها عن بعض ولكنها ترجع في كل شؤونها الى وزارة الداخلية شأن مديريات مصر . وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة وعليها أراكيل بك مديرا حتى يشرف على الاصلاحات التي قررها . كما أنه أصدر

---

(١) السخرة : اجبار الناس على اداء اعمال شاقة بدون اجر .

تعليمات مفصلة لتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السكان لعمل الحدائق في منازلهم [1] • وأمر أن لا تفرض أموال على الاطيان التي تغرس بالاشجار المثمرة • ورأى سعيد باشا ان استقلال مديري الاقاليم جعلهم يجنحون الى الاستبداد والظلم ويسيئون معاملة الاهالي فألغى استقلالهم ، وأعاد منصب الحكمدار مرة أخرى ، وجعل موسى باشا حمدي حكمدارا • وكان من أعظم ولاة السودان وله فيه اصلاحات جمة منها انه عين من الاهالي نظار أقسام (مأموري مراكز) ومعاونين • وكون رؤساؤهم مجلسا• وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب وتسهيل جبايتها • وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية في انحاء السودان فكثر عدد المكتشفين في عهده ، ولكنه لم يحذ حذو ابيه في ايفاد بعثات مصرية كالبعثة التي أنفذها محمد علي الى السودان بقيادة البكباشي سليم قبودان أحد ضباط البحرية المصرية بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الاجانب •

مع بداية عهد اسماعيل بدأت السدنة الفعلية واشراك السودانيين اشراكا فعليا في الحكم وادارة بلادهم ، حيث عقد اسماعيل عقب توليته اجتماعا في الخرطوم مع المديرين ومشايخهم لاستشارتهم وابلاغهم مايريد أن يختطه من سياسة • وهذه أول مرة يستشار فيها الزعماء السودانيون لتخطيط السياسة • وكانت هذه خطوة الى الامام اضافة لمحاولات سعيد من قبله لاشراك السودانيين • فبعد تعيين المصريين الاصليين مديرين بالاقاليم تم تعيين السودانيين في الوظائف الهامة • وكان منهم مديرون ونظار اقسام ومشايخ قبائل واعضاء في المجالس المحلية التي عمت السودان ، ووصل جماعة منهم أعلى الرتب

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ١٤٤

العسكرية • وازدهرت السودنة فعين الشيخ أحمد ابوسن زعيم الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وبقي في وظيفته عشر سنوات كانت فترة هدوء وعدم اضطراب في منطقة نفوذه • وأظهر كفاءة عالية في التوفيق بين جميع المهام التي كان عليه القيام بها • ونجاحه دلل على كفاءة السوداني ومقدرته الادارية • وأجرى موسى حمدي اصلاحات في الجيش حيث أدخل عليه عنصر جديدا من الشبان واستغنى عن خدمات الطاعنين في السن والمعوقين وقوى الجهاز العسكري بتجنيد عدد من شبان قبائل الدينكا والشلك • وقبائل فازوغلي ، وهذا الدعم استلزم مصروفات اضافية كانت على حساب الاهالي ، اذ ازدادت الضرائب واتبعت الوحشية في جمعها • أيضا توسع نطاق السودان ، ففتحت فشودة وضمت سواكن ومصوع نهائيا ، وفتحت أقاليم خط الاستواء وبحر الغزال ، ودارفور وجنوبا حتى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا وشرقا الى البحر الاحمر وخليج عدن وغربا الى حدود وداي • فشودة كانت هامة اقتصاديا وسياسيا وبشأنها نشب الصراع السياسي بين انكلترا وفرنسا سنة ١٨٩٨م •

ضم سواكن ومصوع نهائيا كان له أثره في زيادة المشاكل الادارية ، فبذل اسماعيل محاولات متعددة لتعديل الادارة عله يجد مخرجا للمشاكل المالية ، ففكر في تقسيم السودان الى ثلاث مناطق يحكم كل منها حكمدار مستقل يتعاونون جميعا على المصالح المشتركة • كذلك فكر في جعل الغرب وحدة ادارية قائمة وكذلك الشرق ويقسم السودان الاوسط الى قبلي وبحري • عمرت سواكن ومصوع وذلك أن مدينة مصوع كانت قائمة على جزيرة بالبحر فوصل بينها وبين اليابسة بجسر في عام ١٨٧٢ ، فاتسعت المدينة وبني بها ديوانا للمحافظة وآخر للجمرك ، ومساكن الموظفين وشيدت بها قلعة متينة • وانشئت ترعة

صغيرة لتوصيل المياه العذبة الى سواكن وهذه الترعة تستمد المياه من خزان أقيم لجمع مياه الامطار في سطح جبل قريب من المدينة [1] .

غندكرو عندما فتحها محمد علي كان فتحا مؤقتا بمعنى أنه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة فيها لتعزيز سلطة الحكومة فيها ، واسماعيل هو الذي فكر في ضمها نهائيا ولكنه فعل ذلك على يد أجانب كبيكر وغودون . والاول كان قد حاول من تلقاء نفسه قبل ذلك اكتشاف منابع النيل فاكتشفت بحيرة البرت . وفي ١٨٦٩ صحب بيكر الامير ادوارد ولي عهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس . ورغب الامير الى الخديوي اسماعيل ان يعهد الى بيكر بمطاردة الاتجار بالرقيق في السودان نيابة عن الحكومة المصرية . ولم يتردد اسماعيل في قبول الطاب اذ كان يود التودد الى الحكومة البريطانية بجانب أهداف أخرى في فتح البحيرات . فعهد لبيكر بسط النفوذ المصري في جهات غندكرو ، وتنظيمها ، ونشر التجارة بها ، ومطاردة تجارة الرقيق، وانشاء الحاميات الحربية فيها وجعله حاكما على مديرية خط الاستواء لمدة أربع سنوات . وجهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة . وأقلت السفن معظم مهماتها من القاهرة للخرطوم بصعوبة اذ لم يكن في استطاعة البواخر اجتياز الشلالات فنقلتها الابل . وبعد الخرطوم سارت الحملة بالسفن . وعند وصوله ملتقى السوباط بالنيل بنى بيكر محطة سماها « التوفيقية » . ورفع العلم المصري على غندكرو ، وأنشأ بها حصونا . ثم بعد انتهاء مدته عاد بيكر الى بلاده عن طريق القاهرة . وبلغت نفقات الحملة ٨٠٠٠٠٠ر٨٠٠ جنيها تحملتها خزانة مصر في وقت اشتد بها الضيق المالي .

---

(١) الرافعي ، عبد الرحمن : **عصر اسماعيل** ، الجزء الاول ،(القاهرة ١٩٣٢) ، ص ١١٤ .

أما غودون فقد أرسله الخديوي للسودان عام ١٨٧٤ ووصل الى فشودة على رأس حملة . وسار حتى وصل بحيرة ألبرت حيث أنشأ ترسانة لتنظيم الملاحة في أعالي النيل وفي البحيرة . وبالفعل تم تركيب أول باخرة استقلها غودون وحاشيته . وكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة ألبرت السفن التجارية وكان منظر الباخرة موضع دهشة الاهالي. أنشأ غودون عدة نقاط عسكرية في السوباط والرجاف والناصر وغيرها.

كان الرقيق في عهد محمد علي ممنوعا ولكن هذا المنع ظل اسميا وبقيت تجارة الرقيق في السودان قائمة الى عهد سعيد تحت عين الحكومة وسمعها وبتأييد موظفيها . وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر في حاصلات السودان وفي الرقيق وتربح من كل ذلك الارباح الطائلة . وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون في مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكزا للتجارة واصطياد الرقيق . احتلال فشودة في عام ١٨٦٥ سد طريق النيل في وجه تجار الرقيق من بحر الغزال وخط الاستواء فاستمرت محاولات اسماعيل لمحاربتها واتبع أشد الطرق لمقاومتها دون اللجوء الى السياسة مما زاد السخط على الادارة المصرية لان الرقيق كان مصدر ثروة التجار وأعيان البلاد ، كما أن الرقيق يشكلون معظم الايدي العاملة في الزراعة ورعي الماشية الا أن اسماعيل كان قد حاول الاتفاق مع أصحاب الزرائب للتخلي عنها مقابل تعويضات تدفع لهم، كما فرض اسماعيل ضريبة « الوبركو » على كل تاجر وعامل يعمل في المراكب التي تصعد على النيل الابيض ، وشددت الوابورات الحكومية الحراسة على النيل . ولكن مصادر الرقيق ظلت خارجة عن سلطة الحكومة . كذلك فرض اسماعيل رقابة على توريد الاسلحة والذخائر التي تستعمل في الغزوات الى السودان . وطلب من قناصل الدول

الاجنبية أن يساعدوه في حملته ضد تجار الرقيق الاوروبيين الذين كانت لهم امتيازات اقتضت أن لا يحاكموا الا بواسطة القناصـــل أنفسهم ، فطلب منهم أن يرفعوا الحماية عن التجار • هذه الاجراءات نجحت الى حد كبير في تخفيف حدة نشاط تجار الرقيق في مناطق النيل الابيض • وقد قدم اسماعيل بعمله هذا خدمة جليلة للسودانيين •

كان الحال قد ازداد سوءا بتذمر وثورة الجهادية السود بكسـلا حين تأخرت رواتبهم فاستدعى ذلك اصلاحات أخرى في الجيش كالغاء الآليات السودانية وابقاء اورطة واحدة منها مكونة من ثمانية بلوكـات ثم تعيين جعفر باشا مظهر حكمدارا لاصلاح حـــال الجندية واتبـاع القوانين العسكرية • كما أحدث تطورات ادارية وعمرانية في الخرطوم، ونشطت الحركة الفكرية ، وبدأ التوسع جنوبا في بحر الغـزال وخط الاستواء ، وأصلح دار صناعة الخرطوم ، وأنشأ بعض المدارس وطلـب الى حكومة القاهرة أن تعهد الى رفاعة رافع الطهطاوي اتمـــام ترجمة كتاب الجغرافية العمومية لملطبرون وارسال الترجمة الكـاملة للسودان كي يفيد منها أهل البلاد [1] • وقرب علماء السودان وكرمهم ، وانشـأ محاكم عدة للفصل في منازعات الناس ، واهتـــم بعمران وتجـــديد الخرطوم فازداد السكان ونمت حركة التجارة فأنشأ ضبطيات قضائيـة تقوم بمهام البوليس في المدن كالخرطوم ودنقلا وبربر وغيرها ، وأصدر أوامره على أن تكون المباني متفقة مع قوانين الصحـــة وفن الهندسة ، وترغيبا للناس في العمارة والبناء جعلت الحكومة سياستها أن تبيـــع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للاهالي بالثمـن الاساسي

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٧٢

دون ربح ، الا أن السياسة المالية التي اتبعتها أدت الى أن يفر الكثيرون عن أراضيهم وسواقيهم .

اهتم مدير بربر حسين بك خليفة بالزراعة في بربر وأدخل ري الحياض بالترع والسيالات . وأدخل زراعة القطن في مديريته ، وشهدت طوكر وكسلا ومصوع تطورا كبيرا خاصة في زراعة القطن . وعندما عين مديرا على قبلي السودان وسع نشاطه واهتمامه بالزراعة، وعمل على دراسة السودان « جميعه » من حيث الاراضي الصالحة للزراعة وخاصة القطن وقدر ما يمكن زراعته في مديريات السودان المختلفة ما عدا مصوع ما يربو على المليون من الافدنة [1] .

وفي عهد ممتاز باشا خطت السودنة خطوات أوسع عندما اعتزم مدير قبلي السودان تنظيم المجالس المحلية وتعميمها، اذ أراد أن يجعل من مكتب العرضحالات في مديرية التاكا مجلسا خصوصيا يرأسه الشيخ حامد موسى ناظر قسم بني عامر السابقة . كما أجرى تعديلا في مجالس مصوع وكسلا المحلية بحيث أصبح من اختصاصها بحث المنازعات التجارية الى جانب النظر في العرضحالات المقدمة اليها ، وعلى أن يكون أعضاؤها من أعيان البلاد وتجارها ينتخبهم الاهالي والاعيان والعمد . وعين قاسم أفندي من « أهالي السودان » وكيلا لمجلس استئناف لرؤية قضايا السودان [2] . وأيضا تكونت أربع بلوكات من العساكر السودانية لاستخدامها في مأمورية في النيل الابيض ، ورقي ضباطها الثلاثة عشر الى مختلف الرتب العسكرية . وفي عام ١٨٧٢ قرر المجلس

---

(١) شبيكة : **السودان عبر القرون** ، ص ١٥٦

(٢) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ص ٧٩

الخصوصي في القاهرة انشاء مجلس سواكن • ثم صارت قضايا مجلس كسلا تستأنف أمام مجلس سواكن وقضايا سواكن أمام مجلس مصوع وقضايا مصو عأمام مجلس كسلا • ويقول شكري «ان سياسة السودنة واشراك العناصر الوطنية في الحكم والادارة قد جذبت زعماء السودانيين ورؤساءهم فاطمأنوا الى حكومة المصريين وعمدوا الى الانضواء تحت رايتها وآية ذلك أن الزبير رحمة الجميعابي على الرغم من ذلك الملك العتيد الذي شيده في بحر الغزال ما لبث حتى قدم فتوحه هدية لحكومة الخرطوم بمجرد أن تحرجت علاقاته مع عربان الرزيقات المنتشرين على حدود مملكته الشمالية كما تحرجت مع ابراهيم سلطان دارفور المنحاز للعربان ضده [1] • وقوله أن السودنة جذبت السودانيين للحكم المصري اذ اطمأنوا له صحيح الى حد بعيد ، ولكنني أختلف معه في ايراده الزبير باشا كمثال اذ أن الزبير باشا كان قائدا ماهرا وسياسيا كبيرا فقد قدر عواقب انتصاراته على الحكومة ثم تمكنه من فتح دارفور وغيرها ، وعلم مقدار الخطأ الذي سيقع فيه ان هو واصل سياسة معاداة الحكومة وهو تاجر كبير يخاف ويخشى تدهور تجارته سر ثرائه وبالتالي قوته فرأى أن لا بد من مهادنة الحكومة ليأمن جانبها فاتبع ما رأى وكانت مكاسبه أكثر وأوسع • كما أن حديثه يناقض نفسه اذ نرى من حديثه ان الزبير قدم فتوحه للحكومة لان علاقاته قد تحرجت مع الرزيقات والفور وليست كما ذكر من أن سياسة السودنة قد طمأنته للحكومة ففكر في الانضواء تحت لوائها •

شهدت البلاد على عهد حكمدارية موسى باشا حمدي عام ١٨٧٣

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : **الحكم المصري في السودان** ، ص ٨٦

نهضة تعليمية فأنشأت خمس مدارس لنشر المعارف والعلـــوم بأمر من الخديوي اسماعيل في عام ١٨٦٣ ـ ١٨٦٥ • وفتحت مدرسة الخرطوم الاولية في عام ١٨٦٧ • وفي العام التالي فتحت مدارس مماثلة في بربر، دنقلا ـ الابيض وكسلا على غرار المدارس التي كانت بمصر آنـذاك على اساس أن تسع كل مدرسة زهاء المائة تلميذ • كما فتحت مدرسـة في مديرية النيل الابيض لتعليم أبناء الزنوج الـذين فك أسرهم من تجار الرقيق ليلتحقوا بعد اكمال المرحلة الدراسية بالخدمة العسكرية• وقد وصل التلاميذ في هذه المدارس بعد ثلاث سنوات مستوى لا بأس به في القراءة والكتابة والحساب أهلهم للالتحاق بدواويـن الحكومة كمحاسبين وكتبة وموظفين تلغراف وعمال بترسانة الخرطوم وبهم نهض الادب والثقافة •

كمـا رأى ممتاز تأمينـا لسياستـه القطنيـة أن يبعـث بعدد من الشبان السودانيين لمصر لتعلم الصناعات الميكانيكيـة حتى يديروا ماكينات الحلج وكبس الاقطان في بلادهم • كما اقترح ارسـال بعض خريجي هذه المدارس الحكومية الى مصر لتعلم الطب والصيدلة الا ان ذلك لم يتم لعدم توفر الكفاءة المطلوبة • كان جعفر باشا مظهـر قد أعد مشروعا لتعليم عشرين من السودانيين الطب والصيدلة في مدرسة الخرطوم الابتدائية تحت اشراف طبيب مستشفى الخرطوم وبمـا أن قيام استاذ واحد بتعليم هذا العدد الكبير تعليما مثمرا كان أمرا متعذرا لصعوبة علوم الطب والصيدلة ولعدم وجود الوسائل اللازمة لتدريسها على خير وجه رأى اسماعيل أن يبعث الى السودان بالعدد الكـافي من الاطباء «المهرة» والصيادلة المدربين • وكانت مهمة هؤلاء تطعيم الاهالي ضد الجدري والامراض الوبائية ، والاشراف على المستشفيـات التي انشئت في دنقلا والتاكا وبربر وسنار والخرطوم وبـذلك تحسنت

الخدمات الصحية لدى السودانيين • أما الخلاوي والمساجد التي تدرس العلوم الدينية فقد بذلت لها الاعانات والاحسانات وخصصت للعلماء مواهي شهرية بلغت الاربعمائة قرش شهريا وكذلك راتب ذرة للطلبة • وربطت كل المدن الهامة بخطوط التلغراف مع بعضها ، وطلبت الاعمدة من غابات السودان وعندما ثبت عدم صلاحيتها في بعض المناطق التي تكثر فيها «الارضة» استعيض عنها بأعمدةحديثة طلبت من انجلترا [1]• وفي عام ١٢٨٦ هـ اتصلت الخرطوم بالقاهرة وتم الاتصال بدارفور عند نقطة الفوجة وكان لهذا الاتصال بدارفور أثره في فتوحاتها اذ أصبحت الاتصالات سهلة • وبدأ العمل في السكة الحديد بين السودان ومصر •

وفي ظل حكمدارية محمد رؤوف باشا كان الحكمدار نفسه مشرفا على تفقد الاحوال وحل مشاكل الحدود خاصة مع الحبشة وثورات امراء الفور في دارفور • وظل يغدق الرتب والنياشين على كبار السودانيين ومشايخ القبائل ، وعين بعضهم في مناصب ادارية كبرى في الاقاليم ظنا منه أن العنصر التركي الذي بأيديه السلطة هو أساس الفساد • ولكنه سرعان ما تخلى عن السودانيين وأحل الاوروبيين محلهم خاصة في المديريات الجنوبية وفي دارفور • كما عمل على الغاء الرقيق ووضع مشروعا لذلك اعترفت فيه الحكومة بتمليك الرقيق الحالي لمالكيه ، ويستمر الملك اثنتي عشرة سنة يصبح بعدها المملوك حرا ، وأيضا يكون حرا اذا ثبت سوء معاملة المالك له • هذا المشروع أحدث ضجة في أوساط الناس لان الرقيق كان عنصرا أساسيا في المجتمع في ذلك الحين •

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ١٥٩

هكذا رأينا أنه منذ عام ١٨٢١ بدأ في السودان نشاط عظيم وواسع ساعد في تغيير وجه الحياة الاجتماعية . والاقتصادية والسياسية والبدائية فيه ونقلها الى مستوى أرقى ومتمدن • كما وأدخلت نظم ادارية وقضائية ومالية في السودان لأول مرة ، فتركزت الادارة السودانية، وانتشرت الطمأنينة والاستقرار، وكان هدف محمد علي ومن خلفه الاستفادة من البلاد ثم افادة أهلها • وأراد محمد علي ذلك بالرفق واللين حتى أنه عاتب ابنه اسماعيل لأخذه الشايقية بالشدة منذ البداية [1] • وانتشر التعليم في البلاد وانشأت المدارس كمدرسة عباس الاولى في الخرطوم ، وكانت النواة الاولى للتعليم المدني في السودان • وترقى الجنود السودانيين في الوظائف • واتبع الحكم الذاتي أو اللامركزية في أكثر من مرة ، ونظام اللامركزية هذا أعطى بعض السودانيين الفرصة للمشاركة في الحكم فأظهروا الكفاءة ونالوا الخبرة • وتوسعت البلاد خاصة في عهد اسماعيل • عمرت المناطق المفتوحة • وعمل السودانيون في المناصب الكبيرة • كما أن المركزية في البلاد وسريان سلطاتها على كل الاقاليم أعطى السودان وحدته بعد أن كان امارات ومشيخات لكل حكمها الذاتي وقليلا ما خصصت لسلطة مركزية • ورغم التنقل بين اللامركزية والمركزية فقد كانت البلاد تدار وتحكم من الخرطوم بواسطة الحكمدار وينوب عنه مديرون في الاقاليم ، والمدير يشرف على نظار الاقسام وهؤلاء بدورهم على مشايخ الاخطاط • أما القبائل الرحل فلها شيخها يتصل بالمديرية رأسا • أما الضرائب فقد كانت دائما سببا للثورات والمشاكل رغم المحاولات التي بذلت لتحقيقها وتسهيل طرق جمعها • وازداد حجم التجارة الخارجية •

---

(١) شبيكة ، مكي : **السودان عبر القرون** ، ص ٩٠

وصار استعمال النقود على نطاق واسع ضرورة لا محيد عنها لـذا وجدت مجموعة من قطع النقود الاوروبية ذهبية وفضية من ذوات الفئات العالية متداولة بين الايدي في المدن الكبرى • أما في الجنوب خاصة جنوب كاكا في أعالي النيل فانه حتى عام ١٨٦١ لم تكن هناك عملة قابلة للتداول• وكان القضاء في الاموال الشخصية يمارس بمقتضى الشريعة الاسلامية ،ويقوم عليه قضاة ومفتون من عواصم المديريات ، والقانون الهمايوني أساس المحاكمات في القضايا المدنية والجنائية• وفي كل مدينة مجلس محلي من التجار والاعيان للنظر في القضايا الصغيرة واعضاء المجلس لا يعطون أجرا الا بعض رؤساء المجالس في المدن الكبرى ، وشملت العضوية الضباط والموظفين • أما القضايا الكبرى فيبت فيها المديرون أنفسهم وبعضها يحال الى القاهرة • وكونت في المدن ضبطيات قضائية تباشر التحقيق في الجرائم وتقديمها للمحاكمة ، والجيش ضم جنودا مصريين وسودانيين • العنصر السوداني يتزايد في السنين الاخيرة من العهد حتى رأينا أن معظم الحاميات كان يقوم على حراستها جنود سودانيون قبل اشتعال الثورة المهدية أما التجارة مع الخارج فقد ظلت تتبع طرق القوافل التقليدية الى مصر أو الى ميناء سواكن ، وتصدر البلاد العاج ، ريش النعام والتمر هندي ، السنامكي، الجلود ، النيلة ، المسك ، قرون الخرتيت ، الزيوت ، السمسم ، العسل، الذرة والملح وغيرها • وتستورد المنسوجات القطنية والالات الحديثة القاطعة ، الروائح والعطور وغيرها • وظلت مدارس العلم والقرآن تؤدي رسالتها كما كانت ، وظل مشايخ الصوفية يرشدون الناس ويأخذون عليهم النعرة القبلية التي كانت ظاهرة المجتمع بالرغم من أن العهد جعل الادارة مركزية ممعنة فيها • وقد سودت حملات الدفتردار الانتقامية والطرق الوحشية لجمع الضرائب ، وجه هذا العهد ، وشاعت

حوادث الرشوة والاختلاس والفساد السياسي والاداري حيث اشترك الحكمداريون والنظار في اصطياد الرقيق والاتجار به سواء كان ذلك لحسابهم الخاص أو لسد نفقات الحكومة والادارة في السودان تدفع مرتبات بعض الجند • ولكن محمد علي لم تكن له يد مباشرة في هذا فهو كثيرا ما كان ينصح من يعينهم بل يأمرهم بالعمل لخير السودان ورفاهية أهله وأن « الجيش والمدفعية التي تتقدم في بلادهم ولا تحمل الى قراهم سوى السلام والسكينة [1]» •

الملاحظ أن معظم الاداريين المصريين في السودان أظهروا عدم رغبة وكفاءة في خلق حكومة من عدم لانهم كانوا مدفوعين للحكم دفعا ولانهم كانوا مرغمين فتعددت أخطاؤهم • وقد كانت الادارة في يد العسكريين فلم تكن لهؤلاء النظرة البعيدة المطلوبة في آداء المهام المختلفة •

في رأيي أن محمد علي لم يفتح السودان اطلاقا لتحديث السودان لذا عملية تحديث السودان كانت تلقائية أو نتيجة لجهود محمد علي التي بذلها للاستفادة من خيرات السودان• فهو اتبع من الوسائل والاجراءات ما يكفل له تحقيق أغراضه ، ونتيجة لما بذله في ذلك انتقل السودان الى درجة أرقى ومستوى أفضل في مختلف الجوانب • وعموما فقد بدأ تحديث السودان في عام ١٨٢١م بدخول محمد علي واجراءاته واصلاحاته للسودان وقد سارت بداية التحديث في خطوات تدريجية معقولة بدأت بالفتح ومحاولة تثبيت دعائمه ، ثم كانت فترة العمران

---

(١) شكري ، محمد فؤاد : مجلة كلية الآداب العدد الثامن **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، ص ٤٠ •

والاصلاحات والتعديلات الادارية وبداية السودنة ، وأخيرا مواصلة العمران والتوسع والفتح .

ورغم أن بداية التحديث كانت على يد أجنبية الا أن السودان بدأ يتخذ وضعه الجغرافي الحالي منذ عام ١٨٢١ . وتعرف السودان على العالم الخارجي الحديث أو عرف هذا السودان وانفتح على الغرب وبدأ نظام اداري «حديث» يختلف عن الذي كان سائدا قبل ذلك فخففت الفوارق بين الممالك التي كانت موجودة ، وقلت العصبية بفضل الادارة الموحدة. وأدخل السلاح الناري والمراكب النيلية وبدأت نهضة اجتماعية وثقافية اقتصادية في البلاد .

المراجع

(ا) كتب باللغة العربية :

ا ـ زاهر رياض : **السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ١٨٢١ ـ ١٩٥٣** (القاهرة ، ١٩٦٦)

(٢) حسن احمد ابراهيم : **محمد علي في السودان** (الخرطوم بلا تاريخ)

(٣) محمد فؤاد شكري :

(١) **الحكم المصري في السودان ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥** (القاهرة ١٩٤٧)

(٢) مجلة كلية الاداب العدد الثامن ، ١٩٤٦ **صفحة من تاريخ السودان الحديث** ، رحلة محمد علي باشا الى فازوغلي ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩

(٣) **مصر والسودان** (القاهرة ١٩٥٨)

(٤) مكي شبيكة :

(١) **السودان عبر القرون** (بيروت ١٩٦٥)

(٢) **مختصر تاريخ السودان الحديث** (القاهرة ١٩٦٣)

(٥) نعوم شقير : **جغرافية وتاريخ السودان** (بيروت ١٩٦٧)

(٦) عبد الرحمن الرافعي : **عصر اسماعيل** ، الجزء الأول (القاهرة ، ١٩٣٢)

الفتوح العربية ـ الاسلامية ودوافعها

الدكتور عبد الجبار منسي العبيدي
كلية التربية / جامعة بغداد

ان حركة الفتوح الاسلامية كانت ظاهرة تاريخية كغيرها من الحركات التي شهدتها الشعوب قديما وحديثا بعد توحدها أو نهضتها واصلاح أمرها [1] . وقد اختلف المؤرخون والباحثون وخاصة المستشرقون منهم في تحديد بواعث هذه الحركة فالبعض ردها الى عوامل اقتصادية تمثلت في رغبة العرب التمتع بخيرات البلدان المجاورة التي كانوا على علم بها بسبب تجارتهم معها كبلاد الشام والعراق [2] والبعض الآخر يرى أنها كانت حلا لمشكلات العرب الداخلية الاقتصادية والسياسية والتي تمثلت في توجيه طاقة العرب المطبوعين على حب القتال بعد حروب الردة والقضاء على المرتدين وما نشأ عنها من قوى عسكرية

---

(١) احمد الشريف : دور الحجاز ، ص ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٨ ، نقلا عن برنارد ـ العرب في التاريخ ص ٧٥ .

ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

نرومان بنز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٥ .

وقتل أعداد كبيرة من المرتدين ، فلو بقي العرب في داخل شبه الجزيرة العربية لأفنوا بعضهم بعضا ، وخاصة أن البدو منهم لم تعرف حياتهم الاستقرار . لذا كان يخشى الخليفة من هذا الأمر فاتجه نحو استغلال هذه القوة لصالح الدعوة الاسلامية، فكانت الفتوح في الخارج توحيدا وتماسكا للعرب في الداخل (١) .

أما فيما يخص الرأي الأول الذي يعلل حركة الفتوح بدوافع اقتصادية ويزعم أنهم ما قاموا بهذه الفتوح الا طمعا في خيرات البلاد المجاورة فرأي خاطىء لا يؤيده أي دليل ، لأن الحقيقة أن العرب اندفعوا في هذه الفتوح بدافع الايمان بالدين الاسلامي والجهاد في سبيله وشعورهم بأن عليهم مواصلة هذا الجهاد حتى يصير الدين كله لله . وهذا واضح في قول الخليفة عمر بن الخطاب (رض) حيث قال : « ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله الا بذلك ... سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها » ، فانه قال : « ليظهره على الدين كله » ، والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومول أهله مواريث الامم » . والآية الكريمة تقول : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » (٢) . وفي كل المعارك التي خاضوها والحملات التي قادوها نجد أن الدافع الديني هو الأول بدليل أنهم

---

(١) جلوب : الفتوحات العربية الكبرى ، ص ١٩٢ ، تعريب خيري حماد .

فلهاوزن : الدولة العربية ، ص ٢٣ .

(٢) الطبري : الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ .

القرآن الكريم : سورة الأنفال ـ آية رقم ٣٩ .

كانوا يعرضون على كل بلد يريدون فتحه الاسلام ، فاذا قبلوه كانوا أخوة للمسلمين ، ومن ثم فلا كسب مالي يرجى في هذه الحالة . أما اذا رفضوا الاسلام فرضت عليهم الجزية لكي تكون حافزا لهم على أن يتخلوا عن عقائدهم القديمة ويدخلوا في دين اولئك العرب الفاتحين ، لأن الجزية في الحقيقة لم تكن مجرد مال يدفع ، بل كانت اشعارا لغير المسلم بانه أقل من الناحية المعنوية والروحية من المسلم ، ومن صالحه لذلك أن يرتفع لنفسه من ذل الجزية الى حرية الاسلام . فقد قال خالد ابن الوليد في أهل الحيرة أثناء الفتح : « اني أدعوكم الى الله والى عبادته والى الاسلام ، فان قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وان أبيتم فالجزية ، وان أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر » . فقالوا : « لا حاجة لنا في حربك ، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم ، فكانت أول جزية حملت الى المدينة من العراق » [1] .

ان المؤرخين ، وخاصة المستشرقين منهم ، لم يكن رأيهم الا استنتاجا أقاموه على حالة تمت ، ونظروا اليها من خلال ما مضى من تاريخ شبه الجزيرة العربية ، ومن خلال ما استقرت عليه الأوضاع بعد الفتوح ، فالجزيرة كانت مركزا لهجرات كثيرة تمت من قبل القبائل نتيجة الاضطرابات الداخلية السياسية منها والاقتصادية، مثلما حدث من هجرات القبائل العربية في الجنوب والتي لم تكن تدفقا قبليا وغزوا وانما كانت حركات اضطرارية بطيئة استقرت على مشارف البادية [2] .

---

(١) الطبري : الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ .

(٢) احمد الشريف : دور الحجاز ، ص ١٦٤ .

أما الرأي الثاني والذي يرى أنها كانت حلا لمشكلات العرب الداخلية ، الاقتصادية والسياسية . فهذا يتناقض تماما والسياسة التي اتبعها الخليفة ابوبكر الصديق (رض) تجاه المرتدين ، اذ حظر على القبائل التي تمردت المشاركة في حركة الفتوح ، ولم يرفع عنها الحظر الا أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) . فقد ذكر الطبري أن أبا بكر قال لخالد بن الوليد : « ... أن استنفر من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الاسلام بعد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي . فلم يشهد الأيام مرتد » [1] . ثم ذكر الطبري في مكان آخر في كتابه : « فكان أول شيء أحدثه عمر في خلافته مع بيعته بعثة أبا عبيد ، ثم بعث أهل نجران ، ثم ندب أهل الردة ، فأقبلوا سراعا من كل أوب ، فرمى بهم الشام والعراق » [2] .

ان الدوافع الحقيقية لحركة الفتوح العربية الاسلامية كانت الرغبة في نشر الاسلام ، تنفيذا لأوامر الله الذي دعا المسلمين لنشر دينه بين الناس كافة ، وهذا ما بيناه في أول الموضوع .

ثم الرغبة في استكمال وضع الدولة العربية الطبيعي ، فبعد أن أتمت الدولة وحدتها في الداخل ، كان لا بد لها أن تستكمل هذه الوحدة بضم كل العنصر العربي المقيم على تخوم شبه الجزيرة ، خاصة أن القبائل العربية في العراق والشام كانت وثيقة الصلة بأحداث شبه

---

(١) الطبري : الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .
(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٤٨ .
أحمد الشريف : دور الحجاز ، ص ١٦٨ .

الجزيرة العربية[1]، ولها الرغبة الأكيدة في تحرير بلادها الواقعة تحت السيطرة والنفوذ الأجنبي كالنفوذ الفارسي والروماني ، ودليل ذلك حركة المثنى بن حارثة الشيباني ضد الفرس وطلبه النجدة من الخليفة أبي بكر الصديق (رض) . فقد ذكر الطبري أن المثنى قال : « أمرني على من قبلي من قومي ، أقاتل من يليني من أهل فارس ، وأكفيك ناحيتي ، ففعل ذلك ، فأقبل فجمع قومه وأخذ يغير بناحية كسكر مرة ، وفي أسفل الفرات مرة » [2] . هذه الحركة العربية تمتد جذورها الى أبعد من ذلك الى موقعة ذي قار وانتصار العرب على الفرس ، أملا في التخلص من السيطرة الأجنبية على بلادهم ، فقد ذكر اليعقوبي بأن كسرى الفرس وجه الى هانىء بن مسعود الشيباني جيشا عندما رفض تسليمه ابنة النعمان وماله وسلاحه الذي كان قد أودعه النعمان بن المنذر عنده قبل توجهه الى كسرى ... فذكر « أن اجتمعت ربيعة ، وكانت وقعة ذي قار ، فمزقت العرب العجم ، وكان أول يوم ظفرت به العرب بالعجم . ويروى عن رسول الله أنه قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبي نصروا » [3] . وقد وقعت في السنة الثانية للهجرة بعد وقعة بدر بأربعة أشهر أو خمسة [4] .

ومما سبق ، يتضح لنا أن الفتوح الاسلامية كحركة تحرير وتوحيد للقبائل العربية في العراق والشام ، فالدافع كان قوميا وسياسيا ، بجانب الدافع الديني الأقوى [5] .

---

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز ، ص ١٦٦ .
(٢) الطبري : الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .
(٣) اليعقوبي : تاريخ ، ج ١ ، ص ٢١٥ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٦ .
(٥) احمد الشريف : دور الحجاز ، ص ١٧٤ .

ولهذا كان تجهيز الجيوش وارسالها خارج الجزيرة في أيام أبي بكر الصديق (رض) استمرارا للسياسة التي رسمها الرسول (ص) منذ العام السادس للهجرة والتي تمثلت في ارسال الكتب الى الأمراء والملوك وغزوتي مؤتة وتبوك وتجهيز جيش أسامة كما بينا سابقا أيضا .

وهكذا نجد أن حركة الفتوح كانت في أعقاب حركة الردة أو في نهايتها ، فقد بدأت ولا زالت حركة المرتدين لم تنته بعد ، حيث أمر خالد ابن الوليد بالتوجه الى العراق وهو لا زال باليمامة [1]. ثم كتب أبو بكر الى عماله في مكة والطائف واليمن وعرب نجد والحجاز يستحثهم على الجهاد والمساهمة فيه ، ويعدهم بما للجهاد من أجر وثواب ويرغبهم بالغنائم والمكاسب الرومية والفارسية . فقد ذكر البلاذري : « لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أمر أهل الردة ، رأى توجيه الجيوش الى الشام ، فكتب الى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم ، فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع ، وأتوا المدينة من كل أوب » [2] .

وبذلك سيرت الجيوش الى العراق والشام ولم تشهد بدايتها أية مساهمة من المرتدين الا بعد وفاة أبي بكر ومجيء الخليفة عمر بن الخطاب ، واستمرت جيوش الاسلام تقاتل وتفتح وتنشر الاسلام في خلافتي عثمان وعمر رضي الله عنهما ، ولم تتوقف الا في خلافة علي ابن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، بسبب ما رافق عهده من اضطرابات وفتن داخلية ، خاصة النزاع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان .

---

(١) الطبري : الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

البيروني ومنهجه في البحث التاريخي

الدكتور سيد رضوان علي
أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة
الاسلامية في كلية الآداب
جامعة قاريونس - بنغازي

من المعلوم أن أبا الريحان البيروني كان أحد عباقرة العلم في كثير من العلوم البحتة والتطبيقية كالفلك والرياضيات والجغرافيا والطبيعة وغيرها ، ولكن هل كان البيروني مؤرخا وهل له منهج تاريخي ؟ حتى نستفيد منه في اعادة كتابة تاريخ الامة العربية ، هذا ما سأحاول أن أجيب عليه في هذا البحث المتواضع .

الحقيقة أن شهرته كعالم فلكي رياضي طبيعي طغت على شهرته كمؤرخ ، ومن ثم خلت الكتب التي تتحدث عن المؤرخين عن ذكره قديما وحديثا [1] ولم يدرك أهميته كمؤرخ الا القلائل من الناس ،

---

(١) انظر مثلا الضوء اللامع للسخاوي ، ودراسات عن المؤرخين العرب لمارجوليث ترجمة د . حسين نصار ، ومصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه للسيدة اسماعيل كاشف ، ومنهج البحث التاريخي للدكتور حسن عثمان .

ومرجع ذلك في اعتقادي أمران اثنان : الفكرة الشائعة عن التاريخ بأنه أخبار الدول والملوك والفتوح أو التاريخ السياسي بتعبير آخر الأمر الثاني عدم وصول بعض كتبه التاريخية الينا وعدم اشتهار ما وصل منها وطبع في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر الا لدى الخاصة مثل كتابيه العظيمين : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، « تحقيق ما للهند من مقولة » • ثم وصفهما من قبل بعض الباحثين وصفا ضيقا أي في نطاق التقاويم وذكر الاعياد والعقائد والعلوم •

ولكن اذا سلمنا بأن مدلول التاريخ ليس مجرد تاريخ سياسي أو أخبار السلاطين والملوك وانجازاتهم بل هو تتبع لحياة الشعوب في نشاطاتها المختلفة الفكرية والعملية من عادات وتقاليد ، وثقافة وعلم ، وديانة وشريعة فان المرء الذي ينظر في هذين الكتابين المذكورين لا يجد مناصا من القول بان البيروني كان مؤرخا ، بل مؤرخا ناقدا نافذ البصيرة ، نهج منهجا جديدا في البحث التاريخي في عصره ، بل بعد عصره الى ظهور ابن خلدون •

هذا وقد ألف البيروني كتبا تاريخية أخرى بالمعنى المتعارف المشهور منها مثل « أخبار القرامطة والمبيضة [1] » و « المسامرة في أخبار خوارزم [2] » واللذان لم يعثر عليهما حتى الان حسب معرفتي ، كما ألف كتابا بعنوان « تنقيح التواريخ » والذي ضاع فيما ضاع من كتبه الكثيرة أصولا ومسودات حسب تصريحه في فهرست كتبه الذي ضمه سخاو الى مقدمته للاثار الباقية وذلك بسبب تنقلاته الكثيرة ،

---

(١) البيروني ، الاثار الباقية ص ٢١١ ، ٢١٣ •

(٢) ذكره ياقوت في معجم الادباء ٣١١/٦ ، واقتبس منه ابو الفضل البيهقي في تاريخه عن الدولة الغزنوية المعروف بتاريخ البيهقي •

والتقلبات السياسية التي عانى منها البيروني • ولعل هذا الاخير كان من أهم كتبه في موضوع النقد التاريخي كما يظهر من اسمه •

ولعل المستشرق فرانز روزنتال كان ، بعد سخاو أول من استأنس ببعض آرائه في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، كما كان الدكتور علي الشابي أول باحث عربي كتب عن المنهج التاريخي عنـــد البيروني في أطروحته للدكتوراه بعنوان « الادب الفارسي في العهد الغزنوي [1] »•

اذن فالبيروني بجانب كونه عالما فذا في العلوم البحتة والتطبيقية مؤرخ وصاحب منهج في البحث التاريخي كما سنتبينه عما قليل •

عصره وحياته الشخصية :

عاش البيروني العقود الثلاثة الأخيـــرة من القرن الرابع الهجري والعقود الأربعة الاولى من القرن الخامس الهجري ، وهو عصر التفكك السياسي واضمحلال القوة السياسية المركزية للخلافة العباسية في بغداد، ولكنه بالرغم من ذلك كانت فترة ازدهار علمي حيث أن الـــدويلات التي قامت في أطراف الخلافة العباسية شرقا وغربا ظلت تحمل تلـــك الرسالة الحضارية العلمية التي كانت من مميزات الخلافة العباسية منذ نشأتها • بل شهدت هذه الفترة ظهور قوة سياسية جديدة ، في منطقة جديدة في الشرق أي الدولة الغزنوية وفتوحها في داخل الهند • واحتك البيروني بأمراء بعض هذه الدول الصغيرة والكبيرة وشاهد التقلبات السياسية ، وتعرض لحياة التشرد وعدم الاستقرار احيانا ، ولكنه ظل يؤدي رسالته العلمية بهدوء وثبات ، وتفان في العلم غريب •

---

(١) طبع في تونس عام ١٩٦٥ م •

وشهدت هذه الفترة ظهور ثلاثة من عباقرة العلم بالنسبة لتاريخ العلم العالمي ابن سينا وابن الهيثم والبيروني ، ولكن سمي هذا العصر بعصر البيروني من قبل مؤرخ العلوم الشهير جورج سارتون [١] ، لانه أكبر شخصية عاشت في ذلك الوقت .

ولد ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني في ٣٦٢هـ (٩٧٣م) خارج مدينة خوارزم (المعروفة الآن بخيوة) في ضاحية من ضواحيها ، ومن ثم اشتهر بالبيروني وبيرون معناه بالفارسية (خارج) . ولا صحة لما جاء في بعض كتب كطبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة أن بيرون هذه مدينة في السند . ويقرر البحث أنها قرية كاث في اقليم خوارزم . وتقديرا لمكانة البيروني العلمية أطلقت حكومة جمهورية أزبكستان السوفياتية اسم مدينة البيروني على تلك القرية [٢] .

وتوفي البيروني في مدينة غزنة [٣] في رجب ٤٤٠ هـ [٤] بعد حياة دامت سبعا وسبعين سنة . وتنقسم حياة البيروني الى فترتين رئيسيتين : الفترة الاولى من ولادته حتى ٤٠٨ هـ في اقليم خوارزم وجرجان ، والفترة الثانية من انتقاله الى غزنة في صحبة السلطان محمود الغزنوي في ٤٠٨ الى حين وفاته بها . وهكذا فنشأة

---

(١) المدخل الى تاريخ العلم بالانجليزية .

(٢) دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، تأليف حكمت نجيب عبد الرحمن (الموصل ١٩٧٧) ص ٢٢٠

(٣) وأخطأ فدري طوقان في ذكر وفاته بمدينة خوارزم في كتابه العلوم عند العرب في ترجمة البيروني ص ١٧٢ .

(٤) حسب رواية تلميذه وخادمه الخاص ابي الفضل السرخسي صاحب كتاب جوامع التاريخ ، سخاو في مقدمة الاثار .

البيروني كانت في خوارزم وليست في غزنة كما ذكر فيليب حتى في كتابه تاريخ العرب المطول (ص ٤٦٠) • ولا يعرف عن نشأته واساتذته الا قليلا جدا ، ويتأكد من بعض أبياته الشعرية أنه كان من أسرة عادية جدا ، ولعله حرم من والديه في فترة مبكرة من حياته ، وكان مائلا الى العلم ، محبا للتعلم منذ الصغر كما حدث بنفسه وتعلم اللغة اليونانية من عالم يوناني جاء الى بلاده بطريقة مباشرة أي بالسؤال عن أسماء النباتات والاشياء التي كان يحضرها له [1] ، كما تعلم العلوم الكثيرة من أبي نصر منصور بن علي بن عراق واعترف بذلك في احدى قصائده:

وآل عراق قد غذوني بدرهم ومنصور منهم قد تولى غراسيا [2]

وعرف من أساتذته أيضا عبد الصمد بن عبد الصمد الأول حسب كلام ياقوت في معجم الأدباء (٣١١/٦) •

وكان يتمتع بذكاء فطري خارق وموهبة عظيمة في الفهم فنبغ مبكرا ، وبدأ يقوم بأعمال الرصد في موطنه الاول وعمره ١٨ سنة ثم في جرجانية (اوركانج حاليا) ونتيجة لهذا النبوغ المبكر حرص أمراء تلك المنطقة دعوتهم اليه فعاش في كنف امارة آل عراق أولا ثم بعد سقوطها انتقل الى امارة آل مأمون بخوارزم أيضا ، حيث ظل يتابع أعماله وتجاربه في الرصد ، وفي حوالى ٣٨٩ انتقل الى مدينة جرجان بدعوة من أميرها العالم الاديب شمس المعالي قابوس بن وشمكير حيث ألف أول كتبه « الآثار الباقية » في ٣٩٠ هـ باسمه ، ولكنه بسبب شراسة أخلاق الامير قابوس وخلافه معه عاد في ٤٠٠هـ الى خوارزم • وبعد

---

(١) علي احمد الشحات : ابو الريحان البيروني ص ٧٣ •

(٢) ياقوت ، معجم الأدباء ، ٣١٣/٦ •

فترة من حياة التشرد ، حيث أكرمه أمير آل مأمون أبو العباس المأمون ابن المأمون غاية اكرام وجعله مستشارا له ، ثم بعد سقوط هذه الامارة أثر هجوم السلطان محمود الغزنوي وحرصه على جمع العلماء في بلاطه انتقل الى غزنة في ٤٠٨هـ .

وفي هذه الفترة الثانية ذهب البيروني عدة مرات الى الهند في صحبة السلطان محمود وبقي بها طويلا [١] وجال في كثير من بقاعها البنجاب والسند وكشمير وحتى نيبال ، حيث تعلم اللغة السنسكريتية العلمية وعددا من اللغات واللهجات المحلية ودرس علوم الهند ومجتمعها، وعلم الهنود الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان الاخرى وكان من نتاج رحلاته الكتاب المعروف « تحقيق ما للهند من مقولة » .

وبعد وفاة السلطان محمود استقر في ٤٢١هـ في غزنة يؤلف ويقوم بتجاربه في الرصد وصنع بعض الالات العلمية ، ومنها آلة لمعرفة القبلة وأخرى لمعرفة ضغط الماء والهواء ، وذلك في عهد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وأخيه مودود ، وألف باسمهما البيروني بعض كتبه كالقانون المسعودي في الفلك ، والجماهر في معرفة الجواهر باسم السلطان مودود . .

وتحدث البيروني عن اتصالاته بالامراء المذكورين في قصيدة ذكرها ياقوت قطعة منها في الارشاد ، وطبيعة علاقاتهم معه [٢] ، وأولها:

مضى أكثر الايام في ظل نعمة   على رتب فيها علوت الكراسيا

---

(١) ولكن ليس اربعين سنة كما تذكر كثير من الكتب الحديثة والقديمة . وهو خطأ ظاهر من ناحية التاريخ .

(٢) الجزء السادس ، ص ٣١٢ .

وقبل الانتقال الى الكلام عن مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي ينبغي الوقوف عند نقطتين من سيرة البيروني ، وهما معتقداته الدينية ونظرته القومية حيث أن بعض العلماء من الغرب والشرق وقفوا موقفا معاديا من البيروني حولهما ، وتجنوا على الحقيقة ، واتهموا البيروني جزافا اتهامات باطلة ، ونخص بالذكر منهما المستشرق الروسي المشهور بارثولد في كتابه تاريخ الحضارة الاسلامية حيث اتهم البيروني بعصبيته للقومية الايرانية وميله الى المانوية ، واتباعه المذهب الشيعي ، وتابعه في ذلك فيليب حتى في تاريخه في القول بتشيعه ، وزاد أنه كان يميل الى اللاأدرية وافتتن بفلسفة الهنود أو الهندوس على الأصح •

ويستغرب المرء من هذه الاتهامات الباطلة ازاء أقواله المبثوثة في مختلف كتبه التي تدل على تدينه الصحيح واتباعه للمذهب السني بل وانتقاده لمذهب ماني الايراني ، وفلسفة الهند ، وحبه للثقافة العربية ، وغلوه في هذا الحب الى حد اسراف• ومرجع ذلك كما يبدو عدم امعان النظر في مؤلفاته أو محاولة خلق الانشقاق بين الصفوف الاسلامية وبذر بذور الكراهية والبغضاء بين المسلمين وهو خط دأب على السير فيه كثير من المستشرقين وأتباعهم •

ونرد هذه الاتهامات من كلام البيروني نفسه • يقول في كتاب « الصيدنة في الطب » بصراحة لاغموض فيها : « ديننا والدولة العربية توأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية • وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة الجيل والديلم في الباس الدولة جلابيب العجمة ، فلم تتفق لهم في المراد سوق ، ومادام الاذان يقرع آذانهم كل يوم خمسا ، وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف

الأئمة صفا صفا ، ويخطب لهم في الجوامع بالاصـلاح ، كانوا لليدين والفم وحبل الاسلام غير منفصم ، وحصنه غير منثلم [١] » .

فهل بعد هذا يصح اتهامه بالمانوية والعصبية الايرانية ؟

ثم هو القائل فى كلام منطقي عند المقارنة بين اللغة العربية والفارسية ثم في اندفاع وتحمس بالغ للعربية : « فانا فى كل واحدة دخيل ، ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسيـة ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارس قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به اذ لاتصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسماء الليلية [٢] » .

صحيح انه انتقد قتبة بن مسلم فى كتابه « الاثار الباقية » لتدميره مدينة خوارزم واحراق الكتب فيها ، ولكنه في هذا الانتقاد كان مدفوعا بحبه للعمران وللعلم ايا كان واينما كان . ولعل بارتولد انخدع ببحث البيروني عن كتاب ماني « سفر الاسرار » اكثر من اربعين عاما ، ولكن كان ذلك تلبية لرغبته الجامحة فى الاطلاع على تراث الامم الاجنبية من الفرس واليهود واليونان والهنود حسب منهجه فى دراساته المقارنة فى التاريخ والأديان والافكار كأي باحث حق نزيه لكي يصل من تلك المقارنة الى درجة الايقان الكامل فى معتقداته وافكاره عن اقتناع عقلى منطقى ، الامر الذى يتجلى بوضوح فى كتابيه الجليلين « الاثار الباقية » و « كتاب الهند » فى مختلف فصولهما .

---

(١) نقله علي أحمد الشحات في كتابه ابو ريحان البيروني ص ٧٤ .

(٢) كراتشوفسكي ، الأدب الجغرافي ص ٢٥١ ، وانظر ايضا على الشابي المصدر المذكور ص ٣٣٨ .

ولقد حكم بعد حصوله على كتاب « سفر الاسرار » لما في نتيجة بحثه المتواصل له وقراءته اياه قائلا ووجدت الله صادقـــا في قوله : « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (الآية الكريمة) ، « ثــم اختصرت ما في تلك الاسرار من الهذيان البحث والهجر المحض ليطالعها مأووف بأفتى ، وسيجعل الشفاء منها كفعلى [1] » .

وتبرأ من ابي بكر الرازي المغرم بكتب ماني والمنكر للنبوات رغم احترامه لعلمه [2] . وانتقده انتقادا مرا .

هذا يلاحظ من قرأ كتب البيروني انه يكثر من ايراد الآيات القرآنية فيها حتىفى الكتب التى لا يتصور المرء فيها وجود مثل هذه الايات ككتاب الجماهر فى معرفة الجواهر والاثار الباقية . ولا يتسع المجال لضرب الامثلة هنا .

وقال فى الجماهر « وفى اخبار الفرس التى لا تخلو من زيادتهم تفخم أمر الاكاسرة وتفضيل ملكهم والمملكة التي لهم » ، ولا يقول هذا الكلام من يتعصب لقوميته ثم هو الذىالف بحثا بعنوان « رأي العرب فى مراتب العدد افضل من رأي الهند » فهل يقال عن مثل هذا انه افتتن بالعلوم الهندية .

اما بالنسبة لاتهامه بالتشيع فيبطل هذا الاتهام من اقوال البيرونى فــى « الاثار الباقية » حيث رفض رد الشمس لسيدنا علي حتى يصلى

---

(١) مقدمة الاثار الباقية ، رسالة في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي صفحة ٣ بالرقم اللاتيني .

(٢) نفس المصدر في نفس الصفحة .

صلاة العصر بقوله : « ومثل ذلك في ردها يحكيه بُله الشيعة في أمير المؤمنين علي بن ابي طالب [1] وكذلك أنكر على الشيعة في موضع آخر من هذا الكتاب دعواهم في معرفة الهلال بطريقة حسابية خاصة سرية قائلا : « وعلى ما ذكرنا عملت الفرقة المدعية لبواطن الامور المنتحلة لتشيع الآل زعمت انه من اسرار النبوة » • ومثل هذا الكلام لا يصدر عن رجل شيعي • قال هذا الكلام وهو في بلاط قابوس بن وبوشمكير في جرجان ، واما بعد انتقاله الى غزنة الى بلاط السلطان محمود الغزنوي المتعصب لاهل السنة فلا يتصور ان يصحبه في مجالسه وأسفاره رجل شيعي •

كان البيروني بعيدا كل البعد عن التعصب المذهبي ، وذكر قصة طريفة في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر عند الكلام على نوعين من الحجر : الخماهن والكرك ، احداهما ابيض اللون والآخر اسود فقال : « ان الشيعة كانت تتختم بأبيضها والنواصب بابيضها مكان العقيدة والمذهب ، وكنت اجمع بين هذين الفصين في زوج خاتم كيادا للفريقين معا [2] » •

كما قرر الاستاذ المحقق سالم كرنكو الالماني انه كان من أهل السنة [3] •

مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي :

أطلق العلماء القدماء لقب « الاستاذ الرئيس » على البيروني كما

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٤٨ •
(٢) الجماهر ص ٢١٥ •
(٣) الجماهر ، خاتمة الطبع ص ٣ •

عرفه الاوربيون (Maitre Aliboron) وهـي ترجمة لنفس اللقب .
ويجمع المختصون في تاريخ العلوم قديما وحديثا على نبوغه وعبقريته في عدد من العلوم الفلكية والرياضية والطبيعيـة والجغرافيا وغيرها ، وسبق الكلام أن جورج سارتون مؤرخ العلم الشهير سمى العصر الذي عاش فيه عصر البيروني رغم وجود علماء أفذاذ آخرين في نفس العصر، أما سخاو ناشر كتبه الاول في القرن التاسع عشر فقد اعتبره أعظم عقلية عرفها التاريخ وظاهرة علمية في الحضارة الاسلامية ولا مجـال لسرد آرائهم هنا ، والقارىء يجد هذه الآراء مبثوثة في الكتب الكثيرة عن تاريخ العلوم في اللغة العربية واللغات الاجنبية ، مثل كتـب قـدري طوقان وكتاب الدوميلي ، وعلم الفلك عند المسلمـين لنللينو وتاريخ الادب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي وتاريخ الرياضيات لكاجوري وغيرها ، وجمع الكثير من هذه الآراء الاستاذ علي أحمـد الشحات في كتابه الحديث عن حياة البيروني [1] ، وهو كتاب قيم فيما يتصل بشرح بعض نظرياته العلمية ووصف مؤلفاته المطبوعة ، وألف البيـروني في عشرة علوم حسب كلامه في فهرس كتبه ، والقليل يعرفون أنه ألف حتى في الشعر العربي مثل كتاب مختار شعر أبي تمام ، وفي أدب التسليـة من الروايات الشعبية والتاريخية أو ما يسميه هو « ما يجـري مجـرى الأحماض » .

وهكذا كان البيروني غزير الانتاج متنوعه، وظل يؤلف طوال نصف قرن من ٣٩٠ هـ الى حين وفاته . وشاء حظ التاريخ أن يكـون أول كتبه من ناحية التأليف والطبع والترجمة الى الانكليزيـة كتابا في

---

(١) البيروني حياته ومؤلفاته ، ص ٢٢٨ ــ ٢٣١ .

موضوع تاريخي أقصد « الاثار الباقية عن القرون الخالية » وهو أحد مؤلفاته الثلاثة الهامة . الآخران « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » المعروف أيضا بكتاب الهند او تاريخ الهند [١] ونشر ادورد سخاو الالماني هذين الكتابين وترجمهما الى اللغة الانكليزية ، الاولى في ١٨٧٨م ، والثانية في ١٨٨٧ وترجمهما الى الانكليزية بعد نشرهما مباشرة ، وله الفضل في تعريف هذا العبقري وانتاجه في العلوم الانسانية الى العالم في العصر الحديث ، أما الثالث فهو القانون المسعودي ، ألفه البيروني باسم السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، وهو في رأي كارلو نللينو المستشرق المتخصص في علوم الفلك أكبر وأدق موسوعة في علوم الفلك والجغرافية الرياضية . نشرته دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد (الهند) في ثلاثة مجلدات .

ويربو عدد مؤلفات البيروني من الكتب الكبيرة والرسائل الصغيرة أو الابحاث العلمية على ١٨٠ كتابا ورسالة والفهرس الذي وضعه البيروني نفسه لمؤلفاته وأبحاثه في ٤٢٧هـ يشمل ١٠٣ كتابا كما ذكر ثماني كتب اخرى وهو في سبيل اتمامها من مسوداتها [٢] وكان من دقته العلمية أنه ذكر عدد أوراق الكثير من هذه الكتب والرسائل ، الامر الذي يفيد الباحث في تقدير انتاجه العلمي تقديرا صحيحا ، فمنها مثلا كتاب الوساطة بين الخوارزمي وأبي الحسن الاهوازي الفلكي في ٦٠٠ ورقة أي ١٢٠٠ صفحة وكتاب جمع الجوامع في شرح السند هند أو الرياضيات الهندية في ٥٠٠ ورقة ، ورسالة في تقاسيم الاقاليم ٢٠ ورقة ، وايضاح الأدلة على كيفية سمت القبلة ٢٥ ورقة ، وتسطيح

---

(١) وأخطأ خير الدين الزركلي في اعتباره كتابا مستقلا عن تحقيق ما للهند كما ذكر من كتبه تاريخ الامم الشرقية وليس له .

(٢) انظر هذا الفهرس في مقدمة الاثار الباقية بقلم سخاو .

الصور وتبطيخ الكور في ١٠ ورقات • ونشرت ما لايقل عن عشرة كتب أخرى في الموضوعات العلمية وترجم بعضها الى اللغات الاوروبية •

وتنافست الدول المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية في تكريم البيروني باحياء ذكراه بطرق شتى من اصدار مجلدات تذكارية واقامة الندوات العلمية في الهند وتركيا وروسيا السوفياتية وافغانستان وباكستان وآخرها المؤتمر العالمي الذي عقد في كراتشي في ١٩٧٣م بمناسبة عيد ميلاده الألفي ، كما أطلقت روسيا السوفياتية اسمه على جامعة حديثة في طاشقند ، ونصب تمثال له في المتحف الجيولوجي بجامعة موسكو ، لان البيروني ولد ، وعاش فترة طويلة من الزمن في المناطق التي تخضع لروسيا كأزبكستان وتركمانستان أو بلاد ما وراء النهر القديمة •

ومنهج البيروني في البحث التاريخي كمنهجه في البحث العلمي ، وهو عين المنهج الذي يسير عليه البحث العلمي في العصر الحديث ، أي الاحتكام الى العقل بعد الاستقصاء والاستيعاب والتحليل والنقد والمقارنة • وأصاب الدكتور علي الشابي التونسي في قوله : « بانه يبحث التاريخ والمجتمع بطريقة رياضية بحتة لا تقبل الرفض أو التعديل الا بقدر ما تسمح به الحقائق العلمية »[1] واذا قارنا منهجه بمنهج الطبري والمسعودي ومسكويه وغيرهم من المؤرخين المعروفين أدركنا أنهم لم يوفقوا الى المنهج المتكامل لان ثقافتهم كانت مبنية على العلوم النقلية فقط ، بينما وفق البيروني الى ذلك لمعرفته الشاملة ويقظته

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٤ •

العقلية وحسه النقدي الدقيق في معالجة كثير من قضايا التاريخ واستكناه عللها والربط بينها .

وأوضح البيروني بعض ملامح منهجه في مقدمة الآثار الباقية بقوله : ان أقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الامم السالفة وأنباء القرون الماضية لان أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك، وتصيير ما هم فيه أساسا يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق، والاسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتضافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك [1] ».

وبعد التأكيد على منهجه في البحث التاريخي هذا من وجوب الرجوع الى المصادر الاصلية والأخذ بالأخبار والآراء بعد المقارنة بموضوعية ونزاهة دون الوقوع تحت وطأة التعصب والافتخار الشخصي أو القومي يؤكد صعوبة هذا المنهج قائلا : « على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه لكثرة الأباطيل التي تدخل جمل الاخبار والاحاديث » ولكنه يقرر في نفس الوقت بعقل منطقي علمي عدم رفض الاخبار لمجرد هذا السبب العارض بقوله : « وليست كلها داخلة في حد الامتناع ، فتميز وتهذب، لكن ما كان منها في حد الامكان

---

(١) الاثار الباقية ص ٤

جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر بل قد يشاهد وشوهد من الأحوال الطبيعية ما لو حكي مثلها عن زمان بعيد عهدنا به ثبتنا الحكم على امتناعها [1] » .

ولقد طبق البيروني منهجه هذا بدقة في جميع كتبه التاريخية والعلمية وخاصة في الآثار وكتاب الهند من حيث الرجوع الى المصادر الأصلية في تواريخ مختلف الشعوب ، والنقد التحليلي والمقارنة ونجد في كتابه الاثار الباقية ذكر عشرات الكتب من تراث الامم المختلفة كالمجوس والمانوية واليهود والمسيحيين السريان والأقباط واليونان والعرب وكذلك في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » ويمكن استخراج تواريخ هذه الشعوب الاجتماعية من الاعياد والمواسم الموجودة الباقية التي ذكرها البيروني . وأثبت بعد المقارنات العديدة والاستقصاء ما أمكن جداول السلالات الحاكمة في ايران قبل الاسلام وكذلك الملوك الكلدانيين واليونان والروم والبيزنطيين ، وناقش في أصول بعض السلالات الاسلامية الحاكمة في عهده من بني بويه والزباريين والفاطميين ، وأثبت عدم صحة نسبة بني بويه الى الساسانيين ونسبة الفاطميين الى آل الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يمنعه الخوف من بطش قابوس بن وشكمير الذي ألف له كتاب الاثار أن ينكر صحة نسبه الى « أصول السيادة [2] » .

كما أنه وقف من قضايا التاريخ القديم في الأصول الاسلامية موقفا جديدا اثباتا ونفيا ،ومنها مثلا قضية هوية ذي القرنين المذكور

---

(١) نفس المصدر ص ٥

(٢) انظر الاثار الباقية ص ٣٨ و ٣٩

في القرآن الكريم ، وهو عند معظم المؤرخين والمفسرين كالطبري والمسعودي وأبي حنيفة الدينوري والقرطبي والكتاب والجغرافيين كأبن خرداذبة وجعفر بن قتيبة والاسكندر المقدوني بينما اعتبره علماء اليمن القدامى كمحمد بن حبيب في كتابه المحبر والهمداني في الاكليل أحد ملوك اليمن وحدوده بمصعب الهمال الحميري • والبيروني بعد استقصاء هذه الاقوال وغيرها مال الى القول بانه أبوكرب شمر يرعش ، واحتج بظاهر اللقب الذي يكثر في ملوك اليمن المعروفين بالأذواء [1].

ورفض كلام ابن خرداذبة بعد مناقشة علمية من النقد الداخلي في كون سد ياجوج وماجوج في منطقة بحر قزوين الغربية •

وبحث في موضوع التاريخ الهجري فقرر بعد المقارنة والنقاش لأقوال مختلفة أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في الثامن من ربيع الأول ولا يجوز كونها في الثاني والثاني عشر من هذا الشهر لعدم وقوع يوم الاثنين من الناحية الحسابية الا فيذلك التاريخ، وكذلك رفض وقوع عاشوراء عيد اليهود في العاشر من المحرم، والأخبار المروية في صوم النبي عليه السلام في هذا اليوم لأنه يوم نجاة موسى وبني اسرائيل من الغرق بطريقة رياضية عجيبة مقنعة ، واعتبر الروايات الواردة في هذا الموضوع من عمل محدثي العوام أو مسالمة أهل الكتاب [2] •

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠ ــ ٤١ ، ويعتبره المرحوم مولانا ابو الكلام ازاد في تفسير للقرآن الكريم باسم ترجمان القران الملك الايراني القديم كوروش أو سائرس ، وكذلك رأى مولانا ابي الاعلى المودودي في تفسيره تفهيم القرآن ببعض التحفظ .

(٢) المصدر السابق ذكره ص ٣٣٠ •

وهكذا أخضع تواريخ الاحداث لعملية رياضية للتثبت منهـا وما أحوجنا الى مثل هذا الاسلوب العلمي الرياضي في كثيـر من قضايا تاريخية .

ومن ناحية أخرى طبق أصول البحث في الطبيعة في بعض قضايا تاريخية أخرى ولم يرفضها لمجرد غرابتها ، ومنها قضية الاعمار الطويلة في الامم السالفة ، وما ورد منها في القرآن الكريم مثل عمر نوح فأثبت صحة عمره الطويل الوارد في القرآن بطريقة علمية بحتة دون الاعتماد على الروايات والتفاسير ، واعتبر اولئك الـذين يرفضون مثل هـذه القضايا من أغمار الحشوية ونوكي الدهرية ولا يتسع المجال هنا لايراد مناقشته فليراجع كتابه الاثار الباقية (ص ٧٨ ــ ٨٠) .

كما أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الاجنبية في البحث العلمي عامة والبحث التاريخي فتعلم عددا من اللغات كاليونانية والعبرية والسريانية بجانب اللغة التركية والفارسية والعربية ويذكر أسماء الاحجار الكريمة في هذه اللغات المختلفة في كتابه الجماهـر في معرفـة الجواهر ، وهو الوحيد من بين علماء العرب والاسلام في عصره وقبل عصره من تعلـم اللغة السنسكريتية واللغات الهندية الاخرى لدراسـة آداب وتقاليد وعلوم الهند ليقدم لنا دراسة فذة رائعة في الموضوع في كتابه الجليل « تحقيق ما للهند من مقولة » . ويترجم العديد من كتب السنسكريتية، ويعيد ترجمة كتاب سدهاتنا أو السند هند .

وهو في كتابه هذا لم يكن مجرد ناقل كما قال البعض ، ولا مفتتنا بعلوم الهند بل مؤرخا عالما ناقدا بصيرا مستقل التفكيـر . وهو القائل بمناسبة ذكر آراء علماء الهند في الأرصاد في كتـابه تحديد نهايـات

الاماكن « ويجب أن أعير هذا الكلام بجميع وجوهـــه ، فاني لا آبي قبول الحق من أي معدن وجدته » [1] .

وانتقد منهج علماء الهنود قائلا : « ومن طالع أعمالهم وجدها من البعد عن التحقيق بحيث لا يثق في أرصادهم بادعـــاء تدقيق ، ولكن القوم بسبب نزوح ديارهم وشدة كتمانهم ، وضنهم على الشـــيء النزر يراحون رائحته ، واعتقاد العامة فيهم الحكمة مع خلوهم عنها ، وسهولة تلك الاعمال بالقياس الى المحققة ، قد كثر متعصبوهم الذين لا يلتفتون الى عيان ولا يكترثون ببرهان ، ومنهم محمد بن علي المكي على ما ذكر في المدخل الى أحكام النجوم » [2] .

وفضل البيروني منهج علماء اليونان في البحث العلمي على منهج الهنود في آخر كتاب الهند ، وذكر أيضا سبب تأليف كتابه هذا قائلا : « فقليل منهم من يشتغل بالتحقيق اشتغال الطبيعيـــين من اليونانيين ، بالبحث عنها وعن مائية الاثار العلوية ، وانهم لا يخلون بكـــلام القوام بملتهم ، ونستغفر الله في الحكايات الا عن حق ، ونستوثـــق للاعتصام بما يرضيه ، ونسترشده الى الوقوف على الباطل لنتقيه » [3] .

وأختم كلامي بنصيحة هذا العالم العبقـــري والمـــؤرخ الحق ، وجهها الى الفلكيين ولكنها نبراس لكل باحث يعمل في أي حقل علمـــي حيث قال : « ويجب أن يتيقظ الراصد ويديم في أعماله ، واتهام نفسه ، ويقلل العجب بها ، ويزيد في الاجتهاد ولا يسأم » [4] .

والله ولي التوفيق .

---

(١) تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات الاماكن ص ٨٣ .
(٢) نفس المصدر في نفس المكان .
(٣) تحقيق ماللهند من مقولة ص ٥٤٧ .
(٤) تحديد نهايات الاماكن ص ٨٠ .

مراجع البحث

أ) كتب البيروني :

١ ــ الاثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق ادورد سخاو

٢ ــ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، حيدر آباد الهند ١٩٥٨ م

٣ ــ تحديد نهايات المساكن لتصحيح مسافات المساكن ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ــ أنقرة ١٩٦٢ م

٤ ــ الجماهر في معرفة الجواهر ، تحقيق سالم كرتكو ــ حيدر آباد ، الهند

٥ ــ التفهيم لاوائل صناعة التنجيم، طبعة رمزي رايت المصورة معالترجمة الانجليزية ١٩٣٤ م

ب) الكتب الاخرى :

السخاوي : الضوء اللامع

ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء

ياقوت : ارشاد الاديب طبعة مارجوليوت

محمد بن حبيب : المحبر ، حيدر آباد ــ الهند

حمزة الاصفهاني : تاريخ سني ملوك الارض ــ بيروت ١٩٦١ م

الطبري : تاريخ الطبري . طبعة دار المعارف ، القاهرة

المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محي الدين عبد الحميد

خير الدين الزركلي : الاعلام (١٠) أجزاء

نللينو : علم الفلك عند المسلمين ــ روما ١٩١١ م

كراتشوفسكي : تاريــخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الديــن عثمان هاشم

فرانزروزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح العلي

قدري طوقان : العلوم عند العرب

قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات

قدري طوقان : مقام العقل عند العرب

بارتولد : الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر

فيليب حتى : تاريخ العرب المطول

الشحات علي احمد ، ابو الريحان البيروني ، حياته ومؤلفاته ، القاهـرة ١٩٦٨ م

علي الشابي : الادب الفارسي في العهد الغزنوي تونس ١٩٦٥م

حكمت نجيب هاشم : دراسات في تاريخ العلوم عند العــرب ، الموصل ١٩٧٧ م

المراجع الأجنبية

Ameer Ali , History of Saracens . London .

Bernard Lewis and P.M. Holt , Historians of the Middle East . London . 1964 .

Brockelman, C and Widman . Article al - Biruni in Encyclopedia of Islam . New edition . London .

Bosworth, C.E. The Ghaznawids , 2nd ed . Beirut . 1973 .

Nasr, Hussein, Islamic Science . London . 1976 .

Elgood, C. Islamic Science in Lagasy of Persia ed. by A.J. Arbery , London .

Savory, R.M. Islamic Civilisation . London . 1976 .

Savory, R.M. Article : Land of the Lion and the Sun in the World of Islam ed. by Bernard Lewis . London 1976 .

بَيْتُ الحِكمَة البغدَادي وأثره في الحَركة العِلميّة

الدكتورة رمزية محمد الاطرقجي
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة بغداد

ان فكرة الدراسة للعلوم المختلفة في خارج الجامع كانت من الأمور التي تراود أذهان الخلفاء العباسيين ببغداد في زمن مبكر من تاريخ دولتهم ، فأوجدوا من أجل ذلك دور العلم وبيوت الحكمة للدراسة وترجمة علوم الاقدمين ، وكانت بغداد في عصر الازدهار العباسي ، كعبة العلماء والاطباء من كل الملل .

أما عن التعليم العالي ، فكان بيت الحكمة أول دار للدراسة العالية في الاسلام فهو علاوة على كونه دار ترجمة ، كان معهدا للعلم ، ودار كتب عامة وله مرصد ملحقا به (١) .

---

(١) فيليب حتي : (تاريخ العرب المطول جـ ٢ ص ٥٠١ الطبعة الرابعة ، ويقول حتي ايضا : وظهرت في زمن المأمون مدارس لتعليم الفلك) .

وريماند : الفنون الاسلامية ص ٢٠ .

يقول طوطح : قد لا نكون مبالغين اذا قلنا أن بيت الحكمة كان من أقدم الكليات والجامعات التي أسست في التاريخ ، اذا استثنينا المعاهد العلمية في الاسكندرية في زمن البطالة فيمكن اعطاء ـ بيت الحكمة ـ الأسبقية على سائر كليات العلم وجامعاته ، ويضيف طوطح الى ذلك : اذا صحت تسمية بيت الحكمة بكلية أو جامعة ، كان له السبق على الأزهر أيضا ، علما بأن الأزهر ، كان أول جامعة لانه أسس قبل جامعات أوروبا (٢) .

وكان العصر العباسي الاول أهم العصور الاسلامية انتاجا في العلم ، فقد انتشر في زمن الرشيد مجموعة كبيرة من الكتب المنقولة من اللغات العالمية المعروفة ، في ذلك العصر ، من علوم الطب ، والفلك والفلسفة ، والحكمة ، والادب ، والقصص وغيرها هذا فضلا عن المؤلفات العربية الجديدة التي أنتجها علماء العربية في شتى أنواع العلوم القرآنية ، واللغة ، والنحو ، والتاريخ ، وسائر الفروع الاخرى (٣) .

ولما استقر الخلفاء العباسيين في بغداد قربوا اليهم الكثير من حملة العلوم وطلبوا منهم نقلها الى اللغة العربية ، وفي مقدمة الخلفاء الذين عناهم هذا الأمر ، أبو جعفر المنصور ، واهتم المهدي بالمناظرات الفكرية بالرد على الزنادقة ، واقتنى الرشيد أثر جده في تشجيع الانتاج العلمي ، فقد كتب الى أمراء الأجناد والى الولاة « من عمر مجالس

(٢) طوطح : التربية عند العرب ص ١٧ .

(٣) عبد الجبار الجومرد : هارون الرشيد جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطــــاء ، ومن جمع القرآن » ، وروى الحديث ، وتفقه في العلم واستجـــره فاكتبوه في أربعة الاف دينار من العطاء وليكن ذلك بامتحان الرجال [٤] السابقــين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم .

أما المأمون [٥] فكان مثالا في انشاء المكاتب بالممالك الاسلاميـــة كما كان مثالا في سائر أسباب النهضة العلمية فاقتدى به بنو أميــة في الاندلس ، وتشبهه به الحكم بن الناصر الذي تولى الخلافة سنة ٣٥٠هـ، فأنشأ في قرطبة مكتبة ، واقتدى بخلفاء بغداد أيضا الخلفاء الفاطميــين بمصر ، بدأ بذلك العزيز بالله ثاني خلفائهم فجمع الكتــب في قصره ، وخصص لها قاعات سماها خزانة الكتب ، أما دار الحكمة فقد أنشأهــا الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله وهي غير خزانة العزيــــز أو خزائــن القصور [٦] .

ما هو بيت الحكمة : ـ

يمن أن يوصف بيت الحكمة ببغداد بانه بناية كبيرة فيها عدد من القامات ، والحجرات الواسعة موزعة في أقسام الدار ، تضم مجموعة من خزائن الكتب ، في كل خزانة مجموعة من الأسفار العلمية الخاصة التي

---

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٦ .

(٥) خلافة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) ابن الكـــازروني : مختصــر التاريخ ص ١٣٤ ـ ١٣٦ .

(٦) جرجي زيدان : التمدن الاســـلامي ج ٣ ص ٢٠٨ وص ٢١١ ، وقد كانت دار العلم الحاكمة اكبر معهد علمي شهده القرن الرابع الهجري بناها الحاكم بأمر الله الفاطمي ليجعاها منافسة لدار الحكمة في بغداد ، محمد عبد الرحيم غنيمة : الجامعات الاسلامية الكبرى ص ٥٩٥ .

تنسب في الغالب الى مؤسسها كخزانة الرشيد ، وخزانة المأمون [٧] .
ووصفت أيضا بأنها دار كبيرة مقسمة الى عدة أقسام ، خصص البعض منها لحفظ الكتب والاقسام الاخرى للترجمة ، والنسخ والتأليف ، والتجليد ، والمطالعة [٨] .

وان الذي وضع نواة لهذا البيت هو المنصور ، فقد جمع الكتب التي ترجمت له في الطب والنجوم والهندسة ، والكتب التي ألفت في الحديث والتاريخ والأدب ، ووضعت في خزانة [٩] ، وقدر لهذه الخزانة أن تصبح أعظم بيوت الحكمة شأنا عند المسلمين لما حوته من كتب نفيسة .

أما تسمية بيت الحكمة ، فأحيانا يستعمل العلماء اسم بيت الحكمة وأحيانا أخرى خزانة ، فحاجي خليفة يستعمل كلمة بيت الحكمة، وابن النديم في كتابه الفهرست يستعمل (بيت الحكمة) حينا ، و (خزانة الحكمة) حينا آخر [١٠] .

فالخزانة كلمة معروفة ، وهي اسم الموضع الذي يخزن فيه الشيء ،... فاستعملوه للدلالة على المكان الذي حفظت فيه الكتب ،

---

(٧) ناجي معروف : اصالة الحضارة العربية ص ٤٤١ الطبعة الرابعة .

(٨) رشيد حميد الجميلي : اثر الترجمة في الحضارة الاسلامية في القرن الثاني ص ٢٠ (اطروحة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة) .

(٩) سعيد ديزهجي : بيت الحكمة ص ٣٣ .

(١٠) حاجي خليفة : كشف الظنون جـ ١ ص ٦٨١ ، وابن النديم ص ١٦٠ .

وكما أطلقوا بيت المال على المكان الذي يحفظ فيه مال الدولة ، فلا يبعد أن يكونوا قد أطلقوا كذلك (بيت الحكمة) على المكان الذي حفظت فيه الكتب ، أما كلمة (الحكمة) فقد استعملوها فيما يرادف (فلسفة) فالظاهر أنهم أطلقوا خزانة الحكمة وبيت الحكمة على مكان المجموعة من هذه الكتب ، ويقول أحمد أمين ان أكثر هذه الكتب نقلت عن الامم الاخرى وانها ليست كتب دينية ، بل هي كتب فلسفة أو حكمة [11] .

فالخزانة والبيت (الدار) يراد بها هنا المحل أو المباءة التي تتجمع فيها الكتب وتنظم بنظام معلوم ليطالع فيها ويستفاد من علومها [12] .

مؤسس بيت الحكمة :

لم يقف المؤرخون على تاريخ لهذا المعهد الجديد بالاهتمام ، غير أنه يمكن جمع بعض الأخبار المتفرقة بين طيات الكتب واستنتاج أشياء كثيرة منها ، وقد اختلف الباحثون في شخصية مؤسس بيت الحكمة ، فزعم البعض ان مؤسس هذا البيت هو المأمون ، وأكد فريق آخر أن الرشيد هو الذي أنشأ بيت الحكمة ، فياقوت [13] مثلا يؤكد أن بيت الحكمة كان في حيز الوجود أيام الرشيد ، اذ يقول : « عن علان الوراق كان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد ، والمأمون ، والبرامكة »

---

(١١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ص ٦٤ .
(١٢) المصدر السابق ص ٦٤ .
١٣ ـ ياقوت الحموي : معجم الادباء جـ ٥ ص ٦٦ .

وجاء في الفهرست لابن النديم : ان أبا سهل الفضل بن نوبخت « كان في خزانة للرشيد ، وكان له نقل عن الفارسية » [١٤] .

والحقيقة أن الرشيد هو الذي أنشأ بيت الحكمة أما لماذا أنشأها، فلقد تجمعت لديه عدد كبير من الكتب ورأى انشاء مكانا ليحفظ فيه هذه الكتب التي جمعها فأنشأ بيت الحكمة مما ساعد على انتشار التعليم [١٥] .

بل يرى بعضهم أن نشأة بيت الحكمة ترجع الى أقدم من عهد الرشيد ، فمحمد غنيمة يرى أن فكرة خزانة الحكمة ، كانت معروفة لدى الخليفة المنصور ، الذي ترجم في عصره كتاب كليلة ودمنة ، وغيره من الكتب الفارسية ، واقتبس في حكمه كثيرا من عادات الفرس. وأكبر الظن أنه قد اقتدى بهم فاتخذ له خزائن كتب في قصره كانت نواتها مما ترجم له من كتب الفرس والهند [١٦] وان النسخ الأهم للكتب المنقولة

---

(١٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٥ وص ٢٧٤ ، وابن النديم هو ممن لازم بيت الحكمة ونقل عنه كتب خزائنه فاطلع على ما يحويه من كتب نادرة ومصورات جغرافية ، ورقوق قديمة ولغات منوعة ، وكانت كتب بيت الحكمة من المصادر التي عول عليها في تأليفه الثمين (ابن النديم) : الفهرست ص ٧ ، ص ٨ وكتابه خير دليل على ان كتب الحكمة كانت مفهرسة وذكر ابن النديم : انه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبدالملك ابن هاشم في جلد آدم (المصدر السابق ص ٢٩) .

(١٥) خودانجش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٠ — ص ١٦١ ترجمة حسني الخربوطلي .

(١٦) محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ص ٥٤ .

كانت تحفظ في خزانة المنصور [١٧] ، وان البطريق يوحنا بن ماسويه كان أحد المترجمين في أيام المنصور [١٨] .

ويضيف محمد غنيمة الى قوله : « أما ما عمله الرشيد والبرامكة هو الزيادة في ثروة بيت الحكمة من الكتب والعناية بتنميتها ثم جـاء المأمون العباسي ، ويعتبر عصره أزهى أيام هذه الـدار ، فقد ارتقت بفضله من مجرد مكتبة الى دار للترجمة والانتاج الفكـري ، فتحولت من « خزانة » الى مجمع أو أكاديمية للبحث العلمي تعمل على خـدمة العلم وترجمة ثمار المفكرين الاغريقي والفارسي [١٩] . وان تاريخ بيت الحكمة من حيث الخدمات العلمية التي أداها للفـكر العـربي تخص المأمون وعصره .

موقع بيت الحكمة : ـ

أما موقع بيت الحكمة التي أنشأها الرشيد ببغداد[٢٠] ، فلا يعلم ان كان جزءا من قصر الخليفة ، أو كان بناية مستقلة ، غير أنه كان علـى الأرجح دارا خاصة بالكتب ضمن قصور الخلافة تتكون من عـدد من الحجرات والخزائن [٢١] . ويؤكد أحمد أمين ، ان دار الحكمة كانـت

---

(١٧) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة في العراق ص ، ١٠٥
(١٨) ابن ابي أصيبعة : عيون الابناء فيطبقات الاطباء جـ ١ ص ٢٠٥
(١٩) محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريـخ الجامعـات الاسلاميـة الكبرى ص ٥٤ . ونقولا زيادة : لمحات من تاريخ العرب ص ٢٠٩ .
(٢٠) فترة خلافة الرشيد من ١٧٠ هـ ــ ١٩٣ هـ ابن الكـازروني : مختصر التاريخ ص ١٢٥ ــ ١٢٧ .
(٢١) ناجي معروف : اصالة الحضارة العربيـة ص ٤٤١ الطبعة الثالثة ، طه الراوي : بغداد مدينة السلام ص ٩٨ سلسلة اقرأ عدد (٢٧)

ملحقة بقصر الخليفة لا في مكان خارجي • أولم ينقل الينا في تخطيط بغداد خبر عن بناء خاص للمكتبة [٢٢] •

أما أحمد فريد رفاعي ، فيقول : ان الرواية النسابه المعروف علان الشعوبي كان ممن ينسخ في بيت الحكمة أو في أحد بيوت الحكمة هذه ، اذ يلوح لنا أنها كانت على الارجح أكثر من بيت ، للرشيد والبرامكة والمأمون [٢٣] •

وحسب ظني انه يراد بالبيت هنا خزانة الرشيد، وخزانة البرامكة، وخزانة المأمون ، والحقيقة ان ابن النديم يستعمل أحيانا خزانة المأمون ، وأحيانا خزانة الرشيد [٢٤] ، يتبين من هذا أن بيت الحكمة كان مجموعة من خزائن ، لكل مجموعة من الكتب خزانة وكل هذه الخزائن [٢٥] في بيت الحكمة الذي يقع في قصر الرشيد [٢٦] (الخلد) • وربما كانت دار العلم ببغداد التي يذكرها ياقوت هي بيت الحكمة نفسه بشكل جديد [٢٧] • ولكن هناك فريق بين خزانة الحكمة ، ودور العلم، وخزانة

---

(٢٢) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ٢ ص ٦٤ •

(٢٣) احمد فريد رفاعي : عصر المأمون ص ٣٧٥ المجلد الأول الطبعة الثالثة . ويضيف أيضا ان البرامكة جعلوا الرشيد من الكتب ما وفقوا هندية ، فارسية ، يونانية. المصدر السابق .

(٢٤) ابن النديم : الفهرست ص ١٩٠ .

(٢٥) ابن نباتة : سرح العيون ص ١٣٢ .

(٢٦) وعلى الأرجح فان دار الحكمة كان في بداية تكوينه في عهد الرشيد في دار الخلافة ولما زاد عدد الكتب المترجمة والمؤلفة نقلت الى الرصافة على عهد المأمون بالقرب من باب الشماسة وأضاف اليها المأمون مرصدا فلكيا . حتي : جـ ٢ ، ص ٤٥٧ .

(٢٧) ياقوت الحموي : معجم الادباء جـ ٥ ، ص ٢٩٤ •

الكتب . فكانت دار الكتب قديما تسمى خزانة الحكمة ، وهي خزانة كتب ليس غير ، اما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها [٢٨] .

اذا فبيت الحكمة يختلف عن دور العلم التي ظهرت في القرن الثالث الهجري ، فهي مؤسسات أدبية أكثر كتبها تبعث في اللغة والادب والفقه والأخبار ، والسيرة لا تخلو من كتب الحكمة .

أما بيوت الحكمة الخاصة فهي المكتبات التي أنشأها العلماء والاغنياء والادباء والاعيان في دورهم ، وكان يستفاد منها الناس ، فقد كانت شبه عمومية ، وكانت تضم كتبا في مواضيع متنوعة ، كالمنطق والفلسفة والفلك [٢٩] . فقد كانت بغداد مركزا لتجمع الثقافات لما بذله الخلفاء العباسيين من جهود حبا لنشر العلم بين كافة الطبقات واقتدى الناس بالخلفاء ، فأنشأ علي بن يحيى المنجم (ت ٢٧٥ هـ) مكتبة في قصره سماها (خزانة الحكمة) وفتحها للراغبين في الدرس يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة والعيانة والنفقة لذلك من مال يحيى [٣٠] .

وظيفة بيت الحكمة والعاملين فيه : ـ

يقترن بيت الحكمة البغدادي بذكر عدد من الاعلام المشهورين

---

(٢٨) آدم : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ص ٣١٢.

(٢٩) فيليب حتي : تاريخ العرب المطول جـ ٢ ص ٥٠١ الطبعة الرابعة .

(٣٠) ياقوت : معجم الادباء جـ ١٥ ، ص ١٥٧ .

كالرشيد ، والبرامكة ، والمأمون ، والمتوكل ، كما يرد فيها ذكر عدد من العلماء ، والخزان ، والموظفين ، والخدم ، فقد كان يدير بيت الحكمة مديرون أمناء على الترجمة ومعهم كتاب حذاق ، ويشتغل فيه أيضا علماء ونساخون [٣١] ، وخزان ومجلدون من مختلف الاديان والاجناس والمذاهب والثقافات ، ومعهم الوراقون • فكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو بأجور معينة ، وكذلك المترجمون والمطالعون والمؤلفون •

أما مدير بيت الحكمة أو القيم عليه فيدير شؤونه ويسمى صاحب بيت الحكمة [٣٢] • وقيل أن المأمون عين قيما لبيت الحكمة يدعى خازنا [٣٣] لادارة شؤونه وصيانة كنوزه [٣٤] هو سهل بن هارون، المؤلف والشاعر العربي لمع نجمه في أواخر القرن الثاني ويستهل

---

(٣١) معروف : اصالة الحضارة ص ٤٤١ •

(٣٢) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٠٨ ، وطه الراوي : بغداد مدينة السلام ص ٩٨ ، سلسلة اقرأ عدد (٢٧) •

(٣٣) ان هذه الوظيفة ترجع الى العصور الاسلامية الاولى وقد عرفت عند العباسيين كما عرفت في الدول التي تفرعت عن الخلافة العباسية ، وفي غيرها من الدول الاسلامية نظرا لعناية المسلمين في العصور الوسطى بالقراءة والعلم والكتب ، ومن واجبات خازن الكتب الاحتفاظ بالكتب التي في عهدته وصيانتها وتجليدها اذا احتاجت الى ذلك وعدم اعارتها لمن لا يعرف قيمتها وبذلها للمحتاج اليها او تنفيذ شرط الواقف بخصوص احراز رهن بقية الكتاب المعار • (حسن باشا : الفنون الاسلامية والوظائف عن الاثار بالعربية) ج ١ ص ٤٥١ ص ٤٥٢ •

(٣٤) الطرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين المجلد الاول ص ١٠١ •

القرن الثالث الهجري ، وكان في عهد الرشيد كاتبا ليحيى بن خالد البرمكي ثم خلفه في منصب صاحب الدواوين [٣٥] .

ويقول ابن النديم : ان سلما وسهل بن هارون كانا مشرفين على الخزانة أما متعاصرين ولكل دائرة اختصاص أو متعاقبين ، لان ابن النديم [٣٦] كما مر سابقا يستعمل أحيانا خزانة المأمون وأحيانا خزانة الرشيد ، وان سهل بن هارون كان مشرفا على القسم الذي أحضرته بعثة القسطنطينية ، وقيل كان خازنا للكتب التي جلبت من جزيرة قبرص، فتصفحها ونسج على منوالها كتبا منها [٣٧] .

ونستدل من كلام أحمد رفاعي ، أن سهل بن هارون بالاضافة الى ادارة بيت الحكمة عامة ، كان يتولى تنظيم خزانة المأمون بصورة خاصة [٣٨]، وان ابن أبي الحريش ، كان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون [٣٩] .

---

(٣٥) دائرة المعارف : مادة سهل بن هارون .
(٣٦) ابن النديم الفهرست ص ٦٩ .
(٣٧) ابن نباتة : سرح العيون ص ١٥٢ وانه كان كاتبا على خزائن الحكمة ثم عينه المأمون خازنا لها . وهو من أهل ميسان ، نزل البصرة فنسب اليها القيرواني : (زهر اداب جـ ٢ ص ٦١٧) .
واشتهر سهل بن هارون في زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سماه معاصروه بزرجمهر الاسلام ، اشارة الى أنه يحل في العربية محل بزرجمهر في الفارسية . وما أثر عنه من حكم وأفعال كثيرة ، وهو يحسن القول نثرا وشعرا وله كتب كثيرة مشاكل لاكليلة ودمنة على السنة الحيوان توفي في ٢١٥ هـ (شوقي ضيف ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠) .
(٣٨) أحمد رفاعي : عصر المأمون جـ ١ ص ٣٧٥ الطبعة الثالثة ويقول أن المأمون وكل ادارة بيت الحكمة الى سلما وكان يدعى صاحب بيت الحكمة (المصدر السابق ص ٣٧٧) .
(٣٩) ابن النديم : الفهرست ص ١٠ .

وكان هناك أمينا على ترجمة الكتب هو يوحنا بن ماسويه فقد ظل أمينا على الترجمة في زمن الرشيد ، الامين ، والمأمون ، واستمر الى أيام المتوكل وبذلك يدخل المعتصم والواثق أيضا [٤٠] ، واختار له الرشيد كتابا حاذقين يحسنون الترجمة ، وان يوحنا كان أمينا على ترجمة نوع من الكتب هي الكتب الحكمية [٤١] .

وبنو شاكر كانوا يتولون ، دائرة العلوم الرياضية والهيئة والهندسة والموسيقى وكانوا نهاية في علومهم ، وقد علت منزلتهم في أيام المعتضد [٤٢] .

وان قسطا بن لوقا الذي كان فصيحا في اللغة اليونانية جيد العبارة في العربية ، كان يشرف على قسم من أقسام الترجمة في دار الحكمة [٤٣] .

بدأ بيت الحكمة أول ما بدأ بوظيفته مكتبة عامة فأصبح لهذه المكتبة شأن في العالم الاسلامي [٤٤] ثم تطور وأصبح أول جامعة اسلامية اجتمع فيها العلماء ... والباحثون ولجأ اليها الطلاب ، وكانت

---

(٤٠) ناجي معروف : اصالة الحضارة ص ٤٤٤ .

(٤١) وان يوحنا بن ماسويه كان أمينا على ترجمة نوع من الكتب الحكمية (ابن العبدي : تاريخ مختصر الدول ص ١٣٨) .

(٤٢) هم أولاد موسى بن شاكر وأحفاده تعرف ببني المنجم . جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٥٠ .

(٤٢) ابن النديم الفهرست ص ٤٢٤ ، وسيد امير علي مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٢٣٩ .

(٤٤) عبد الله عبد الدائم : التربية عبر التاريخ ص ١٥٨ .

تجري فيها الابحاث والدراسات العليا فأصبح مؤسسة علمية للثقافة العالية أكثر كتبه في الحكمة والفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات وغيرها من الكتب العلمية المختلفة . ثم ارتقت دار الحكمة من مجرد مكتبة الى دار للترجمة والانتاج الفكري ، وكثر المترجمون في هذه الدار في عصر المأمون وكانوا يقومون بواجبهم العلمي ، ويتبادلون وجوه الرأي، وكان هذا تطورا هاما في حياة المكتبة تحولت من «خزانة» الى «مجمع» أو أكاديمية للبحث العلمي تعمل على خدمة العلم ، وترجمة ثمار المفكرين (٤٥) .

ولا يعلم أمر مكتبة الحكمة هل كانت مكتبة في أيام الرشيد أم معهد أو مرصدا أيضا ، يقول أحمد أمين : « لقد بالغ بعضهم فقالوا ان بيت الحكمة كان جامعة كبيرة يتصل بها مكتبة ومرصد (٤٦) ، ولها عميد (٤٧) أرسله المأمون الى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان » .

والحقيقة أن بيت الحكمة كان مدرسة عالية لبحث التجريبي المستند الى الملاحظة ومكتب ترجمة كانت تتم فيه عملية التعريب المكتب الاجنبية بلغاتها المختلفة الى العربية ولكن من دراسة النصوص التاريخية المتعلقة بهذه الحركة العلمية ، ان هذا البيت لم يكن مقتصرا على الترجمة ، وانما كانت هناك أعمال أخرى ، منها تجليد الكتب التي تتم عملية تعريبها أو عملية نسخها بأكثر من نسخة لتوزيعها على المكتبات

---

(٤٥) احمد رفاعي : عصر المأمون جـ ١ ص ٣٧٧ وشوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١١٣ .

(٤٦) احمد أمين : ضحى الاسلام جـ ٢ ص ٤ .

(٤٧) حتي : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٥٠١ الطبعة الرابعة .

المعروفة آنذاك [٤٨] خارج بغداد ، كبيت الحـــكمة التونســـي في ـ رقادة ـ أو دار الحكمة الفاطمية بالقاهرة وغيرها ، كما كانت الكتب المترجمة والمؤلفة يقتنيها الأغنياء والمؤسسات العلميـــة الاخرى [٤٩] ، والاحتفاظ بالنسخة الأصلية في بيت الحكمة .

وللوصول الى دقة الكتب المترجمة كانت تراجع الترجمات التـي كان يقوم بها النقلة في دار الحكمة من قبل خبراء ، وكـــان (ثابت بن قرة الحراني) في دولة المعتضد من الذين راجعوا أو صححوا الترجمات العربية في المؤلفات الرياضية والفلكية والمنطق . وكان يجيد الاغريقية والسودانية والعربية [٥٠] وكذلك فعل (اسحق بن حنين) ، فقد جعـل له المتوكل كتاب تحارير عالمين بالترجمة كانوا يترجمون ويراجع ويتصفح ما ترجموا [٥١] .

ولا شك فقد كان كان نظام استعارة الكتب موجود في مكتبة بيت الحكمة ، فحين يعدد حسن الباشا وظائف خازن الكتب عند العباسيـين يقول : عدم اعارتها لمن لا يعرف قيمتها وبذلها للمحتاج اليهـا ، واحراز رهن بقيمة الكتاب المعار .

وقد أمر المأمون ان تفرد للقراء حجرة [٥٢] من حجر الدار وأمر أن

---

(٤٨) رشيد حميد الجميلي : اثر الترجمة في الحضارة الاسلامية ص ٢٠ ((طروحة ماجستير) .

(٤٩) ناجي معروف : اصالة الحضارة ص ٤٣٩ الطبعة الثالثة .

(٥٠) القفطي : تاريخ الحكماء ص ١١٥ وهو (ثابت بن قرة) جد ثابت ابن سنان (صاحب التاريخ) توفي ٢٨٨هـ نفس المصدر ١٢٠-١٢٢ .

(٥١) ابن ابي اصيبعة : عيون الابناء جـ ١ ص ٢٠٣ .

(٥٢) حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية جـ ١ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، ووكل له جواري وخدم للقيام بما يحتاج اليه ، حتى لا يتعلق قلبه ولا ترف نفسه الى شيء .. وصير له الوراقين والزمن والأمناء والمنفقين . فكان الوراقون يكتبون ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ، فبعد أن فرغ خرج للناس (٥٣) .

وقد أدن الحركة العلمية الذي يعتبر بيت الحكمة لولبها الى ازدياد طلب المعرفة من قبل فئات لا يستهان بها من الناس . الأمر الذي أدى بدوره الى الاقبال على شراء الورق ، لذا أسست مصانع الورق في عهد الرشيد في بغداد (٥٤) ثم انتشرت صناعته في أنحاء البلاد العربية . وقبل ذلك كان يكتب على ورق البردى أو حتى على الرفوف من الجلود أو العظام او الخزن أو أي شيء. ووجدت حوانيت الوراقين بكثرة وخاصة فيخلافة المأمونالذين كانوا يملون علىناس لايمكن ضبط عددهم لكثرتهم (٥٥) . وكان ظهور الورق فاتحة لانتشار الثقافة العربية ، ومضى العلماء يفيدون من صنعة الوراقة ، فاتخذوا لأنفسهم وراقين ينقلون عنهم كتبهم (٥٦) .

ونهض التعليم العالي على وجه الخصوص لما اهتم الخلفاء العباسيين بحركة النقل (٥٧) ، ومن أساتذة بيت الحكمة نستنتج ونحكم على مستوى بيت الحكمة العلمي من مقدرة أساتذته ومديره .

---

(٥٣) وهو معلم أولاد المأمون : شوقي ضيف العصر العباسي الاول ص ١٠٠ .

(٥٤) أحمد امين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٦٥ .

(٥٥) عبد المنعم ماجد/العصر العباسي ج ١ ص ٣٥٨ .

(٥٦) ناجي معروف : اصالة الحضارة ص ٤٤١ .

(٥٧) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١٠٣ الطبعةالثالثة.

واذا نظرنا الى منهج التدريس في بيت الحكمة وجدناه راقيا جدا فكانت تدرس فيه العلوم الفلسفية ، والطبية ، والرياضيات ، والفلك والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا والموسيقى (٥٨) .

فاذا كان خريج بيت الحكمة قد أنهى هذه العلوم فلا ريب في أن ذلك المعهد كان يساوي الكلية في يومنا هذا .

وكانت رعاية المأمون لبيت الحكمة ، وما انفق عليه من مال وما جرى في عهده من ترجمات لتراث الاغريق مضرب الامثال، فهو أول من نادى بألا يكون نشاط بيت الحكمة ، متوقف على سخاء الخلفاء والامراء ، فهيأ للعلماء أرزاقا سخية يتقاضونها في أوقات ثابتة ، يفيض ريعها عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة العظيمة وكذلك جرى العمل من بعده على أن يكون لكل معهد أو مدرسة أو مؤسسة وقف ثابتة يفي بنفقاتها (٥٩) .

وكان يتقاضى كل من حنين بن اسحاق ، وحبش بن الحسن ، وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة(٦٠) .

واتخذ العلماء والمدرسون لهم زيا خاصا ، وكان أبو يوسف أول

---

(٥٨) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٦٣ .

(٥٩) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص ٧٣ الطبعة الرابعة .

(٦٠) احمد فريد رفاعي : عصر المأمون جـ ١ ص ٣٧٧ الطبعة الثالثة ص ٧٣ ، ومحمد أسعد طلس : عصر الازدهار وتاريخ الدولة العباسية ص ١٦٤ الطبعة الاولى .

من غير لبس العلماء ، واقترح لتميز هذه الطائفة عمامة سوداء وطيلسانا ـ لعله الروب الجامعي ـ ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الزي ضروريا للمدرسين والفقهاء (٦١) .

بيت الحكمة ، وحركة الترجمة :

حركة الترجمة لها جذور ، كانت أول ترجمة في الاسلام على يد خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفي سنة ٨٥ هـ وكان يسمى (حكيم آل مروان) كما أن أول تأليف في علوم الحكمة كان على يده أيضا (٦٢) وتولى ماسرجويه في الدولة المروانية تفسير كتاب (أهرن ابن وحفظ في خزائن كتب الامويين الى أن وجده الخليفة عمر بن عبدالعزيز في خزائن الكتب فأمر باخراجه ، قيل أنه ترجم زمن مروان بن الحكم، وحفظ في خزائن كتب الاوميين الى أن وجده الخليفة عمر بن عبدالعزيز فحرضه بعضهم على اخراجه للناس للانتفاع به (٦٣) وترجم كتابا في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية لهشام بن عبد الملك (٦٤) .

وفي الدولة العباسية كثر اختلاط العرب مع غيرهم من الامم التي دانت لحكمهم وزادت رغبتهم بالاطلاع على علوم القوم ومعارفهم فقربوا العلماء والاطباء والحكماء وأهل الفنون والاداب ، وأجزلوا لهم العطاء ، واجتمع في خزائنهم ثقافة الشرق والغرب .

---

(٦١) عبد الله عبد الدائم : التربية عبر التاريخ ص ١٧٥ .
(٦٢) حاجي خليفة : كشف الظنون جـ ١ ص ٦٨١ الطبعة الرابعة .
(٦٣) ابن جاجل : طبقات الاطباء ص ٦١ .
(٦٤) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١٠٩ .

واهتم العباسيون بعلم صنعة (الكيمياء) وظلوا يزادون عليها حتى ظهر في العصر العباسي جابر بن حيان وهو ابن صيدلي كوفي ، وخلف كثيرا من النظريات في هذا العلم ترجمت طائفة منها الى اللاتينية وأفاد منها الاوروبيون (٦٥) .

وبدأت حركة الترجمة للكتب في عهد أبي جعفر المنصور فقدم قوم من علماء الهند ومعهم كتاب في علم النجوم وضعه قدماء تلك البلاد يدعى (السند هند) وفي السنسكريتية (سيدهنتا) فقدمه المنصور الى أبي اسحق ابراهيم بن حبيب الغزاري ، فعربه له وعمل له زيجا (٦٦) وقرب المنصور المنجمين وعمل باحكام النجوم ، وكان معه نوبخت المجوسي المنجم وأسلم على يديه ، وجرجيس بن جبرائيل بن يختوع الذي ترجم للمنصور كتبا عن اليونانية ، فقد استدعاه المنصور من جند سابور سنة ١٤٨ هـ ليكون بجانبه ، وقد نقل كتبا كثيرة من اليونانية الى العربية وأغلب الظن أنها كانت كتبا طبية ، وكان جرجيس من السريان الناطره ، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب والترجمة (٦٧) .

واهتم ابو جعفر المنصور كثيرا بالترجمة ، ونقل له حنين بن اسحق بعض كتب ابقراط وجالينوس في الطب، كما نقل ابن المقفع المتوفي سنة (١٤٢هـ) كتاب كليلة ودمنة عن الفهلورية الى العربية وأول نقل في

---

(٦٥) المصدر السابق ص ١١٦ .

(٦٦) الطرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين ص ٥٠ ، والجداول الفلكية (شوقي ضيف . العصر العباسي ص ١١١) .

(٦٧) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١١١ .

الدولة العباسية قام به عبد الله بن المقفع هو هذا الكتاب . وكتاب أقليدس في الهندسة الى العربية [٦٨] ، وان المنصور جمع هذه الكتب في خزانة النواة لبيت الحكمة ، وفي زمن المهدي (١٥٨ هـ ـ ١٦٩ هـ) ضعفت حركة الترجمة وكان المهدي قليل العناية بكتب الحكمة ، خاصة بعد انتشار حركة الزنادقة ورد المهدي عليهم ، واهتم بالمناظرات الفكرية أكثر من اهتمامه بالترجمة ، وتجنب العلماء ترجمة كتب الحكمة والفلسفة والنجوم التي تبحث في الملل والنحل والأهواء والمعتقدات فلم تتوسع خزانة الحكمة في زمنه كثيرا [٦٩] .

وجاء عهد الرشيد واتسعت دائرة الترجمة التي كان جده المنصور قد اهتم بنقل العلوم من اللغات الاجنبية الى العربية كما زاد عدد الموظفين المشتغلين بالترجمة ، وان كانت حركة الترجمة في زمنه لم تبلغ الشأن العظيم الذي بلغته في عصر المأمون ، وتألق في عصره أنجم عدد من العلماء أمثال الاصمعي النحوي المشهور ، وجبريل بختيشوع [٧٠].

وحتى يتم مشروع ترجمة الكتب الاجنبية وحفظها في بيت الحكمة ، ولي عدة علماء أمر بيت الحكمة ، فعهد الى فضل بن

---

(٦٨) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٢ ، وعمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ١١٤ .

(٦٩) سعيد ديوهجي : بيت الحكمة ص ٣٣ : ولكن المهدي عني بالكتب التي ورثها عن أبيه وأوصاه بها عند وفاته فكان شديد الحرص عليها (طرازي جـ ١ ص ٩٩) .

(٧٠) سيد أمير علي : تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ٢١٧ .

بنوبخت [٧١] أمر العناية بالكتب الفارسية ، والى يوحنا بن ماسويه ، ترجمة الكتب الطبية القديمة التي كان يعثر عليها في أسفاره بين البلاد وفي غزواته وجهاده ، فقد حمل معه من انقرة وعمورية وغيرها من بلاد الروم كتبا كثيرة [٧٢] . ومنح العلماء الكثير من الحرية والتكريم فقد منح مرة لأحد العلماء مائة ألف درهم [٧٣] .

ومعظم الكتب التي نقلت عن الهنود في الطب والفلك والرياضيات قد تم الانتهاء من نقلها في عصر الرشيد ، وكان بعض علماء الهند قد وفدوا الى بغداد ، منذ عهد المنصور سواء من تلقاء أنفسهم ، أو يدعوهم الخلفاء للحضور [٧٤] .

وقد وجهت العناية في بداية أيام الرشيد الى الكتب الفارسية والهندية [٧٥] ثم جاءت الثروة الضخمة في أخريات أيام الرشيد وخلال عهد المأمون عن طريق التراث اليوناني .

أما عهد المأمون ففي تاريخ العلم عند العرب ، خمسة يوضعون على القمة ، في قيادة الحركة العلمية في العصر الاسلامي الزاهر ،

---

(٧١) المكنى بأبي سهل كناه المنصور لما رأى طول اسمه قال له : او اجعل لك كنية تقوم مقام الاسم فكناه بأبي سهل فبقيت الكنية وبطل الاسم ، (القفطي : تاريخ الحكماء ص ٣٠٩) .

(٧٢) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٠ ، وانور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣١ .

(٧٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٥ .

(٧٤) جلال مظهر : حضارة الاسلام ص ٢٤٧ .

(٧٥) عبد الله عبد الدائم : التربية عبر التاريخ ص ١٥٨ .

وأولئك هم المأمون ، ونظام الملك ، ونور الدين الزنكي ، والحاكم بأمر الله ، وصلاح الدين الايوبي ، وقد ارتبطت هـذه الأسمـاء ارتباطا رائعا وثيقا بالنهضة العلمية ، وكان لكل منهم أثره الضخـم في تاريخ الحركة العلمية الاسلامية ومن الناس من يقول بحق ان جميع الحركات الثقافية والعلمية في البلاد الاسلامية منذ عهد المأمون انمـا هي فروع للاصول التي أنبتها هذا الخليفة العظيم (٧٦) . فقد عمـل المأمون على حث الناس على مطالعة الأسفار والاهتمام بصناعتي النساخة والتجليد، وقيل أنه انفق على ترجمة كتب اليونان وحدها ثلاثمائة ألف دينار(٧٧).

وقام المأمون بتوسيع وتدعيم بيت الحكمة الـذي أنشأه أبوه ، واهتم بأنواع عدة من الثقافة ولم يقتصر اهتمامه على الثقافة الفارسيـة لانه كان مغرما بدراسة كتب الفرس القديمة (٧٨) فقط وانما اهتم أيضا بجمع الكتب الاغريقية (٧٩) وبعث وفدا لهذه المهمة كي يطلـع عليها ، واضطر القيصر الى الموافقة على ذلك بعد امتنـاع وتردد (٨٠) ، فأخرج

---

(٧٦) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء ص ٧٣ .

(٧٧) الطرازي : خزائن الكتب العربية المجلد الاول ص ١٠١ .

(٧٨) كانت ام المأمون فارسية ولذا كان ميالا بالطبـع الى الثقافة والحضارة الفارسية (خودابخش) : الحضارة الاسلامية ص ١٦٣) .

(٧٩) من كتب أفلاطون ، أرسطو ، أبقراط ، جالينوس ، أوقليدس، بطايموس وغيرهم من الفلاسفة (احمد رفاعي : عصر المأمون جـ١ ص٢٧٧ الطبعة الثالثة) .

(٨٠) قيل ان المنام الذي رآه المأمون كان هو السبـب في اخراج الكتب فقد رأى في منامه رجلا حسن الشمايل فقال من أنـت قال : أنا أرسطاليس فسأل عن الحسن فقال ما حسن في العقل ثم ماذا ؟ قـال ما حسن في الشرع فأمر المأمون باخراج الكتب (حاجي خليفـة كشف الظنون جـ١ ، ص ٦٨١) .

المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا ما وجدوا [٨١] ، ولما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل وأحضر المأمون حنين بن أبي اسحاق وكان فتي السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي واصلاح ما ينقله غيره .

وكان المأمون يعطه من الذهب زنة ماينقله من الكتب الى العربي مثلا بمثل [٨٢] فجمع في دار الحكمة كنوز العلم وآثاره من اسلامية وغير اسلامية وكانت خزانة الحكمة في عهده مفتوحة الابواب [٨٣] أمام العلماء الذين يريدون الدراسة والتحقيق ولم يكن الخليفة بعيدا عن أمور البحث والدراسة والمناقشة فيما تضمنته هذه الكنوز العلمية .

كما أن ميل المأمون الى الفلسفة والمنطق واتساع دائرة معارفه العامة وتأثره بمذهب الاعتزال ما دفعه الى ايجاد حركة نقل وتأليف قوية عنيفة وكان من نتائج اقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام ، والفلسفة الأفلاطونية الجديدة [٨٤] .

وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب وأصبح هم الناس البحث

---

(٨١) احمد فريد رفاعي : عصر المأمون جـ ١ ص ٣٧٧ الطبعة الثالثة .

(٨٢) المصدر السابق ص ٣٧٧ .

(٨٣) محمد اسعد طلس : عصر الازدهار ص ١٦٤ .

(٨٤) احمد فريد رفاعي : عصر المأمون جـ ١ ص ٣٧٧ الطبعة الثالثة .

والمطالعة وظلت النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدد من خلفائه حتى نقلت أهم الكتب الى العربية [٨٥] .

وأرسل المأمون الى حاكم صقلية بأن يرسل اليه مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة ، وان الحاكم تردد في ارسالها ، وكان بين الضن بها والحرص عليها والخوف من القوة المأمونية، والهيبة، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى اليهم بطلب المأمون فأشار عليه المطران الأكبر بقوله : « أرسلها اليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة الا أفسدتها » فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها [٨٦] .

بلغ من شغفه المأمون بكتب الحكمة والفلسفة ، أنه اذا ما عقد معاهدة مع بعض ملوك الروم ، فانه كان يشترط عليه أن يرسل اليه من نفائس كتب الحكمة التي في بلاده [٨٧] ومن ذلك جعل أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث ــ قيصر الروم ــ أن ينزل الثاني للاول عن احدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية ، كان بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك فأمر المأمون بنقله الى العربية وسماه « المسجطي » [٨٨] .

---

(٨٥) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٤٣ .

(٨٦) احمد فريد رفاعي : عصر المأمون ج ١ ص ٣٧٥ الطبعة الثالثة .

(٨٧) سعيد ديوهجي : بيت الحكمة ص ٢٠ .

(٨٨) الطرازي : خزائن الكتب العربية ج ١ ص ٤٨ وطلب المأمون من ملك الروم أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة التي كان قد فرضها عليه فقبل ملك الروم بذلك وعده كسبا كبيرا له ، اما المأمون فعد ذلك نعمة عظيمة عليه : عمر فروخ (العلوم عند العرب) ص ١١٤ .

وكان المأمون يجل علماء الملل الاخرى من نصارى وغيرهم ويحتفي بهم في مجلسه ، لا لعلمهم فحسب بل لثقافتهم في لغة العرب [٨٩] وخدمتهم فيها .

ولم يكن التسامح يسود بيت الحكمة في زمن المأمون فقط بل في معظم عهود الخلفاء العباسيين ، حبا بنشر الروح العلمية الخاصة بين الحكمة وأشرفوا على حركة الترجمة فيه هم النصارى السريان ولهم منزلة رفيعة عند الخلفاء ، فلا أثر للتعصب الذميم ، فنجد في بيت الحكمة أصحاب الفلسفة من الديانات الاخرى يناظرون المسلمين في الامور الدينية بكل حرية وصراحة ، ويتكلم أهل الملل الاخرى بما يبدو لهم ، وبما يعتقدونه ويرونه أقرب الى العقل والمنطق [٩٠] .

وقد أخرجوا هؤلاء من أديرة سوريا ، وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين كتبا خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ثم ترجموها الى العربية بدقة وعناية [٩١].

أقبل أهل المعرفة والادباء من الامصار ، وأجرى عليهم المأمون الارزاق فرغب الناس في صنعه النظر ، وتعلموا البحث والجدل [٩٢] . وأول من أغدق العطايا على العلماء المتخصصين وأصبح بعد ذلك تقليدا للدولة هو «المهدي» فانه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون

---

(٨٩) أنور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣٢ .
(٩٠) سعيد ديوهجي : بيت الحكمة ص ٤٢ .
(٩١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ص ٥٣٢ .
(٩٢) المسعودي : مروج جـ ٤ ص ٢٢٧ .

اليه الرحال من كل بلدة (٩٣) . واحتذاه في ذلك الرشيد ويقال أنه وصل الاصمعي يوما بمائة ألف درهم (٩٤) ، أما المأمون فكان سحابة منهله على العلماء والمتكلمين .

وان النشاط والازدهار للمترجمين وجماع العلوم لم تقتصر مؤازرته على الخلفاء فقط بل جاراهم في ذلك الوزراء (٩٥) والولاة وكبار القواد (٩٦) ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقا لاجتذاب أشهر العلماء في العالم الا سلكوه واذا صحت رواية غوستاف لوبون : « ان أحد الخلفاء شن الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد » (٩٧) .

وكان عصر المأمون ألمع عصور الحضارة العربية على وجه الاطلاق فسمي بحق العصر الاسلامي الذهبي ، وان العشرين سنة التي قضاها في الحكم قد تركت كنوزا زاخرة من الثروة الفكرية . (٩٨)

---

(٩٣) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١٠٢ .

(٩٤) الطبري : تاريخ جـ ٦ ص ٥٤١ .

(٩٥) ولا بد من ذكر مساهمة البرامكة في الترجمة فقد عنوا عناية واسعة بترجمة التراث الفارسي ونهض جيل كبير في عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة منهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة الفلك ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون في حداثته بعض الكتب الفارسية ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي محرز بن جهم البرمكي وطلب بن يحيى بن خالد البرمكي الى بطريرك الاسكندرية أن يترجم في الزراعة كتابا عن الرومية وقد ترجمه برسمة (شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١١٢) .

(٩٦) عمر كحالة/العلوم البحتة في العصور الاسلامية ص ٦ .

(٩٧) لوبون : حضارة العرب ص ١٧٤ الطبعة الرابعة .

(٩٨) محمد اسعد طلس : عصر الازدهار ص ١٦٤ .

يوضح طوطح سبب جمود النهضة الفكرية بعد زوال المأمون بدعته في الدين ، وفي الفلسفة ، واستيلاء الرجعيون على زمام الامور ، عدلت خطة بيت الحكمة الاولى ، وقلب برنامجه ظنـــا من القوم أن الحكمة والفلسفة والعلوم الطبيعية انما هي منافية للدين . (٩٩)

ثم نمت الحركة الفقهية في بغداد في القرنين الثالث والرابع بعـد الهجرة نموا كبيرا ، وظهر كثير من المجتهدين من أمثال (١٠٠)، محمد بن جرير الطبري وله عدة كتب وقد جمع الطبـــري مواده من الاحاديث وأقوال من سبقه من المؤرخين ، وبلغ الاهتمام بكتـــابة (تاريخ الامم والملوك) ان أحد وزراء السامانـــين نقل مختصـــرا له الى اللغـة الفارسية . (١٠١)

وان حمزة الاصفهاني (المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ هـ) عندما وضع كتابه (تاريخ ملوك الفرس) كانت احدى هذه النســخ في خزانـة المأمون . (١٠٢)

أهم المترجمين في بيت الحكمة :

سهل العباسيون على الناس أن يقفوا على الكتــب العلمية النادرة التي ترجمت من اللغات المختلفة الى العربية ، وصرف في سبيل الحصول عليها وعلى ترجمتها وتجليدها المبالغ الكبيرة فذلل الخلفاء للناس سبيل

---

(٩٩) طوطح : التربية عند العرب ص ١٦ ــ ١٧ .

(١٠٠) سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ٢٠٤ .

(١٠١) : ياقوت : معجم الادباء ج ١٨ ، ص ٤٥ .

(١٠٢) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ١ ، ص ١٧٨ .

المطالعة والدرس في بيت الحكمة الذي أنشىء لنشر العلوم والمعارف المنقولة عن الامم الاخرى ، والتي رغب الخلفاء بنشرها بين الناس ليقفوا على حقائق الامور ، وتراث الامم التي تقدمتهم في شتى النواحي الفكرية والعلمية .

وروي أن كتب اليونان كانت موجودة في بلاد المسلمين نفسها اذ كانت أغلب مراكز الثقافة اليونانية في العالم القديم ، ضمن دار الاسلام [١٠٣] فكانت توجد في منطقة البحر الابيض في الاسكندرية ، وفي الاماكن المجاورة للعراق في بلاد الجزيرة في حران . [١٠٤]

وانتقلت الدراسات اليونانية الى الحقل العربي عن طريق ثلاث منابع ، أكاديمية جندسابور ، وثانيا سكان حران وانطاكية ، وثالثا رهبان الجزيرة . [١٠٥] وكان للفلاسفة السوريين في حران وانطاكية فضلا كبيرا في نقل علوم الاولين الى العربية [١٠٦] وهم المنبع الرئيسي الذي استمد العرب معلوماتهم عن الثقافة والحضارة الاغريقية وقد تفوقوا على الاخرين بمعرفتهم اللغة ، لذا كانت ترجمتهم أكثر دقة من غيرهم . [١٠٧]

ولا بد من وقفة قصيرة عند هؤلاء المترجمين والذي كان يزيد

---

(١٠٣) عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول ج ١ ، ص ٣٥٢ .
(١٠٤) المسعودي : التنبيه والاشراف : ص ١٣٢ .
(١٠٥) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ١٥٨ .
(١٠٦) محمد أسعد طلس : عصر الازدهار ص ١٦٤ .
(١٠٧) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ١٥٨ .

عددهم على المئة ، [108] يذكر بعض منهم فمن اشتهر بالنقلة ، ابو زكريا يوحنا بن ماسويه [109] الذي كان في أيام الرشيد وقد ولاه ترجمة الكتب الطبية التي وجدها بأنقرة وعمورية ، وسائر بلاد الروم ، ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه ، وكان معظما ببغداد جليل القدر، وكان في حياته يعقد مجلسا يجتمع اليه أهل العلوم والادب ، وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذه . خدم المأمون [110] والمعتصم والواثق والمتوكل وتوفي في أيام المتوكل .

ومن زعماء الترجمة الحسن بن سهل الذي استوزره المأمون ، واحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، صاحب كتاب فتوح البلدان ، وأبو حفص عمر بن الفرخان الطبري [111] أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم النجوم .

الحجاج بن يوسف بن مطر (١٦٦ هـ ــ ٢٢٠ هـ) ولد في الكوفة وعاش ببغداد وكان موظفا في بيت الحكمة ، نقل أصول الهندسة لأقليدس نقلتين أحدهما يعرف بالهاروني والآخر بالمأموني . [112]

---

(١٠٨) ابن ابي أصيبعة : عيون الابناء جـ ١ ص ٢٠٥ .

(١٠٩) كان ابوه ماسويه أميا لا يعرف القراءة ، الا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطال به المران والتجربة فيه الى أن بلغ علمه مكانة عالية (جميل نخلة : حضارة الاسلام ص ٣٨١) .

(١١٠) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .

(١١١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ص ٣٤٦ ، واحمد الرفاعي : عصر المأمون ٣٨١ .

(١١٢) ارنولد : تراث الاسلام جـ ١ ص ٢٣٤ .

ونقل أيضا حنين بن اسحاق العبادي المتطب [113] وهو من أشهر المترجمين الى العربية ، وهو عربي من أهل الحيرة ، وكان أبوه صيدلانيا نسطوريا ، وقد درس على يوحنا بن ماسويه في جند سابور وأصبح صيدليا عنده كان ماهرا في صناعة الكحل ، وتعلم اللغة الاغريقية واستقر في البصرة وتعلم العربية فيها ، وكان شيخه بالعربية الخليل بن أحمد ، ثم توجه الى بغداد ورعاه ابناء موسى وقدموه الى الخليفة المأمون وجعله على رأس معهد الحكمة وكان يترجم بالعربية والسريانية ، وتمكن حنين أن يأتي باصدقائه الاطباء في مدرسة جند سابور الى بغداد وألم بدراسة العربية ، وخدم بالطب المتوكل ، وكان قديرا في ترجمته وهو الذي أوضح معاني كتب ابقراط ، وجالينوس ولخصها أحسن تلخيص وله كتاب في المنطق [114] . وكان كثير الالحاح بالاسئلة على استاذه الذي ضاق بكثرة أسئلته يوما فطرده من مدرسته واتهمه بالقصور عن الفهم فشد الرحال الى الاسكندرية وفيها تفقه في اليونانية ، ثم عاد للبصرة والكوفة ، ويقال أنه بدأ بالترجمة وهو في السابعة عشر [115] ، وكانت مهارته في الترجمة عاملا لتقرب المأمون له، فكان لا ينقطع عن اغداق الصلات عليه ، ولما كان حنين نفسه مغرما بالكتب فقد تجول في آسيا الصغرى ، وسوريا للبحث عن الكتب ، وكان ابراهيم بن صلت قد ترجم كتاب بطليموس عن الفلك الى اللغة

---

(113) حاجي خليفة : كشف الظنون ص ١٣٨ .

(114) ابن ابي أصيبعة : عيون الابناء جـ ١ ص ٢٥٧ ، والقفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧١ .

(115) جلال مظهر : حضارة الاسلام واثرها في الترقي العلمي ص ٢٥٦ .

العربية ، فراجعه وصححه حنين بن اسحق [116] ، وقد ترجم عشرين كتابا لجالينوس ، اربعة عشر مؤلفا الى العربية [117] .

وكان له ولدان داوود واسحاق ، أما داوود فلم يبرع براعة أخيه اسحاق [118] الذي كان أوحد عصره في علم الطب وكان يلحق بأبيه في النقل ، وفي معرفته باللغات وخاصة فيها ، وكان يعرب كتب الحكمة التي بلغة اليونانيين الى اللغة العربية ، كما كان يفعل أبوه ، الا أن الذي يوجد من تعريبه في كتب الحكمة من كلام ارسطاطليس وغيره أكثر مما يوجد من تعريبه لكتب الطب . وكان قد خدم من الخلفاء والرؤساء من خدمة أبوه ، ثم انقطع الى القاسم بن عبد الله وزير الامام المعتضد بالله واختص به . [119]

أما فيلسوف العرب والاسلام ـ الكندي ـ المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق ، العربي الاصل يتصل نسبه بملوك العرب الاقدمين من كنده [120] وقيل من ولد الاشعت بن قيس، كان أبوه الصباح من ولاة الاعمال بالكوفة وغيرها في أيام المهدي والرشيد ، ويقول بن جلجل : ان جده ولي الولايات لبني هاشم [121] انتقل يعقوب الى بغداد واشتغل بعلم الادب ، ثم بعلوم

---

(١١٦) خودابخش : لحضارة الاسلامية ص ١٦٣ .
(١١٧) القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧١ .
(١١٨) ابن ابي اصيبعة : عيون الابناء ج ١ ص ٢٦١ .
(١١٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ص ٢٠٥ .
(١٢٠) ابن جلجل : طبقات الاطباء ص ٧٣ .
(١٢١) محمد مصطفى العبادي ، وابراهيم العدوي : الدولة الاسلامية ، تاريخها وحضارتها ص ٥٤ .

الطب ، والنجوم والفلسفة والحساب والمنطق وله كتب كثيرة ، وأنزله المأمون منزلة عظيمة ، وكانت دولة المعتصم تتجمل به وبمصنفاته (١٢٢) وحاول الكندي في مذهبه الفلسفي أن يجمع آراء أفلاطون وارسطو ، واعتبر الرياضيات والفيناغورسية أساس العلم كله .

أما آل بختشوع فكانوا في كل عهود الدولة العباسية واشتهر منهم جبريل بن بختشوع فانه تبخر في جميع العلوم الداخلة في علم الطب وكتب في حياة الحيوان رسائل تدل على سعة اطلاعه ، فقربه الرشيد ، واتخذه في دور الخلافة وأخذ الناس يرجعون اليه فيما يشير به من العلم فحملهم على الاعراض عن الدجالين (١٢٣).

ماذا كانت نهاية بيت الحكمة :

لقد سطع نور بيت الحكمة في أيام المأمون وأيام هذا الخليفة كانت عهدا ذهبيا في حياة الدولة العباسية ، ثم خبا ذلك النور من بعده، فصرنا تتلمس اخبارها في بطون الكتب ، فلم نجد فيها ما يشفي ، والراجح ان انتقال الخلافة من بغداد الى سامراء وتعاقب الفتن على بغداد وما حل بها من البلايا بتوالي السنين كل ذلك تضافر على الحط من مكانة هذه الدار ، وايصالها الى حال فقدت معها سالف مجدها ، وقد اهملت بعد المتوكل .

---

(١٢٢) ابن نباتة : سرح العيون ص ١٤٤ ، وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٤٧ .

(١٢٣) جميل نخلة المدور : حضارة الاسلام في دار السلام ص ٢٠٥

اهمل المعتصم شأن هذا البيت العظيم ، [١٢٤] ، كمـــا أن للفتن والحروب بين المعتز والمستعين أثرا في اهمال بيت الحكمـــة ، ولكن الخلفاء ووزراؤهم لم يتخلوا نهائيا عن الترجمة والتأليف ، أمثال الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، واختص كل خليفة بطبيـــب من الاطباء المشهورين والذين عرفوا بالترجمة والتأليف أيضا ، وعندما رجع الخلفاء من سامراء الى بغداد صاروا يشجعون الترجمة فكان الطبيب يوحنا بن بختشوع ينقل من اليوناني الى السرياني في زمن الموفق بالله [١٢٥] .

وظلت دار الحكمة تقاوم الى أن داهم المغول بغداد سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨م ولم يشفق المغول على خزائن كتبها العامة والخاصة فاحرقوا جانبا منها وطرحوا بعضها الاخر في نهر دجلة فسد مجراه وزعـم بعض المؤرخين أن هولاكو ابتنى بتلك الكتب اصطبلات الخيـول وطاولات المعالف عوضا عن الطين [١٢٦] ، وهكذا قضى هولاكو على جميع الكتب التي ترجمها وألفها العلماء والادباء المسلمين بشجيع الخلفاء والتي عملت على نشر الثقافة بين جمهور المسلمين وغيرهم من أصحـــاب الديانات الاخرى . [١٢٧]

وعن طريق هذا المعهد كسبت اللغة العربية كثيرا من الزاد والمعرفة بما جرى في بيت الحكمة من نشاط علمـي ، وقد حفظ هـــذا البيت للانسانية كثيرا من تراث العالم المتحضر الذي ضاعت أصوله[١٢٨] ، ولم

---

(١٢٤) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ص ٦٣ .
(١٢٥) ناجي معروف : اصالة الحضارة ص ٤٤٤ .
(١٢٦) الطرازي : جـ ٣ ص ١٠١٥ .
(١٢٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ ٢ ، ص ٣٤٣ .
(١٢٨) احمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ٣٠٥ .

يجد الغرب غير العربية وسيلة للحصول الى تراث الحضارة الاوروبية القديمة .

ولم تقتصر بيت الحكمة على ما ترجم فقط، ولكن دخلت اليه كتب العلماء في اللغة والادب والتاريخ والفقه وعلم الكلام ، وبعض هذه الكتب ألفت بطلب من الخلفاء أنفسهم لكي توضع في بيت الحكمة .

فضمت خزانة الحكمة الكتب اللسانية والشرعية بالاضافة الى ما ترجم عن الفارسية واليونانية والسنسكريتية ، والكلدانية ، والقبطية (١٢٩) . ونرى أن العرب لم يكتفوا بما نقلوه عن غيرهم واستبقوه على حاله بل هم درسوه ، وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم .

وقد قامت دار الحكمة بجهد فريد من نوعه في تاريخ القرون الوسطى وكانت أداة لنقل الحضارة القديمة والحضارة العربية الى الغرب ومنطلق العلم الحديث ، كما كانت أساسا لتلك المدرسة العلمية الكبيرة التي عرفت باسم مدرسة بغداد ، وظل أثر هذه المدرسة قائما في أوروبا حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر ولهذه المدرسة يرجع الفضل في تحقيق استمرار الحضارة الانسانية بعد انهيار الحضارة الرومانية في القرن السادس الميلادي ، ومن هذه المدرسة ظهر كيان العلماء العرب .

---

(١٢٩) عبدالله بن العباس الجراري : تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوروبا ص ٢٣٣ الطبعة الاولى .

المراجـــع

ابن ابي اصيبعه : موفق الدين احمد بن القاسم (٥٩٦ هـ)
(عيون الابناء في طبقات الاطباء) تحقيـــق نزار رضا ــ بيروت ١٩٦٥ .

ابن خلكان : شمس الدين بن احمد بن محمد الكتبي (ت ــ ٦٨١هـ)
(وفيات الاعيان) ج ١ حققه احسان عبـــاس ــ دار الثقافة بيروت .

ابن جلجل : سليمان بن حسان الاندلس (٤٠٠ هـ) .
(طبقات الاطباء) تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ .

ابن العبري : غريفوري اطلطي :
(تاريخ مختصر الدول) المطبعة الكاثوليكية بيروت١٩٥٨

ابن الكازوزني : ظهير الدين علي بن محمد (٦١١ هـ ــ ٦٩٧ هـ) .
(مختصر التاريخ) حققه مصطفى جواد ، واشرف على طبعه سالم الارغوسي .

ابن نباته : جمال الدين محمد بن محمد (٧٦٨ هـ) .
سرع العيون ، رسالة ابن زبيـــدون ــ الطبعة الاولى ، مصر ١٢٧٨ هـ ــ ١٨٧١ هـ .

ابن النديم : محمد بن اسحق ابي يعقوب (٤٣٨ هـ) .
الفهرست ــ القاهرة مطبعة الاستقامة .

ارنولد : توماس :
(تراث الاسلام) تاريخ جمهرة من المستشرقين باشراف توماس ارنولد جـ ١ عربه جرجس فتح الله ، المطبعة المصرية ، الموصل ١٩٥٤ .

امين : احمد
(ضحى الاسلام) جـ ٢ الطبعة السابعة ـ القاهرة ١٩٦٤

الباشا : حسن
(الفنون الاسلامية ، على الاثار العربية) جـ ١ دار النهضة العربية القاهرة .

حتي : فيليب ، وادوارد جرجيس ، وجبرائيل جبور .
(تاريخ العرب المطول جـ ٢ الطبعة الرابعة ، مطابع غندور بيروت ١٩٥٤ .

حسن : حسن ابراهيم
(تاريخ الاسلام السياسي ، والديني ، والثقافي ، والاجتماعي) جـ ٢ الطبعة السادسة ١٩٦٢ ، الطبعة السابعة ١٩٦٤ مكتبة النهضة القاهرة .

حسن : علي ابراهيم
(التاريخ الاسلامي العام) القاهرة ١٩٧٢ .

الحموي : ياقوت، شهاب الدين ابو عبدالله الحموي الرومي(٦٢٢هـ)
(معجم الادباء في عشرين جزء جـ ١٨ الطبعة الاخيرة ١٩٣٧ .

خليفة : حاجي مصطفى عبد الله .
(كشف الظنون عهد أسام الكتب والفنون) أعادت طبعه بالاوفست المكتبة اسلامية والمكتبة الجعرفي بطهران الطبعة الثالثة ١٩٦٧ .

خودابخش : المؤرخ الهندي .
(الحضارة الاسلامية) ترجمة علي حسين الخربوطلي، دار احياء الكتب العربية القاهرة ـ ١٩٦٥م .

الجراري : عبد الله بن العباس .
(تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوروبا) الطبعة الاولى ـ دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦١ .

الجميلي : رشيد حميد :
(اثر الترجمة في الحضارة الاسلامية في القرن الثاني للهجرة) .
اطروحة ، مكتوبة على الالة الكاتبة ١٩٧٤ .

الجومرد : عبد الجبار .
(هارون الرشيد جـ ٢) المكتبة العمومية ـ بيروت ١٩٥٦ .

دائرة المعارف : مادة ، سهل بن هارون .

ديماند : م س .
(الفنون الاسلامية) ترجمة احمد محمد عيسى ، ومراجعة احمد فكري .
دار المعارف ـ مصر ١٩٥٨ .

الديوهجي : سعيد .
(بيت الحكمة) الموصل ١٩٥٤ .

الراوي : طه .
(بغداد مدينة السلام) سلسلة اقرأ (٢٧) دار المعارف مصر

الرفاعي : احمد فريد .
(عصر المأمون) المجلد الاول الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٢٨ .

الرفاعي : أنور .
(الاسلام في حضارته ونظمه) دار الفكر ١٩٧٣ .

زياده : نقولا (لمحات عن تاريخ العرب) دار الكتاب اللبناني١٩٦١

زيدان : جرجي .
(تاريخ التمدن الاسلامي) مطبعة الهلال ــ مصر ١٩٣١

سرور : محمد جمال
(تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق) القاهرة ١٩٦٥

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١ هـ) .
(تاريخ الخلفاء) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني القاهرة ١٩٦٤ .

شلبي : احمــد
(تاريخ التربية الاسلامية) الطبعة الثانيــة ، مكتبــة الانجلو المصرية ــ القاهرة ١٩٦٠ .

ضيف : شوقي
(العصر العباسي الاول (الطبعة الثالثة المنقحــة ، دار المعارف ــ القاهرة ١٩٦٦ .

الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤ ــ ٣١٠ هـ) .
(تاريخ الطبري) تاريخ الرسل والملوك ــ القاهرة ١٩٦٧

الطرازي : الفيكنت فيليب
(خزائن الكتب العربية في الخافقــين) المجلــد الاول والمجلد الثاني ، دار الكتب اللبنانية .

طوطح : خليل
(التربية عند العرب) المطبعة التجارية القدس ، بلا

طلس : محمد اسعد
(عصر الازدهار ، تاريخ الدولة العباسيــة) الكتــاب الاول ، الطبعة الاولى
دار الاندلس ، بيروت ، بلا

العبادي : محمد مصطفى ، والعدوي : ابراهيم احمد
(الدولة الاسلامية ، تاريخها وحضارتها) بلا

عبد الدائم : عبد الله
(التربية عبر التاريخ) بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٥

علي : سيد أمير علي
(مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي) نقلـه الى العربية ، رياض رافت القاهرة ١٩٧٨

عواد : كوركيس
(خزائن الكتب القديمة في العراق) مطبعـة المعارف بغداد ١٩٤٨

غنيمة : محمد عبد الرحيم
(تاريخ الجامعات الاسلاميـة الكبـرى) دار الطباعة المغربية ـ انطوان ١٩٥٣

القفطي : جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٦ هـ)
(اخبار العلماء باخبار الحكماء) ليبزك ١٩٠٣

القيرواني : ابو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري (ت ٤٥٣)
(زهر الاداب ، وشعر الالباب) ج ٢ الطبعـة الرابعة دار الجيل بيروت مفصل ومشروع بقلمزكي مبارك١٩٧٢

كحاله : عمر
(العلوم البحتة في العصور الاسلامية) مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٧٢

لوبون : غوستاف
(حضارة العرب) نقله للعربية عادل زعيتـر الطبعـة الرابعة ١٩٦٤

ماجد : عبد المنعم
(١) الى تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٣
(٢) العصر العبـاسي الاول ج ١ مكتبـة الانجلو ـ القاهرة ١٩٧٣

متـز : آدم
(الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجـري) جـ ١
الطبعة الثالثة المنقحة نقله الى العربيـــة محمد عبد
الهادي ابو ريده ، القاهرة ١٩٥٧

المدور : جميل نخله
(حضارة الاسلام في دار السلام) الطبعـــة الثانية ـ
القاهرة ١٩٠٥

المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ)
((١) مروج الذهب) جـ ٢
((٢) التنبيه والاشراف) عني بتصحيحـــه عبد الله
الصاوي القاهرة : ١٩٣٨

مظهر : جلال
(حضارة الاسلام واثرها في الترقي العلمي) القاهــرة
١٩٧٤م

معروف : ناجي
(اصالة الحضارة العربية) الطبعة الثالثة ، دار الثقافة
بيروت ١٩٧٥م

منتصر : عبد الحليم
(تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقــدمه) الطبعة
الرابعة دار المعارف ـ مصر ١٩٧١م .

حول طبيعة الاستشراق

ساجدة عمر فوزي
العراق

صدر في لندن عن دار راتلج في الشهر الماضي كتاب الاستاذ ادوارد سعيد عن« الاستشراق » • وقد أثار الكتاب حال صدوره ضجة علمية وصحفية سبقها في أن هذا الكتاب يمثل أول مبادرة عربية علمية تتصدى لمعاهد الغرب الفكرية والتي ادعت لنفسها مهمة احتكار تدريس وتفسير وتصحيح أفكار العرب والمسلمين • وعليه فقد شعر كتاب الغرب بالقلق (١) وبات لديهم أن هذا الكتاب هو بادرة أولية لمثقفي المشرق في محاولة الأخذ بزمام مصائرهم واعادة النظر في تاريخهم وما كتب عنهم •

والاستاذ أدوارد سعيد غني عن التعريف فهو فلسطيني الأصل مقيم حاليا في الولايات المتحدة ويعمل كاستاذ الادب المقارن والنقد الادبي في جامعتي برنستون وكولومبيا • وقد شغل قبل ذلك وظيفة

---

(١) راجع مراجعة باتريك سييل في الاوبزرفر
P. Seal : in the Observer .

استاذ زائر للادب المقارن في جامعة هارفارد • ويحمل رسالة معهـــد الدراسات البشرية المتقدمة في ستانفورد •

وقد حصل كتاب ادوارد سعيد الموسوم « الاغراض والمقاصد في علم البدايات » الصادر في عام ١٩٧٦ على جـــائزة لينونيل تريلينـك السنوية التي تمنحها جامعة كولومبيا لبحوث الدراسات النقدية •

وكتاب « الاستشراق » يقع في ٣٦٠ صفحة من الحجـم الكبير • ويتصدى لبحث المعضلة التالية : ـ

أولا : ان الاستشراق هو رمز للهيمنة السياسية والحضارية للغرب خاصة وان بدايات «علم» الاستشراق ظهرت وتطورت أثنــاء الضعف السياسي والحضاي للشرق •

ثانيا : ان الاستشراق هو «تقليد» وليس علم • أو بكلمة أحسن ان الاستشراق يقوم على مجموعة تقاليد رافقــت فترات الاستكشافات العلمية والجغرافية وقيام المستعمرات هذه التقاليد التي عززت الطـابع العنصري والعداء الديني «للاقوام» (Nations) المستعمرة ••

ثالثا : ان تطور الاستشراق وتحوله على الشكـل العلمي النهائي أوقع المستشرقون في مزلق الادعاء بالموضوعية والعلمية الـتي تفتقرها طبيعة البحوث الاجتماعية • وحتى اذا ما سلمنـا بامكانيـــة التجرد والموضوعية (وهذا مستحيل حيث يقع الباحث الاجتماعي تحت طائلـة الالتزام الادبي أو الاستمتاع الشخصي • كما تلعـب القيود الاجتماعية والالتزامات السياسية دورا مكملا تمنح مسألـــة الموضوعية والتجرد التي تتحلى بها بحوث الكيمياء وسائر العلوم الطبيعية) • فان الاساس

التقليدي لبحوث الاستشراق يتنافى على الاطلاق مع مسألـة التجرد العلمي •

ويعود ادوارد سعيد هنا ليؤكد أن التحيز العلمي أو البعـد عن الموضوعية هو أمر قد لا يكون سيئا في جميع الاحوال •

ولبحث هذه المقولة ينصب الكتاب وينقسم الى ثلاثة أقسام متبعة التسلسل التاريخي لنشوء الاستشراق : كما يصاحـب هذا التحليـل التاريخي دراسة نظرية موازية لدوافع الاستشراق • ينتهي في النهاية الى أن الشرق هو جزء اساسي لتراث الغرب المادي وحيـث أعطى الشرق للغرب من المقارنة والهوية التفوقية للحضارة الغربية • كما حصر سعيد دراساته على الاستشراق الانكلو ـ فرنسـي والمدارس الاستشراقية الاميركية المعاصرة • وبذلك حرم الكاتب نفسه (وحرم القارىء كذلك) من فرصة دراسة الاستشراق الروسي والمدرسة الالمانية • ويبرر سعيد هذا (القصور !!) من أن الاستشراق هو وليد علاقة عضوية (اساسهـا الهيمنة والتسلط السياسي ــ والحضاري) بين الغرب والشرق • وان مثل هذه العلاقة تنقص الالمان وفقهاء الروس • ولذلك فان المثال الكامل للاستشراق يكمن في العلاقة البريطانية الشرقية التي سادها جو التملـك (فالبريطاني مثلا يعتبر نفسه مسؤولا عن تثقيف وفهم السكان المحليين نظرا لكونه السيد المالك) من جهة والعلاقة الفرنسية الشرقية التي تمتاز بالنزعة التصوفية نظرا لعقدة الحرمان التي لاقاهـا الساسة الفرنسيون أثناء القرن التاسع عشر والتخلي عن «جواهر» الشرق • وبالتـالي فان الفرنساوي يعتبر أن دوره في دراسة الاستشراق هو دور البـاحث عن الحقيقة وليس غيره •

لقد رافقت حملة نابوليون على مصر من جهة وبدايـات الطموح البريطاني في السيطرة على أجزاء الجسم العثماني المريض دعوة لدراسة وفهم طبائع وأذهان وعادات سكان وأجناس هذه المناطق • وبذلك نصب الغربي نفسه واليا وشفيعا ليفتي ويتفقه ويكون النظريات حـول طبائع السكان •

لقد اقترن الشرق وفكرة الشرق بمفهوم الخطر الاسلامي الداهـم ولذلك فان الطابع الدفاعي لهذه الدراسات والحـاجة الى الاقتصاص والثأر من العرب والمسلمين صبغت تلك الدراسات القـديمة وأثرت في تكوين الفكر الاستشراقي الحالي •

وهذا يفسر الهجوم الشرس الذي مارسه كتاب تلك الفترة والذي اقتصر على العرب والمسلمين دون سواهم من شعوب هذه المنطقة •

لقد أورد ادوارد سعيد مقتطفات عديدة جـدا من دراسات تلك الحقب وخلص منها الى كيفية صياغة الجذور الاساسية لعلم الاستشراق: ففي « البليوغرافيا الشرقية » لـ داربيلو والمنشورة في ١٦٩٧ جاء تعريف الاسلام بما يلي (الاسلام : هو اسم لمدعي النبوة والذي سمي فيما بعد بمحمد وهو مؤلف الهرطقة المعروفة والمسماة باسمه) •

والذي يهم ادوارد سعيد هنا هو أن كلمة المحمديين لم تطلـق الا بقصد تجريد الاسلام من أي محتوى والصاقه فيما بعد باسم شخصي • والسبب هو غيظ وكره المستشرقين من ادعاء « شعوب هـذه المنطقة » بأي اجتهاد روحي •

لقد تكون الشرق عن طريق خيال الغرب ، منهـم الذين صاغوه

وكونوه وكل ما كتب في تلك الحقبة وحتى بدايـــات القرن العشرين انما جاء ليؤكد ويثبت الصورة التقليدية • واذا ما كان هناك اختــلاف بين حقيقة الشرق وما كتب عنهم في الغرب فذلـــك مرده الى خطأ في الشرق وليس لسوء فهم الغرب •!! أما اختلاف المستشرقــين فليس الا تأكيدا لماهية وشخصية الشرق •

وعندما زار برتون فلسطين ولاحظ اختلاف الواقع عن ما قرأه عمد فجأة الى وصف فلسطين بانها المكان الذي يسوده المـوت • ان تعريف الموت هنا يشير الى خيبة برتون في العثور على ما يدلـــل على جمود المسلمين وتفسخ العرب (المعهود !!) ولذلك وبـــدلا من أن يقـــرر الحقيقة ، عمد هذا الى الرجوع الى ذاكرته وبدأ يصف ويؤكد خيـــال الغرب دون حاجة الى فتح عينيه ورؤية الواقع •

لقد انتقل الاستشراق الى مجال البحث (العلمي) في بدايات القرن الثامن عشر باحد ثلاث طرق : ـ

١ ـ الترجمة المباشرة وتصنيف المواد المترجمة ويرجع الفضل هنا الى سلفستر دساسي الفرنساوي وادوارد وليم لين • وساهم الاول في وضع قواعد اللغة العربية ومؤلفه معروف كما ألف مؤلفات قصيـــرة عن «ديانات العرب والدروز» • لقد وصف هذا روعة الشعر العربي بأنـــه يقصر عن اللحاق بالتكامل الغربي الذي بلغ من الكمال ذروته •

أما ادوارد لين مترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» الى الانكليـــزية ، والذي يهم هنا أن هؤلاء باحتكارهم فهم « دين الاهالي » وتمكنهم من المنطق بلغات مختلفة ركزوا الصورة العنصرية المتخلفة للشـــرق وأصبح الشرق ملكا للغرب بصورته النهائية وعند بداية تطور علم اللغة واللفظ

وجد «المستشرقون» في شخص ريناث فرصة في تصنيف وترتيب الشرق • وذلك عن طريق ارجاع اللغات الى جذور معينة أولا وربط حضارات الاقوام بتلك الجذور ثم عملية مقارنة مدى وحشية وبدائية هذه الاقوام مقاسة ببدائية جذور لغاتهم خلص في نهايتها ريناث الى أن الحضارة السامية تعتبر بدائية جدا اذا ما قورنت بالحضارة الاوروبية • حيث يقول : (ان الفرق «بيننا وبينهم» هو كالفرق بين الصورة الزيتية و «شخابيط قلم الرصاص •••!!»

وهذا يفسر تقدم موضوع علم اللغات الشرقية في مدارس الغرب •

لقد تركز علم الاستشراق وتطور فبعد أن استخدم تكنيك التحليل اللغوي في تصنيف الاجناس اكتشف الغرب أهمية (علم الجغرافيا في تطبيقه على أقوام المنطقة) وقامت حركة واسعة لمسح الاراضي ووضع الحدود لكل قبيلة وشعب وذلك للحفاظ عليها من الضياع •

ويصف الاستاذ سعيد في الفصول النهائية من الكتاب مهمة المستشرق في انتقاله من دور الباحث العلمي الى دور المستشار الذي يضع علمه في خدمة الامبراطورية ويساهم في استقرار وازدهار المنطقة كما يساعد تجنب «الفتن» في الانتقال من المرحلة الكولونيالية الى الاستقلال الذاتي •

وهنا ينتقل الاستشراق من مرحلة الصراع الفكري والتسلط القبيح الى دور التعاون الودي والدعوة الى فهم « الاسلام » والمسلمين•

لقد لعب كلا من «هاملتون جب» و«ماسنيون» الدور الاساسي والهام في اغناء تراث الاستشراق كما ألفت كتابات هؤلاء حجر الاساس ومصدرا ضخما وقيمة علمية كبيرة جدا .

وبالرغم من ثناء ادوارد سعيد واعجابه بموضوعية هؤلاء وارتياحه لمدى الحب الذي أظهروه في دراستهم للاسلام فان له ملاحظات يمكن حصرها بما يلي : -

لقد طبعت دراسات « جيب » وارتبطت بمعطيات السياسة البريطانية كما أنها لم تتخلص من الطابع التسلطي الاستعلائي ، كما أن اعتماده على التراث الاستشراقي القديم ربطه بشكل واضح بسلسلة المستشرقين القدامى . ان مقتطفات سعيد عن جب ، وخاصة بالخلاصة التي مفادها عدم صلاحية المسلمين وعقلية الشرق الاوسط للاستفادة من تمدن الغرب وعليه فانه من الخطأ محاولة تمدين المسلمين ذوي العقلية البسيطة ، ترجع الذهن الى الدعوات العنصرية القديمة .

أضف الى هذا ارتباط السيد هاملتون جب بالمعاهد المشبوهة مما يقلل من وثوق وصلابة التزامه العلمي . أما ماسنيون فلم يتخلص هذا من ميوله «الكاثوليكية» التي تتجلى في اصراره على اعتبار الحلاج كمسيح جديد بثوب اسلامي ومحاولة المسلمين الى التشبه بالمثل المسيحية في التضحية .

وفي الفصل الاخير تكمن قيمة هذا الكتاب . لقد ابرز سعيد موقف المستشرقين المعاصرين العدائي والمغلف بالطابع العلمي لكل ما هو عربي واسلامي خاصة بعد حرب ١٩٦٧وظهور العرب كقوة اقتصادية دولية .

ولم يكف المستشرقون ـ كما يقول ادوارد سعيـــد ـ وخاصة برنارد لويس عن الطعن بالاسلام « الاسلام أداة عنصرية » ، والتسخيف بالقيم الحضارية الحديثة «كاصرار لويس على القول بأن الثورة هي من « ثوران وهيجان » التي لها محتوى « جنسي وحشي » • ومهما بالغنا في السرد فلسوف نظل قاصرين عن ابراز أهمية هذا الفصـل • خاصة في فضح دور المستشرقين المحدثين أمثـــال فاتوكيوتوس ولويس في تجريد المفهوم القومي العربي من أي محتوى ومن ثم الانقضاض علـى الاسلام كرمز وحشي ينبغي تثقيفه • وخير مثـــال هو ما أورده سعيد (ضمن أمثاله العديدة جدا) حول مفهـوم فاتوكيوتوس « بان الثورة العربية هي مفهوم جنوبي تمتاز به الشعوب الجـائعة الفقيـــرة • وان الفكرة القومية المستوردة التي يتبجح بها العرب ما هي الا خطر يهـدد كيانهم وصحتهم !! » •

ويخلص الكتاب الى ما يلي :ـ

١ ـ انه لا زال التسلط الحضاري قائما بدلالة الاتجاه الثقافي الى الغرب عن طريق المبعوثين والوفود •

٢ ـ بدأت الآن بوادر الانتقال المكاني للاستشراق الى الولايـات المتحدة بعد زيادة عدد طلبة دراسات اللغة العربية والتاريخ الاسلامـي الموفدين الى اميركا •

٣ ـ ان العالم الشرقي لا مكان له في الغرب وأكثـــر مايقوم به هناك هو دور المعرف والمخبر تاركا دور البحـــث والتحري الى سيده الغربي •

ان هذا الكتاب جدير بالدراسة وهو ضرورة لكـــل من يـروم الذهاب الى الغرب لدراسة تراث الشرق !!!•

العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام

١٩٠٠ - ١٩١٤

الدكتوراه سميليانسكايا
معهد شعوب آسيا وافريقيا - اكاديمية العلوم
السوفياتية - موسكو
ترجمة : الدكتور نوري عبد البخيت
جامعة البصرة

بدأ الاهتمام باسواق بلاد الشام كسوق لتصريف المصنوعات والبضائع الروسية منذ نهاية القرن التاسع عشر فقد شهدت روسيا في تلك الفترة تطورا سريعا في الانتاج الصناعي مما دفعها للبحث عن اسواق خارجية لتصريف منتجاتها الصناعية . وكانت بلاد الشام احدى تلك المناطق التي اتجهت انظار البرجوازية الروسية اليها . وقد شهدت العلاقات التجارية ما بين روسيا وبلاد الشام نتيجة لذلك نموا متزايدا باعتبارها جزءا من نمو العلاقات التجارية الروسية العثمانية . وفي سنة ١٩١٠ كانت تجارة بلاد الشام تكون سدس التجارة الخارجية للامبراطورية العثمانية، اما بعد خروج سلانيك ومجموعة جزر الارخبيل من الامبراطورية العثمانية فقد ارتفعت نسبة تجارة بلاد الشام الخارجية الى الربع مما يشير الى أهمية السوق السورية بالنسبة للسوق العثمانية . ويوضح الجدول الآتي أهمية التجارة الروسية في أسواق بلاد الشام

البلد المصدر	الاسكندرية	طرابلس	بيروت	صيدا	عكا	حيفا	يافا	اللاذقية	المجموع
انكلترا	٥٢٥٩٦٤	٤٠٩٢٢	٧٠٦٧٠١	١٢٢١٨	٩٤٨	٦٠١١٥	٧٥٥٠٨	٢٥١	١،٤٢٢،٦٢١
مصر	١١٢٦٦٢	٥٤٤٩٩	١٥٣٧١٦	١١٤٩٨	٧٧٦٣	١٨١٨٥	٩٣٣٠٦	٣٠٨٠	٤١٩٧٠٩
النمسا	١٣٢٩٨٩	٢٠٤٦٠	٢٣٤٠٧٥	٥٤٠٩	—	٢٤٣٢٧	٨٣٢٩٧	١٤٥٨	٥٠١٠١٥
فرنسا	٧٤٤٩٣	٩٧١٥	٢٩٣٦٨٩	٦١٣	٧٩٨	١٢١٧٤	٥٢٨١٥	١٢٦٣	٤٤٥٥٦٠
روسيا	٣٧٧٩٠	٥٢٧٥٠	١١٤٧٦٣	٤٠٩٦	٤٤٠٨	١٣١٤٩	١٠٨١٠٧	١٨٤	٣٣٥٢١٧
ايطاليا	٥١٤٨٩	٨٥٦٠	١٦٤٣٨٩	٩٠	٣٤٩	١٦٠٨٩	٤٥٨٠٩	—	٢٨٦٧٦٨
المانيا	٢٩٥٠٠	٦٨٧٣	١١٣٩١٥	—	١٦٨	٤٤٥٦	٤٦٥٥٣	٢٦١	٢٠١٧٣٤
بلجيكا	٢٤٨٧٥	٦٢٧١	٩٣٣٤٢	١١٧١	—	٩٤٣٥	٣٧٧٥٤	٢٥١	١٧٣٠٩٩
هولندا	٦٢٥٤	—	٣٥٧٩١	—	—	٧٥٧	١٠٢٥٢	—	٥٣١٥٤
رومانيا	٥٣٢١	١٨٣٤	—	٧٣٢٠	١١٨٣	٦٠٥٨	٢٧٢٣٨	—	٤٨٩٥٤
الولايات المتحدة	٧٧٧	٨٥٠	—	—	—	٢٢	٨٦٦٥	—	١٠٣١٤
حكومات اخرى	٢٨١٩	—	٦٦٢٧	١٨٨٥	١٠	٩٩	٦٨١٦	٤٦٦	١٨٨٤٢

بالنسبة لبقية الدول الاوروبية[1] اذ يظهر ان التجارة الروسية قد احتلت المرتبة الخامسة في تسلسل تلك الدول التي لها علاقة تجارية مع بلاد الشام فقد احتلت انكلترا المكان الأول ثم النمسا وفرنسا ومصر وروسيا • ولقد شكلت الصادرات الروسية الى بلاد الشام في الفترة من ١٩١٠ ــ ١٩١١ نسبة ١٣٪ من مجموع الصادرات الروسية الى بقية أرجاء الامبراطورية العثمانية • واذا أخذ بنظر الاعتبار أن مجموع الصادرات الروسية الى كافة أجزاء الامبراطورية العثمانية في عام ١٩١١ كانت نسبتها ١ر٢٪ من مجموع الصادرات الروسية بصورة عامة فان مكانة سوق بلاد الشام بالنسبة لتجارة روسيا الخارجية تمثل الحد الادنى • ولكن هذه الارقام لا تعطي فكرة عامة واضحة عن سوق بلاد الشام بالنسبة لعدد كبير من المنتجات الصناعية الروسية فان انخفاض الصادرات الروسية للامبراطورية العثمانية توضحها الصفة الغالبة على التجارة الروسية الخارجية والتي تكون المواد الزراعية نسبة عالية فيها خصوصا اذا علمنا بان بعض اقطار الامبراطورية العثمانية تصدر في بعض الاحيان ما يفيض عن حاجتها من منتجات زراعية • ان المنتجات الصناعية الروسية المصدرة للاسواق العثمانية مثل السكر والكحول وصناعة الفلزات والاحذية المطاطية والاقمشة تحتل الدرجة الاولى ضمن قائمة الصادرات الروسية للاسواق العثمانية ويندرج تحت هذه القائمة نفط باكو الذي تعتبر الدولة العثمانية سوقا هامة له • لقد بدأت الصادرات النفطية الروسية للاسواق العثمانية في التطور بعد الثمانينات من القرن التاسع عشر • ومنذ سنة ١٩١٤ دخلت الشركات النفطية الروسية في صراع عنيف مع المؤسسات النفطية الاميركية مثل « ستاندر

---

(١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٢٢ ورقة ١٠١ •

اويل كومبني » • وكذلك مع شركات نفط غاليسيا ورومانيـــا • وعلى الرغم من انخفاض كميات انتاج النفط في روسيا فقد ازدادت الكميات المصدرة منه للاسواق العثمانية بعد عام ١٩٠٤ وحتى سنة ١٩١٤ ، حيث وصلت هذه الزيادة الى الضعف • وقد بلغت نسبة الواردات من النفط الروسي للاسواق العثمـــانية ١١٪ من مجمـــوع الواردات العامة للامبراطورية العثمانية سنة ١٩٠١ وارتفعت نسبته الى ٤٢٪ سنة ١٩٠٨ والى ٢١٪ في عام ١٩١٢ • وقد احتل النفط الروسي المركز الاول في اسواق الدولة العثمانية للفترة الممتدة من ١٩١٠ ـ ١٩١١ فقد اصبحت نسبته تكون ٧٠٪ من مجموع الواردات العثمانيـــة من النفط • وقد انعكست الحالة نفسها في أسواق بلاد الشام ، فحتى الثمانينـــات من القرن التاسع عشر كان النفط الاميركي يحتل المكـــانة الاولى هناك • وبعد هذه الفترة بدأ نفط باكو يأخذ مكانة في اسواق بـــلاد الشـــام بكميات كبيرة ولكن النفط الاميركي والروماني والهنغاري بـدأ ينافس النفط الروسي في سنة ١٩٠٥ ، ومع ذلك فقد حافظت المنتجات النفطية الروسية على موقع الصدارة في أسواق بلاد الشام • ويوضح الجدول الآتي كميات النفط المصدرة الى بلاد الشام والدول المصـــدرة بآلاف البود [1] للفترة الزمنية ١٩١٠ ـ ١٩١٣ •

---

(١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤٨ ورقة ٢٧ •

البلد المصدر	السنة ١٩١٠	النسبة المئوية	السنة ١٩١١	النسبة المئوية	السنة ١٩١٢	النسبة المئوية	السنة ١٩١٣	النسبة المئوية
روسيا	٢٩٧١٦٩٠٠	٧٢,٥	٢٣٥٣٩٩١٥	٥٤	١٢٧٢٤٩١٥	٥٤,٥	٣٦٤٧٦١٨٠	٦٧
امريكا	٤٤٢٥١٩٠	١١,٥	١٠٤٤٤١٤٠	٢٤	١١٢٢٠٩٠	٤,٩	٨٥٠٦٢٦٠	١٦
رومانيا	٥٩٩٤٣٢٠	١٥,٠	٩٤٠٨٥٢٥	٢٢	٨٩٨٥٤٩٠	٤٠,٦	١٣٠٧٢٢٩٥	١٧
النمسا	—	١,٥	—	—	—	—	—	—
المجموع العام	٤٠٣٦٤١٠	١٠٠	٤٣٣٩٢٥٨٠	١٠٠	٢٢٨٣٢٤٩٥	١٠٠	٥٨٠٥٤٧٣٥	١٠٠

ومن هذا يتضح ان روسيا القيصرية قد حافظت على موقع الصدارة بالنسبة للصادرات النفطية الى اسواق بلاد الشام حتى الحرب العالمية الاولى .

ومن المواد الغذائية المصنعة يحتل السكر الناعم ضمن الصادرات الروسية موقعا مهما في اسواق بلاد الشام فقد تطورت صناعة السكر في روسيا بعد الثمانين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ففي ١٨٨٠ - ١٩٠٣ ازدادت كميات السكر المنتجة من ١٢٫٤٠٠ بود الى ٦٣٫٥٣٨ ألف بود . وفي سنة ١٩١٣ وصل الانتاج الى ٩٣٫٠٩١ بود [٣] . وقد جاءت هذه الزيادة في انتاج السكر نتيجة لازدياد الطلب على السكر في السوق الداخلية اضافة الى ازدياد الطلب عليه في الاسواق العالمية . وكان السوق العثماني جزءا من تلك الاسواق العالمية والتي تستهلك حوالى ٩ ملايين بود من السكر في السنة [٤] . يوضح الجدول الآتي تطور صادرات السكر الروسي الى الاسواق العثمانية [٥] .

صادرات السكر من روسيا بآلاف البود

السنة	مجموع المستورد من السكر الروسي للاسواق العثمانية	مجموع السكر المصدر من روسيا بصورة عامة
١٩٠١	١٥٣٩	٤٩٢٥
١٩١١	٤٢١١	٢٣٣٢٩
١٩١٢	٣٢٠٣	١٧٨٨٣

(٣) خراموف - التطور الاقتصادي في روسيا في القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين،موسكو ١٩٥٠ ص ١٩٤ (باللغة الروسية)
البود - وحدة وزن مصرية تساوي ١٦٫٣٨ كغم .
(٤) ليسنكا - الشرق الادنى ص ٢١٩ .
(٥) استعراض تجارة روسيا الخارجية فى آسيا وأوروبا حتى سنة ١٩١٢ ، بتروغراد ١٩١٣ ص ١٢ .

ويتضح من الجدول السابق أن روسيا القيصرية سدت حاجة ثلث السوق العثماني من مادة السكر في عام ١٩٠١ • وبحلول عام ١٩١١ ازدادت نسبة السكر المصدر الى بلاد الشام بحوالى ٢ر٧ مرة مع العلم أن صادرات روسيا من السكر انخفضت بصورة عامة حتى أصبحت تشغل خمس مجموع الصادرات العامة • وشغل السكر الروسي المرتبة الثانية في أسواق بلاد الشام بعد السكر المستورد من امبراطورية النمسا والمجر ففي بيروت ودمشق وطرابلس وحيفا كان نصف السكر المستورد يأتي من روسيا • وتستورد الاسواق العثمانية مواد مصنعة اخرى من روسيا أشهرها الكحول المستوردة من جنوب روسيا • فقد بلغت نسبة الكحول المصدرة الى هذه الاسواق في سنة ١٩١١ ٥٠٪ من مجموع صادرات روسيا من هذه المادة [٦] • وشغل الكحول الروسي في سنة ١٩٠٩ نسبة ٨٠٪ من مجموع الكحول المصدرة للدولة العثمانية [٧] • ولكن هذا الوضع تغير في سنة ١٩١٢ بسبب منافسة الكحول النمساوي ــ المجري للكحول الروسي في أسواق الامبراطورية العثمانية • وحتى سنة ١٩١٢ سيطر الكحول الروسي على اسواق بيروت ودمشق فقد صدر الى بيروت في عام ١٩١٠ من مجموعة ٤٨ر٨٠٠ بود كانت حصة روسيا من ذلك ٣٩٢١٤ بود وبلغ مجموع المستورد من الكحول في سنة ١٩١١ ، ٦٦ر٥٣٨ بود ، كان الكحول

---

(٦) استعراض تجارة روسيا الخارجية مع اوروبا وآسيا (بالنسبة للسكر الناعم)•

(٧) مجلة الصناعة والتجارة سنة ١٨٠٩ عدد ١٨ بتروغراد ١٩١٩ حتى سنة ١٩١٢ بتروغراد سنة ١٩١٣ ص ١٣ •

الروسي يؤلف ٥٤٢٤٢ بود منه • في سنة ١٩١٢ فلم يصل الى دمشق الا الكحول الروسي فقط [٨] •

وقبيل اندلاع شرارة الحرب العالمية الاولى ضعف مركز الدقيق الروسي في الاسواق العالمية لكن اسواق بلاد الشام لم تتأثر بذلك فقد بلغت قيمة الدقيق المصدر الى بلاد الشام للفترة ١٩١٠ — ١٩١١ اربعة ملايين قرش وكان ثلث المبلغ من نصيب روسيا [٩] علما بان سعر الدقيق الروسي كان أغلى من سعر الدقيق المستورد من البلدان الاخرى •

ولقد ازداد عدد الطواحين البخارية في بلاد الشام منذ بداية القرن العشرين واخذت بلاد الشام تصدر الفائض من انتاجها المحلي من الدقيق ، وذكر القنصل الروسي في دمشق ان الدقيق الروسي اختفى من أسواق بلاد الشام وفي سنة ١٩٠٨ كان كل ما وصل الى ميناء بيروت لا يزيد عن ٨٠٠ كيس من الدقيق فقط [١٠]• وفي سنة ١٩٠٨ كان مجموع ما وصل الى ميناء بيروت ١٥٨٠٧ بود من الطحين المشحون من ميناء اوديسا الروسي [١١] وعلى هذا الاساس فان المواد المصنعة في جنوب روسيا وأهمها السكر والكحول والمعجنات والطحين والصناعات المعدنية من القفقاس وخاصة النفط كان لها مكان متميز في أسواق الامبراطورية العثمانية والتي تعتبر أسواق بلاد الشام جزءا منها ، وأما

---

(٨) ليسنكا — الشرق الادنى ص ٢٢٨ — ٢٢٩ • الشرق الادنى كسوق لبضاعة الروسية ١٩١٣ بتروغراد •

(٩) ليسنكا — الشرق الادنى ص ٢١١ •

(١٠) مجلة المال والصناعة والتجارة بتروغراد ١٩٠٨ عدد ٢٧ •

(١١) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٤١ ورقة ٥ •

بقية الصناعات الروسية فكان لها دور ضعيف في اسواق الامبراطورية العثمانية . فقد سيطرت الاخشاب النمساوية على أسواق بلاد الشام على الرغم من العروض الكثيرة التي قدمتها وزارة التجارة الروسية حول تصدير الاخشاب الى بلاد الشام من مختلف المناطق الروسية وحتى من الشرق الاقصى (١٢) . وفي سنة ١٩٠٩ تسلمت وزارة التجارة الروسية طلبا لشراء الاخشاب لأعمدة التلفونات ولسكة حديد الحجاز . وفي سنة ١٩١١ نفدت هذه الطلبات عندما وصلت كميات كبيرة من الاخشاب الروسية (١٣) ولم يطرأ أي تحسن على الصادرات الروسية من الاخشاب للاسواق العثمانية حتى بعد بناء مخازن للاخشاب الصنوبرية لنهر الفولغا الروسي في استانبول ، فقد كتب القنصل الروسي في استانبول بان الاخشاب الروسية تتمتع بسمعة غير طيبة في اسواق الامبراطورية العثمانية لسوء نشرها وقطعها .

اما صادرات الحديد الروسي لاسواق بلاد الشام فقد اشتهر الاتفاق بين مؤسسة التجارة الروسية والشركة الروسية البلجيكية حول التعامل مع معامل « ماريابوليا » من أجل صناعة ثمانية الاف طن من قضبان السكك الحديدية والف طن مشد «قفيص» لسكة حديد الحجاز (١٤) وتوجد في أرشيف القنصلية الروسية في بيروت الكثير من العروض التي تقدمت بها معامل صناعات الحديد في روسيا حول امكانية

---

(١٢) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٦ ورقة ٢١، ٢٦، ٢٨ .

(١٣) مجلة التجارة والصناعة ، بتروغراد سنة ١٩١٠ عدد ٥ .

(١٤) مجلة اخبار الصناعة والتجارة ، بتروغراد سنة ١٩٠٦ العدد ١٣ .

تصدير الصناعات المعدنية الى بلاد الشام [١٥] • وهناك طلبات عديدة تقدم بها تجار بلاد الشام لاستيراد السمنت الروسي ومصنوعات شبه جزيرة البلقان [١٦] • غير ان الصناعات المعدنية الروسية لم تتمكن من فرض سيطرتها على اسواق الشام حتى الحرب العالمية الاولى • وقد وصل السماور الروسي الى أسواق دمشق والذي استفاد منه الحجاج المسلمون كما وصلت المناديل الروسية والشال من بخارى كما وصلت الخزفيات وأثاث الكنائس وفراء الحيوانات ومن الجدير بالذكر أن بعض المصنوعات الروسية كان قد نقلها تجار بلاد الشام من استانبول •

اما واردات روسيا من الدولة العثمانية فلم يكن لها شأن يذكر فقد شغلت روسيا في عام ١٩١٢ المرتبة الثامنة في سلسلة الدول المستوردة من الدولة العثمانية والدرجة السادسة بالنسبة للدول المستوردة من بلاد الشام في سنة ١٩١٠ ، اذ استورد التجار الروس من بلاد الشام البرتقال والفستق والليمون والكرز المجفف والسجاد والبسط والاثاث الشرقي « منتجات الصناعات الخشبية » وقد اهتمت البرجوازية الروسية بالدولة العثمانية وبلاد الشام كسوق لتصريف منتجاتها وليس للحصول على المواد الاولية في الصناعة • وعلى هذا الاساس فان تطور العلاقات التجارية مع الشرق الادنى وبضمنها بلاد الشام ، كان يخدم مصلحة معظم فصائل البرجوازية الصناعية الروسية المالكة لآبار النفط ومعامل السكر والمشروبات الروحية ومصانع الحديد في وسط روسيا وأصحاب البنوك ورؤوس الاموال المساهمة في

---

(١٥) ارشيف القنصلية الروسية فى بيروت وثيقة ٢٤٣ ورقة ٧ وثيقة ٢٤٧ ورقة ١ •

(١٦) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٣٠ ورقة ٢ •

مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية المؤسسة عام ١٨٥٧م • ولعبت هذه المؤسسة دورا كبيرا في العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام •

وقد عمدت السلطة القيصرية في روسيا الى تحقيق أهدافها السياسية في العلاقات الدولية عن طريق هذه العلاقات التجارية مع الامبراطورية العثمانية ، فمنذ نهاية القرن التاسع عشر اصبح الشرق الادنى مركزا للصراع السياسي بين الدول الاوروبية وكان التغلغل الاقتصادي من الوسائل التي اتبعتها هذه الدول لتوسيع نفوذها السياسي في الدولة العثمانية ولهذه الاسباب زاد اهتمام الحكومة الروسية في تطوير العلاقات التجارية مع أسواق الامبراطورية العثمانية وتوظيف رأس المال الروسي في البنوك العثمانية ومساندة المحاولات الاولية لهذه العملية بكل قوة • وتعتبر العلاقات التجارية الروسية العثمانية وبضمنها بلاد الشام ضعيفة فيما اذا قورنت مع بقية الدول الاوروبية التي لها علاقات تجارية مع الامبراطورية العثمانية• ومرد ذلك الى التخلف الاقتصادي الروسي وانخفاض الانتاج وارتفاع اسعار البضاعة اذ تزيد اسعارها على اسعار البضاعة للدول الاوروبية الاخرى بنسبة ١٥ـ٢٠ ٪، يضاف الى ذلك ارتفاع اجور الشحن البحري الذي احتكرته مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية والاعمال غير الدقيقة والعطل المستمر لبواخرها•كل هذه الاسباب عرقلت العلاقات التجارية بين روسيا والاسواق العثمانية ، ولقد ساعدت الصعوبات في العلاقات التجارية الروسية العثمانية على تحسن العلاقات التجارية الانكليزية والفرنسية والايطالية والنمساوية والهنغارية واليونانية من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى • وأسست معظم هذه الدول ملحقيات تجارية لها في العاصمة العثمانية والمدن العثمانية الاخرى • وكان من اهداف هذه الملحقيات تطوير علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية ، فكانت تعرض قوائم بأسماء

البضائع التي يمكن تصديرها للاسواق العثمانية وتقوم بدور الوساطة في العلاقات التجارية ، اما روسيا القيصرية فلم تفتح لها ملحقية تجارية في العاصمة العثمانية الا في سنة ١٩١٣ في الوقت الذي قامت فيه بعض الدول الاوروبية بتنظيم معارض تجارية لها في المدن العثمانية ويصحب هذه المعارض التجار والسماسرة الذين يجمعون الطلبات حول رغبة التجار العثمانيين في البضاعة المستوردة • أما التجار الروس فقد نظموا صفقاتهم التجارية عن طريق المراسلات ودفعوا أجور عمولة كما دفعوا مبالغ لقاء خزن بضائعهم في مخازن البضاعة التابعة للدولة العثمانية أو المخازن التابعة للدولة الاجنبية في الامبراطورية العثمانية • وكان للشركات التجارية الكبرى الاخرى ممثلون في المدن العثمانية ، بينما لا تملك الشركات التجارية الروسية مثل هذه الممثليات باستثناء شركة النفط الروسية « براتيانوبيل » التي فتحت لها في سنة ١٩١٠ ممثليات ووكالات في معظم المدن العثمانية ففي بلاد الشام كان لها وكلاء في كل من دمشق والاسكندرية وحلب وطرابلس وعكا وحيفا ويافا والقدس وغزة ونابلس وصفد • ومنذ بداية القرن العشرين اشتد الصراع بين الاحتكارات العالمية للسيطرة على الاسواق العثمانية ولقد تمكن اتحاد السكر النمساوي من بسط سيطرته على الاسواق العثمانية وبضمنها بلاد الشام ولعب بنك تريستا دورا فعالا في هذا المجال اذ انه كان يملك مشروعات متعددة في المدن العثمانية ، كما سيطرت مؤسسة السنديكات النمساوية الرومانية على تجارة الاخشاب في الاسواق العثمانية (١٧) • وسيطر الكحول الروسي على الاسواق العثمانية حتى سنة ١٩١٢ • ولكن بعد هذه الفترة مباشرة تغير الموقف عندما بدأت الشركات النمساوية

---

(١٧) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت ، وثيقة ٢٤٠، ورقة٤٤

تصدر الكحول الى الاسواق العثمانية باسعار منخفضة [١٨] ولعبت البنوك الاجنبية دورا فعالا في تطوير العلاقات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الاجنبية فكان لهذه البنوك في بلاد الشام مشاريع متعددة فقد كان هناك فرع لبنك التسليف اليوناني والبنك النمساوي والانكليزي الفلسطيني والنمساوي الفلسطيني والعثماني وبنك سلانيك . وقامت هذه البنوك بتسهيل عملية التبادل التجاري بين الدول الاجنبية والاسواق العثمانية في الوقت الذي تأخر فيه رأس المال الروسي في هذا المجال بصورة واضحة ، فلم يكن هناك في كافة أرجاء الامبراطورية العثمانية الا فرع واحد لبنك العلاقات الخارجية الروسية المؤسسة في سنة ١٩٠٩ في العاصمة العثمانية ويفتقر موظفوا هذا البنك للخبرة والممارسات ويجهلون أهمية أسواق بلاد الشام وشجعت الدول الاوروبية مؤسساتها التجارية على توسيع علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية فخفضت اجور الشحن والضرائب كما خصصت لهم الجوائز والمكافآت المالية . اما العلاقات التجارية الروسية العثمانية ونظام القنصليات والنقل البحري والمكوس فكان اساوبها في التعامل قديما لا يلائم المرحلة التاريخية الجديدة اذ أنها كانت قد انشئت وفق معاهدة عام ١٨٦٢ والمعدلة لمعاهدة سنة١٨٨٣ ولم تفكر الحكومة الروسية باعادة النظر في اتفاقياتها التجارية مع الدولة العثمانية بعد أن أقدمت السلطات العثمانية على زيادة المكوس على التجارة الخارجية من ٨ بالمئة الى ١١ بالمئة ولم تملك روسيا ملحقيات تجارية في خارج بلادها ولذا فقد أعطت المؤسسات والشركات التجارية اعمالها الى القنصليات الروسية التي تعوزها الخبرة في المسائل

---

(١٨) الشرق الادنى . ص ٢٢٥ .

التجارية [١٩] . وقام القنصل الروسي بتزويد التجار الروس بالمعلومات المطلوبة حول حالة السوق والطلبات والحاجيات المرغوبة في الوقت الذي كانوا يفتقرون فيه الى المعلومات الكافية حول التجارة . وهذا مما ساعد على اضعاف التجارة الروسية في صراعها مع تجارة بقية الدول الاوروبية في أسواق بلاد الشام حتى أصبحت روسيا مهددة بالخروج من الاسواق العثمانية . وفي سنة ١٩٠٢ اقدمت الحكومة الروسية على خطوة موجهة لتقوية العلاقات التجارية مع الدولة العثمانية وهي افتتاحها خطا للملاحة البحرية بين الموانىء الروسية على سواحل البحر الاسود وموانىء الخليج العربي بعد الاتفاق مع مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية ، وتم الاتفاق على أن يمر خط الملاحة بالموانىء الآتية : القسطنطينية ، أزمير ، بيروت ، يافا ، بورسعيد ، السويس ، جدة ، جيبوتي ، عدن ، مسقط ، بندر عباس ، لنجه ، بندر بوشهر ، البصرة . وتعهدت الحكومة الروسية بمساعدة الشركة بمبلغ ١٥٠ ألف روبل في الرحلة الواحدة . وقامت وزارة الخارجية الروسية منذ بداية القرن العشرين باصدار نشرات دورية لها طابع اقتصادي وتجاري معتمدة على تقارير قناصلها في الخارج لغرض الدعاية للمنتجات والتجارة الروسية . وفي سنة ١٩٠٢ عقد مؤتمر لممثلي صناعات التعدين في جنوب روسيا لدراسة أسواق الفحم في الدولة العثمانية ومصر ومناطق الشرق الادنى الاخرى [٢٠] .

---

(١٩) كانت هناك قنصليات روسية قبيل الحرب العالمية الاولى في كل من بيروت وحلب ودمشق والقدس، صيدا، حيفا ، طرابلس، حماة ، انطاكيا والاسكندرية .

(٢٠) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت . وثيقة ٢٣٥ ورقة ١٢

وقد انتعشت العلاقات التجارية الروسية العثمانية بعد الحرب الروسية اليابانية وبعد ثورة عام ١٩٠٥ ، ولكن أصابها الضعف مرة أخرى في الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ نتيجة للركود الاقتصادي الذي أصاب الاقتصاد الروسي واحتوت أرشيفات القنصليات الروسية في الامبراطورية العثمانية وفي بلاد الشام على طلبات كثيرة ، للتصدير الى الاسواق العثمانية ، وأخذت المؤسسات التجارية الروسية المختلفة تبدي رغبتها واستعدادها لاقامة العلاقات التجارية مع أسواق الشرق الادنى ، وحاولت البرجوازية الصناعية الروسية تنظيم تجارتها الخارجية عن طريق تأسيس شركات مساهمة للتصدير ، فظهرت مثل تلك المؤسسات في سنة ١٩٠٨ في موسكو واوديسا وكان اشهرها المؤسسة التجارية الروسية للشرق ، ومؤسسة الصداقة الروسية للتصدير [٢١] ، ولم يترك تأسيس هذه الشركات أثرا ملموسا على تطور العلاقات التجارية بين روسيا والشرق الادنى لضعف خبرة هذه المؤسسات وعدم مساندتها من جانب الحكومة الروسية ، ومنذ سنة ١٩٠٨ أخذت البضاعة الروسية تصل أسواق الامبراطورية العثمانية عن طريق مؤسسات التصدير .

ومما ساعد على تقوية العلاقات التجارية بين روسيا والدولة العثمانية المعرض الصناعي الزراعي المتجول الذي نظمته مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية سنة ١٩١٠ ، وكان الهدف الاساسي من وراء تنظيم هذا المعرض هو اطلاع التجار العثمانيين على المنتجات الصناعية والزراعية في روسيا وقد ساهم في المعرض ما يزيد على ١٥٠ شركة

---

(٢١) ساهمت في هذه الشركات مؤسسة النقل البحري والتجارة الروسية بنسبة ٥٠ بالمئة من مجموع الاسهم .

ومؤسسة صناعية ، فعرضت مختلف أنواع المكائن والزجاجيات والاقمشة والجلود والفراء واللعب والحبوب والشاي والسكر والاحذية والاثاث المنزلي والمزهريات والكتب .

وقد أقيم هذا المعرض على ظهر الباخرة المسماة «نيقولا الثاني» وتعتبر هذه الباخرة من أحسن البواخر التي تمتلكها مؤسسة الملاحة والتجارة الروسية ، وقد ساهمت وزارة الصناعة والتجارة في قسط كبير من تكاليف تنظيم المعرض . وقد بدأ المعرض المتجول رحلته بمدينة فارنا البلغارية مارا بالقسطنطينية وسلانيك والإسكندرية وبورسعيد وحيفا وبيروت وطرابلس والاسكندرونة وسمسون وطرابزون . وقد حقق المعرض نتائج غير متوقعة ، اذ تعدى مسألة تعرف شعوب الشرق على المنتجات الروسية وبدأ التجار المحليون العثمانيون يسجلون طلباتهم على المنتجات الروسية (٢٢) . كما أشادت الصحافة العربية في بيروت بأهمية البضاعة الروسية المعروضة (٢٣) . وفي سنة ١٩١٠ عقد في موسكو مؤتمر لممثلي الصناعات التجارية والزراعية لمناقشة سبل زيادة الصادرات الروسية للخارج وما حققه المعرض من نجاحات . وناقش المؤتمر النقاط التالية :

١ ـ تقرير حول تاريخ الصادرات الروسية للشرق الادنى .
٢ ـ نتائج قيام المعرض .

---

(٢٢) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت، وثيقة ٤٦٥، ورقة ١٧.
(٢٣) أرشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٤٥٦ ورقة ١٨.

٣ ــ تقارير المؤسسات المساهمة في المعرض حول أصناف البضاعة الممكن تصديرها للشرق الادنى •

٤ ــ تقرير حول السبل لنجاح التجارة الروسية للشرق الادنى وتقارير اخرى حول معوقات التجارة الروسية في الشرق الادنى •

وحاولت البرجوازية الروسية استغلال المؤتمر كوسيلة لتوجيه السياسة الاقتصادية للحكومة القيصرية لخدمة مصالح البرجوازية الاقتصادية فاتخذ المؤتمر عدة قرارات وتوصيات مهمة كانت لها آثارها على سياسة الحكومة الاقتصادية وعلى تطور التجارة الروسية مع بلدان الشرق الادنى • اذ أوصى المؤتمر بتخفيض أجور الشحن بالسكك الحديد وبالطرق البحرية وبتخفيض ضريبة الموانىء وفتح مخازن المبضاعة الروسية في الشرق الادنى وفتح خطوط ملاحة بحرية جديدة لمؤسسة الملاحة والتجارة الروسية الى سواحل القفقاس وروسيا الجديدة لتقدير الدقيق الروسي والاسمنت واعادة تنظيم ميناء ماريو بولسكي ★ وتعميق مضيق « كيرجين » ★ لتسهيل عملية تصدير المنتجات الروسية وتخفيض الضرائب على المواد الاولية المستوردة من الخارج والتي تحتاجها الصناعة الروسية • وبذلك فقد اتخذ المؤتمر الكثير من القرارات لتسهيل عملية الصادرات الخارجية • وكان على الحكومة الروسية أن تصغي الى مقررات المؤتمر ، وبالفعل بدأت الحكومة الروسية سنة ١٩١١ بتنفيذ بعض تلك المقررات فتم تنظيم قسم

---

* ميناء ماريوبولسكي : احد الموانىء الروسية في شبه جزيرة كولا ــ شمال غرب الاتحاد السوفياتي

* مضيق كيرجين : في شبه جزيرة القرم على سواحل البحر الاسود •

الاستعلامات للعلاقات التجارية الخارجية في وزارة التجـــارة وقامت اللجنة التجارية في السفارة الروسية في القسطنطينيـــة بتنظيم معرض تجاري بحري متجول • وتم فتح مكتب تجاري في القسطنطينية وبدأت وزارة التجارة تفكر في امكانية فتـــح مثل هذه المكاتب في بقيـــة القنصليات الروسية في المدن العثمانية الاخرى منذ سنة ١٩١٣ (٢٤) • كما خفضت الحكومة اجور الشحن البحري والبري • وفي سنة ١٩١٢ أرسلت وزارة التجارة والصناعـــة بعثة الى الشـــرق الادنى لدراسة احتياجات الاسواق العثمانية هناك وقدمت هذه اللجنة تقـــارير مفيدة استفاد منها التجار الروس • وقبيل اندلاع شرارة الحرب العالمية الاولى نظمت معارض تجارية روسية في المدن العثمانية المهمة مثل القسطنطينية وأزمير وبيروت • كما أسس بعض التجار الروس وكالات تجارية خاصة بهم في بعض المدن العثمانية • كما شجعت روسيا مشاركة رأس المـــال الروسي في البنوك العاملة في أرجاء الامبراطورية العثمانية ففي سنـــة ١٩١٣ جرت محادثات من أجل مساهمة أحد البنوك الروسية في بنـــك سلانيك • وقد انعكست محاولات الحكومة الروسية الهادفة الى تقوية علاقاتها التجارية مع الامبراطورية العثمانية على بلاد الشـــام • فانهالت الطلبات الكثيرة للمؤسسات والشركات الروسيـــة على القنصليـــات الروسية في بلاد الشام طلبا لتصدير منتجاتها الى اسواق بـــلاد الشام • وبالعكس ازدادت طلبات تجار بلاد الشام لاستيراد البضاعة الروسية • وقد بلغ عدد المؤسسات التجارية في بلاد الشام والتي لهـــا علاقـــات تجارية مـــع روسيا حتى سنة ١٩١٢ ، ٤٢ مؤسسة تجارية • وظهر فـــي بيروت بعض التجار الذين يملكون تبعية روسية وقد لعب هؤلاء دورا

(٢٤) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت • وثيقة ٢٣٠ ورقة ٣٣

فعالا في تطوير العلاقات التجارية بين بلاد الشام وروسيا • حتى ان بعضهم ساهم في المعرض التجاري الروسي المتجول [٢٥] • وفي سنة ١٩١٢ تأسست في بيروت مؤسسة التجارة الروسية الشرقية ، كان مساهموها من التجار الذين لهم علاقات تجارية مع روسيا [٢٦] • وفي السنة نفسها تم تأسيس شركة الصادرات النفطية الروسية العثمانية السورية والتي تولت عملية استيراد النفط الروسي وطرق بيعه وتحديد أسعاره • ان تأسيس هذه الشركات التجارية وخاصة النفطية منها مما زاد من قوة العلاقات التجارية بين روسيا وبلاد الشام وخاصة صادرات النفط الروسي وبذلك تكون روسيا قد صدرت الى أسواق بلاد الشام بضاعة مصنفة ومنتجة في المناطق الجنوبية في روسيا والتي أصبح لها مركز واضح في أسواق بلاد الشام •

---

(٢٥) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٨١٩ ورقة ٣٨.

(٢٦) ارشيف القنصلية الروسية في بيروت وثيقة ٢٣٠ ورقة ٣٣.

النشاطات التي يعتزم الاتحاد القيام بها

(١) اقامة مهرجانات في جميع انحاء الوطن العربي للاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجري لمدة اسبـوع من ١٣٩٩/١٢/٢٧ ولغايـة ١٤٠٠/١/٤ هـ .

(٢) نشر دراسات تاريخية في مواضيع مختلفة .

(٣) العمل على تنفيذ مشروع تبـادل الاساتذة الزائرين بين جامعـات الدول العربية .

(٤) اقامة مواسم ثقافية في الحواضر العربية للعمل على تطوير الدراسات التاريخيـة .

(٥) تطوير مجلة المؤرخ العربي التي تصدرها الامانـة العامة للاتحـاد وجعلها أكثر ملاءمة مع تطوير الدراسات والمفاهيم العلمية .

(٦) اقامة ندوة عالمية في تونس لمناقشة موضوع البحث التاريخي وتحديد المنهجية التاريخية للباحث العربي .

(٧) العمل مستمر في الاعداد والتهيئة لمهرجان التراث العربي في الاندلس والذي سيقام في ١٩٨١/٦/٢١ .

(٨) تنفيذ مقررات مؤتمر تاريخ الامة الذي انعقد في بنغازي وبخاصة موضوع كتابة تاريخ الامة العربية •

(٩) السعي الى ايفاد بعض الاساتذه المتخصصين في الحضارة العربيـة والاسلامية لالقـاء محاضرات في التراث العربي والاسلامي فـي الجامعات الاجنبية ، لابراز الجوانب المشرقة لتاريخنـا الحضاري وتراثنا الخالد •

(١٠) اقامة مهرجان للشهيد عمر المختار في مدينة بنغازي في ١٠/١١/١٩٧٩ بالتعاون مع جامعة قاريونس •

(١١) دراسة امكانية توحيـد مناهـج تدريس التاريـخ في الجامعات العربية كافـة •

(١٢) اقامة مؤتمر (التراث القومي) في دولـة قطر وقـد وافقت وزارة الاعلام في دولة قطر على عقد المؤتمر على نفقتها بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب •

(١٣) اقامة ندوة عالمية لاحياء مدينة القيروان التاريخية •

(١٤) اقامة مهرجان في التراث العربي في مدينة الحمامات بالجمهوريـة التونسيـة •

(١٥) تنظيم مسابقة كبرى لكتابة احسن ثلاثة بحوث في التراث العربي احياء للتراث وتشجيعا للاخوة المؤرخين والباحثين العرب •

(١٦) السعي الى تنظيم لقاء سنوي للمؤرخين العرب في احدى الحواضر العربية هدفه لقاء الاخوة المؤرخين وتعاونهم والوقوف على أحدث البحوث والنشريات في حقل التاريخ والاستماع الى بعض المحاضرات

العلمية بالاضافة الى البرامج الترفيهية وسيكون موعد هذا اللقاء في الاسبوع الثاني من شهر تموز (يوليو) من كل عام .

(١٧) عقد مؤتمر تذكاري للرحالة العربي ابن بطوطة يقام في المغرب بالتعاون مع الحكومة المغربية .

(١٨) اقامة ندوة تاريخية في مدينـة الاسكندرية تخليدا للمؤرخ المصري الاستاذ عبد الحميد العبادي بالتعاون مع جامعة الاسكندرية .

(١٩) تنظيم مؤتمر يبحث في الحضارة العربية والاسلامية في سلطنـة عمان بالتعاون مع وزارة التراث القومي هناك .

كتب جديدة :

نشأة الحركة الاباضية

تأليف الدكتور عوض خليفات

الاستاذ المساعد في كلية الآداب

الجامعة الاردنية

كتاب في نشأة حركة من حركات الخوارج ، وفيها تقصى الاستاذ المؤلف نشوء تلك الحركة وتطورها ، ونجح نجاحا كبيرا في ابراز الدور السياسي والفكري للحركة الاباضية على الرغم من ندرة المصادر وقلة ما كتب عنها . وقد اثبت الدكتور خليفات ان مؤسس هذه الحركة هو جابر بن زيد الازدي وان ابن اباض لم يكن الا واحدا من اتباعه، وتتبع المؤلف نشاط جابر بن زيد في البصرة وغيرها من المناطق ، حيث ازداد الاعوان والانصار وصارت الحركة ذات أثر فعال في العصر الاموي.كما بين المؤلف انتقال الاباضية الى عمان واستقلالهم هناك واعلان امامتهم .

ان الكتاب صفحة مشرقة من صفحات تراثنا الخالد ، ورائعة من روائع البحث العلمي المجرد ، وتكريما لجهود الدكتور خليفات وتقديرا لروحيته العلمية فقد قامت الامانة العامة للاتحاد بتعضيده ودعمه .

العراضة في الحكاية السلجوقية

أصدر المؤرخان العربيان الدكتور حسين امين والدكتور عبد النعيم محمد حسنين كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية وقد قاما بترجمته عن اللغة الفارسية وتحقيقه تحقيقا علميا ، فجاء الكتاب تحفة من تحف التراث العربي والاسلامي •

مؤلف الكتاب الوزير محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام الحسيني المتوفي سنة ٧٤٣ هـ ، ويبحث الكتاب في تاريخ السلاجقة منذ تاسيسهم وحتى انفراط عقدهم وزوال سيطرتهم •

ان كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية يعتبر من اجل كتب التاريخ التي اختصت بتاريخ السلاجقة ودونت لسلاطينهم وحروبهم ، وقد كتب الكتاب أصلا بلغة فارسية عالية اتسمت بالاسلوب الادبي الراقي، وحاول المترجمان جعل الكتاب المترجم بنفس الروح التي سارت عليه منهجية اسلوب الكتاب •

ان كتاب العراضة في الحكاية السلجوقية اضاف للمكتبة العربية تحفة جديدة من المواضيع التاريخية المهمة لا يستغنى عنها الباحثون والدارسون ، ومن جدير بالذكر ان الكتاب طبع على نفقة جامعة بغداد •

والحق يقتضي تقديم الشكر والامتنان للاستاذين المؤرخين الكبيرين الذين بذلا من الجهد الكبير ما جعل الكتاب يخرج بهذه الحلة الرائعة، ونرجو الله ان يوفقهما لخير العلم واحياء كتب التراث •

حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور

مؤلف الكتاب عالم وباحث عربي كبير هو الاستاذ الدكتور احمد سوسة عضو اتحاد المؤرخين العرب وعضو المجمع العلمي العراقي •

ان المؤلف معروف بدأبه العلم وصبره على الدرس والبحث وكتابه هذا دليل واضح على الجهد الكبير المبذول من اجل ابراز تراث الامة الخالد •

لقد تقص الباحث في كتابه عن الساميين وأصل تسمية العرب ، وازدهار حضارة العرب في اقدم مراحل تطورها ، واكد ان جزيرة العرب هي المهد الاول للحضارات السامية ، ثم بحث في الهجرات السامية الى الهلال الخصيب ، وبين ان المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب هي الوطن الاصل للساميين وان اللغة العربية هي اللغة الام ، وذكر اراء بعض العلماء في هجرات القبائل العربية ، ثم عرج على موضوع الجفاف ، وابان ان اقدم وجود للساميين هو في وادي الرافدين •

وتناول الدكتور مواضيع حضارية في وادي الرافدين ووادي النيل وكذلك في بلاد اليمن •

ان الكتاب أضاف معلومات قيمة للمكتبة العربية واتسم بالروح العلمية وقامت وزارة الاعلام العراقية بنشره اسهاما في دعم الحركة العلمية واحياء التراث العربي •

volutionary consciousness. In one way or another alienation is the overriding theme of Palestinian poetry. But the poetry itself has transcended this theme and has become «a grenade in the hands of a fighter.» Sameeh al-Qassem's poem is an awesome conclusion to any statement on the Palestinian struggle with and transcendence of alienation : (20)

Talk about exile — I defy
Silence my argument with chains
And a foolish prison cell
I defy
. . . .
All what I own of my father's and grandfather's
inheritance is to defy !
All what I understand from the wind
and the secrets of erased villages
and the songs of springs
on dying grass
a concealed sob
the roots of the tree
memorize it for me
a sob : To defy

(20) «I Defy,» in Aruri and Ghareeb, pp. 96-97.

Finally, it is the reality of defiance as the praxis of the Palestinian. In poetry of this genre, there is neither looking back on the past nor looking forward to the future. The act of defiance is the affirmation of Palestinian life itself. Nizar Qabbani illustrates this theme with powerful simplicity : (19)

I now have a gun

Tell the curious about my case

My gun — has now become the case

I now have a gun

I'm in the roster of the commandos

I sleep on thorns and dust

And speak to death

My weapons grow leaves

And my wounds reflect the moon

Conclusion

Alienation is the ontology of Palestinian life manifest at all levels of consciousness, action and interaction. Since the time when the Arabs carried their mobile culture on camels across vast desert expanses, poetry has been a principal mode of expression and communication — both a highly developed art form and a practica lvehicle of communication. Largely denied access to other modes of expression and communication that have displaced poetry, Palestinians have utilized poetry to analyze, editorialize, propagandize and immortalize their pathos. From the stultified hobby of a leisured few that Arabic poetry had become under the aegis of civilization, Palestinians have revitalized poetry as a practical tool of production — the production of re-

---

(19) «The Case,» in Aruri and Ghareeb, p. 139.

It is also the reality of revolution. There is a flood of poetry commemorating revolutions in Africa, Asia, Latin America. But these are not the Palestinian revolution, as Mahmoud Darweesh reminds his people: (18)

> Do not tell me :
> I wish to be a baker in Algeria
> In order to sing with the revolutionaries
> Do not tell me :
> I wish to be a shepherd in the Yemen
> To sing for the uprising of the age
> Do not tell me :
> I wish to be a waiter in Havana
> To sing for the victory of the poor
> Do not tell me :
> I wish to be a stone carrier in Aswan
> To sing for the rocks
> My friends :
> The Nile will not pour into the Volga
> The Congo and Jordan Rivers
> Will not serve the Euphrates
> Each river has its own
> Our land is not barren
> Each land has its own rebirth
> Each dawn has a date with revolution.

(18) «On Hope.» in Aruri and Ghareeb, p. 136.

reality of the June 1967 Arab-Israeli war that brought this consciousness to the fore of Palestinian life.

The experience of the June 1967 war catalyzed the emergence of a new reality ni Palestinian consciousness that is evident in the flood of poetry following the war. The singularly decisive defeat of the Arabs, the sudden expansion of the domain of alienation, and the apparent legitimacy of force in human affairs left unmasked the nature of the processes of alienation, the objective roles of the chief protagonists and the objective interrelationships among their diverse aims. The new reality of Palestinian consciousness is first of all the recognition of the role of Palestinian passive compliance in the process of alienation. Sameeh al-Qassem echoes Palestinian withdrawal from the games of compliance : (17)

Esteemed Security Council
for twenty years
I called on you
and today, through the storms
which threaten peace
my voice reaches you
by air mail
from the forest of blood
fire, bitterness and tents
It comes to you as a red rose
in the new year :
Whoever comes to my home to kill
will be taken away in a box

(17) «The Fall of the Masks,» in Aruri and Ghareeb. pp. 69-70.

Revolutionary Consciousness :

The Transcendence of Alienation

Marx conceived of consciousness as the reflexive objectification of productive relationships — a social product that imbues the physical organization of human activity with objective meaning. This conception of consciousness «does not explain practice from the idea but explains the formation of ideas from material practice.» Thus, there are levels of consciousness that correspond to the levels of development of man's productive powers.

Contradictions between the ideal realm of ideas and the practical realm of activity reflect contradictions in existing social relations and existing forces of production — reflect in the first instance the estrangement of mental from material activity. These contradictions are the reflexive manifestation of man's actual alienation. Revolutionary consciousness is the transcendence of the artificial dichotomy between ideas and activity, and the transformation of the meanings which imbue the physical organization of alienated human action and interaction with mental abstractions into the concrete meanings of human praxis as objectification and affirmation.

Revolutionary Consciousness :

The Palestinian Affirmation

The ontology of poetry lies in the personal experience of the poet. The imagery of Palestinian poetry reflects the seemingly divergent experiences of the Palestinian in exile, the refugee camp or under military occupation. But underlying the apparent differences of these experiences is the common denominator of alienation. It is this common denominator that maintains the unity of Palestinian consciousness. And it was the overpowering

other man as powerful, alien, coercive objects of social life rather than subjects of social life.

For Marx, then, alienation is an objective phenomenon that exists in the structure of relationships in which man works out his life. Its origin does not lie in socio-psychological attitudes engendered by inadequate socialization. Nor is its origin in the disjuncture between cultural expectations and social integration. Nor, indeed, does it lie in the subjective contest between an individual's id and ego. In other words, for Marx alienation is not a variable trait of individuals that can be measured in terms of normlessness, powerlessness or beastiality. These are but individualized manifestations of man's desparation when he contemplates himself not in a world that he has created, but in one that has created him into a commodity — whether in the form of slave, serf or wage labourer — and where the nature of his social life exists not in social relationships but in commodity relationships.

Thus, alienation is not a variable but a categorical concept. However, there are levels of alienation that correspond to the level of development of man's productive powers within a given mode of production. In other words, in any system of production based upon alienated labour, the particular manifestation of man's actual estrangement in some combination of its four inter-realted aspects will vary directly with the level of development of the productive powers of that system. Alienation then is a progressive social manifestation of the increasing division of labour in a developing mode of production. However, it is under wage labour that alienation progresses from a partial manifestation to a universal attribute of the social structure.

people — dispersed, impoverished, and demoralized — overcome an alienation organized and sustained by a powerful international community? While the experience of alienation is real enough for the Palestinian people, its transcendence appears beyond the pale of Palestinian action. For the Palestinian poet who has rejected the mystified conceptions of alienation, the problem of the transcendence of alienation reflects a deep-seated contradiction between ideas and action that exist at all levels of a non-Palestinian search for a solution to the Palestinian problem.

The Ontolog yof Alienation: The Marxian Synthesis

The issue of alienation in its manifold aspects has occupied philosophy and literature throughout the centuries. I. Meszaros traced the origins of the concept from Judeo-Christian philosophy, which focused on man's alienation from God, to French Enlightenment literature which focused on man's alienation from man; and finally to Marx's synthesis of the various themes of alienation through the identification of their common denominator — alienated labour. (16)

In this synthesis, Marx identified four inter-related aspects of alienation: man's estrangement from nature, objectified in the relationship of man to the tools of his labour; man's estrangement from his fellow man, objectified in his relationship to the products of his labour; man's estrangement from himself, objectified in his relationship to his own labour-producing activity; man's estrangement from his species being, objectified in his relationships to the products of other men's labour. Various manifestations of alienation exist, in other words, when the tools of man's labour, the products of his labour, his labour itself, and ultimately his labour capacity stand in relation to him and to

---

(16) I. Meszaros, Marx's Theory of Alienation (London : The Merlin Press, 1970), pp. 27-92.

poet has refuted the promises of redemption inherent in religious analogy. In a poetry alienated from human praxis, the poet is left with no recourse but to lament the injustice of the situation. Mahmoud Darweesh looks at this issue directly, raising the question of the productivity of a poetry alienated from human praxis : (15)

And what then ?

We already heard

Your phosphoric voice

We heard-we heard —

Could words make a palace

Out of a hut ?

Your path is curvy

And your people —

Are shedding tears

For their glorious past

And your land —

Is like a carpet

At crossroads.

And you — a destitute

What then — what then ?

Your voice, over the north wind

Is beautiful — but we are bored

What is the praxis of a Palestinian in a refugee camp, in exile or under military occupation? How can the Palestinian

(15) «A Song for Men.» in Aruri and Ghareeb, p. 83.

Tomorrow if I find myself a giant genie
    in a brass jug

Which the waves kick sometimes

And which sometimes the waking fish try in
    vain to open,

Shall I lament the world that I lost ?

Shall I curse destiny that summarized and
    disfigured the genie?

Shall I smash the jug and set myself free?

Or shall I sit in it satisfied, as if I
    were in a palace?

Shall I cry out for help and pardon from Solomon

or shall I shout, «My God, send the fisherman»?

will not my God say, «Why do you want to be free?»

What shall I answer my God?

Like his rhetorical questions, his alternative responses reflect the deep-seated conflict with the issue or whether the poet has any role at all to play in the struggle for freedom :

Shall I tell Him, «I want to proclaim
    my message» ?

To whom do I want to proclaim my message,

While my concern was not to do but to speak

And not to speak but to mumble,

Why should I not mumble in my jug ?

It is the intangibility of poetry that troubles Sayigh and other poets. Having rejected the transcendental meanings of alienation and determined its concrete nature, the Palestinian

Here we shall stay with steel-cold nerves,
And red hell in our hearts.
We squeeze the rock to quench our thirst
And lull starvation with dust,
But we shall not depart.
Here we shall spill our dearest blood,
Here we have a past,
A present,
A future.
Stay we will, like a thousand prodigies,
In Lidda, in Ramlah, in the Galilee.
Strike deep in the earth
Our living roots.

Poetry and Praxis

The objective fact of Palestine's alienation, then, manifests itself kaleidoscopically in the consciousness of Palestinian poetry But the various meanings of alienation tend toward convergence and transcendence. The key points of transcendence lie not in an abstract consciousness searching for an intellectual ontology. The key points lie in the actual experience of alienation as the over-powering reality of Palestinian life.

Having identified the concrete nature of Palestinian alienation, however, the Palestinian poet si faced with the problem of the abstract nature of poetry itself. Tawfiq Sayigh raises the question : (14)

---

(14) In Boullata, p. 137.

tivity is the ontology of Palestinian alienation. In his poem, «My Father,» Mahmud Darweesh immortalizes the identity of the Palestinian in the land of his labour : (12)

> Averting his eyes from the moon;
>
> He knelt to scoop up the dust with both hands.
>
> Then he prayed for a sky that sent to rain,
>
> And asked me not to leave.
>
> The lightning kindled the valleys
>
> Where my father, since times immemorial,
>
> Reared the stones and created the trees.
>
> His skin sent down the dew;
>
> His hands put forth stone leaves.

This is the theme, then, not of the rootless wanderings of a people in search of identity. Rather, it is the theme of a people's consciousness rooted in the land of their historic development. Physically estranged from the land, the Palestinians are alienated from a history in the process of coming to be, and the imagery of homeland here reflects the continuity of past, present and future that the land itself symbolizes. This imagery of rootedness in the land is most prominent in Palestinian poetry written under Israeli occupation and is exemplified in Tawfic Zayad's poem : (13)

> We will guard even the shadow of our fig
> and olive trees,
>
> And ferment our cause as yeast does dough.

---

(12) In Al Messiri, p. 17.

(13) «The Impossible.» in Al Messiri, pp. 61-63.

the site, smell and touch of a physical context. Salem Jubran s poem, «The Exile,» reflects this emphasis upon the tangible aspects of alienation : (11)

> The sun seeps through barbed borders,
>
> Unheeded by the watchful squads,
>
> And
>
> A skylark sings its morning song in Tulkarim.
>
> As evening comes
>
> It sups and sleeps
>
> Peacefully
>
> With the birds of the kibbutzem.
>
> A lost donkey strolls
>
> Across the barbed borders;
>
> It grazes peacefully,
>
> Unheeded by the watchful squads,
>
> But as for me, your ousted son,
>
> My native land,
>
> Between my eyes and your skies
>
> Walls of the border stand.

The negation of rootlessness is rootedness. And this negation is manifest in the stubborn rootedness of Palestinian consciousness in the land of Palestine. The manifold images of the land and Palestinian identity with it are the concrete themes of a people creating and re-creating through their daily labour the world in which they live. Separation from the means of this crea-

(11) In Al Messiri. p. 77.

Worms have worn out your flesh and plunged like
nails in your bones.

And in your womb the embryo of patience grows old.

Rootlessness and Rootedness

The theme of the transient Palestinian is also a common one in Palestinian poetry. In this context, root-lessness is the symbolic manifestation of alienation. A human without a home, a people without a homeland; a past without a future, a present without a past: these are the manifold themes of a people disemboweled from the context of a developing history, as poignantly expressed in Rasheed Hussein's poem : (10)

Tent § 50, on the left, that is my present,

But it is too cramped to contain a future!

And — «Forget!» they say, bu thow can I :

Teach the night to forget to bring

Dreams showing me my village

And teach the wind to forget to carry to me

The aroma of apricots in my fields!

And teach the sky, too, to forget to rain.

Only then, I may forget my country.

Unlike the ethereal themes of religious analogies, in poetry of this genre the sensuous themes of a tangible world placed beyond Palestinian reach — but still within the range of Palestinian consciousness — form the matrix of poetic imagery. Alienation is a sensuous experience of forced separation from

---

(10 «Tent §50 (Song of a Refugee).» in Aruri and Ghareeb, p. 11.

worldly phenomenon. The transcendence of this theme in Palestinian poetry is reflected in the bitter irony of Fayiz Suyyagh's çuxtaposition of the transcendental and the real : (8)

> «O Lord of beneficence, Fountain of generosity
> Stretch out Thy palm with grace and with
> hyssop dress my wounds.
> Stretch out Thy p———»
> A hand stretched out suddenly from
> the unknown.
> In it I beheld a dagger!

And Abdel-Karim al-Sabaawi uses religious analogy to contrast the transcendental implications of redemption with the concrete processes of alienation : (9)

> Job fulfiled his Ipromises
> And fufilled his doom ;
> The worms fed on his hands and
> Drank his eyes.
> His corpse was thrown to the crows on the shore
> And to the gangs of birds.
> Virtuous Job.
> Never rebel; never despair; never be angry.

---

(8) «Deceit,» in Boullata, p. 153.

(9) In **A Lover from Palestine and Other Poems : An Anthology of Palestine Poetry,** ed. Abdul Wahab Al Messiri (Washington, D.C. : Free Palestine Press, 1970), p. 97.

Similarly, Fadwa Tuqan, in her poem, «In Front of the Closed Door,» uses the theme of alienation from God to explore the expectation of redemption that is the theological rationale of human suffering : (6)

> If You were here open the door for me
>
> Do not veil Your face from me
>
> See my orphanhood, my loss
>
> Amid the ruins of my collapsing world
>
> The grief of the Earth on my shoulders
>
> And the terrors of a tyrant destiny

Like al-Qassem, her powerful conclusion reflects the recognition that the passivity toward this world induced by the spiritual ontology seals the fate of Palestinian alienation rather than changing it : (7)

> In vain, there is no echo, no sound
>
> Come back. Nothing is here but desolation silence and the shadow of death.

The reality of Palestinian alienation belied the spiritual theme. Since 1948 alienation has been the phenomenological basis of the diverse experiences of the Palestinian peopl — whether in exile, the refugee camp or under military occupation. The attempt to mystify this experience — to give it a transcendental meaning — rendered its solution beyond the pale of human action, while the actuual process of alienation was a

---

(6) **In Modern Arab Poets, 1950 - 1975,** trans. and ed. Issa J. Boullata (Washington. D.C. : Three Continents Press, 1976), pp. 119-123.

(7) **Ibid.,** p. 124.

From the roots and spit my hate

My shame

Into the faces of the devout

The holy ones

I kick the garbage of my defeat and

My humility

Into the face of the dervishes —

The barking half men — the office holders

The sentimental longing for an idealized past is replaced by angry frustration. The search for the meaning of Palestinian alienation transcends the arbitrary boundary of paradise and hell in the recognition that the milieu of Palestinian life is an imposed hell. The resignation toward life induced by a spiritual explanation of alienation is identified by al-Qassem as part of the very process of alienation : (5)

I walk.

Straight as a ramrod

Head high

I walk.

An olive branch

And a dove

In my palm

And on my shoulders my coffin

And I walk.

---

(5) In Aruri and Ghareeb, p. xxxiv.

The Spiritual Ontology Refuted

Other themes are emergent in Palestinian poetry, however. At their core is the rejection of transcendental themes on a real phenomenon. Who is this god with his prophets of peace and love? Sameeh al-Qassem's verses reflect the bitter questioning : (4)

They taught me that

The affairs of earth

Are in the hands of heaven

They taught me that He gives life

Or death

Tho whomever He chooses

They taught me to obey the prophets

Without asking

Who are they ?

And what have they done for the wretched ?

His questioning leads to a rejection of the spiritual ontology and a condemnation of its spokesmen :

Defeated father — humbled mother

To hell with

My inheritance of tribal teachings,

My savage rites.

I cut the stupid customs

---

(4) «Anti-Aircraft Amulets.» in **Enemy of the Sun: Poetry of Palestinian Resistance,** comp. and trans. by Nasser Aruri and Edmund Ghareeb (Washington, Drum and Spear Press, 1970), p. 44.

As if a battle rages

Between me and death, in silence and sad subborness

I will never die

As long as there is light and oil in

The lantern of the refugees' darkness

Across the border cemetery,

Where worn out tents

Stand, in the winds, as signs

Pointing to the near road of return,

Stained with blood.

The candles of the eyes,

Your eyes

Sweep darkness away

O my starved brothers, scattered

Under the stars.

It was as if I dreamt of carpeting your path

With flowers and tears,

Of Jesus returning along with you to the Galilee

Without cross.

However, the transcendental miplication of religious imagery is the immutability of fate. The search for a spiritual ontology of Palestinian alienation has alienation from God as its underlying theme. Alienation from Palestine, then, is the symbolic representation of alienation from God. Suffering is ultimately the only path for redemption to a state of grace, and hence, the idea of return has a distinctly ethereal meaning. The theme of alienation in this context is rampant with religious analogy.

O Lost paradise! You were never
too small for us

But now vast countries are indeed
too small

Torn as under your people

Wandering under every star.

The religious symbolism of Palestine as a lost paradise carries the implication of the Palestinians as a people ejected from paradise. Fallen from grace, crucifixion as purification is also a common analogy in Palestinian poetry, as exemplified in Mahmud Darweesh'c poem: (2)

I am not the first to wear a crown of thorns

to bid the brunette beloved cry !

you whom I love as I love my faith

and whose name in my mouth, dipped
in dusty thirst,

has the taste of wine aged in jars.

A sense of transcendentalism permeates the poetry that reifies Palestine lost and symbolizes Palestinian suffering as a trial of purification. In the poetry of this genre, which is particularly prominent in poetry written in the decade following the 1948 disaster, the idea of return has a spirtiual ontology. The present is a passage through purgatory. And return is ultimately the redemption of a spiritual state. Abd al-Wahab al-Bayati, an Iraqi poet, exemplifies this theme : (3)

---

(2) **Ibid.,** p. 18.

(3) **Ibid.,** p. 19.

THE EMERGENCE OF REVOLUTIONARY CONSCIOUSNESS IN PALESTINIAN POETRY

by Jacqueline S. Ismael

The alientation of Palestine from the Palestinian people is an objective historical fact. But what does this «fact» mean to the Palestinian people? Much of the search for meaning has occurred in Palestinian poetry. As a medium of expression, poetry bridges the gap between the individual psyche and obective reality. It is the personal expression of an existential experience; in its deliberate search for meaning, poetry is an affirmation of human self-consciousness; and in its search for the meaning of the objective «fact» of Palestinian alienation, Palestinian poetry reflects the convergence of meaning in the essence of consciousness as human experience. This essay will explore several of the multidimensional themes on alienation in Palestinian poetry in terms of the progression towards a revolutionary consciousness.

Paradise Lost

The theme of Palestinian alienation may be considered first in terms of the objectification of Palestine as a «Paradise Lost.» This is a common theme in Palestinian poetry, and is exemplified in Mahmud al-Hut's lament: (1)

---

(1) Saleh J. Altoma, «The Treatment of the Palestinian Conflict in Modern Arabic Literature, 1917 - 1970,» **Middle East Forum,** Vol. XLVIII, No. 1 (Spring 1972), p. 13.

12- Dr. Abdullah Youniss Al Shebl : General Guardian of Imam Mohammed Ben Saood Islamic University / Al Riyad.

13- Mr. Sabah Ghazal Rahim Al Samarraée : Secretary Technical Editor.

14- Mr. Ismaéel Al-Bayati : Secretary Administrative Editor.



Consultative Board

THE
ARAB HISTORIAN

A BULLETIN OF HISTORICAL RESEARCH

VOL XIV

1980

EDITOR - IN - CHIEF
Prof. Dr. Hussein Amin

Issued By
THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD - IRAQ


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی